



الدون هكسلي

ترجمة : مارلين تادرس



المشروع القومي للترجمة

رواية



لغة
عدد
اصناف

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

بعد عدة أضياف

رواية
الدوس هكسلي

ترجمة
د. مارلين تادرس



اهداءات ١٩٩٩

المجلس الأعلى للثقافة

ج. ٥-١

هذه ترجمة لرواية ألدس هكسلي Aldous Huxley
«بعد عدة أصيف، After Many a Summer»
وقد طبعت من هذه الرواية أكثر من ثمانى طبعات، ما
بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وقد نشرت
أولاً عام ١٩٣٩ وتوالى الطبعات بعد ذلك، وكانت
طبعة ١٩٨٢، التى صدرت عن دار نشر
Granada Publishing Ltd. وهى الطبعة التى
اعتمدنا عليها فى ترجمتنا إلى العربية.

(جميع هوامش الرواية تمت بمعرفة المترجمة)

تصميم الغلاف: ميسون صقر
الإشراف التنفيذى: محمد عيد إبراهيم

مقدمة

ولد ألدوس هكسلى عام ١٨٩٤ فى مدينة ليلهام سارى بإنجلترا، وكان جده لأبيه هو توماس هنرى هكسلى الكاتب وعالم الطبيعة الشهير، بينما جده لأمه هو القس والكاتب الشهير أيضا توماس أرنولد، ومن ثم فقد ولد هكسلى وسط عائلة ذات ثقافة واسعة سعت لغرس الثقافة فيه وإخوته منذ الطفولة. وقد درس هكسلى فى جامعة إيتون، ولكنه تركها عام ١٩١١ لمشاكل تتعلق ببصره الضعيف، ثم عاد فأكمل تعليمه الجامعى فى جامعة بابلول بأكسفورد. وقد عمل هكسلى بعد تخرجه مباشرة فى جريدة شهيرة هى الأثينيوم *The Atheneum*، والتى كان يرأس تحريرها جون ميدلتون موراي، ولكنه قدم استقالته وبدأ سلسلة من الرحلات حول العالم بصحبة زوجته التى تزوجها عام ١٩١٩.

وقد كتب هكسلى أول رواية له وهى «الكرم الأصفر» عام ١٩٢١، ونالت نجاحا ساحقا، إذ كانت رواية ساخرة، تتحدث عن الشباب الأوروبى الضائع فى بدايات القرن العشرين الذى كان يشعر بالغضب وفقدان الهوية وعدم جدوى الحياة بعد الحرب العالمية الأولى. وقد توالى بعد ذلك رواياته الناجحة، والتى سارت على نفس هذه النغمة وبذات الأسلوب الساخر الذى ميّز كل كتابات هكسلى فيما بعد، حتى قرر أخيرا الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اتخذ هكسلى قرار الهجرة أولا بناء على نصيحة الأطباء الذين نصحوه بالذهاب إلى مكان مشمس، فاختار هكسلى ولاية كاليفورنيا لبدأ فيها حياته من جديد، ولكن كانت هناك عوامل أخرى جعلته يتخذ مثل تلك الخطوة، وهو الكاتب الشهير فى أوروبا، منها على سبيل المثال القلق الذى بدأ ينتاب الأوربيين من جراء صعود هتلر للمسلطة وطفغيانه وأحلامه التوسعية، وبدء الصراعات فى أوروبا ودخول فرانكو إلى برشلونة بعد الحرب

الأهلية هناك وتكوين الجبهة الشعبية التي كانت تسعى للسلم، ولكنها فشلت في تحقيقه.

وقد كتب هكسلي قبل سفره روايته «عالم جرىء جديد» (١٩٣٢)، التي أصبحت من أشهر الروايات على الإطلاق، والتي عبّر فيها عن بطش وطغيان الحكام عن طريق استخدام العلم لبرمجة البشرية جمعاء. ومما يذكر أن هناك ترجمة عربية لهذه الرواية نشرت عام ١٩٦٣^(*)، وقد ترجمها أستاذ اللغة العربية محمود محمود وأسماءها «عالم طريف جديد»، وهي تسمية خاطئة بلا شك، إذ لا تعبر عن فحوى الرواية.

وانتقل هكسلي لولاية كاليفورنيا عام ١٩٣٨ وكتب روايته «بعد عدة أصياف» في العام التالي مباشرة، حيث انتقل بسخريته من المجتمع الأوربي بشكل عام والإنجليزى بشكل خاص إلى السخرية من المجتمع الأمريكى بكل ما يحمل من معانى المادية والنجاح الرأسمالى وغياب الروحانية، مما أثار حفيظة الأمريكيين الذين كانوا قد استقبلوه بترحاب وحفاوة، فكتب نقاد كثيرون نقداً لاذعاً يهاجمون فيه ما أسموه إحساس هكسلي بالتفوق.

وقد توالى بعد ذلك الروايات والكتابات والمقالات، وبدأ هكسلي يفقد شيئاً فشيئاً الروح الساخرة اللاذعة، حيث استكمل مشوار بحثه الدائم عن طريقة مثلى للحياة تنتشل الإنسان من عمق دونيته وحيوانيته وترفعه إلى سمو الروحانية، ولم يكن ذلك عن طريق دين معين أو إيمان خاص، ولكنه على العكس تماماً كان يسعى لمثل هذا الطريق من خلال شيء ما، لم يكتشفه تماماً حتى وفاته، بعيداً عن الدين الرسمى.

وقد شهدت كتاباته هذا الصراع الداخلى والبحث المستمر، إذ كانت رواياته الأولى تسخر من الدين الرسمى وأخذت تتطور لتصبح أكثر جدية، وتفقد شيئاً فشيئاً

(*) ترجمت أيضاً لهكسلي رواية «نقطة مقابل نقطة» فى عام ١٩٨٦ وصدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بترجمة للدكتور نظمى لوقا، ومراجعة على أدهم .

الروح الساخرة. وفي رواية وبعد عدة أصياف، نرى جزءاً من هذا التطور، إذ بدأ هكسلى فى هذه الرواية وضع الخطوط العريضة لهذا الطريق عبر الشخصية الوحيدة فى الرواية، والتي لم يسخر منها هكسلى، وهى شخصية برويتزر. وحتى مع وجود هذه الشخصية، فإن هكسلى لم يصل عن طريقها إلى الحل الأمثل لمعضلة الحياة، فوجد أن برويتزر نفسه يعاني من هذا الجدل مع نفسه ومع الآخرين فى محاولة لإيجاد الطريق الأمثل، بل ووجد أن الطريقة التي اختار أن يعيش بها برويتزر حياته لا تحل شيئاً فى الواقع، ولكنها محاولة للتناقص مع آرائه التي لا يمكن تطبيقها بشكل عملي وحقيقي ومنتهج. بل أيضاً، نجد أن هذه الشخصية هى أسوأ شخوصه على الإطلاق من حيث البناء والعمق والحيوية، لأنها لا تعدو إلا أن تكون المنظر الجوهري للنظرية هكسلى فى الحياة، مما جعل كل أحاديث برويتزر تأتي رتيبة ومملة وغير واقعية.

على كل، فقد اتجه هكسلى فى حياته بعد ذلك إلى التجربة البوذية والتأمل، وفى عام ١٩٤٣، مع بداية اكتشاف العقارين المخدّرين «الإل إس دى» و«المسكالين»، تطوع هكسلى كفأر تجارب للعلماء حول هذا المخدر الجديد، وقد قام بكتابة بعض مقالاته وتظليلاته الأخيرة تحت تأثير هذا المخدر، على سبيل المثال كتب «أبواب المعرفة والجحيم والنعيم»، وكذلك «شياطين لودون». وكان هكسلى آنذاك يؤمن أنه لا بد من إيجاد عقار أو شيء ما يُغيّب الإنسان عن عقله فى أوقات الحزن والضعف والألم، ولكن ليس الخمر ولا المخدرات المطروحة آنذاك لأنها ضارة بالصحة، وهى ثيمة استخدمها كثيراً فى رواياته، وكان ذلك هو سبب تطوعه لتجربة تلك العقارات.

وقد اعتبر الكتاب أن اتجاه هكسلى للبوذية انتحاراً أدبياً، إذ أثر ذلك الاتجاه بشكل سلبي على كتاباته الساخرة، فطغت الروح الفلسفية اللاهوتية الميتافيزيقية على كتاباته المتأخرة، مما أدى لانصراف النقاد والقراء عنه. وفي عام ١٩٥٩ حصل هكسلى على جائزة الإبداع من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، والتي تمنح للكتاب المتميزين كل خمس سنوات.

وقد توفي هكسلى عام ١٩٦٣ بعد أن فقد النقاد اهتمامهم به، وبعد أن بدأت طبعات كتبه تزول من الأسواق دون إعادة طباعتها ثانية. ولكن يجدر هنا أن نذكر أن الاهتمام بهكسلى، خاصة في الدوائر الأكاديمية، أخذ يتزايد مرة أخرى في الأعوام الأخيرة، وعاد هكسلى يثير نفس الجدل الذي كان قد أثاره من قبل. ولا شك أن هكسلى يبقى من أهم الكتاب البريطانيين الساخرين في القرن العشرين على الإطلاق.

خصائص الأسلوب الساخر

من أهم ما يميز هكسلى في كتاباته هو أسلوبه الساخر، والذي يعتبر أسلوباً جديداً ومختلفاً من نواح كثيرة عن سبقوه في الكتابة الساخرة. ولعل من المفيد هنا قبل البدء في مناقشة رواية «بعد عدة أصياف» أن نتحدث قليلاً عن خصائص الأسلوب الساخر، للرى مدى اقتراب هكسلى أو بعده، عن هذا التقليد الممتع في الكتابة.

لقد اختلف النقاد حول ما إذا كان الأسلوب الساخر هو نوع مستقل بحد ذاته من الأدب، أم أنه مجرد تكتيك للكتابة يستخدمه الكاتب في أشكال مختلفة، سواء كان شعراً أو رواية أو مسرحاً. في التقييم النهائي يمكن القول إن هناك بعض الكتاب قد يستخدمون الأسلوب الساخر كتقنية داخل عمل فنى ما، دون أن يصبح هذا العمل

كتابة ساخرة بشكل عام. أما من يستخدم هذا التكنيك بشكل طاع على عمل فنى ماء، فإنه يعتبر أسلوباً مستقلاً بحد ذاته له خصائصه التى تميزه عن غيره من الأعمال الفنية.

وقد اختلف النقاد أيضاً حول الأزمنة التى يزدهر فيها مثل ذلك الأسلوب، وما إذا كانت تلك الأزمنة هى المستقرة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً أم أنها على العكس من ذلك، الأزمنة غير المستقرة فى كل أو أحد هذه النواحي. يقول الناقد والكاتب إدجار جونسون^(١) إن الأسلوب الساخر ينتشر فى الأزمنة غير المستقرة، إذ أنه فى أوقات الاستقرار يرتاح المرء لما هو عليه ولا يفكر جدياً فى التغيير، فيأخذ الأمور كمسلّمات، بينما فى الأزمنة غير المستقرة يضطر الإنسان للتفكير وإعادة التفكير والتقييم، بل والنظر للأمور بعين ناقدة، مما يثير فيه الروح الساخرة. لذلك يؤكد جونسون أن أية تغيرات فى المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات السائدة يؤدى بالضرورة إلى الروح النقدية، ومن هنا فهو يرى أن فترات التغيرات التاريخية العظمى هى التى يزدهر فيها مثل ذلك الأسلوب فى الكتابة.

أما ج. أ. كادون^(٢)، وهو مؤلف أحد أشهر القواميس الأدبية، فيزعم عكس ذلك، إذ يقول إن بداية القرن العشرين شهدت ندرة فى الكتابة بهذا الأسلوب لسببين رئيسيين، هما أن ذلك الوقت شهد فترات اضطراب وتغيرات سياسية واجتماعية عنيفة، وكذلك لأن الأسلوب الساخر فى الكتابة تطور ليحل محله الرسم الكاريكاتورى، ومن ثم أصبح غير مرغوب فيه.

ويبدو القصور واضحاً فى الرأيين، إذ أن التاريخ الأدبى الإنجليزى والأمريكى

1- Edgar Johnson, A Treasury of Satire. London: Simon and Schuster, 1945.

2- J.A. Cuddon, A Dictionary of Literary Terms. London: 1979. See under the entry 'satire.'

يشير إلى أن الأسلوب الساخر قد ازدهر في الأزمنة المستقرة وغير المستقرة على حد سواء، ولكن يمكن ضم الرأيين بالقول بأن هذا الأسلوب قد انتشر في فترات الاستقرار الثقافي وليس السياسي، لأن فترات الحروب وفترات عدم الاستقرار السياسي تؤديان إلى إضعاف وأحياناً قتل الروح الساخرة.

ومن الأمور الغريبة على عكس ما يظن الكثيرون، فإن الكاتب الذي يستخدم الأسلوب الساخر يقدس الماضي ويتوق للعودة لتلك الأزمنة المثالية المفقودة والأعاجيب الضائعة، فهو في الواقع ضد التغييرات الجذرية ولا يمكن أن يستخدم ذلك الأسلوب من يريد مثلاً إصلاح أحوال العالم. فالكاتب الساخر في العادة يسخر من العالم الحديث الذي فقد المعنى واللذة الحقيقية ويسعى لإعادة الماضي المجيد.

والكاتب الساخر في العادة يرى أكثر من الآخرين، قصور المؤسسات الاجتماعية والأفراد بشكل عام، إذ أن له عيناً ثاقبة فاحصة ترى بشكل أعمق من غيره من الكتاب بشكل عام، وقد يصل به الأمر إلى الإحساس بالتفوق، مما قد يضعف تأثير كتاباته ويؤثر سلباً عليها، إذا شعر القراء بالإهانة أو وصلهم ذلك الإحساس بالتفوق.

ويمكن للكاتب الساخر أن يتطرق لموضوعات شتى، إلا أنه بشكل عام توجد بعض المحرمات، إذ لا شك أن هناك موضوعات من غير اللائق أدبياً وأخلاقياً السخرية منها، وإلا تسببت في انصراف القراء عن الكاتب ولم تؤد الغرض الأساسي منها وهي مساعدة القارئ في الرؤية الأعمق للأشياء. لذلك فإن الموضوعات شديدة الحساسية ينبغي على الكاتب أن يقترب منها، إن اقترب، بحذر وحرص شديدين. فلا يمكن، مثلاً، السخرية من مشاعر الآخرين العميقة الحقيقية، أو من موت أحد، أو من معاناة البشر، كذلك لا يمكن السخرية من الدين في حد ذاته -

وإن كان ذلك قد بدأ يتغير في الآونة الأخيرة في الغرب بشكل عام - مهما سخر الكاتب من أتباع هذا الدين أو ذاك. بل إن من أنجح الشخصيات التي تثير السخرية والتهكم وأحيانا الضحك هم القساوسة لأنهم بحكم عملهم يسهل معرفة التناقض بين ما ينبغي أن يفعلوه وبين ما يفعلونه بالفعل. ولا يتطرق الأسلوب الساخر للجرائم الكبرى مثل القتل والاغتصاب ولا يسخر من التشوهات الخلقية أو المتخلفين عقليا أو الأشياء والخصائص التي ليست في إطار تحكم البشر.

فما عدا ذلك، فإن الكاتب الساخر يمكن أن يتناول أية موضوعات تحلو له للسخرية منها، بما فيها الجنس - أو لنقل بشكل خاص الجنس - والنفاق، وادعاء الفضيلة، ويمكن أن يسخر كذلك من التقاليد والأعراف والعادات. بل إن السخرية من شخص يدعى الفضيلة أقوى بكثير وأشد أثرا من السخرية من شخص شرير، إذ أن الشخص الشرير مثل هتلر على سبيل المثال، لا يحاول إخفاء شره، أما المذائق فإنه يحاول إظهار غير حقيقته ويخاف افتضاح أمره، ولذلك فالسخرية منه وفضحه طريقة مجدية وممتعة في آن.

ومن خصائص الأسلوب الساخر أيضا أنه يبرز لنا بوضوح التضاد بين الشيء كما هو، والشيء كما ينبغي أن يكون، فهو دائما يحاول تحطيم المسلمات والآراء الثابتة المسبقة من خلال توضيح حقائق أخرى للقارئ، وكشف قناع الرياء والنفاق. فإن الكاتب الساخر، كما يقول الناقد بولارد⁽³⁾، كمن يصرخ «انظروا، هذا ليس كما يبدو لكم!

وتوجد طريقتان للكتابة بالأسلوب الساخر، وهما الأسلوب المباشر والأسلوب غير

3- Arthur Pollard, *Satire. The Critical Idiom Series*. London: Methuen and Company, 1970.

المباشر، وقد يستخدم كاتب ما الأسلوبين معا في أحد أعماله الفنية أو قد يستخدم أيا منهما على حدة. ويعتبر الأسلوب الساخر المباشر هو أول أنواع الكتابة الساخرة على الإطلاق، حيث كانت تتبارى أحيانا بعض الأفراد أو القبائل أو القرى، بل وأحيانا الشعوب، في هجو بعضها البعض بأشعار لا موارية فيها، وهو نوع اشتهر أيضا بين القبائل العربية، وربما أشهرهم الفرزدق وجريز. ويستخدم في هذا النوع من الهجاء بعض الكلمات الجارحة المباشرة، أو التلميحات الواضحة المهينة، فالهدف منها في العادة التصفية النفسية للخصم، بسبب عداوات مباشرة وشخصية. وتستخدم أيضا في هذا النوع من الكتابة لغة بلاغية عالية بحيث يتبارى كل طرف بتفوقه على الآخر. ومن أبرز من استخدم هذا الأسلوب على الإطلاق في الأدب الغربي جوفال في القرن السابع قبل الميلاد. ولا بد لمثل ذلك الكاتب أن يتمتع بسرعة بديهية، وخفة دم وفطنة، وأن يكون ذا روح دعابة عالية، بحيث لا تكون سخريته لاذعة فقط، بل يكون تأثيرها محطما للخصم قدر الإمكان فيصيب الضحية في مقتل.

ومن الطبيعي أنه كلما استخدم الكاتب سرعة البديهة (wit) كلما كانت سخريته أنجح وذات فعالية أكبر. أما التهكم المباشر (sarcasm) فهو أخط الأنواع على الإطلاق وأضعفها أثرا. ومن بين الاستخدامات أيضا يوجد ما يسمى بالاستخفاف بالدنيا (cynicism) وهو قبول أوضاع الدنيا على ما هي عليه ولكن السخرية منها مع ذلك، مع الإشارة إلى أنها لا يمكن أن تزداد سوءا. ويمكن أيضا استخدام ما يعرف باسم التهكم المرير (sardonic) الذي ينتج عن الإحساس بالإحباط العام، وهو نوع من السخرية متشائمة للغاية لا تثير الابتسام. إذن فالأسلوب الساخر لا يثير بالضرورة الابتسام أو الضحك، ويتفاوت ما بين الضحك المباشر والتهكم المرير.

ومن أنواع السخرية المباشرة ما يسمى فى الأدب بالتقليد الهزلى لموضوع أو شخص جاد (burlesque). ومن ألطف أنواع هذا الأسلوب أيضا ما يعرف باسم الـ parody وهو محاكاة مؤلف للتهكم منه، ويعتمد هذا الأخير على استخدام الكلمات، فهو يحاكي المؤلف الذى يسخر منه باستخدام ذات الكلمات العظيمة ليطبّقها على مواقف تافهة وسطحية، ولكنها مشابهة للمؤلف الذى يسخر منه.

أما النوع الثانى من الأسلوب الساخر فهو الأسلوب غير المباشر أو المستتر، وهو فى العادة وباختصار أسلوب التلميح والرمز. ويستخدم هذا الأسلوب لسببين، إما لأسباب سياسية، حيث يخشى الكاتب بطش الحكام مثلا أو شخصا ما قد يضطّده بسبب كتاباته هذه، أو بسبب حساسية الموضوع الذى يتناوله الكاتب ولا يريد إثارة قرائه ضده أو انصرافهم عنه بسبب انتهاكه لمبادئ أخلاقية معينة أو شيء ما متعارف عليه اجتماعيا. ومن مزايا هذا الأسلوب غير المباشر أنه يفاجئ القارئ ويأخذه على حين غرة، على عكس الأسلوب المباشر الذى يضع القارئ فى حالة استعداد وحذر. إن الأسلوب غير المباشر يدعى البراءة، وحسن النية، بالرغم من أنه يهدف بالأساس إلى إصابة ضحيته بالضربة القاضية. والكاتب الذى يستخدم هذا الأسلوب فى العادة يتخفى وراء الراوى المحايد بل وأحيانا يظهر أنه يساند القارئ فى آرائه، ثم بشكل مباغت يجد القارئ نفسه وقد سقط فى الفخ وتحطم تماما.

من أنواع هذا الأسلوب ما يُسمّى بالرواية المجازية الرمزية (allegory) وقصص الحيوانات وقصص المدن الفاضلة. والكتابة المجازية هى فن التعبير عن علاقات بين الأشياء فى العادة يصعب ملاحظتها، ومن أمثلة ذلك قصائد درايدن مثل «أبسالوم وأشيتوفيل» (١٦٨١) و«ماكفلكنو» (١٦٨٤). أما قصص الحيوانات فربما أشهرها على الإطلاق «مزرعة الحيوانات» (١٩٥٤) لجورج أورويل، والتي

يرمز بها إلى الطغيان السياسى لبعض الأنظمة السياسية. بل إن «كليلة ودمنة» تعتبر من أشهر هذا النوع من القصص.

أما المدن الفاضلة (utopia) تعتبر من أبرز أنواع هذا الأسلوب، وهى بالأساس إما رؤية مُبتغاة أو تحذير تنبؤى، وتنتج عن القلق من الحاضر ومن التغيرات الكبيرة، والرغبة فى مستقبل أكثر إشراقاً واستقراراً. وربما من أشهر هذه الأنواع «جمهورية» أفلاطون (٣٧٠-٣٨٠ ق.م.) وكذلك «المدينة الفاضلة» (١٥١٦) لتوماس مور. وقد ظهر تقليد جديد فى أواخر القرن التاسع عشر، وبالتحديد عام ١٨٩٠ وهو ما عرف باسم الرؤية التحذيرية أو ما يسمى بالديستوبيا (dystopia)، وهو عبارة عن مدينة مستقبلية أيضاً، ولكنها على العكس ليست فاضلة، بل تنبئ بمستقبل قائم فى العادة، نتيجة لسوء استخدام الوسائل العلمية الحديثة. ومن أشهر تلك الروايات رواية هكسلى «عالم جريء جديد» ورواية جورج أورويل «١٩٨٤»، (١٩٣٠).

وفى العادة، فإن الأسلوب غير المباشر يستخدم آليات مختلفة بعض الشيء عن الأسلوب المباشر، إذ بالإضافة للتهكم والسخرية يستخدم ما يعرف بالirony وهو أيضاً نوع من السخرية المتعالية، وكذلك وبشكل خاص فى المدن الفاضلة يستخدم الكاتب، فى مواقف متعاقبة، سخرية الأقدار أو ما يعرف باسم irony of fate.

وتتميز الرواية الساخرة بشكل عام، بشقيها المباشر وغير المباشر، عن مثيلاتها من الروايات الأخرى، فى أنها تفتقر فى العادة للعناصر المتعارف عليها والمكونة للرواية العادية، فلا نجد مثلاً الحكمة الدرامية ولا تطور الشخص فى الرواية، وبخاصة تطورها نحو معرفة الذات. الحكمة فى الرواية الساخرة فى العادة غير

سكنملة ومتقطعة ومشتتة أيضا، ولا يوجد لها بالضرورة نهاية أو خاتمة على الإطلاق، ولا يوجد بها ذروة أو لحظة حاسمة. فالهدف من الرواية ليس حكي قصة، ولكن الهدف منها بالأساس وضع بعض الشخصوس النى يريد الكاتب السخرية منها، فى مواقف متعاقبة، وتركها تنصرف بثلقاتية. لذلك أيضا فتطور الشخصوس غير وارد، إذ فى العادة يستخدم الكاتب أنماطاً وليس شخوصاً، وبالتالى فالنمط لابد أن يبقى كما هو دون تطور وإلا ضاع النمط والهدف من ورائه. ثم إن تطور الشخصوس يتطلب نوعاً من العمق فى الشخصية، وهو ما يفتقر إليه فى العادة الأسلوب الساخر، إذ كلما نم تسطيع الشخصية كلما استطاع الكاتب أن يسخر منها أكثر ويشكل أفضل، ولذلك نجد الشخصوس أو الأنماط فى الرواية نفتقر للعمق أو للوصف الدقيق. العمق يعنى معاناة، والمعاناة بالضرورة تعنى النعلم والتطور فى الشخصية، كما أنها تضعف السخرية. وفى العادة أيضا تكون الشخصوس أقرب للأسلوب الكاريكاتورى فى الرسم، ولذلك تسمى الشخصوبات الكاريكاتورية، التى يركز فيها الكاتب أو الرسام على عيوب معينة فى الشخصية ويبرزها بشكل صارخ يثير الضحك أو الشفقة. لذلك يعتمد الأسلوب الساخر أيضا بالأساس على المبالغة، كما يعتمد الكاريكاتور تماما.

رواية «بعد عدة أصياف»

تعتبر رواية «بعد عدة أصياف» هى الرواية السابعة لهكسلى، باستثناء ما تخلل الروايات من مقالات فلسفية عديدة، وقد كتبها، كما سبقت الإشارة إليه فى هذه المقدمة، عندما انتقل للمعيشة فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. والعنوان، كما هو واضح من القصيدة فى مقدمة الرواية، مأخوذ عن قصيدة للشاعر ألفريد

تتيسون بعنوان «تايثوناس»، وهى بالتالى تعطى فكرة عن مضمون الرواية لمن يعرف القصيدة مسبقاً. تحكى القصيدة عن هذا التايثوناس الذى منحته الآلهة الحياة الأبدية ولكنها نسيت أن تمنحه الشباب الدائم، ومن ثمة ظل يرجو الآلهة أن تنتهى حياته. وقد بنى هكسلى روايته على تلك الثيمة، وهى بالأساس فكرة إطالة الحياة وجدواها، ولكن بينما يعبر تتيسون فى قصيدته عن حزنه بسبب ضياع الحياة، يسخر هكسلى من هذه الفكرة فى روايته، إذ يرى الحياة كما يحياها البشر اليوم ما هى إلا مجرد إطالة للشر وإمكانية الشر، إذ يرى هكسلى مستويين للحياة، وهما: المستوى تحت البشرى والمستوى فوق البشرى، وكلاهما لا بد أن يسعى لهما الإنسان، بينما إذا بقى كما هو فى المستوى البشرى زادت شوره، لأن المستوى البشرى فيه عنصران مؤثران ومثيران للشر، هما الوقت والرغبة.

ولا يتوقف هكسلى عند اسم الرواية ليبرز أنها ملحمة من القصص الخرافى، بل يتخطى ذلك للرواية المجازية، بحيث يعطى كلاً من شخوصه أسماء ذات دلالات يصعب فهمها على القارئ العادى، إذ أنه بحاجة لمعرفة كبيرة وواسعة بالتاريخ والأسماء والأدب واللغات لفهم المعنى وراء كل اسم. فمثلاً، نجد أن جيريمى بورديج، العالم فى الآداب، مأخوذ عن جيريمى بنتام، مؤسس الفلسفة النفعية، وهذه الشخصية تمثل بشكل واضح الآداب والفنون. ونجد كذلك سيجموند أوبيسبو، الطبيب الذى يبحث عن وسيلة لإطالة الحياة، وهو اسم مركب مأخوذ عن سيجموند فرويد فى شقه الأول، وفى شقه الثانى فإن أوبيسبو تعنى باللغة الأسبانية المطران، وهى هنا توضح نوعاً من الفصام الشخصى داخل أوبيسبو بين العلم والدين. ولكن أوبيسبو كذلك وبشكل أساسى يمثل نقىض جيريمى، إذ بينما يمثل الثانى التفكير الأدبى الخيالى، يمثل الأول التفكير العلمى العملى. أما فيرجينيا، وهى عشيقة

المليونير الأمريكي ستويت، فاسمها يشكل سخرية من «فيرجين»، أو عذراء، إذ أن اسمها هكذا متناقض مع تصرفاتها كعشيقة، بل ويوضح الفصام الداخلي أيضا عندها ما بين اسمها وتصرفاتها من ناحية، وكونها عشيقة أو محظية، وكاثوليكية ممارسة لديانتها من ناحية أخرى. أما برويتر، وهو الشخصية التي تمثل بالأساس لسان حال هكسلي، فيعنى اسمه باللاتينية «لأن، أو «بسبب»، ويشير هكسلي بذلك إلى الشخصية الحكيمة التي تفسر كل الأشياء.

وقد أخذ هكسلي شخوص روايته عن أصدقاء له، تعرف عليهم في بداية وجوده في الولايات المتحدة، إذ أن الشخصية الرئيسية في الرواية وهي شخصية جو ستويت المليونير المضيف، الخائف من الموت، والذي يبحث عن وسيلة لإطالة حياته، كانت مبنية على ويليام راندولف هيرست، الملياردير الأمريكي الذي عرف عنه هذا الخوف أيضا، بل وهناك تشابه ما بين تصوير قصر ستويت وقصر هيرست، وبخاصة اللوحات الفنية في المصعد. أما عشيقته الشابة ماريون دافيس فقد صورها هكسلي في روايته كفيرجينيا. والدكتور أوبيسبو مأخوذ عن طبيب اشتهر بكونه طبيب المشاهير في هوليوود في ذلك الوقت، بينما شخصية الدكتور مالدج، رئيس جامعة طارزانا، مأخوذة عن أستاذين في جامعات كاليفورنيا كان هكسلي قد تعرف عليهما أثناء إقامته هناك. وقد أثارت هذه الرواية حفيظة وغضب الكثيرين وبخاصة هيرست الذي كان قد استضاف هكسلي في بيته.

لكن الشخوص بالنسبة لهكسلي ليست مجرد شخصيات روائية، بل تمثل أنماطاً واتجاهات واضحة، فالحوار مثلا ما بين جيريمي وأوبيسبو هو حوار بالأساس ما بين الأدب والعلم، أو الحوار ما بين ستويت الرأسمالي المليونير و برويتر الفيلسوف، حوار بين أنماط تمثل تلك الاتجاهات. بل نجد أن اكتشاف جيريمي وأوبيسبو معا، عن

طريق خطابات ومذكرات الإيرل الخامس لوسيلة إطالة الحياة، هو بالأساس دليل على تعاون الأدب والعلم معا في الكشف عن أسرار عظيمة للحياة، ولكن لأن الاثنين عاجزان أصلا عن المشاعر والصلاح، فإن الاكتشاف يصبح بينهما شيئا يشبه الكارثة.

ويعتمد أسلوب هكسلي الروائي الساخر على ما يعرف باسم الحفلة المنزلية، وهو أسلوب أخذ من سابقه من الكتاب الساخرين. وقد أخذ هذا الاسم عن أول مسرحية كتبت بهذه الطريقة وهي للكاتب المسرحي بيكويك، ويعتمد هذا الأسلوب على وضع مجموعة من الشخصيات في مكان واحد، قد يكون حفلة أو رحلة في مكان ما، ولوقت محدد من الزمن، وتبدأ الرواية من خلال تفاعلات هذه الشخوص معا في هذا الحيز الضيق من المكان والزمان، بحيث تذهب كل شخصية إلى طريقها بعد انتهاء هذه الحفلة أو هذا التجمع. وقد بدأ هكسلي رواياته الثلاث الأولى بهذا النوع من الكتابة ثم تركها فترة، وعاد بهذه الرواية إلى نفس الطريقة، فقد وضع شخوصه كلها في بيت المضيف المليونير جو ستويت، وأحداث الرواية تحدث من خلال تفاعلات هذه الشخصيات معا.

تعيش كل شخوص الرواية في عالم مجنون، أو ما يسميه هكسلي في روايته نفسها، داخل رأس مجنون، إشارة إلى قصر ستويت الكبير الذي يحوى مقتنيات كثيرة ومتنوعة وغير متناسقة مع بعضها البعض، وحتى جيريمي العالم البريطاني الذي أتى ليفحص بعض الأوراق القديمة التي اقتناها ستويت عن طريق سمسار له في إنجلترا، وهي أوراق من مخلفات عصور الازدهار الملكي البريطاني، فإنه أيضا يدخل في دوامة هذا العالم المجنون المتناقض غير المتسق، ويشعر مع مرور الوقت أن هذا العالم أيضا قد أصبح بيته هو رغم أنه من عالم آخر تماما، إلا أنه يعيش

نفس هذا الجنون بطريقته الخاصة، ويشكل أكثر طبقية. ولا يوجد أى انزان فى هذا العالم سوى لوحة الرسام العالمى فيرمير المعلقة داخل مصعد القصر، فهو العالم الوحيد المتناسق والدقيق كالمعادلات الهندسية، وسط كل هذه الفوضى والجنون. الوحيد الذى لا يعيش داخل هذا الجنون، هو بروتير العجوز، الذى كان زميل ستويت فى دراستهما معا فى المدرسة، فهو يعيش خارج هذا القصر وعلى هامشه، أو بالأحرى فإن ستويت هو الذى بنى قصره فوق الجبل ليكون بالقرب من مزرعة بروتير، ومع ذلك يعيش بروتير من نتاج هذه الفوضى، إذ يحاول تخفيف أعباء عمال التراحيل وتهينة سبل معيشة أفضل لهم، بعد أن تسبب فيها ستويت.

وبالتوازي مع هذا العالم الأمريكى المجنون، يوجد العالم الإنجليزى المجنون أيضا، من خلال أوراق الهوبيرك التى كتبها إيرل جونستون الخامس، ويسير هذا العالم الماضى أيضا بشكل منتظم مع سير الرواية. فرواية الإيرل كما كتبها فى مذكراته التى يقرأها علينا جيريمى وأوبيسبو، هى المعادل الإنجليزى للحياة الأمريكية التى يعيشها ستويت ذاته، وهى التعليق الفلسفى عليها. ستويت، والإيرل متشابهان فى أنهما من الأغنياء، وأن كليهما يشعر بالوحدة القاتلة، ثم أنهما يبحثان عن وسيلة لإطالة الحياة بأى ثمن. وقصة الإيرل فى حد ذاتها لها دلالتها الخاصة، إذ بينما اتهم النقاد هكسلى بأنه متجن على الثقافة والحياة الأمريكية، يثبت هكسلى، بتصويره لشخصية الإيرل، أنه لا يرى فرقا كبيرا ما بين أغنياء إنجلترا وأغنياء أمريكا، وأن كلنا الثقافتين ماديّتان، لا فرق بينهما سوى بشكل طبقى. أما الوحدة والرغبة فى إطالة الحياة، والعزلة، فهى كلها سمات مشتركة. ربما الفارق بينهما، فارق طبقى بالأساس، لأن الإيرل كان يستطيع بثقافته الواسعة وقراءاته الدائمة، أن يفلسف الأمور، وينظر للحياة بشكل أكثر عمقا من ستويت. ولذلك فإن وظيفة وجود

قصة الإيرل هي بالأساس التعليق الفلسفى على مجرى الرواية.

وبينما يوجد عالمان مختلفان متوازيان، هما عالم الماضى وعالم الحاضر، يوجد شخصان أيضا يشكلان النقيضين المباشرين مثل الخير والشر على طرفى الخط، يحاول كل منهما جذب شخوص الرواية ناحيته وناحية أفكاره، وهما برويتر من ناحية، وأويسبو من ناحية أخرى. لذلك، فلا يوجد حوار، ولو فى مشهد واحد، يجمع ما بين برويتر وأويسبو، إذ أن كلا منهما يعرف أنه ليس لديه ما يقوله للآخر: فالأول يعرف فلسفته التى بناها على محاولة مساعدة الآخرين بشتى الطرق وإخراجهم من ذواتهم الضيقة للروحانية فوق البشرية، بينما يعرف الثانى فلسفته التى هى بالأساس الاستفادة بأكبر قدر من الأشياء الممكنة من كل ما حوله، بدءا بمخدومه ستويت، مروراً بفيرجينيا التى يغربها، وانتهاء ببيت، مساعده البرىء ذى النوايا الحسنة والأفكار الخاطئة. كلاهما متشابهان فى أنهما يعرفان تماماً ما يريدان، ولكنهما مختلفان فى كل شيء آخر. ويحاول كل من الطرفين جذب الآخرين فى اتجاهه، وفى الواقع تأتى النهاية بما لا تشتهى السفن، إذ يثبت الواقع المشلوم أن أويسبو هو المنتصر، وذلك ربما لقصور فى شخصية برويتر غير الجذابة، روائياً وتقنياً وعملياً. ففيرجينيا مثلاً تنجذب لأويسبو بينما تفكر فى برويتر فقط على أنه «بروى العجوز»، وستويت يظل أسير أويسبو مادام الأمل فى أبحاثه مستمراً ومادام خوفه من الموت لن ينتهى، وحتى بيت، الذى يستمع لبرويتر مرات عديدة وكاد يؤثر فيه، يسقط صريعاً عندما يقتله ستويت خطأ بدلاً من أويسبو. أما من الناحية الروائية، فإن شخصية أويسبو أيضاً هى الشخصية الأكثر نجاحاً، والتى استطاع هكسلى رسمها بشكل مشوق أكثر، وربما السبب فى ذلك أنه كما يقول المثل الإنجليزى، يصعب الانجذاب للقديسين والملائكة، بينما الشر والشيطان فى العادة

أكثر جاذبية. لذلك، فقد شكل برونر لهكسلى معضلة تقنية، إلا أنه يبقى شخصية ممتلئة، فاقدة للجاذبية، بل، وكما قال عنه أحد النقاد وهو توماس ميرتون⁽⁴⁾ «أسام شخصية فى تاريخ الرواية الإنجليزية على الإطلاق»

من بين خصائص أدب هكسلى الساخر تصويره لشخص أحادية الاتجاهات، فإن أوبيسبو يؤمن بشكل مطلق بالعلم ولا يحب الأدب، وكذلك جيريمى، بل وحتى برونر، وكان هكسلى دائما يسخر من شخصه أحادية الاتجاه، إلا أنه اختلف فى هذه الرواية فى أنه لم يسخر من برونر بالرغم من أنه كذلك أحادى الاتجاه . ويرى أوبيسبو مثلا أن الأدب هو نتاج الطب السىء، فلولا المرض ما كتب هؤلاء العظماء قصائدهم. بينما يرى جيريمى أن الأدب هو الوسيلة للحياة، ويعيش حياته وسط كتبه فقط، ولا يستطيع أن يفهم شيئا إلا لو تحول إلى كتاب فى يده، بل إنه يفضل «غزو» كتبه على مغازلة فيرجينيا مثلا، ولأن حياته هكذا غير سوية فهو أيضا لا يعرف الجنس سوى مع عاهرات كل جمعة من آخر الشهر، وهو يعانى كذلك من عقدة أوديب وسيطرة أمه عليه. ويرى بيت مثلا أن السياسة هى الأساس فى العالم، وأن الولاء السياسى لأيدولوجية سياسية معينة هو الهدف والحياة. أما ستويت فإنه يرى بالطبع أن المادة والمقتنيات والبيزنيس لها أسمى الأهداف فى الحياة وما عداها هراء فارغ ومضنية للوقت، بينما يرى شخصية ثانوية مثل الدكتور مالدج مثلا أن الثقافة والفنون وكنيته الهدف والأمل، وهكذا.

ويعتمد أسلوب هكسلى الساخر على التضاد والتوازى بشكل دائم، وهذا التضاد والتوازى ليسا فقط تضاد وتوازى الشخص، كما سبق وأشرنا، بل هى أيضا تضاد

4- Thomas Merton, 'Huxley's Pantheon', review in the *Catholic World*, rept. in *Aldous Huxley: The Critical Heritage*, ed. Donald Watt. London: Routledge and Kegan Paul, 1975.

وتوازٍ في المشاهد والمواقف. فكما أن الإبرل يعتبر التعليق الموازى على القصة، فهناك أيضا الببوانات والتي تعتبر تعليقا آخر موازيا للقصة. نذكر على سبيل المثال موقف الببوان الذكر الذي كان يحرس أنثاه في القفص، بينما وقف ببوان ذكر آخر منتظرا الفرصة ليطو عليها، وقد سنحت الفرصة عندما انشغل الببوان الأول باللعام الذي كانت تقذفه له فيرجينيا. وقد حاولت فيرجينيا أن تلت نظره للخيانة التي تحدث خلف ظهره ولكنها فشلت، وصاحت فيرجينيا في فرح: «أليسوا مثل الإنسان؟»، والواقع المرير الذي وضعه هكسلي على لسان برويتر في عدد من المواقف أن العكس هو الصحيح، إذ أن الإنسان هو الذي يتصرف هكذا مثل الحيوان. وفي نهاية القصة، نجد أن الإنسان بالفعل، مع اكتشافه للوسيلة التي تطيل حياته، قد تحول إلى لا شيء سوى ببوان أو قرد كبير، وهي حالة تطور عكسية، فذعود للإشارة التي يرمز إليها هكسلي وهي أن الإنسان يتصرف حتى مع النطور كالحوان تماما. ولكن هنا، كما رأى النقاد بالطبع، شكل وجود الإبرل معضلة متناقضة لمبادئ هكسلي التي نادى بها في هذه الرواية، إذ أنه بحسب كلام برويتر، فإن الإنسان لابد أن يسعى للارتفاع إما إلى المستوى فوق البشرى، أو التدننى للمستوى الحيوانى، ولذلك فإن ما فعله الإبرل، وهو نزوله للمستوى تحت البشرى وهو المستوى الحيوانى، لابد وأن يكون شيئا مقبولا لهكسلي لأنه لم يبق على المستوى الإنسانى كما هو بل سعى للتدننى. ولكن النهاية تدل على أن هكسلي كان يسخر من هذا النزول، وهو ما يتناقض بالأساس مع فكره.

ولكن مع كل هذا التوازى، يستخدم هكسلي كذلك التضاد، وهو وسيلة شائعة في الكتابة الساخرة. فمثلا نجد في بداية الرواية، عندما يدخل جيريمى بورديج إلى القصر، يجد في البهو لوحين متناقضتين متضادتين، هما لوحة القديس بطرس

المصلوب على ناحية من الحائط، بألوانها الداكنة المائلة للسواد والبنى وحالتها الروحانية، بينما على الناحية الأخرى نجد لوحة هيلين فورمونت الحسية بألوانها الوردية الفاتحة. وهنا التضاد الذى يستمر طوال الرواية، ما بين عالم الروحانية والعالم الحسى والصراع بينهما. ويتساءل جيريمى مدركا التضاد، أنهما يمثلان شيئا ما، ولكن ماذا؟ ولا يستطيع أن يجد الإجابة فى بداية زيارته، ولكن بالتأكيد يمكن الإجابة فى نهاية الرواية.

كذلك، فهذا التضاد بين الحس والروحانية موجود بشكل صارخ أيضا فى المقابر المسماة ببانتون بيفرلى، وهو المشروع الضخم الذى يملكه ستويت، حيث نرى الموت والمقابر فى كل مكان، والاسطوانات المكتوب عليها آيات، من الكتاب المقدس، بينما يحاول ستويت السيطرة على خوفه من الموت بأن وضع «الجبس» فى المقابر عن طريق تماثيل شتى لنساء عاريات، قابعات، مائلات، واقفات وجالسات. كل هذا التضاد ما بين الحس والروح، هو التضاد الرئيسى والعمود الفقرى الذى تسير عليه الرواية.

ويظل بهذه المناسبة، كل من ستويت وفيرجينيا ضحايا هذا التضاد وهذه الازدواجية، فستويت مثلا ضحية لتعدد الطوائف التى مرت بحياته ما بين زوجته وجدته وأمه، ما بين أخوات بليموث والكريستيان ساينس والميثودية، والتى غرست جميعاً فى قلبه خوفاً من الموت بدلا من الاطمئنان والسكينة. كذلك فيرجينيا فإنها بقيت مشتتة وعندها ذلك الفصام فى الشخصية، ما بين تلك الفتاة التى تصلى للعداء فى مخدعها الخاص، وقد بنت لها معبدا خاصا بها وألبستها أفضل الحرائر، وبين إغلاقها الستائر على ذلك المحراب حتى لا تراها العدراء وهى ترتكب الإثم

مع أوبيسبو، بينما هي بالأساس محظية لستويت.

لعل من بين أكثر المشاهد وضوحاً في التضاد مشهد عمال التراحيل وهم في حالتهم البائسة وهم سائرون نحو مزارع البرتقال لجمع المحصول، بينما في أعلى القصر فيرجينيا تقفز إلى حمام السباحة، وهو التضاد الصريح بين عالم الفقراء وعالم الأغنياء، وكلاهما لا يشعر بالآخر ويسيران في توازي ولا يتقابلان مطلقاً.

وعلى عكس الروايات الساخرة بشكل عام، وروايات هكسلي السابقة بشكل خاص، فإن هذه الرواية بالتحديد بها حبكة واضحة ومشوقة، وبها ذروة في الأحداث ونهاية، ولكن بالرغم من ذلك، فإن الصراع في القصة ليس صراعاً في المواقف ولا هو صراع بين الأفراد، بل هو بالأساس صراع أفكار، إذ أن كل شخصية، كما ببنا من قبل في هذه المقدمة، تمثل اتجاهها معينا ونمطا مستقلاً، ومن خلال صراع أفكار تلك الأنماط يتكون الصراع الرئيسى في الرواية. ويستخدم هكسلي أيضاً، كعادته في كل رواياته، عدداً من الأساليب المختلفة في الرواية الواحدة، إذ يدخل نظام الخطابات (مثل خطابات جيريمى لأمه) والمذكرات (مثل مذكرات الإيرل الخامس) للتعليق على أحداث القصة.

وقد قال النقاد إن الطبيعية غابت عن شخوص هكسلي لأنها كلها تمثل أنماطاً، بل إن هكسلي ذاته قد كتب في خطاب لأحد أصدقائه «أنا لست جيداً في خلق شخوص روائية»⁽⁵⁾، وهذا في الواقع غير صحيح، إذ لا يمكن القول بأن شخوص هكسلي في هذه الرواية مسطحة أو غير عميقة بالرغم من أنه، كما أشرنا في بداية المقدمة، العمق يؤثر سلباً على الأسلوب الساخر. ومن هنا تحديداً جاءت عظمة كتابات هكسلي، إذ لا يشعر القارئ معها بذلك التسطيح الذى تحدته في العادة

الكتابات الساخرة .

كذلك، فإنه على عكس التقليد الساخر فى الكتابة، فإن هكسلى لم يكن معنيا باللفاق والرياء بقدر ما كان مهتما بفصح الشخصيات الذاتية الأنانية، فشخصه بشكل عام ترتدى أقنعة، ولكنها ليست أقنعة الرياء بل أقنعة الذاتية المفرطة والأنا المتضخمة، والتي تختبئ وراءها وليس معنى ذلك أنها مراوغة أو منافقة، بل هى فى الواقع تخاف من الوحدة ومن المسؤولية. وقد كان شغل هكسلى الشاغل فى كل كتاباته هو إيجاد بديل للدين الرسمى، وهو البحث عن نوع من الروحانية يتميز بالعطاء للغير والنظر أبعد من الذات الصغيرة الضئيلة. ولا يمكن القول، بأى حال من الأحوال، إن هكسلى فى هذه الرواية قد وجد ضالته، ولكنه كان لا يزال فى مرحلة التجريب ومناقشة النظريات. لذلك فإن الوسيلة التى اختارها برونر ليعيش حياته، وهى إقامة تجمعات سكنية واستخدام الطاقة الشمسية والسعى للاكتفاء الذاتى، كلها كانت فى حالة من التجريب، وقد أخذ الفكرة عن كتاب «مدرسة الحياة» لبورسودى.

وعلى عكس الكثير من الكتاب، فإن هكسلى يسخر من العلم ذاته، وبالمناسبة فقد أثارت روايته «عالم جرىء جديده غضب ه.ج. ويلز الذى اعتبرها «خيانة للعلم». ولكن هكسلى كان يؤمن أن سوء استخدام العلم لن يصل إلى نتيجة إيجابية فى اتجاه تحرير الإنسان بل قد يؤثر سلبا عليه وعلى مستقبل البشرية جمعاء. لذلك فإن هكسلى يصور أوبيسبو فى هذه الرواية كرجل بلا قلب - كالعلم تماما - يفضل البقاء مع أبحاثه عن معالجة المرضى الذين لا بد ألا يضيعوا وقته بل وكان الأجدر بهم أن يموتوا. إذن فإن هكسلى يسخر بالأساس من العلم كعامل للتقدم البشرى، فقد

5- Grover Smith, ed. *The Letters of Aldous Huxley*, London:1969.

يكون التقدم البشرى على حساب الحرية والسعادة البشرية.

ولا يلتزم هكسلى كذلك بتقليد الكتابة الساخرة فى كونه لا يمتنع عن بعض الموضوعات التى لا ينبغى على الكاتب الساخر الخوض فيها، فرواياته دائما إما بها جريمة قتل أو انتحار أو معاناة كبرى، ويوظفها هكسلى لإثبات أن الحياة كما يحياها البشر اليوم هى فى الواقع بلا معنى، وأنه لابد من إيجاد بدائل أخرى، وخاصة أن الموت الجسدى وكذلك المعنوى هما النتيجة الحتمية فى حياة كل إنسان. وتشكل هذه الموضوعات صعوبات جمة فى التعامل معها بشكل ساخر، والواقع أن تلك الموضوعات هى للخلفية التى يبنى عليها هكسلى سخريته من الحياة، ووجودها فى رواياته يذكر القارئ دائما بجذية الموضوعات التى يتناولها بالرغم من السخرية، فلذلك نجد فى كل رواياته دائما تراجيديا عميقة تسير جذبا إلى جنب مع الضحك والابتسام. إن موت بيت مثلا فى رواية «بعد عدة أصياف» هو فى الواقع إشارة لعدم جدوى الحياة كما هى، بل وكونه قد قتل بدلا من أوبيسبو الانتهازى له فى الواقع دلالة كبرى.

بالنسبة للتكوين الروائى لدى هكسلى، فإنه يعتمد بالأساس فى سخريته على ما يسمى بالتكوين الكلى الساخر، ولذلك فإن بعض النقاد يعتبرون رواياته عبارة عن قصص مجازية. وكما فى التقليد الساخر فرواياته لا يوجد بها حبكة، ولا يوجد بها أى نوع من الحركة أو *action*. لقد اتهمه بعض النقاد بناء على ذلك بأنه يكتب مقالات مطولة وأن كتاباته بشكل عام تتأرجح ما بين المقال والرواية. ولذلك فقد كتب هكسلى لأحد أصدقائه يقول «إننى أدرك بحزن أننى لم أولد لأكون كاتباً روائياً بل أكتب نوعاً آخر من الكتابة تشبه الرواية بشكل قد يكون مقبعا»^(١).

وبالفعل، فإن روايات هكسلى لا تعتمد على الحبكة بقدر ما تعتمد على الحوارات

الصدامية الذكية وسرعة البديهة، ولذلك فإن الأفكار في العادة تحل محل الحركة، والصدمات هي بالأساس صدمات فكرية ناتجة عن سوء فهم العالم وعدم وضوحه. كذلك فإنه عندما تظهر أية حركة في الرواية فإنها تبدو ثانوية بالنسبة للفكرة التي وراءها، إلا أنه يمكن القول إن هذه الرواية بالذات هي من أكثر روايات هكسلي التي تحتوي على حركة بل ونوع من الحبكة والتشويق والنهاية غير المتوقعة.

وعلى عكس التقليد الساخر في الكتابة، فإن شخص هكسلي جميعاً أو أغلبها ذكية ومثقفة، بل إن رواياته سميت «رواية الأفكار» (novel of ideas) لهذا السبب بالتحديد. معظم شخصه مفكرة وهي بشكل عام لسان حال أفكار محددة. لذلك فإن رواياته تعتمد بالأساس على أن لكل شخصية فكراً واضحاً أحادياً وتمثل وجهة نظر واحدة، ثم تدخل في صراع حوارى بحيث يمثل كل منها اتجاهه الذي لن تحيد عنه أو تغيره طوال الرواية. وتبقى الشخص، لأنها تمثل وجهة نظر أكثر من كونها شخصاً تتحرك وتشعر وتتفاعل، تبقى كما هي دون تطور حتى نهاية الرواية. ليس هذا فقط، بل إن الشخص تسير في خطوط متوازية بشكل دائم، ولا يوجد اتصال بينها جميعاً بالرغم من حديثها وحواراتها معاً، وهذا في حد ذاته سمة من سمات الأسلوب الساخر، بحيث تسير الشخص في توازٍ. وهي بالتالي لا تؤثر في بعضها البعض، وتعيش كل منها في عالمها وذاتها الخاصة المغلقة المنفصلة. ولذلك أيضاً، فإن هكسلي يعتمد في سخريته على الحوار ذاته بين هذه الذات المنفصلة. ولكن هذه الذات المنفصلة جزء من كل، ومعاً فقط تظهر الصورة كاملة، إذ إن هكسلي بحاجة لكل هذه الشخص المختلفة التي تمثل اتجاهات مختلفة

لكى يعطى كل منها وجهة نظر فى حيز ضيق من الرواية، وهى جميعاً تعطى الصورة كاملة وكل وجهات النظر التى يتصارع فيها هكسلى ذاته معها.

ويمكن القول أيضاً إن هكسلى قدم مرآة للمجتمع، كما يفعل الكتاب الساخرون فى العادة، ولكنها لم تكن مرآة مجتمعية بل كانت مرآة أيديولوجية بالأساس، فهو لم يقدم مشكلات اجتماعية أو يصور قصور مجتمع بقدر ما كان يحاول تصوير اهتمامات وهموم جيله الأيديولوجية، وهو فى هذا كله لم يحاول إعطاء «أنصاف الحقائق» كما يفعل الكتاب الساخرون لكى يثيروا السخرية والضحك، بل كان يعطى «كل الحقائق» المختلفة كما تراها شخوصه كل على حدة ومن وجهة نظره، وهكذا يستطيع أن يصور كل وجهات النظر وأن يسخر منها كلها فى آن.

وفى النهاية، فقد انتقده النقاد كذلك لأنه لم يعط حلولاً للمشكلات التى يثيرها، ولكن هل من الضرورة أن يعطى الكاتب حلولاً أم أنه فقط يطرح المشكلات؟ على كل، فقد حاول هكسلى أن يقدم حلولاً عن طريق شخصية بروتير، ولكنه كما سبق وأشرنا فشل فى إعطاء حلول واضحة وعملية وممكنة، فقد حاول تصوير بدائل للدين والعلم والأدب ولكنه فشل فى إقناع القراء والكتاب معاً، وفى النهاية توصل إلى أن الحل فى داخل الفرد وليس من خارجه، وهو حل، كما علق أحد النقاد، يشبه حلول الأنبياء العظماء على مر الأزمان.^(٧)

مصاعب الترجمة

عندما فكرت فى ترجمة رواية لهكسلى، كنت أدرك تماماً الصعوبات التى قد ألقاها أثناء الترجمة، لمعرفتى بصعوبة وعمق كتابات هكسلى، وكان اختياري لرواية «بعد عدة أصياف» تحدياً علمياً ظننت أننى أدرك أبعاده. وقد اخترت هذه

٧- للمزيد حول أندوس هكسلى والأسلوب الساخر، أنظر رسالة الدكتوراه المقدمة من المترجمة لجامعة القاهرة عام ١٩٩٦ بعنوان:

Satire in some of the novels of Aldous Huxley and Sinclair Lewis.

الرواية بالتحديد بسبب وجود عنصر التشويق فيها، وما يسمى بالخيال العلمى الذى يأتى بشكل ثانوى فى القصة، فلا يمكن بأى حال من الأحوال تسميتها رواية خيال علمى. عموماً فعندما بدأت الترجمة أدركت أننى وضعت لنفسى تحدياً ربما كان أكبر منى، ومن إمكانياتى، مما دفعنى للرغبة فى إنهاته بشكل يكون على الأقل مقبولا إلى حد كبير، ينقل للقارئ العربى عالم هذا الكاتب الرائع المبدع والذى لم تترجم رواياته للعربية من قبل، فى أغلب الظن بسبب صعوبتها وصعوبة نقلها للغة العربية.

ولم تكن الصعوبة فقط فى ترجمة الأفكار، بل كانت أيضاً فى استخدام هكسلى للعديد من اللغات فى الرواية، إذ فجأة يكتب فقرة باللغة الإسبانية، وثارة أخرى يكتب فقرة باللغة الإيطالية أو الفرنسية أو الألمانية أو اللاتينية، ويبنى عليها بعد ذلك فى بقية الفصل أفكاره وآراءه. وقد كان بالطبع على أن أبحث عن مَنْ يمكنه ترجمة هذه الفقرات، والتى غالباً ما تكون شديدة الصعوبة، حتى على من يعرفون تلك اللغات لأنها أحياناً تكون فقرة قصيرة أو جملة أو كلمة فى خارج سياقها، ولا يمكن أن يفهموا معناها إلا إذا قاموا بقراءة السياق الذى وضعه فيه هكسلى.

ومن بين الصعوبات أيضاً، كانت إشارة هكسلى لهذا الكم الكبير جداً من الأسماء ما بين علماء لاهوت قدامى إلى رسامى لوحات وفنانين وكتّاب، ولم يكن البحث عسيراً عن معظم تلك الأسماء فى دوائر المعارف الأجنبية، إلا أن هناك بعض الأسماء لم تكن موجودة أصلاً حتى فى هذه الدوائر الكبيرة، مثل: البريطانيكا والأميريكانا، وقواميس الشخصيات الأدبية والشخصيات العامة. وقد انتابنى فى بعض الأوقات اليأس من إيجاد بعض تلك الأسماء، مثل ما حدث على سبيل المثال مع «جامبولونيا»، حيث أشار هكسلى إلى هذا النحات ولكنى لم أجده فى أية

قواميس . وقد استعنت بهذا العالم الجديد العظيم للإنترنت وبحثت عن كلمة «جيامبولونيا»، فوجدت كل ما أريد معرفته عن هذا الرجل، إذ أن هكسلى كان قد استخدم اسم الشهرة وليس اسم الرجل الفعلى وهو «جان دى بولونيا» . وهكذا مع عدد من الأسماء الأخرى، بل كانت هناك كذلك أسماء أماكن وبلدان وطُرُز معمارية كثيرة كان البحث عنها ممتعا وعسيرا فى آن.

وأخيرا فقد انتهيت من ترجمة هذه الرائعة التى أصبحت بين يدى القارئ العربى الآن،، وهو جهد متواضع لعل وعسى يعطى فكرة ولو بسيطة عن عالم هذا الكاتب العظيم، مع ملاحظة أن أية أخطاء به هي بلا شك أخطائى، وليست قصورا فى رواية هكسلى أو قصورا من المراجعين، وأعتذر عنها جميعا مقدماً.

شكر وتقدير

وفى النهاية، أود أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ مهدي مصطفى الأديب الذى قام بمراجعة اللغة العربية مراجعة دقيقة، وقراءته المتأنية لهذا العمل الطويل المرهق، وما اقتطعه من وقته لإنجاز هذا العمل فى أسرع وقت ممكن، والذى بدوره ما انتهى هذا العمل بهذا الشكل المشرف. كما أود أن أشكر الأستاذ الشاعر محمود قرنى على المراجعة النهائية. وأتوجه أيضا بشكر خاص للأستاذ أمير سالم المحامى الذى ساعد بتشجيعه المستمر وقراءته على إتمام هذه الترجمة.

ولا أنسى فى هذا الإطار أيضا أن أتقدم بالشكر لكل من أساتذتى الدكتورة نادية سليمان، أستاذة الأدب الإنجليزى جامعة عين شمس، والدكتورة أنجيل بطرس، أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة، على تشجيعهما الدائم لى، كما أتقدم بشكر خاص للأستاذة الدكتورة هدى جندى، أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة

القاهرة، ومشرفة رسالة الدكتوراه التي تقدمت بها حول ألدوس هكسلي لجامعة القاهرة، لأنها علمتني الصبر والمثابرة والدقة قدر الإمكان في العمل.

✻ . هولين تادرس

القاهرة في يوليو ١٩٩٧

الغابات تتعفن، الغابات تتعفن وتسقط،
والأبخرة تبكي أخاها وهو يسقط،
ويأتى الرجل ليزرع الأرض ويبقى عليها
وبعد عدة أصياف يموت البجع

تنيسون

الجزء الأول

الفصل الأول

تم ترتيب كل شيء بالتغراف: على جيريمي بورديج أن يبحث عن سائق ملون يرتدى بذلة رمادية، في عروتها وردة، وعلى السائق الملون أن يبحث عن رجل إنجليزي في منتصف العمر، يحمل في يده كتاب وردزورث^(١)، وبالرغم من زحام المحطة تمكنا من العثور على بعض بسهولة .

– سائق مستر ستويت ؟

– مستر بورديج ؟

هز جيريمي رأسه بالإيجاب . كان يحمل وردزورث في يد ، ومظله في اليد الأخرى ، فمدّ يده في حركة تشبه حركات عارضة أزياء تستعرض جسدها القمىء بشكل مثير للضحك لمعرفة عيوبها جيداً ، وهي طريقة أصبحت عادة له في كل المناسبات .

فجأة خطرت في باله فكرة، أفلقته، هل يجب عليه هنا، في هذا الغرب الديمقراطي ، أن يصافح السائق باليد ، خاصة إذا كان أسود اللون ، فقط ليبين أنه سيد من الدرجة الأولى ، وحتى لو لم يكن وطنه تحمل عبء الرجل الأبيض .
قرر في النهاية ألا يفعل شيئاً، أو بشكل أدق ، أجبر على ألا يفعل شيئاً – وهو سعيد أنه كالعادة يعرف عيوبه – إذ قطع السائق ترده فخلع الكاب وانحنى له في محاولة لتقليد زنوج الزمن القديم، ثم ابتسم فظهرت أسنانه البارزة وقال:
– مرحبا بك في لوس أنجيلوس يا مستر بورديج ، يا سيدى .

١- وردزورث: نسبة إلى وليام وردزورث الشاعر الإنجليزي (١٧٧٠-١٨٥٠) .

ثم غير لهجته من التغمى إلى الثقة الدراماتيكية، وأضاف:
 - كنت سأعرفك من صوتك يا مستر بورديج حتى بدون الكتاب.
 ضحك جيريمي في ارتباك. أسبوع واحد في أمريكا جعله ينتبه لصوته هذا.
 صوت من نتاج عشر سنوات قبل الحرب، في كلية ترينيتي، جامعة كمبريدج.
 صوت رفيع كالنأى، يشبه ترنيمة في كاتدرائية إنجليزية. عندما كان يتحدث في
 بلده، لم يلتفت إليه أحد، ولم يكن يتندر عليه كما يفعل عادة لحماية نفسه كلما
 تحدث عن شكله أو عمره.

أما هنا في أمريكا فالأمر مختلف. ما أن يطلب فنجانا من القهوة أو يسأل عن
 الطريق إلى الحمام (والذي لا يسمونه حماما في هذا البلد المقلق) حتى يرى الناس
 يتفرسون به فيه باهتمام فضولى، وكأنه مسخ في عرض للملاهي. ولم يكن هذا
 في الحقيقة شيئا ممتعا.

قال ليغير الموضوع:

- أين الشئال؟

بعد دقائق كانوا على الطريق، كان يجلس في المقعد الخلفى بعيدا عن حديث
 السائق كما كان يأمل. وأطلق جيريمي بورديج لنفسه العنان ليتأمل ما حوله. مرت
 أمامه جنوب كاليفورنيا، وكل ما عليه هو أن يفتح عينيه.

أول ما وقع عليه بصره كانت مساكن الأفارقة والفلبينيين واليابانيين والمكسيكيين
 الفقراء. كانت مزججا من الأسود والأصفر والبني. أى خليط مركّب هذا!
 والفتيات... كم كن جميلات في ملابسهن الحريرية الناعمة.
 وسيدات زنجيات في ملابس بيضاء - إنه أفضل شطر في قصيدة البريليود^(٢).

٢- البريليود: قصيدة سيرة ذاتية كتبها الشاعر الإنجليزي رذريوث في أربعة عشر جزءا، بدأها عام ١٧٩٩
 ونشرت بعد وفاته عام ١٨٥٠.

ابتسم لنفسه، ومرت المساكن الشعبية، وبدت الدبابات المرتفعة في منطقة البيزنيس.

بدا الناس وكأنهم يتخذون طابعا فوقازياً. في كل ركن رأى صيدلية، وكان الأطفال يبيعون الجرائد، التي أعلنت في عناوينها الرئيسية عن دخول فرانكو إلى برشلونة. بدت الفتيات السائرات مهمكات في صلاة صامئة، ومع إعادة التفكير في الموضوع، قررأنهن في الغالب، يمتصن اللبن، اللبن وليس الله.

وفجأة دخلت السيارة نفقاً ثم خرجت إلى عالم آخر، كبير وغير منظم، عالم أطراف المدينة، تملأه محطات البنزين والإعلانات، ومنازل صغيرة وسط الحدائق، وأماكن فارغة وأوراق زبالة، وبعض المحلات والمباني المكتبية والكنائس - كنائس ميثودية^(٣) بدائية، مبنية - وبالعجب - مثل كارتيوخا بقرطبة، وكنائس كاثوليكية مثل كاتدرائية كانتربري^(٤)، ومعابد متخفية مثل أيا صوفيا^(٥)، وكنائس الكريستيان ساينس^(٦) بأعمدها التي تشبه البتوك.

كان اليوم شتاء والصباح باكراً، ومع ذلك لمعت الشمس ببريق شديد، وكانت السماء بدون سحب. والسيارة تسير في اتجاه الغرب، والشمس مائلة خلف المباني تنير كلا منها، وتضيء الإعلانات مثل كشاف نور، وكأنها تتعمد أن يرى الزائرون الجدد كل شيء.

أطعمة. كوكيتيل. ليالى مفتوحة.

بيرة عملاقة.

٣- ميثودية: نسبة إلى طائفة الميثوديين الدينية المسيحية.

٤- كانتربري: أشهر كاتدرائية إنجليزية.

٥- الجامع الشهير بإسطنبول أنشئ ككنيسة عام ٥٣٢ ثم تحول إلى جامع أصبح الآن متحفا سياحيا.

٦- الكريستيان ساينس: طائفة تنتمي للطائفة الأنجيلية أسستها امرأة تدعى ماري بيكر إيدي عام ١٨٧٩، وهي تؤمن بالشفاء الإلهي وليس العلاج الطبي.

افعلْ أى شىء، واذهبْ إلى أماكن كثيرة مع بنزين كونسول سوير.
فى بانثيون بيفرلى الجنازات الجميلة ليست غالية الثمن.
مضت السيارة بسرعة، وفى مكان خالٍ، ظهر مطعم على شكل كلب بولدوج،
مدخله بين اليدين الأماميتين للكلب، ويخرج من عينيه نور.
همس جيريمى: اذهب، ثم قال مرة أخرى اذهب. كان يحب الكلمات مثل
العلماء. وذهب البولودج إلى الماضى.
الفلك. الأرقام. قراءة الطالع.
ادخل لتتناول الناتبرجر- أيا ما كان هذا !! قرر أن يجرب واحدة منها فى
أقرب فرصة. ناتبرجر وبيرة عملاقة!
قف هنا لبنزين السوير كونسول.
وقف السائق. قال بلهجة أمرة:
- عشرة لترات من السوير سوير.
ثم استدار إلى جيريمى وأضاف:
- هذه شركتنا. مستر ستويت رئيسها.
أشار إلى الإعلان عبر الشارع.
قرأ جيريمى:
- قروض نقدية فى خمس عشرة دقيقة.
استشر شركة الخدمات المالية المحلية.
قال السائق بكبرياء:
- وهذه أخرى ملك لنا.
استمروا بالسيارة. حذق فيه وجه شابة جميلة من إعلان عملاق، يشوبه الحزن

مثل المجدية، مكتوب عليه:

- «الحب الضائع. ثبت علميا أن ٧٣٪ من كل البالغين مصابون بصعوبة في التنفس».

«في وقت الحزن اجعل ب.ب. صديقا لك،

«شد الوجه. عمل البرماننت. المانيكير. محل بيتي للتجميل».

بجانب محل التجميل رأى مكتب الاتحاد الغربي. هذا التلفزيون لأمه! يا للسماء، كاد ينسى! انحنى جيريمي للأمام، وفي نبذة اعتذار يستخدمها دائما حينما يتحدث إلى الخدم، طلب من السائق أن يتوقف لحظة. وقفت السيارة، وتعبير من الانشغال الشديد جدا على وجهه الأرنبى، خرج من السيارة مسرعا على الرصيف، ودخل مكتب البريد.

- مسز بورديج. أروكارياس. ووركينج. إنجلترا

كتب الكلمات وابتسم قليلا. غريب هذا العنوان، كان مصدر سعادة دائما له. أروكارياس^(٧). ووركينج^(٨).

حينما اشترت أمه البيت، أرادت أن تغير اسمه لأنه يعبر عن الطبقة الوسطى، ولكنه اعترض، وقال هذا هو مصدر جمال الاسم، وحاول أن يقتنعها أنه مناسب جدا لهم أن يعيشوا في مثل هذا العنوان. أى فارق شاسع بين اسم البيت وطبيعة من يعيشون فيه! وأية مفارقة، أن صديقة أوسكار وايلد القديمة، مسز بورديج، تكتب خطابات من «لأروكارياس التي في ووركينج، وهى نفس الأروكارياس التي خرجت منها مؤلفات علمية لابنها وأكسبته شهرة واسعة.

٧- أروكارياس: فصيلة أشجار أمريكية وإسترالية منتمة لأشجار الصنوبر.
٨- ووركينج: العمل وهى هنا كناية عن الطبقة العاملة الأصلية.

وفهمت مسز بورديج على الفور قصده . عندما يتحدث المرء معها، لا يحتاج لتوضيح مستفيض . يمكنك أن تعتمد دائما على أنها ستفهمك . وظلت الأروكارياس كما هي .

توقف جيريمي برهة بعد أن كتب العنوان، وعض طرف القلم كعادته عندما يفكر تفكيراً عميقاً، إلا أنه وجد أن طرف هذا القلم بالذات نحاسي ومربوط بسلسلة .
— السيدة بورديج، الأروكارياس، ووركنج، إنجلترا .

قرأها بصوت عال على أمل أن تلهمه الكلمات أن يكتب رسالة تفيض بالحنين وتضحك في الوقت نفسه، مملوءة بالولاء، ومكتوبة بشكل ساخر، تعترف بسيطرتها الأمومية وتسخر منها في ذات الوقت، حتى تريح السيدة العجوز ضميرها وتدعى أن ابنها أصبح حراً، وأنها أقل الأمهات سيطرة . لم يكن الأمر سهلاً — خاصة وأن القلم مربوط هكذا في سلسلة — ولكن بعد عدة محاولات مجهدة قرر الآتى: الجو هنا شبه إقليمي، سوف أكسر وعدى لك بخصوص ملابسي الداخلية . نقطة . أتمنى لو كنت هنا من أجلى وليس من أجلك أنت، لأنك لن تحبى بورنموث ^(١) هذه .

سألت الشابة الواقعة على الناحية الأخرى من الكاونتر:

— ماذا؟

البورنموث . تهجأها جيريمي وابتسم ، ولمعت عيناه الزرقاوان ببريق خلف نظارته، ثم بحركة لا شعورية، وهى عادة لديه عندما يبدأ فى إلقاء نكتة من نكاته، تحسس صلته بيده وقال:

— كما تعرفين ... بورن التى لا يذهب إليها أى مسافر إن لم يكن .

١- بورنموث: مئذج ساحلى فى جنوب غرب إنجلترا، وتعتبر مشى طوال العام، وتشتهر بجوها دافئ الاعتدال وكلمة bourne تعنى هذب- مرفأ- جدول صغير.

نظرت إليه الفتاة بلا تعبير، ولكنها استلجبت أنه قال شيئا مضحكا، وتذكرت أن شعار خدمات الاتحاد الغربى هو المجاملة، فابتسمت لهذا المسكين الذى ينتظر الالبتسامة، وأكملت القراءة:

– أتمنى أن تكونى مستمتعة فى جراس. نقطة. حلىنى لك. جيريى.
ستكلفه الرسالة كثيرا، ولكن لحسن الحظ سيدفع له المسترستويت أكثر مما يستحق. فى ثلاثة أشهر فقط، سيحصل على ستة آلاف دولار. فلنذهب المصاريف إلى الجحيم.

عاد إلى السيارة ومضيا فى طريقهما ، ميلا بعد ميل، ومضت معهما المنازل ومحطات البنزين والأماكن الخالية من البناء، والكنايس والمحلات بلا نهاية. على اليمين واليسار اختفت الشوارع الكبيرة بين الدخيل أو شجر النفل أو الأكاسيا.
طعام رفيع المستوى. آيس كريم كبير يزيد حجمه على الميل.
المسيح مخلص.

هامبرجر.

ولكن مرة أخرى أضاعت الإشارة باللون الأحمر. جاء شاب بالجريدة، كان العنوان الرئيسى: فرانكو يحرز انتصارا فى كتالونيا. قرأه جيريى ثم استدار.
الخوف من العالم تفاقم لدرجة أنه أصبح شيئا مملا.

خرجت امرأتان مستتان من السيارة الواقفة أمامهما شعرهما أبيض موج، ترتدى كل منهما بنطالا أحمر، وتحمل كلتا من نوع اليوركشاير. أنزلتا الكلبين بجوار عامود إشارة المرور، وقبل أن يستفيد الكلبان من هذا الموقف، تغيرت الإشارة.

تحرك السائق الزنجى وانطلقت السيارة إلى الامام، إلى المستقبل. أخذ جيريى

يفكر فى أمه بعدم ارتياح، إذ تملك هى أيضا كلبا من نوع اليوركشاير.
كحوليات هائلة.
سندوتشات دوق.
أذهب إلى الكنيسة وأشعرُ بتحسّن طوال الأسبوع.
الجيد فى عملنا جيد لك.
ظهرت أمامه لافتة أخرى، وكانت هذه المرة فى صورة مكتب للعقارات على
هيئة أبى الهول المصرى.
المسيح أتَ قريبا.
أنت أيضا يمكنك أن تحافظى على الشباب الدائم باستخدام حمّالات الصدر
ماركة «الشكل المثير».
بانثيون بيفرلى: مدافن متميزة.
نظر السائق الزنجى بطرف عيبه الى جيريمى، وبكبرياء القطة ذات الحذاء
التي أخذت تعدد ممتلكات الماركيز دى كراباس^(١٠)، أشار إلى اللافتة وقال: هذه
أيضا ملك لنا.
سأل جيريمى:
- أتقصد بانثيون بيفرلى؟
هز الرجل رأسه بالإيجاب وقال:
- أفضل مقابر فى العالم على ما أعتقد.
ثم أضاف بعد برهة:
- هل تحب أن تشاهدها؟ إنها فى طريقنا.

^{١٠} - بطل قصة شعبية فرنسية قديمة تحكى عن شاب ورث قطة ويكتشف أنها قطة نكية وتقدمه للملك على أنه الماركيز دى كراباس ويوزجه ابنته.

أجاب جيريمى بلغته الإنجليزية المهذبة التى تنم عن الطبقة الراقية التى ينتمى إليها:

- شىء ظريف.

ثم أحس أنه ربما ينبغى التعبير عن قبوله بشكل أكثر دفئا وديمقراطية، ففتح، ثم فى محاولة لتقليد الأسلوب المحلى أضاف أنه شىء «رائع». نطق الكلمة بصوته الترينيتى الآتى من كامبريدج، فبدت الكلمة مصطنعة، فاحمر وجهه خجلا. لحسن الحظ كان السائق مشغولا بحركة المرور، فلم يلاحظه.

استدارا ناحية اليمين، فمرا بمعبد روسيكوريا^(١١)، ثم بمستشفى للقطط والكلاب، ثم بمدرسة لتعليم الإيقاع، ثم إعلانين عن بانثيون بيفرلى. استدارا ناحية اليسار على طريق صن ست، فلاحظ جيريمى امرأة تتسوق، مرتدية لباس بحر دون حمالات، شعرها بلون البلاتين، وترتدى معطفا من الفرو، وذهبت هى أيضا إلى الماضى.

أما الحاضر، فكان طريقا منحدرًا على أطراف سلسلة جبلية، تملؤه حوانيت صغيرة تبدو غالية الثمن، وسلسلة من المطاعم والنوادي الليلية، تحجب عنها الشمس بعض المكاتب والعمارات. وذهبت كلها بلا عودة.

أشارت علامة أخرى إلى أنهما يعبران حدود بيفرلى هيلز. تغيرت الملامح المحيطة بهما. على جانبي الطريق حدائق مساكن للأغنياء. من خلال الأشجار، استطاع جيريمى أن يرى واجهات المنازل، كلها جديدة، يلمح كلها تقريبا ذات ذوق

١١- روسيكوريا: نسبة إلى جماعة تؤمن أن أسرار فهم الكون قد أنزلت عبر المختارين، وقد جاء الاسم نسبة إلى مؤسسها كريستيان روزينكرويتز من القرن الخامس عشر.

عال، فى تقليد أنيق وطريف لبيوت الإقطاعيين على طراز لوتيان^(١٢)، وبيوت تشبه التريانون^(١٣)، وعدد من البيوت تشبه مونتيشيلى^(١٤)، وتقليد خفيف الظل لبيوت ليكوروبوزيه^(١٥) المميكنة، وتطبيق مذهب للهاشندا^(١٦) المكسيكية، ولمزارع نيويانجلاند.

دخلا الى اليمين، فكان النخيل العالى على جانبى الطريق، وبدت زهور الميزمبرثيموس حمراء ملتجة فى ضوء الشمس. بيت وراء التالى، مثل أروقة معرض عالمى. جلوسترشير^(١٧) بعد الأندلس ثم تورين^(١٨) وأوكسكا^(١٩)، دوسلدورف وماساتشوستس.

قال السائق مشيراً إلى ما يشبه البويولى^(٢٠):

— هذا بيت هارولد لويد . وهذا تشارلى تشابن . وهذا بيكنير .
بدأ الطريق يصعد أفقياً . أشار السائق عبر مساحة كبيرة مظلة، إلى ما يشبه دير اللاما التبتى ، قابعاً فوق الجبل المقابل . قال بفخر وهو يدير عجلة القيادة:
— وهنا تسكن جيلجر روجرز . نعم، يا سيدى .

-
- ١٢- لوتيان: نسبة إلى سير إدوين لاندسير لوتيان (١٨٦٩-١٩٤٤) معمارى إنجليزى شهير وكان أسلوبه كلاسيكياً.
١٣- تريانون: اسم أطلق على قصرين شيدا فوق أرض قصر فرساي بفرنسا، وقد أقيم أقدمهما عام ١٦٨٧ والثانى عام ١٧٦٢ .
١٤- مونتيشيلى: بيت توماس جيفرسون الرئيس الأمريكى الثالث للولايات المتحدة الأمريكية، صممه جيفرسون نفسه .
١٥- ليكوروبوزيه: اسم الشهرة لشارلز إدوارد جيلجرى (١٨٨٧-١٩٦٥) معمارى ورسام وكاتب فرنسى اعتمد فى طراز معماره على المبادئ المسابرة والأشكال الهندسية .
١٦- ماشندا: مبنى كبير على طراز أسباني، وهو الاسم الذى يطلق على المبنى الرئيسى فى أية مزرعة أسبانية .
١٧- جلوسترشير: مقاطعة إنجليزية .
١٨- تورين: مدينة إيطالية .
١٩- أوكسكا: مدينة مكسيكية .
٢٠- بويولى: نسبة إلى قصر وحدائق بويولى أسفل جبل بويولى فى فلورنسا وكانت تملكه عائلة ميديتشى .

خمسة أو ستة منحنيات أخرى، وأصبحت السيارة فوق قمة الجبل، وقد رقت المدينة خلفه وأسفله مثل خريطة خضراء منبسطة إلى ما لا نهاية. برزت الجبال أمامهما وعلى جانبيهما، قمة وراء الأخرى، إلى ما لا نهاية، وكأنها اسكتلندا جافة جرداء تحت زرقة سماء الصحراء. استدارت السيارة نحو نتوء صخري، وهناك، على القمة التي كانت متوالية حتى تلك اللحظة، ظهرت فجأة لافتة عملاقة مكتوب عليها: «بانتيون بيفرلي: المدافن الشخصية»، وفوقها، على القمة، ظهر برج مقلداً لبرج بيزا المائل - إلا أن هذا لم يكن مائلاً.

قال الزنجي:

- أترى هذا؟ إنه برج القيامة. تكلف مائتي ألف دولار. نعم يا سيدي! كان يتحدث بتأكيد رصين، وكأنه دفع كل ذلك من جيبه الخاص.

الفصل الثانى

بعد ساعة واحدة كانا قد مضيا فى طريقهما، بعد أن شاهدا كل شيء، كل شيء . الحدائق المنحدرة ، مثل الواحات الخضراء فى صحراء جبلية . الغابات كثيفة الأشجار. المقابر وسط العشب. مقبرة الحيوانات بأحجارها الرخامية التى تشبه لوحة الكرامة والوقاحة للأندسير^(١). كنيسة الشعراء الصغيرة - وهى تقليد مصغر لكنيسة الثالوث المقدس بستراتفورد - أبون - أفون^(٢)، كاملة كما هى، بما فى ذلك مقبرة شكسبير ذاتها، وصوت موسيقى الأرغن يصدر بشكل آلي من الورليتز^(٣)، يبت الموسيقى عبر مكبرات صوت مخبأة فى كل مكان من المدافن. خارج غرفة ملابس الكهنة وجدا غرفة العروسة - لأننا نترج فى الكنيسة الصغيرة، وندفن فيها أيضا - وقد تم تحديث غرفة العروسة، كما قال السائق، على طريقة غرفة نورما شيرير فى فيلم مارى أنطوانيت. وبجانب غرفة العروسة، يقوم بهو الرمامد مصنوع من الرخام الأسود، مؤديا إلى المحرقة، وبها ثلاثة أفران حديثة للموتى، تشتعل بالزيت، ودائمة الاشتعال فى انتظار أى طارئ.

صاحبتهما موسيقى الورليتزز أينما ذهبا، وسارا إلى برج القيامة، ليشاهداه من الخارج فقط، إذ يضم المكاتب التنفيذية لشركة الساحل الغربى للمدافن. ثم جاء ركن الأطفال بتمائيل بيتربان^(٤) والطفل يسوع، ورضع من الألباستر، يلعبون بأرانب مصنوعة من البرونز، ونافورة مملوءة بزهر الزنبق، مكتوب عليها نافورة موسيقى قوس قزح، تتدفق منها المياه المتدفقة، والأضواء الملونة، وكذلك نخمات الورليتزز

١- نسبة للسير إدوين هنرى لاندسير (١٨٧٣-١٨٠٢) رسام اشتهر برسم الحيوانات.

٢- المدينة التى ولد ودفن فيها شكسبير.

٣- الورليتزز: آلة كبيرة تلعب الموسيقى أوتوماتيكيا.

٤- بطل قصة أطفال إنجليزية كتبت عام ١٩٠٤.

التي لا يمكن الهروب منها. وتلتها بسرعة بعد ذلك حديقة الهدوء، وتاج محل الصغير، ومدفن العالم القديم، ثم وصلا إلى الشيء الذى تركه السائق للنهاية، الدليل المتوج على عظمة مخدومه، وهو البانثيون ذاته.

هل يمكن أن يوجد مثل هذا الشيء؟ بالتأكيد لم يكن هذا محتملا! لم يكن لبانثيون بيفرلى أى. مثل فى العالم، وكان شيئا يفوق التصور. إن كون هذه الفكرة الآن فى عقل جيريمى ليهود دليل لا شك فيه على أنه، بالتأكيد، رأى ذلك الشيء. أغمض عينيه وحاول إعادة كل تفاصيل ذلك الواقع الذى لا يصدق فى ذاكرته. المعمار الخارجى كان تقليدا لتوتيبسيس لبوكلين^(٥). البهو مستدير. اللوحة - المقلدة عن القبة لرودان^(٦) - كانت مضاءة بأنوار كبيرة وردية. ثم سلاط من الرخام الأسود، وأعمدة ترتفع لأكثر من سبعة طوابق، بها معارض بلا عدد، شواهد مقابر الواحدة وراء الأخرى. أوعية برونزية وفضية، مثل الكؤوس الرياضية، تحمل فى داخلها رماد الموتى الذين تم إحراقهم. الزجاج المعشق على كل النوافذ، مرسوما على طراز بيرن جونز^(٧). والكلام محفور على أسطوانات رخامية. انبعث صوت الوريترز الخافت فى كل طابق. النحت...

هذا ما يصعب تصديقه أكثر من أى شيء آخر. أخذ جيريمى يفكر، وقد أغمض عينيه. كان النحت تقريبا شامل الوجود مثل الوريترز. تماثيل أينما أدت عينيك. المئات منها، غالبا تم شراؤها بالجملة، من أحد نحائى شواهد القبور الضخمة فى كرارا وبيتراسانتانا. فى إيطاليا. كلهن عرايا، كلهن نساء، كلهن

٥- نسبة لأرنولد بوكلين (١٨٢٧-١٩٠١) رسام ألماني من أشهر لوحاته توتيبسيس رسمها عام ١٨٨٣.

٦- رودان؛ نسبة إلى أغسطس رودان (١٨٤٠-١٩١٧)، وهو نحّات فرنسي.

٧- بيرن جونز؛ (١٨٣٣-١٨٩٨) وهو رسام ومصمم يرسم عادة النساء ويرسم على الزجاج.

يفضن حيوية. كانت تشبه التماثيل التي تتوقع أن تراها في بهر استقبال بيت دعاة راق، في ريودي جانيرو. على إحدى الأسطوانات الرخامية في مدخل القاعة «آه يا موت، أين شوكتك؟». بصمت بليغ، أعطت التماثيل إجابتها المطمئنة. تماثيل فتيات صغيرات، لا يرتدين شيئاً سوى أحزمة ضيقة محفورة في أجسادهن بواقعية برنيلى^(٨). تماثيل لفتيات جائحات، وفتيات يدارين العورة باليدين، وشابات مفروشات، ملتويات، مستديرات، منحنيات لربط أحذيتهم، نائمات. فتيات مع حمام، مع نمور، مع فتيات أخريات، أعينهن مرفوعة لأعلى بشكل ينم عن صحة الروح. أعلنت الأسطوانات أننا هو القيامة والحياة، الرب راعى فلا يعوزنى شيء. لا شيء. ولا حتى الورلنيزر، ولا الفتيات بأحزمتهم المربوطة المشدودة. الموت قد ابتلع الانتصار - الانتصار ليس بعد للروح، بل للجسد، ذلك الجسد الذى تم إطعامه جيداً، الجسد الشاب إلى الأبد، الرياضى إلى ما لا نهاية، الجنسى دون تعب. فى جنة المسلمين، تطول العملية الجنسية إلى ستة قرون، أما فى هذه الجنة المسيحية الجديدة، فقد قام التطور بلا شك بمدى ألف عام، وأضاف إليها فرحة التنيس الأبدى، والجولف الأبدى، والسباحة الأبدية.

فجأة بدأت السيارة فى النزول، فتح جيريمى عيبيه مرة أخرى، فرأى أنهما وصلا إلى الطرف الآخر من سلسلة الجبال التى شُيدَ عليها البانثيون.

بدا السهل أسفلهما أصفر ممتداً، تزيينه مريعات خضراء منقطة بالمنازل البيضاء، وفى الناحية الأخرى منه، وعلى بعد حوالى خمسة عشر أو عشرين ميلاً، زخرفت الجبال وردية اللون الأفق البعيد.

٨- جيوفانى لورنزو برنيلى (١٥٩٨-١٦٨٠) نحات ومعماري إيطالي ويعتبر مؤسس طراز الباروك الإيطالي.

قال چيريمى:

- ما هذا؟

قال السائق:

- إنه وادى سان فرناندو.

وأشار السائق إلى منتصف المسافة، ثم قال:

- هنا بيت جراوتشو ماركس^(١). نعم يا سيدى.

أسفل الجبل استدارت السيارة جهة اليسار، وضمت فى طريق واسع فى محازاة شريط من منازل الضواحي، مخترقه السهل الممتد، أسرع السائق فمر أمام چيريمى إعلان وراء إعلان بسرعة، وتنازل أريكه كثيرا.
- كابينة البيرة كل وأرقص فى قصر هونولولو علاج روحانى رى بلوك لونيچ هوت دوجز اشتر بيتك الذى تعلم به ... الآن.

وخلف الإعلانات ظهرت صفوف من شجر المشمش وشجر الجوز، زرعت بأنماط هندسته. مرت كلها أمامه فى تنازل سريع.
أخضر داكن، وذهبي، مزارع البرتقال الضخمة لامعة فى ضوء الشمس، مساحة كل مزرعة منها حوالى ميل مربع. عن بعد بدت الجبال ترسم رسمها البيانى الصاعد والهابط بلا معنى واضح.

قال السائق بشكل مفاجئ:

- طارزانا.

وكان الاسم معلقا بالفعل عبر الطريق بأحرف بيضاء. استمر السائق قائلاً:

- كلية طارزانا.

٩- ممثل أمريكى كوميدى.

أشار إلى مجموعة من القصور الإسبانية المتجمعة حول كنيسة رومانية.
- لقد أهداهم المستر ستويت قاعة للمحاضرات .

استدارت السيارة إلى اليمين عبر شارع أقل أهمية. مزارع البرسيم والحشائش ذات الرائحة الرطبة، حلت محل مزارع البرتقال لعدة أميال، على الأقل، ثم عادت مرة أخرى إلى الثراء والرفاهية. في ذات الوقت بدأت الجبال على الحافة الشمالية من الوادى تقترب ويميل من ناحية الغرب، وأخذت سلسلة أخرى تظهر من ناحية اليسار. استمر في السير، التف الطريق فجأة وبدا وكأنهما متجهان نحو نقطة التقاء السلسلتين الجبليتين. وفجأة، من خلال فتحة في المزارع، رأى جيريمي بورديج منظرا غريبا. على ارتفاع نصف ميل من أسفل الجبل، مثل جزيرة على ساحل منحدر، ظهر أمامهما جبل صخري، يبدو بعضه منحدرًا انحداراً شديداً نحو السهل، وفي أعلى قمة الجبل، وكأنه مزروع فيه، كان القصر - ولكن أى قصر! كان الدونجون^(١٠) مثل ناطحات السحاب، أبراجه الناتئة مدمجة مع السدود الأسفلتية في انسجام. كان الشيء غوطيا^(١١)، من العصور الوسطى، بارونيا^(١٢)... بارونيا مرتين. غوطيا بنوع من الغوطية تحاول أن تكون أرقى من الأصل، أكثر عصوراً-وسطية من أى مبنى من القرن الثالث عشر. لأن ذلك... ذلك الشيء، كما أسماه جيريمي، كان من العصور الوسطى، ليس بسبب ضرورة تاريخية سوقية، مثل كوتسى مثلاً أو آلديتش،^(١٣) ولكن يمكن القول إنها كذلك بشكل أفلاطوني للدعابة الطائشة. كان من العصور الوسطى فقط، كما يمكن لأى

١٠- برج كبير للمراقبة في قصور العصور القديمة.

١١- غوطيا: طراز معمارى يعود إلى عام ١١٥٠ وقد انتهى بمجيء فترة الرينيسانس فى القرن الخامس عشر.

١٢- بارونيا: نسبة إلى البارون.

١٣- مدينتان بإنجلترا، وتحضر آلديتش مدينة للسريق والسياحة وتشتهر بقصرها الكبير البارونى.

معمار حديث أن يكون، وكما يمكن لأفضل المهندسين المحدثين بآلاتهم الحديثة، أن يكونوا من وحى العصور الوسطى.

دهش جيريمي وسأل السائق، مشيراً إلى الكابوس الجائم فوق الجبل:

- وما هذا بحق السماء؟

قال السائق مبتسماً في زهو، وكأنه يملكه:

- هذا قصر المستر ستويت. إنه جميل فيما اعتقد.

حجبت مزارع البرتقال الرؤيا مرة أخرى. استند جيريمي بورديج إلى مقعده، وبدأ يفكر بتوجس في الورطة التي وضع نفسه فيها، عندما قبل عرض المستر ستويت. كان المرتب كبيراً، والعمل ذاته، وهو تبويب أوراق الهوبيرك الأسطورية، لا شك عمل مبهج. ولكن هذه المدافن، ذلك ال... شيء - هز جيريمي رأسه. كان يعلم بالطبع أن المستر ستويت رجل ثرى، يقتنى اللوحات الفنية، ويمتلك معرضاً في كاليفورنيا، ولكنه لم يتوقع هذا! لقد صدم ذوقه البيوريتانى الرفيع! كان مذهولاً من فكرة مقابلة الشخص المسئول عن ارتكاب مثل هذا الفعل. أى تواصل يمكن أن يتم، بينه وبين هذا الشخص؟ أى فكر أو إحساس يمكن أن ينتابه؟ لماذا أرسل في طلبه هو بالذات؟ لا يمكن أن يكون قد أعجب بكتاباته. ولكن هل قرأها أصلاً؟ هل يعرف حتى وصفاً له؟ هل يمكن، مثلاً، أن يفهم لماذا أصر على تسمية بيته الأروكارياس دون تغييره؟ هل يمكن أن يقدر رأيه في ...

قطع تفكيره المتوجس صوت نغير السيارة يدفعه السائق بإصرار. نظر جيريمي أمامه. على بعد خمسين ياردة منهم رأى سيارة فورد عتيقة، تسير ببطء شديد على الطريق، تحمل فوق سقفها بدون رباط آمن، بعض الحقائق، وأدوات منزلية، ملاءات، وأبور جاز، وأوانى للطبخ، خيمة مطبقة، وحمّاماً من الصفيح. عندما مرا

بجانبيها ، لمح جيريمي ثلاثة أطفال بعيونهم المتعبة، تبدو عليهم ،ظاهر الأنيميا الحادة، وامرأة تضع ملاءة حول كتفيها، ورجلاً شاحب الوجه، دقنه غير مخلوق.
قال السائق بصوت يملأه التهكم :

- عمّال التراحيل .

سأل جيريمي:

- ماذا؟

قال الزنّجى وكان الكلمة ذاتها توضح المعنى:

- عمّال التراحيل . أعتقد أن هناك كثيرين منهم من كانساس، لأن السيارة عليها أرقام كانساس . جاءوا ليجمعوا البرتقال أبو صرة .

سأل جيريمي فى دهشة:

- جمع البرتقال؟

قال السائق:

- البرتقال أبو صرة . إنه الموسم ، وهو موسم جيد هذا العام فيما أعتقد .

خرجوا من بين المزارع وظهر الشيء مرة أخرى، أكبر من ذى قبل . استطاع «جيريمي» أن يدرس تفاصيله أكثر . رأى حائطاً بأبراج كثيرة طوق أسفل الجبل، يليه خط دفاعى آخر مثل قلاع الصليبيين، أما على القمة، فكان المربع ذاته محاطاً بمبانٍ إضافية .

بعد «الشيء»، اتجهت عينا جيريمي نحو مجموعة من البنايات فى السهل الممتد، ليست بعيدة عن سفح الجبل . على واجهة إحداها كتابة بأحرف ذهبية: بيت ستويت للأطفال المرضى . فوقها علمان: أحدهما بالنجوم والخطوط، والآخر علم أبيض ، عليه حرف السين باللون الأحمر الداكن، يرفرف كلاهما فى نسيم

الهواء. تلا ذلك شجيرات الجوز، لم تورق، لتحجب الرؤية مرة أخرى. فى نفس الوقت أوقف السائق السيارة فجأة، وأطفأ الموتور بجانب رجل كان يمشى بخطوة رشيقة ونشطة، على حافة حشيش الطريق .

قال الزنجى:

– هل تريد توصيلة، يا مستر برويتر؟

أدار الغريب رأسه وابتمس إلى السائق عندما رآه، واقترب من السيارة. كان ضخم الجثة، عريض المنكبين، محنياً بعض الشيء. شعره بنى اللون، زحف عليه بعض الشيب. وجهه، كما لاحظ جيري، كان مثل رجه أحد تلك التماثيل الخوطية المنحوتة لتوضع فى مكان رفيع المستوى، فى الواجهة الغربية. وجه به نتوءات كثيرة وفراغات عميقة، خشنة، تبدو معبرة جداً عن بعد، ولم يكن هذا الوجه بالذات معبراً عن بعد فقط، إنما عن قرب أيضاً، إذ به نوع من الخصوصية والقوة والهدوء والطيبة. وجه يعبر عن الطاقة والصلابة.

قال الغريب:

– أهلاً يا جورج. شكراً لتوقفك من أجلى.

قال الزنجى بأدب:

– أنا سعيد لرؤيتك يا مستر برويتر.

ثم استدار فى مقعده وأشار بيده ناحية جيري وقال بنبرة رسمية:

– أعرفك بمستر بورديج من إنجلترا. مستر بورديج، هذا مستر برويتر.

تصافح الرجلان، وبعد تبادل السلامات ركب مستر برويتر السيارة، واستكمل

السائق رحلته. قال برويتر:

– هل تنوى زيارة مستر ستويت؟

هز جيريمى رأسه بالنفى. إنه هنا للعمل ولفحص بعض المخطوطات -
وليكون أكثر دقة - لفحص أوراق الهويريك.

أنصت مستر برويتر باهتمام، وهو يهز رأسه بين الحين والآخر، وعندما أنهى
جيريمى كلامه، جلس لحظة فى صمت، وفى النهاية قال:

- خذ مسيحياً عتيقاً وبقايا رواقى، اخلطهما جيداً حسن الأدب، وأضف إليه
بعض النقود، وأعطه تعليماً من طراز قديم، اطهه على نار هادئة لعدة سنوات فى
جامعة من الجامعات. النتيجة: عالم وچنتلمان. على أية حال، فى الدنيا أنواع أسوأ
من البشر.

ضحك ضحكة قصيرة ثم أضاف:

- أستطيع أن أدعى أننى كنت أنا نفسى واحداً من هؤلاء، منذ زمن بعيد.

نظر إليه جيريمى فى تساؤل، وقال:

- أأنت أنت وليام برويتر؟ أنت الذى كتبت «دراسات قصيرة فى الإصلاح

المضاد»؟

أوماً الثانى برأسه.

نظر إليه جيريمى فى سعادة ودهشة. هل هذا معقول؟ هذه «الدراسات
القصيرة، كانت واحدة من كتبه المفضلة، ونموذجاً للنوعية التى يحبها.

- أما عجيبة فعلاً.

قالها بصوت عال، مستخدماً عبارة صبية المدارس عن قصد، وكأنها بين
قوسين. لقد اكتشف أن تأثير هذه الكلمات أثناء الكتابة أو الحديث، كان مذهلاً،
خاصة حين يستخدمها فى إطار رصين وثقافى، وهى جملة بالعامية، كنوع من
السباب والفحش الطفولى. قال مرة أخرى: على اللعنة. كان يدرك تفاهة كلماته
المقصودة، مما جعله يربت على رأسه الصلعاء، ويتلحح قليلاً.

ساد صمت قصير، ثم بدلا من الكلام عن الدراسات القصيرة كما توقع
چيريمى، هز مستر برويتر رأسه وقال:

- نعم، معظمنا كذلك.

سأل چيريمى:

- كذلك ماذا؟

أجاب:

- أصابتنا اللعنة بالمعنى السيكلوجى للكلمة.

انتهت أشجار الجوز، وبدأ ذلك الشيء مرة أخرى فى مقدمة الرؤيا. أشار مستر
برويتر ناحيته، وقال:

- مسكين چوستويت. تخيل هذه الطاحونة معلقة حول رقبتك. هذا بالطبع
بالإضافة إلى كل الطواحين الأخرى المصاحبة لها. نحن محظوظون، ألا تظن
ذلك؟ نحن الذين لم نتح لنا الفرصة لنكون أسوأ من علماء من طبقة چنتلمان!
وبعد لحظات صمت، أكمل بابتسامة:

- مسكين چو. إنه ليس أيًا منهم. سوف تجده مُتعبًا قليلا، لأنه سيرغب بالطبع
فى ممارسة الاستبداد عليك، لمجرد أن العرف يقول إنك من نوع متفوق على
نوعه.

نظر إلى وجه چيريمى بمزيج من التعاطف والاستمتاع، وقال:

- هذا بالإضافة إلى أنك من ذلك النوع من الناس الذى يشجع الآخرين على
اضطهادك، إنك من نوع الضحايا، مع الأسف، بالإضافة لكونك عالما وچنتلمان.
ابتسم چيريمى بعصبية ومزيج من الضيق لعدم كياسة الرجل، وكذلك السعادة
لصداقته. هز رأسه بالإيجاب. استمر مستر برويتر فى الحديث:

- ربما ... ربما يساعدك قليلا، ألا تبدو كالضحية أمام جو ستويت، لو عرفت السبب الرئيسي وراء رغبته فى ذلك، بهذه الطريقة.
أشار إلى الشيء، وقال:

- كنا معا فى المدرسة، جو وأنا - ولكن فى تلك الأيام لم يسمه أحد جو. كنا نسميه التخين أو التخترخ، لأن جو المسكين كان طفلا بدينا، بل كان فى الواقع الطفل البدين الوحيد فى المدرسة، فى تلك السنوات.
توقف برهة ثم استمر ببيرة مختلفة:

- كنت دائما أتساءل لماذا يصحك الناس على البدين؟ ربما هناك خطأ ما فى البدانة فى حد ذاتها! فمثلا، ليس هناك قديس واحد بدين - إلا بالطبع السير توماس أكيناس^(١٤). ولا أرى سبباً واحداً يفترض أنه قديس حقيقى - قديس بالمعنى المتعارف عليه، هو فى الواقع المعنى الصحيح للكلمة. إذا كان فينسنت دى بول^(١٥) قديسا، وقد كان كذلك بلا شك، فإن توماس أكيناس لم يكن كذلك. وربما كان كرشه الكبير هو السبب! من يدري؟ ولكن على أية حال، هذا شيء عارض. إننا نتحدث عن جو ستويت. كما كنت أقول، كان جو المسكين طفلا بدينا، ربما أنه بدين، كان بالتالى صيدا سهلا لنا. يا الله! كم عاقبناه على قصور غدده! وكم كان رد فعله على هذه العقوبة كارثة! محاولة تعويضية زائدة عن الحد ... ولكن ها قد وصلت إلى بيتي!

نظر خارج نافذة السيارة التى أبطأت ثم توقفت أمام بيت صغير أبيض، وسط

١٤- توماس أكيناس: قديس إيطالى (١٢٢٥-١٢٧٤) وكان يعرف باسم الطبيب الملائكى.
١٥- فينسنت دى بول: (١٥٨١-١٦٦٠) قس فرنسى منح صفة القداسة عام ١٧٣٧.

خميلة أشجار الكافور.

- سوف نكمل هذا الحوار فى وقت لاحق. ولكن، إذا أهانك، تذكر حاله أيام الدراسة، فتأسف عليه، ولا تأسف على نفسك.

خرج من السيارة، أغلق الباب، وأشار بيده إلى السائق، ثم هرع نحو بيته الصغير ودخل.

مضت السيارة فى طريقها مرة أخرى . جلس چيريمى ينظر من النافذة وقد انتابه مزيج من الدهشة والثقة بسبب لقائه بكاتب الدراسات القصيرة. اقتربا من الشىء، وفجأة لاحظ، ولأول مرة، أن القصر الجبلى كان محاطا بخندق من المياه. على بعد بضعة ياردات من حافة المياه، مرت السيارة بين عامودين يعولهما أسدان كبيران. يبدو أن السير بينهما يمر عبر شعاع من الضوء، مسلط على خلية كهربائية، إذ بعد مرورهما مباشرة بدأ الجسر المتحرك ينزل ببطء. قبل وصولهما إلى الخندق بخمس ثوان، كان الجسر ممدداً فى مكانه، فمرت السيارة ببطء وتوقفت أمام المدخل الرئيسى للسور الخارجى للقصر. نزل السائق من السيارة وتحديث فى سماعة هاتف مخبأة فى مكان مناسب، معلنا عن قدومهما.

ارتفع الحاجز الحديدى المطفى بالكروم، دون أن يصدر صوتا، وانفتح الباب الثانى المصنوع من الحديد المطفى.

عبراً، وبدأت السيارة فى الصعود. كان للصف الثانى من الأسوار باب آخر انفتح آلياً عند اقترابهما. بين الناحية الداخلية للسور الثانى، وسفح الجبل، تم تركيب جسر منخضم للغاية من الأسمنت المسلح، يكاد يتسع لملاعب تنس. فى الفراغ المظلم

تحتهم لمح جيري مي شيئا مألوفاً بعد لحظات تعرف عليه ، إنه تقليد لكهف لورد^(١٦) .

أشار السائق إلى الكهف وقال :

– الآنسة مونسييل . إنها كاثوليكية ، لذلك صنع لها هذا . أما نحن في عائلتنا ، فإننا مشيخيون^(١٧) .

– ومن هي الآنسة مونسييل ؟

تردد السائق لحظة ثم قال موضحاً :

– إنها امرأة شابة ، صديقة للمستتر ستويت .

ثم غير الموضوع .

استمرت السيارة في الصعود . كان الجبل خلف الكهف مرشوقاً بدقائق الصبار . صعد الطريق تجاه اليسار ، وحلت شجيرات صغيرة محل الصبار . فوق شرفة صغيرة بأنافة زائدة مثل عارضات الأزياء في مجلة فوج في عدد مخصص عن أساطير الآلهات ، وقفت حورية برونزية لجيامبولونيا^(١٨) ، تتدفق من صدرها الشهي المطلق ، نافورتان من المياه . بعدها بقليل ، وخلف شبكة حديدية ، جلس عدد من قردة البابون القرفصاء بين الصخور ، بينما البعض الآخر يسير مستعرضاً مؤخرته العارية .

استدارت السيارة مرة أخرى وهي لا تزال في صعود ، ثم توقفت أخيراً فوق رصيف أسمنتي مستدير ، معلقاً فوق حافة سحيقة بكابولي .

مرة أخرى ، كالخدم من الطراز القديم ، خلع السائق قبعته ، ورحب بالسيد الجديد في بيت المزرعة ، ثم بدأ في إنزال الحقائق .

١٦ – لورد: موقع في جبال البرانس يحج إليها الحجاج الكاثوليك حيث يزورون كهفاً يقال إن السيدة العذراء ظهرت فيه عام ١٨٥٨ .

١٧ – مشيخيون: طائفة إنجيلية مسيحية .

١٨ – جيامبولونيا: نسبة إلى اللحات الفلورنسي جين دي بولونيا (١٥٢٩-١٦٠٨) والذي اشتهر بمدحواته العارية .

سار جيريمى إلى الدرايزين ونظر إلى أسفل. كانت الأرض تنحدر بشدة نحو مائة قدم، ثم تدخل بحدة إلى دائرة الأسوار الداخلية، وظهرت أسفلهما الاستحكامات الخارجية. بعدها كان الخندق، وبعده مزارع البرتقال. تتمم فى نفسه بالألمانية :

- «فى لمعان قلب البرتقال الذهبى».

ثم قال:

- «إنه معلق فى الخيال، هذا البريق البرتقالى. مثل الثريا الذهبية فى ليل

أخضر».

قرر أن أداء مارفيل^(١٩) بالتأكيد أفضل من جوته^(٢٠). وفى ذات الوقت بدا البرتقال أكثر بريقا وذا دلالة أكبر. لم يكن باستطاعة جيريمى استيعاب التجربة المباشرة دون تأمل، فقد كانت التجارب شيئا مقلقا بالنسبة له. إن الحياة تبدو له أكثر أمدا، وذات معنى، فقط عندما يترجمها إلى كلمات بين ضفتى كتاب. كان البرتقال جميلا ومنسقا، ولكن ماذا عن القصر؟ استدار واستند إلى الدرايزين، رفع بصره لأعلى. كان الشئ مشرفا عليه، وبدا وقحا. لا يمكن أن يتعامل أحد معه بالشعر! لا تشايد رولاند^(٢١)، ولا ملك ثول^(٢٢)، ولا مارميون^(٢٣)، ولا الليدى شالوت^(٢٤)، ولا سير ليولين^(٢٥). كان هذا الأخير ذا حس عبثى رومانسى - سير

١٩- لمسة إلى أندرو مارفل (١٦٢١-١٦٧٨) شاعر إنجليزى.

٢٠- لمسة إلى يوهان وولفجانج جوته (١٧٤٩-١٨٣٢) الكاتب والشاعر الألمانى الشهير.

٢١- شخصية أسطورية فى قصيدة غنائية أسكتلندية.

٢٢- وثول جزيرة فى البحار الشمالية وقد ذكرها البحار الإغريقى بايثياس فى القرن الرابع، وقد تكون اللويدى اليوم.

٢٣- قصيدة كتبها السير والتر سكوت الشاعر الإنجليزى نشرت عام ١٨٠٨.

٢٤- قصيدة كتبها ألفريد تيليسون عام ١٨٥٢.

٢٥- شخصية من قصيدة «كريستابل» لكولريدج.

ليولين البارون الثرى الذى يملك ... ماذا؟ كلبة حراسة بدون أسنان! لكن مستر ستويت كان يملك بيوانات وكهفًا مقدسًا، وكان من الكروم، وأوراق الهوبيرك، وكان لمستر ستويت مدافن تشبه الملهى، ودون چون يشبه ...

فجأة سمع صوت دوى، ورأى الباب المرشّق بالمسامير على الممر الإنجليزى يفتح للخلف، اندفع من بين صفتيه، كالإعصار، رجل قصير، بدين بعض الشيء، وجهه أحمر وشعره أبيض كالثلج، واتجه ناحية جيريمى. لم يتغير تعبير وجهه عندما وصل عنده. كأنه يرتدى قناعاً مغلقاً دون أن يتنسم، مثل الذى يرتديه العمال الأمريكيون عندما يتعاملون مع الغرباء - فمن خلال عدم الإتيان بأية حركة مجاملة، يثبتون أن دولتهم دولة حرة، وأنتك لن تتفوق عليهم!

وما أن جيريمى لم يترب فى دولة حرة، بدأ بيتسم تلقائياً عندما اقترب هذا الشخص مسرعاً، والذى خمن أنه غالباً مضيقه ومستخدمه، وعندما قابله الوجه الآخر بصرامة صامدة، انتبه فجأة لابتسامته، ومنتبها أنها ليست فى محلها، وأنها فى الغالب تجعله يبدو كالأحمق، ويارتباك شديد، حاول أن يعدل التعبير على وجهه.

سأل الغريب فى صوت يشبه اللباح:

- مستر بورديج؟ سعيد بلقائك. اسمى ستويت.

صافحه، ولكن ظل ينظر إلى وجه جيريمى دون أن يبتسم. أضاف:

- إنك أكبر مما ظننت.

للمرة الثانية هذا الصباح عمل جيريمى حركته الاعتذارية، التى تجعله يبدو مثل عارضة الأزياء، ثم قال:

- ورقة الشجر الذابلة والضعيفة، حينما تسقط فى الوهن، فإننا ...

قاطعه ستويت:

- كم عمرك؟

قالها بصوت عال وحاسم، مثل ضابط الشرطة أثناء استجوابه للص مقبوض

عليه:

- أربع وخمسون.

هز ستويت رأسه:

- فقط أربع وخمسون. المفروض أن تكون أكثر حيوية في سن الرابعة

والخمسين.

ثم أضاف:

- كيف حال حياتك الجلسية؟

ارتبك چيريمى، وحاول أن يضحك فى خجل. ربت على رأسه الصلعاء،

ولمعت عيناه، ثم قال بالفرنسية:

- صيفى وربيعى هربا من النافذة...

قاطعه ستويت مقطباً وجهه:

- ما هذا؟ لا فائدة من الحديث معى بلغة أجنبية. لم ألق أى نوع من التعليم.

ثم فجأة انفجر ضاحكا كالنباح وقال:

- أنا رئيس شركة بترول هنا. لدى ألفا محطة بنزين فى كاليفورنيا وحدها،

وكل العاملين بها خريجو جامعات!

نبح ثانية بانتصار وأكمل قائلاً:

- اذهب وتحدث معهم باللغات الأجنبية.

صمت برهة ثم أضاف دون تسلسل واضح للأفكار:

- وكيلي في لندن، الذى يشترى لى الأشياء هناك، أعطانى اسمك. قال إنك الرجل المناسب لهذه - ماذا تسميها؟ أنت تعرفها، الأوراق التى اشتريتها هذا الصيف. روباك؟ هوباك؟

قال چيريمى:

- الهويرك.

عرف آنذاك بارتياح وكآبة فى آن واحد، أنه كان على حق، فالرجل لم يقرأ كتبه، ولم يسمع حتى بوجوده. ولكن لا بأس، كان عليه أن يتذكر أن ستويت عندما كان صغيرا كان يسمى ذا البطن الجبلى.

قال ستويت بازدياء وعصبية:

- هويرك. على أية حال، قال إنك الرجل المناسب.

ثم بدون توقف أضاف:

- ماذا كنت تقول عن حياتك الجنسية حينما بدأت هذا الهراء الأجبنى معي؟

- حاولت الإشارة إلى أن هذا طبيعى بالنسبة لرجل فى سنى.

قال ستويت:

- وماذا تعرف أنت عما هو طبيعى فى سنك؟ اذهب وتحدث مع الدكتور أوييسبو فى هذا الشأن. لن يكلفك شيئا لأننى أدفع لأوييسبو مرتبه. إنه طبيب المنزل.

رفجأة غير الموضوع:

- هل تريد أن ترى القصر؟ سوف آخذك فى جولة فيه.

أجاب چيريمى بمشاعر فياضة:

- هذا كرم منك.

ثم أضاف حتى يبدو محاورا مهذبا:

- لقد رأيت مدفئك.

قال ستويت بلهجة شك ما لبثت أن تحولت إلى غضب شديد، فصاح:

- رأيت مدفلي؟ ماذا تقصد بحق الجحيم؟

أخذ جيريمي يتمتم مرتعدا أمام ثورة ستويت، وقال شيئا عن بانثيون بيفرلي، وأنه قد فهم من السائق أن مستر ستويت له اهتمامات استثمارية في هذه الشركة.

قال الآخر وقد هدأت ثورته بعض الشيء، ولكن لم يزل مقطب الوجه:

- آه نعم. ظننت أنك تقصد...

قطع جملته في منتصفها، تاركا جيريمي يحاول تخمين ما اعتقد ستويت أنه

يقصد.

نبح ستويت وقال:

- هيا بنا.

ثم تحرك سريعا وهرع نحو مدخل البيت.

الفصل الثالث

كان عبير ١٦ من نُزل ستويت للأطفال المرضى مغلفا بصمت ... صمت، ينبعث ضوء الغسق من بين ستائره المعدنية الرقيقة. لقد كانت فترة راحة الصباح. كان ثلاثة من بين الأطفال الخمسة، أطفال في عبير النقاة نائمين، والرابع جلس يتأمل السقف، واضعا إصبعه في أنفه. أما الخامسة فأخذت تهمس لعروسة آرية^(١) مثلها، ذات شعر مجعد، بينما جلست الممرضة بجوار النافذة، منهمكة في قراءة العدد الأخير من الاعترافات الحقيقية.

قرأت:

- «قلبه ترنج، وبصرخة مكتومة احتضننى. ظلنا خمسة أشهر نقاوم هذا بالذات، ولكن الجاذبية بين مشاعرنا كانت أقوى منا. ضغطة فمه على شفتى أشعلت جسدى الذى ذاب فيه. همس: جيرمين، لا تجعلينى انتظر أكثر من هذا. أن تكونى لطيفة معى الآن؟

كان طيبا وقويا، كما تريد المرأة للرجل أن يكون. شعرت بنفسى أنجراف مع التيار المتصاعد...

سمعت ضوضاء فى الممر، وانفتح باب العبير وكأنه إعصار، ودخل أحدهم يجرى إلى الغرفة. نظرت الممرضة فى دهشة وضيق بسبب اندماجها فى ثمن النشوة، وكان رد فعلها الفورى هو الغضب. صاحبت بسخط:

- ما هذا؟

فجأة رأت المتطفل، فتغير تعبير وجهها وقالت:

- المستر ستويت!

١- آرية: من الجنس الأرى الأبيض.

أنزل الطفل الذى كان يضع إصبعه فى أنفه وعيناه فى السقف، وقد أفاق على الضجيج، وكذلك التفتت الصغيرة بعيداً عن عروستها. صاحوا معا:

-العم جو، العم جو.

أفاق باقى الأطفال وصاحوا معا:

- العم جو. العم جو.

فرح المستر ستويت بدفء المقابلة. لاحظ جيريمى أن الوجه الذى كان عبوساً منذ قليل، أصبح مسترخياً ومبتسماً. وضع ستويت يديه فوق أذنيه، وكأنه يعترض على الصراخ وصاح:

- ستجعلوننى أصم!

ثم التفت إلى الممرضة وهمس:

- الأطفال المساكين! يجعلوننى أشعر بالرغبة فى البكاء.

أصبح صوته أجش من الانفعال، وهز رأسه وأضاف:

- وعندما أفكر، كم كانوا مرضى...!

ثم دون أن يكمل جملته قال بذبذبة أخرى:

- على فكرة...

أشار إلى جيريمى بيده المربعة الكبيرة، وكان جيريمى واقفا بجانب الباب بعد أن تبعه إلى العنبر، تعلو وجهه تعبيرات الإحراج والدهشة.

- هذا مستر... مستر... اللعنة! لقد نسيت اسمك.

قال جيريمى وقد ذكّر نفسه أن اسم ستويت كان ذات يوم: «التخين».

- بورديج.

قال ستويت بتهكم للممرضة:

- بورديج. هذا هو. أسأليه عن التاريخ والأدب. إنه يعرف كل شيء.
اعترض جيريمي بتواضع، وحاول أن يوضح أن الفترة التي تخصص فيها هي ما بين اختراع أوسيان^(٢) وحتى موت كيتس^(٣)، ولكن مستر ستويت التفت للأطفال وقال في صوت عالٍ، أغرق اعتراضات الآخر الضعيفة:

- خمنوا ماذا أحضر لكم العم جو؟

أخذوا يخبئون. الحلويات. اللبان. البالونات. فئران التجارب. ظل ستويت يهز رأسه بالنفي في انتصار. وأخيراً، عندما تعب الأطفال وأنهكت قوى تخيلاتهم، وضع يده في جيب الجاكيت التويد، وأخرج أولاً صفارة، ثم ناياً، ثم علة موسيقية، ثم بوقاً، ثم خشخشا خشبياً، ثم مسدساً أوتوماتيكياً.... ولكن عاد فوضع هذا الأخير سريعاً في مكانه. قال بعد أن وزّع الأدوات كلها:

- والآن اللعب. هيا معا، واحد، اثنان، ثلاثة.

ثم بدأ في الغناء وهو يحرك ذراعيه:

- هيا نبحر عبر نهر السواني.

وهنا بدأ وجه جيريمي يبدى دهشة أكبر من كل الاندهاشات والمفاجآت السابقة.
أى صباح هذا! الوصول فجرًا. الخادم الزنجى. الصاحبة الممتدة. بانثيون بيفرلى. الشيء القابع وسط أشجار البرتقال. مقابله لويليام برويتر، وهذا الشخص البشع ستويت. ثم داخل القصر نفسه، لوحات روبين^(٤) وإل جريكو^(٥) فى المدخل،

٢- أوسيان: اسم لأوسين، محارب فرنسي أسطوري وأيضاً شاعر قيل أنه عاش في القرن الثالث.

٣- كيتس: الشاعر الإنجليزي جون كيتس (١٧٩٥-١٨٢١) وقد كتب العديد من القصائد منها القارورة الإغريقية وسابكى.

٤- روبين: نسبة إلى بيلر بول روبين (١٥٧٧-١٦٤٠) رسام فلمنكى، وكان أسلوبه الباروكى مميزاً بالزخرفة العالية.

٥- إل جريكو: وهو الاسم الذى اشتهر به الرسام دومينيكوس ثيوتوكوبولوس المولود فى كريت (١٦١٤-١٥٤١) واستقر فى توليدو باسبانيا، واشتهر باستخدامه الألوان الرمادية ليعطى إحصاء دراماتيكية وصوفيا.

لوحة فيرمير^(٦) فى المصعد، نحت رامبرانت^(٧) فى المخمرات، لوحة ونترهولتر^(٨) فى مخبأ رئيس الخدم. ثم مخدع الأنسة مونسييل على طراز لويس الخامس عشر، كاملا بلوحات واتو^(٩) ولوحتان للانكريت^(١٠)، والنافورة فى الفتحة، من طراز الروكوكو^(١١)، والأنسة مونسييل ذاتها، مرتدية كيمونو برتقالى اللون، تشرب الأيس كريم صودا المصنوع من التوت والنعناع وهى تجلس جنب طاولتها الخاصة. لقد تعرف عليها، ولكنه رفض عرضها بالأيس كريم بالفواكه، فى حين جذبته ستويت، دائما بسرعة، دائما وكأنه على جناح إعصار، ليرى باقى معالم القصر. حجرة الضجة مثلا، بأفئالها الجبس الملونة، السيرت. المكتبة المصنوعة من الخشب وقد صممها جرينلينج جيبونز^(١٢). إلا أنها كانت بدون كتب، لأن ستويت لم يحمل نفسه على شراء أى منها. حجرة الطعام الصغيرة، بلوحة فرا أنجيليكو^(١٣)، وأثاثها من معرض جناح برايتون. حجرة الطعام الكبيرة والمصنوعة كنموذج مصغر من الداخل لجامع الفاتح بور سيكرى. صالة الرقص بمراياها وسقفها المتين. الزجاج المرسوم من القرن الثالث عشر فى مرحاض الدور الحادى عشر.

٦- الفرير: نسبة إلى جان فيرمير (١٦٣٢-١٦٧٥) رسام هولندى اشتهر برسم المناظر الطبيعية الهادئة التى تتناول التكوينات والألوان الدقيقة.

٧- رامبرانت: نسبة إلى رامبرانت فان رى (١٦٠٦-١٦٦٩) رسام ونحات هولندى اشتهر برسم الموضوعات المأخوذة عن الكتاب المقدس والبروتريجات والأشكال المفعمة بالمشاعر الغياضة.

٨- ويلترهولتر: نسبة إلى فرانز جرافير (١٨٠٦-١٨٧٣) رسام ألمانى اشتهر برسم البورتريه للملوك والأمراء.

٩- واتو: نسبة إلى انطون واتو (١٦٨٤-١٧٢١) رسام فرنسى اشتهر برسم الملابس الغريبة لشخصياته وسميت بعض الأزياء باسمه.

١٠- لانكريت: نسبة إلى نيكولاس لانكريت (١٦٩٠-١٧٥٤) رسام فرنسى تأثر بواتو.

١١- روكوكو: طراز معمارى من القرن الثامن عشر اشتهر بكثرة زخارفه.

١٢- جرينلينج جيبونز: نحات خشب ومثال إنجليزى (١٦٤٨-١٧٢٠) وكان يرسم موتيفات الورد والفاكهة ولوحاته موجودة فى القصور الملكية الإنجليزية.

١٣- فرا أنجيليكو: واسمه الأصلى جينودى بيترى (١٣٨٧-١٤٥٥) رسام إيطالى، وكان راهبا دومينيكانيا فكانت رسوماته دينية، ومباشرة وبسيطة، وقد رسم العديد من اللوحات للفاتيكان.

حجرة الصباح، بلوكة بوشير^(١٤) المسماة مورفيل الصغيرة، ومؤخرة مورفيل مرفوعة لأعلى، وهى جالسة فوق منصدة وردية حريرية. ثم الكنيسة الصغيرة، والتي تم استيرادها قطعة قطعة من جوا، كاملة بحجرة الاعتراف المصنوعة من شجر الجوز، والتي كان يستخدمها القديس فرانسوا دى سال^(١٥) فى آنسى. وحجرة البلياردو الرياضية. وحمام السباحة الداخلى. وبار الإمبراطورية الثانية، بلوحت إنجريس^(١٦) العاريات. الجيمنازيوم. حجرة قراءة الكريستيان ساينس، والتي تم إهداؤها إلى ذكرى الممزر ستويت. عيادة طبيب الأسنان. الحمام التركى. ثم النزول مع فيرمير إلى باطن الجبل، ليرى البدروم الذى تم تخزين أوراق الهيريرك فيه. ثم النزول أكثر وأعمق، إلى الخزائن الكبيرة، ووحدة الكهرباء، والتكييف المركزى، والبحر ومحطة الضخ. ثم الصعود مرة أخرى إلى الدور الأرضى حيث المطابخ، وحيث ظل الطباخ الصينى يستعرض لمستز ستويت إرسالية السلاحف التى وصلت توا من الكاريبى. ثم صعود مرة أخرى إلى الدور الرابع عشر، إلى حجرة النوم التى سيشتغلها جيريمى فترة بقاءه هنا. ثم الصعود ستة أدوار أخرى إلى مكاتب العمل، حيث أعطى مستز ستويت أوامره للسكربتيرة، وأملى عليها بعض الخطابات، ثم قام ببعض الاتصالات الهاتفية الطويلة مع سماسرته فى امستردام. وعندما أنهى كل هذا، كان الوقت قد حان للذهاب إلى المستشفى.

وفى الوقت نفسه، بالعنبر ١٦، تجمعت بعض الممرضات لمشاهدة العم جو، بشعره الأبيض المتطاير الذى يشبه ستوكوسكى^(١٧)، يعزف على الآلة بشكل

١٤- بوشير: نسية إلى فرانسوا بوشير (١٧٠٣-١٧٧٠) رسام فرنسى اشتهر بالرسم على القماش والرسومات الميولوجية غير الدقيقة.

١٥- فرانسوا دى سال: مطران كاثوليكي (١٦٢٢-١٥٦٧) وكان كاثيا دينيا، وقد عين مطرانا أكبر لسويسرا.

١٦- إنجريس: نسية إلى جان أرغسطس درمينيك إنجريس (١٧٨٠-١٨٦٧) رسام كلاسيكى اشتهر برسوماته للموضوعات الميولوجية والمارية.

١٧- ستوكوسكى: نسية إلى ليوبولد ستوكوسكى (١٨٨٢-١٩٧٧) وهو مايسترو إنجليزى من أصل بولندى.

جنونى، وبأصوات تعلو وتعلو فى تدرج نشاز، حتى الذروة .

قالت إحداهن بصوت حنون:

– هو نفسه مثل طفل كبير.

وأعلنت أخرى، يبدو عليها الميول الأدبية، إن به شيئاً من روايات ديكنز (١٨)،

ثم التفتت إلى جيريمى وسألته:

– ألا تظن ذلك؟

ابتسم بعصبية وهز رأسه بشكل مبهم، دون أن يورط نفسه.

ويأكثر عملية، قالت ثالثة إنها كانت تتمنى لو لديها كاميرا كوداك:

– الكاميرا الخفية لرئيس شركة كونسول للبترول، وكاليفورنيا للأراضى

والمعادن، وبنك الباسيفيك، ومدافن الساحل الغربى، إلخ، إلخ...

سردت كل أسماء الشركات الرئيسية التى يمتلكها مستر ستويت، بنوع من

السخرية ولكن أيضا بتلذذ واستمتاع، مثلما قد يفعل شخص ما، مقتلعا بشرعية كل

هذا، وهو يستعرض مازحاً يعدد ألقاب عظيم من عظماء أسبانيا. قالت بإصرار:

– سوف تدفع لك الجرائد ما لا كثيراً من أجل هذا...

ولإثبات صحة ما تقول، أوضحت أن صديقاً لها يعمل فى شركة إعلانات، وهو

عليم بكل هذه الأشياء، وقد قال لها فى الأسبوع السابق فقط أن...

وجه المستر ستويت المغلق، وهو خارج من المستشفى، لا يزال مضاء بالرحمة

والسعادة.

أخذ يردد لجيريمى:

– اللعب مع هؤلاء الأطفال المساكين يجعلك تشعر بأحاسيس جميلة.

١٨- ديكنز: نسبة إلى تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) روائى إنجليزى.

كان السلم الواسع النازل من المستشفى مؤدياً إلى بابها الرئيسي، ثم إلى خارجها على الطريق العام. أسفل هذه السلالم كانت سيارة مستر ستويت الكاديلاك الزرقاء في انتظاره. وقد وقفت خلفها سيارة أخرى أصغر منها، لم تكن هناك من قبل عند وصولهما. عندما لمحها المستر ستويت، امتلأ وجهه المضيء بنظرة شك وريبة. مختطفون، مبتزون - الواحد منا لا يمكن أن يعرف! ذهبت يده فوراً إلى جيب سترته. صاح في صوت تملأه الثورة حتى إن جيريمي ظن أن الرجل قد أصيب فجأة بالجنون، وقال:

- من هناك؟

وبوجه ضخم ولكنه مستدير كالقمر، تبدو عليه ملامح التعالي، أخرج رجل رأسه من نافذة السيارة، وعلى فمه ابتسامة بينما يلوك عقب سيجار كبير. قال مستر ستويت:

- آه، هذا أنت يا كلانسي. لماذا لم تقل لي أنك هنا؟

بدا وجهه مظلماً، وكان مقطب الوجه، وظلت عضلة في وجنته تختلج.

صرخ في وجه السائق:

- لا أحب سيارات غريبة حولي. هل تسمع يا بيترز؟

لم يكن هذا بالطبع ذنب السائق، ولكن فقط لأنه كان موجوداً هناك. أكمل:

- هل تسمع ما أقول؟

ثم فجأة تذكر ما قاله الدكتور أوييسبو عندما فقد أعصابه معه مرة:

- هل حقاً تريد أن تقصر حياتك يا مستر ستويت؟

كان صوت الطبيب بارداً، ومستمعاً، ومبتسماً بسخرية، ثم أضاف:

- هل أنت مصّر على أن تصاب بأزمة قلبية؟ تذكر: إنها الأزمة الثانية، وإن

تنجو منها هكذا ببساطة فى المرة القادمة. اذا كان الوضع كذلك، إذن فاستمر فى التصرف كما تفعل الآن. استمر استمر.

و بمجهود إرادى ضخم، ابتلع مستر ستويت غضبه، وقال لنفسه:
- الله محبة. لا يوجد موت.

كانت زوجته المتوفاة، برودنس ماكجلادرى ستويت من أتباع كنيسة الكريستيان ساينس. قال ثانية:
- الله محبة.

ثم فكر أنه إذا كف الناس عن أن يثيروا السخط، فقد لا يحتاج لأن يفقد أعصابه بهذه الطريقة. الله محبة. كان كل هذا ذنبهم.

فى تلك الأثناء ترك كلانسى سيارته، وصعد السلم ببطئه الكبيرة المشوهة المعلقة على أرجل طويلة ونحيلة، وظل يتسم بغموض ويغمز بعينه.
سأله المستر ستويت:

- ماذا تريد؟

وتمنى فى نفسه لو يكف الرجل عن تلك الحركات بوجهه. ثم أضاف:
- آه، على فكرة، هذا المستر... المستر...

قال جيريى:

- بورديج.

كان كلانسى سعيداً بلقائه. اليد التى امتدت لجيريى كانت مبتلة بالعرق ومقززة.

قال كلانسى بصوت غليظ وثأمرى:

- عندى أخبار لك.

غطى فمه بيده حتى يكون كلامه، ورائحة السيجار، فقط من نصيب المستر ستويت، ثم أضاف:

- هل تذكر تيتليوم

- الرجل من الإدارة الهندسية بالمدينة؟

هز كلانسي رأسه بالإيجاب، وغمز بعينه مرة أخرى ثم قال بتأكيد شديد:

- واحد من أولادنا.

سأل ستويت:

- ماذا به؟

فبالرغم من كون الله محبة، بدأ صوته يعلو في غضب متصاعد من جديد.

نظر كلانسي إلى جيري مي بورديج، ثم بطريقة جاي فوكس^(١٩) وهو يتحدث مع كاتسبي^(٢٠) على مسرح القرية، جذب ذراع مستر ستويت وأبعده بضعة أقدام صعدا على السلم. سأل بدون أن ينتظر إجابة:

- هل تعرف ما قاله لي تيتليوم اليوم؟

- وكيف لي أن أعرف بحق الشيطان؟

(ولكن لا، الله محبة. لا يوجد موت).

استمر كلانسي في أدائه التمثيلي دون أن تثنيه علامات الضيق البادية على مستر ستويت، وقال:

- قال لي عن أي شيء اتخذوا القرار...

أخفض صوته أكثر وأضاف:

١٩- جاي فوكس: (١٩٥٧-١٩٥٦) متآمر إنجليزي كان كاثوليكيًا متعصبًا، ولذلك كان جزءًا من مؤامرة التفجير البرلماني واغتيال الملك جيمس الأول، وقد اعترف تحت وطأة التعذيب بدوره في المؤامرة وأعدم.
٢٠- كاتسبي: (١٦٥٣-١٦٥٥) متآمر إنجليزي فر هاريا إلى بيركشير بعد القبض على فوكس ولكنه قتل هناك.

- عن وادی سان فيليبى .
- وماذا قرروا؟
- قالها مستر ستويت وقد وصل إلى أقصى حدود صبره .
- قبل أن يجيبه، أنزل كلانسى السيجار من فمه، وقذفه جانبا، ثم أخرج سيجارا آخر من جيب معطفه، قطع السيلوفان الملفوف حوله، ووضعته، دون أن يشعله، فى المكان الذى كان يشغله السيجار الأول.
- قال ببطء شديد، حتى يتأكد أن كل كلمة حصلت على حقها الدراماتيكي:
- لقد قرروا... لقد قرروا أن يدخلوا مياه المواسير فيها.
- تبدل تعبير وجه المستر ستويت من الضيق إلى الاهتمام، وقال:
- يكفى لرى الوادى كله؟
- قال كلانسى بهدوء:
- يكفى لرى الوادى كله.
- صمت مستر ستويت برهة ثم سأل أخيرا:
- كم لدينا من الوقت؟
- تيتليوم يعتقد أن الأخبار لن تُعلن قبل ستة أسابيع.
- ستة أسابيع؟
- تردد مستر ستويت لحظة، ثم اتخذ قراره، وقال بنغمة المعتاد على إعطاء الأوامر:
- حسنا. ابدأ فوراً. اذهب بنفسك وخذ بعض الأولاد معك كمشتريين مستقلين مهتمين بتربية الماشية، يريدون البدء فى عمل مزرعة مدنية. اشتر كل ما تستطيع. بالمناسبة، ما الثمن؟

- اثنا عشر دولارا للفدان في المتوسط .
كرر مستر ستويت وراءه :
- اثنا عشر .
ثم فكر أنها سوف ترتفع إلى مائة فور البدء في تركيب المواسير . قال :
- كم فدائاً تظن أنك تستطيع الحصول عليها ؟
- حوالى ثلاثين ألفاً .
أضاء وجه مستر ستويت بارتياح . قال :
- حسن ، هذا حسن جداً . لا تذكر اسمى بالطبع .
ثم أضاف بدون توقف :
- وكم سيكلفنا تيتلبوم ؟
ابتسم كلانسي بتهكم :
- سوف أعطيه أربعمائة أو خمسمائة دولار .
- أهذا كل ما فى الأمر ؟
هز الآخر رأسه بالإيجاب :
- إن تيتلبوم فى قاع الصفقة ، ولا يستطيع أن يطلب أية أسعار كبيرة ، إنه بحاجة إلى المال ، بحاجة ماسة فعلاً .
سأل مستر ستويت الذى كانت له اهتمامات مهنية فى الطبيعة الإنسانية :
- لماذا؟ القمار؟ النساء ؟
هز كلانسي رأسه باللفى وقال موضحاً :
- الأطباء . لديه طفل مشلول .
سأل مستر ستويت بنغمة يعلوها الاهتمام الحقيقى :

- مشلول؟ هذا سيء فعلا.

ثم فجأة ، أصابته نوبة كرم مفاجئة ، فأشار إلى المستشفى وقال:

- قل له أن يرسل ابنه هنا. أفضل مكان في الولاية لشلل الأطفال، ولن تكلفه شيئا. ولا سننا أحمر واحداً.

قال كلانسي بإعجاب:

- يا للجحيم، هذا كرم منك فعلا يا مستر ستويت. هذا كرم منك.

قال مستر ستويت متجها نحو سيارته:

- آه، إنه لا شيء. يسعدني أن أفعل هذا. تذكر ما قاله الإنجيل عن الأطفال. أنت تعرف، إنني أشعر بسعادة عارمة مع هؤلاء الأطفال المساكين. يجعلونني أشعر بنوع من الدفء الداخلي.

ريت على صدره وأضاف:

- قل لتيثيلوم أن يرسل طلبا لابنه، ويرسله لي شخصيا. سوف أتأكد من قبول الطلب بنفسى فورا.

دخل السيارة وأغلق الباب وراءه، ثم لمح جيرومي، ففتحه ثانية دون كلمة. دخل جيرومي متمتما بعض عبارات الاعتذار. صفق مستر ستويت الباب مرة أخرى وأنزل زجاج النافذة ونظر من السيارة، وقال:

- إلى اللقاء. ولا تضيع الوقت في مسألة وادي سان فيليبى هذه. افعل ما فى وسعك يا كلانسي وسوف أعطيك عشرة فى المائة من كل فدان فوق العشرين ألفا. أغلق زجاج النافذة وأشار للسائق أن يمضى. خرجت السيارة من الطريق الخاص واتجهت ناحية القصر. مستندا إلى الوراء، ظل مستر ستويت يفكر فى هؤلاء الأطفال المساكين، وفى الأموال التى سيكسبها من مسألة وادي سان فيليبى

هذه . قال مرة أخرى: الله محبة، ثم بقناعة آتية وحقيقية همس بصوت سمعه رفيقه، وقال الله محبة . شعر جيريمي بعدم الارتياح أكثر من ذي قبل .

عندما اقتربت السيارة الكاديلاك الزرقاء، نزل الجسر، وصعد الباب الحديدي، وانفتح الباب الداخلى ليمروا منه . فى ملعب التنس الإسفلتى، كان أبناء الطباخ الصينى يلعبون بالمزالج، وفى الكهف المقدس، من تحتهم كان بعض البنائين منهمكين فى العمل . عندما رآهم مستر ستويت صاح للسائق أن يتوقف، وقال لجيريمى وهو ينزل من السيارة:

- إنهم يقيمون ضريحا لبعض الراهبات .

سأل جيريمى فى دهشة:

- بعض الراهبات؟

هز مستر ستويت رأسه بالإيجاب، وأوضح أن وكلاءه الإسبانين قاموا بشراء بعض الأعمال النحتية وأعمال الحديد من كنيسة فى دير ما، كان قد هدمه بعض الثوار الفوضويين فى بداية الحرب الأهلية هناك . ثم أضاف:

- وقد أرسلوا بعض الراهبات أيضا . كن محنطات فيما أعتقد . أو ربما جففتهن الشمس، لا أعلم . على أية حال هن ها هنا . من حسن الحظ لدى مكان جميل أصنعهن فيه .

أشار بيده إلى النصب التذكارى الذى يشيده البنائون فى الناحية الجنوبية لحائط الكهف . على الرف الرخامى، وفوق التابوت الحجرى الرومانى الكبير، وقف تمثال من الحجر لرجل وامرأة راكعين، كلاهما يرتدى طوق الرقبة المكشكش، وخلفهما، فى طاوور من ثلاثة أشخاص وقفت بذاتهما، من سن الشباب إلى الطفولة . بدأ جيريمى يقرأ باللاتينية:

— وهذا يرقد كارلوس فرانسيسكاس بيلز،...

قاطعته مستر ستويت قائلاً:

— اشتريتها من إنجلترا منذ عامين.

ثم التفت إلى العمال وقال:

— متى ستنتهون يا شباب؟

— غداً في المساء. ربما الليلة.

قال مستر ستويت:

— بهذا كل ما كنت أريد معرفته.

ثم استدار قائلاً وهو يتجه نحو السيارة:

— لا بد أن أخرج هؤلاء الراهبات من المخزن.

أكملت السيارة مسيرتها. وقف الطائر الطنان، بأجنحته التي تبدو مختلفة من شدة سرعتها، وأخذ يشرب من المياه المنهمرة من نهد الحورية الأيسر. من وراء السياج، جاءهم صوت القردة العالي، في صراعا وجماعها. أغمض مستر ستويت عينيه وأخذ يكرر: الله محبة، محبة، محبوا عن قصد إطالة حالة السعادة المبهجة التي أحس بها عند هؤلاء الأطفال المساكين، وكذلك بسبب الأخبار السعيدة التي أتى بها كلانسي.

— الله محبة. لا يوجد موت.

مثل الإحساس بعد شرب الويسكي، انتظر حتى يشعر بهذا الدفء الداخلي، والذي كان يشعر به من قبل كلما قال هذه الكلمات. ولكن على العكس تماماً، وكان هناك عدواً ملازماً له قرر أن يداعبه بنكتة سخيفة، وجد نفسه يفكر في جثث الراهبات التي أصبحت متجلدة ومنكمشة، ثم فكر في جثته هو، وفي يوم الحساب

وفى النار. برودنس ماكجلادري ستويت كانت تتبع كنيسة الكريستيان ساينس ، وأبوه، جوزيف يادج ستويت يتبع السانديمانيا^(٢١)، بينما ليتيشيا مورجان جدته عن أمه، عاشت وماتت كأخت من بليموث^(٢٢). فوق سريره فى حجرته على سطح منزله بالمزرعة فى ناشفيل، بولاية تينيسى، كتب باللون البرتقالى فوق خلفية سوداء: شىء مخيف أن تقع فى يد الإله الحى.

أخذ مستر ستويت يفكر بإصرار: الله محبة. لا يوجد موت. ولكن بالنسبة لخطاة مثله، فإن الدود فقط هو الذى لا يموت.

كان أوبيسيو دائما يقول له:

- إذا كنت تخاف الموت، فسوف تموت بالتأكيد. الخوف مثل السم، وعلى فكرة، ليس سما بطيئا.

فى محاولة أخرى، وبمجهود كبير، بدأ مستر ستويت يصفر. كان النغم لأغنية: أغزل القش فى ضوء القمر، وطفلى فى يدي. ولكن الوجه الذى رآه جيريمى بورديج، كان لرجل محكوم عليه بالإعدام، فأبعد وجهه بعيدا، وكأنه كشف سرا عظيما ومخيفا.

تمتم السائق لنفسه وهو ينظر خلف مخدومه الخارج من السيارة :
- عجوز بشع.

سار مستر ستويت مسرعا فى صمت يتبعه جيريمى، ومرا عبر البوابة الغوطية، ثم عبوا بهوا رومانيا ذّا أعمدة كبيرة مثل كنيسة العذراء فى درهام. كانت قبعته لا تزال مشدودة لما فوق عينيه، ودخل القاعة الكبيرة التى يغلفها ضوء الغسق معطيا إحياء بالكاتدرائيات.

٢١- سانديمانيان: طائفة مسيحية مهمشة وقد أسسها جون جلاس فى القرن الثامن عشر وكان من أتباعه روبرت سانديمان الذى سميت الطائفة باسمه فيما بعد، وقد كانوا يمتنعون عن الطعام غير المصنفي من الدماء تماما.

٢٢- بليموث: مجموعة دينية ظهرت فى بليموث بأمريكا عام ١٨٣٠

دوت أصوات وقع أقدامهما إلى ارتفاع حوالى مائة قدم فى القبو. فوق الحائط، علقت بعض دروع القتال الفولاذية، وكأنها أشباح حديدية بلا حراك. فوقهما، فى ترفّع خافت، كانت اللوحات الكبيرة المطرزة بالنسيج الصوفى من القرن الخامس عشر، تفتح النافذة على عالم خيالى خصب. فى جانب من جوانب الحجرة التى تشبه الكهف، كانت صورة آل جريكو، صلب القديس بطرس، مضاءة بكشافات متوارية، لامعة فى الظلام مثل الرؤيا الجميلة ولكنها غير مفهومة وغريبة جدا. فى الجانب الآخر، كانت لوحة هيلين فورمون معلقة، تبدو المرأة فيها بكامل جسدها، لا ترتدى شيئا سوى قلنسوة من فرو الدببة. نظر جيريمى من الواحدة إلى الأخرى - من الإكتوبلازم إلى القديس المقلوب، عودة إلى البشرية الصريحة البدنية، والعصلات الواضحة التى كان يحب روبنز أن يراها ويلمسها. من ألوان البشرة الصلصالية واللون القرمزى الذى يبدو من العالم الآخر، يظللها اللون الأسود الشفاف، إلى ألوان القشدة والألوان الوردية الدافئة، والأزرق والأخضر اللؤلؤى للعرى الفلمنكى. رمزان يلعبان فى قوة غير مفهومة، تعبر عن - عن ماذا؟ عن ماذا؟ هذا بالطبع هو السؤال.

لم يلتفت مستر ستويت لأى من كنوزه، بل مر خلال القاعة وهو يلعب فى داخله المرحومة زوجته لأنها جعلته يفكر فى الموت عبر إصرارها على أنه لا يوجد موت.

كان باب المصعد فى فجوة بين عامودين. فتحه مستر ستويت وأضاء نورا أفصح عن سيدة هولندية ترتدى الحرير الأزرق، تجلس بجانب الهاريسيكورد. تجلس، كما ظل جيريمى يفكر، فى قلب المعادلة، فى عالم حيث الجمال والمنطق، الرسم والهندسة التحليلية، وكلاهما أصبح شيئا واحدا. لكن بأى هدف؟ للتعبير،

مجازاً، عن أية حقائق حول طبيعة الأشياء؟ مرة أخرى كان هذا هو السؤال. كلما
تطرق الحديث إلى الفنون، وجب دائماً طرح هذا السؤال.
قال مستر ستويت بلهجة أمرة:
- أغلق الباب.
وعندما فعل، أضاف:
- سوف نسيح قليلاً قبل تناول الغداء.
ضغط على أعلى زر في صف الأزرار الطويل.

الفصل الرابع

أكثر من اثنتى عشرة عائلة من عمال التراحيل كانوا يعملون فى مزرعة البرنتقال، حينما وصل الرجل من كانساس ومعه زوجته وأطفاله الثلاثة، وكلبه أصفر اللون. هرعوا معا نحو صف الأشجار الذى كلفهم به رئيس العمال. كانوا يسرون فى صمت، حيث لم يكن لديهم ما يقولونه لبعضهم البعض، ولم تكن لديهم حتى الطاقة ليصنعوها فى الكلمات.

كان الرجل يفكر أنه باقى فقط نصف يوم. أربع ساعات أخرى من العمل. فى نهاية اليوم يعتبرون محظوظين لو كسبوا خمسة وسبعين سنتاً وهذا الإطار الأمامى للسيارة لن يتحمل أكثر من هذا. إذا كانوا سيذهبون إلى فريسنو^(١) ثم إلى ساليناس^(٢) فيفضل أن يأتوا بواحدة أفضل من هذه. ولكن حتى أسوأ وأقدم إطار نصف عمر، سيكلف مالا. والمال هو الطعام. وكم كانوا يأكلون! أخذ يفكر بامتعاض مفاجئ. لو كان بمفرده، لو لم يكن مضطرا لسحب الأطفال ومينى معه، لربما استطاع أن يؤجر مكانا صغيرا فى مكان ما، بجانب الشارع الرئيسى حتى يستطيع أن يكسب أكثر من خلال بيع البيض والفواكه والأشياء الأخرى لمن يمرون من هناك بسياراتهم. ربما يبيع بأقل من أسعار الأسواق، ومع ذلك يكسب كثيرا. وقد يستطيع أن يشتري بقرة أو خنزيرين - ثم يجد فتاة - بدينة، لأنه يحبهن بدينات بعض الشيء: بدينات وصغيرات وبهن...

بدأت زوجته تسعل مرة أخرى. تحطم حلمه. كم كانوا يأكلون! أكثر من قيمتهم. ثلاثة أطفال بدون أى طاقة، ومينى تمرض منك نصف الوقت حتى إنه

١- فريسنو: مدينة تقع جنوب شرق كاليفورنيا تشتهر بمزارع العنب.
٢- ساليناس: مدينة غرب كاليفورنيا تقع نهاية وادى ساليناس جنوب سان فرانسيسكو.

عليك أن تقوم بعملها بالإضافة إلى عملك أنت !
توقف الكلب ليشمشم في عامود. قفز الرجل من كانساس خطوتين للأمام، بقوة
مفاجئة، ركل الكلب في صدره وصرخ:
- أيها الكلب اللعين ! ابعذ عن الطريق .

عوى الكلب وهو يجرى. التفت الرجل من كانساس إلى الأطفال آملاً أن يرى
نظرات عدم الرضاء أو الإشفاق على وجوههم. ولكن الأطفال تعلموا الدرس من
قبل، وتعلموا ألا يعطوه الفرصة ليتجه من الكلب إليهم. تحت شعورهم المنكوشة
كانت وجوههم الثلاثة شاحبة، وخاوية وفارغة .
استدار الرجل بخيبة أمل، وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة معها أنه سوف
يضر بهم بالحزام بأن لم يحترسوا أكثر. لم تلتفت الأم. كانت تشعر بالمرض
والإجهاد حتى أنها لم تقدر أن تفعل أى شيء سوى السير والنظر أمامها. ساد
الصمت مرة أخرى على المجموعة .

فجأة صرخت صغرى الأطفال وقالت بدهشة :

- انظروا هناك !

أشارت بيدها . كان القصر هائلاً أمامهم . من قمة أعلى برج فيه، صعدت طبقة
وراء الأخرى ،فى تشكيل عنكبوتى، إلى ارتفاع عشرين أو ثلاثين قدماً فوق
الحاجز. فوق كل هذه الطبقات وقف جسم بشرى صغير ، يبدو أسود أمام الخلفية
اللامعة للسماء. وقفز برأسه، فأردا ذراعيه، ليختفى خلف أسوار القلعة، بينما
الأطفال ترقبه. صياح الأطفال المندمش أعطى للرجل من كانساس العبور الذى
حرموه منه منذ لحظات، فاستدار إليهم فى حلق وصرخ:
- كفوا عن هذا الصياح .

ثم هرع نحوهم وأخذ يضربهم - صفعة على جانب كل رأس منهم. بمجهود ضخم، رفعت المرأة نفسها من هوة الإرهاق السحيقة التي سقطت فيها، توقفت، واستدارت ثم صاحبت معترضة، وهي تمسك بذراع زوجها. دفعها بعيدا عنه بعنف فكادت تسقط على الأرض. صرخ فيها:

- أنت أسوأ من الأطفال. لا تفعلين شيئا سوى البقاء حولي والأكل. لا تساوين شيئا. أقول لك لقد سمعت منكم جميعا. سئمت. أخرسى. هل تسمعين؟

استدار بعيدا وبدأ يشعر بارتياح كبير الآن بسبب انفجاره هذا، فاستمر في السير بسرعة بين صفوف أشجار البرتقال الكثيفة، مدركا أن زوجته لن تتحمل هذه السرعة.

من حمام السباحة أعلى الدون جون، كان المنظر مذهلا. عليك فقط، أثناء السباحة فوق المياه الشفافة، أن تدير رأسك لترى الأشجار المتتالية في السهول والجبال، من خلال أسوار القصر، كانت ألوانها متفاوتة بين الأخضر والأصفر الداكن، والبنفسج والأزرق الباهت. نسبح، ننظر، نفكر... ولكن هذا فقط لو كنا جيريى بورديج الذى يعيش فى هذه القلعة فى الإيبيسيشيديون^(٣)، هذه القلعة بحجراتها التي

«تنظر نحو الهواء الشرقى الذهبى،

وتعيش مع الرياح الحية...»

ولكن الوضع ليس كذلك لو كنت الآنسة فيرجينيا مونسيبل. لم تسبح فيرجينيا أو تنظر أو تفكر فى إيبيسيشيديون، لقد أخذت رشفة أخرى من الويسكى والصودا، وصعدت إلى أعلى درجة فى برج القفز، وفتحت ذراعها، وقفزت، ثم سبجت تحت

٣- إيبيسيشيديون: وهى اسم قصيدة كتبها بيرسى بيش شيللى نشرت عام ١٨٢١ وقد كتبها إلى سيدة اسمها إيميليا فيفانى، ومعنى الكلمة الحرفى هو روح فوق روح.

الماء، وخرجت فجأة من تحت بورديج الذى لم يكن متنبها لها، وأمسكته من حزام لباس البحر، وجذبته أسفل المياه.

قالت لاهلة وهى تصعد مرة أخرى:

- أنت تستحق هذا، خاصة وأنت ملقى هناك بدون حراك وكأنك بوذا كبير وعبيط.

ابتسمت له بتهكم، وروح دعابة عالية.

عجيب حقاً أمر هؤلاء الناس الذين يأتى بهم العم جوا إلى القصر. رجل إنجليزى يرتدى نظارة بعدسة واحدة ليفحص الدروع، ورجل آخر يتلثم فى الكلام، لينظف اللوحات، ورجل ثالث لا يتحدث سوى الألمانية ليفحص بعض الأواني القديمة الغريبة. ثم اليوم، هذا الرجل الإنجليزى الذى يبعث على الضحك، بوجهه الأرنبى، وصوته الذى يشبه أغنية الأغاني بدون كلمات على الساكسوفون.

رفاً جيريمى بورديج بعينه ليذبل المياه من عليهما، ونظر إليها بعينين شبه مغصنتين، إذ كان لا يرى جيداً بدون نظارته. رأى وجهها الضاحك الصغير قريباً جداً من وجهه، وجسدها بهتز تحت الماء لتبقى سابحة. لم يكن شيئاً مألوفاً بالنسبة له أن يكون قريباً هكذا من أى شخص. بلع صيقه وأبغم لها.

مدت الأنسة مونسييل يدها، وريقت على صلعة جيريمى بورديج قائلة:

- كم تلمع! تماماً مثل كرات البلياردو. أعرف الآن ماذا سأسميك: العاج. مع السلامة يا عاج.

استدارت وسبحت نحو السلم وخرجت. سارت نحو مائدة عليها بعض الزجاجات والأكواب، وارتشفت باقى الليمكى والصدودا، ثم جلست على حافة الأريكة المستلقى عليها مسر سديت، مرتدياً نظارته السوداء ولباس البحر، ليأخذ

حمام شمس .

قالت بنبرة مزاح ومحبة:

- يا عم جو. هل تشعر بالراحة؟

أجاب:

- نعم، أشعر بالراحة يا بيبى .

وكان هذا حقيقيا. أذابت الشمس تليؤاته الكليية، وعاد مرة أخرى ليعيش فى الحاضر، هذا الحاضر الجميل الذى يعطى السعادة للأطفال المرضى، والذى يوجد فيه أمثال تيتلبوم المستعدون لأخذ خمسمائة دولار ليعطوا معلومات تسارى، على الأقل، مليوناً، الحاضر الذى فيه السماء زرقاء، والشمس تدغدغ بطنه بدفتها، الحاضر الذى يفيق فيه ليرى فيرجيليا تبسم له، وكأنها بالفعل تهتم بالعم جو، وترعاه، ليس فقط لأنه العم - لا يا سيدى - ولكن لأن فى النهاية أى رجل منا عجوز بقدر ما يشعر ويقدر ما يتصرف. وحيثما كانت البيبى، كم كان يشعر بالشباب! كم يتصرف كالشباب! وابتسم فى انتصار ورضاء عن النفس ثم قال بصوت عال:

- إذا يا بيبى...

وضع يده المربعة، بأصابعه السمينة فوق ركبة الفتاة الشابة.

نظرت إليه الأنسة مونسيبل بنظرة فاضحة، فيها مزيج من السرية والتواطؤ، بعيلين نصف مغفلتين، ثم ضحكت ضحكة قصيرة ومدت ذراعيها لأعلى. قالت وهى تغلق عينيها كلية وتنزل ذراعيها لتشبك يديها خلف رقبتها:

- أليست الشمس رائعة؟

شدت كتفيها للخلف. هذا الوضع جعل صدرها يرتفع لأعلى، وحدد استدارات

بطنها، والاستدارة العكسية لمؤخرتها - كان وضعها يشبه ذلك الذى يمكن أن تتعلمه الحريم فى سراى السلطان عن طريق المخصيين، ليقدموهن للمرة الأولى للسلطان. لاحظ جيريمى ذلك وهو ينظر فى اتجاهها، وتذكر هذا التمثال غير المناسب، الموجود فى الطابق الثالث من بانثيون بيفرلى.

نظر إليها مستر ستويت من خلال نظارته الغامقة، نظرة تمزج بين الشهوة والأبوة. كانت فيرجينيا، هى الببى، ولكنها كانت كذلك بالمعنى المجازى الحرفى للكلمة. كانت مشاعره تجاهها خليطاً من الحب الأبوى والشهوة العنيفة.

ظل ينظر إليها. بدا جسدها بنياً، بالمقارنة بلباس البحر الذى كانت ترتديه، مناسباً فى منحنيات ناعمة ومتصلة، ذات ثلاثة أبعاد، بدون مجهود أو انتقالات حادة. نظر مستر ستويت إلى شعرها البنى الفاتح وأنزل بصره إلى الجبهة المستديرة، ثم إلى العينين الواسعتين، ثم إلى الأنف الصغير الوقح، ثم إلى الفم. هذا الفم كان أبرز ملامحها. شفتها العليا القصيرة هى السبب فى هذا التعبير الطفولى البريء على وجهها. كان هذا التعبير هو الدائم معها، فى كل أمزجتها المختلفة، وكان بارزاً - بغض النظر عما كانت تفعله - سواء كانت تروى القصص الوضعية، أو تتجاذب أطراف الحديث مع المطران، سواء تناول الشاي فى باسادينا، أو تقترب للشباب لتستمع بما تسميه إليم يام، أو تحضر القداس.

زمنياً، كانت الأنسة مونسيبال شابة صغيرة السن، ذات الاثنين والعشرين ربيعاً، إلا أن هذه الشفة العليا القصيرة، فى جميع الأحوال، تجعلها وكأنها لم تصل بعد إلى سن المراهقة، ولا حتى سن الرشد. أما بالنسبة لمستر ستويت، والذى كان فى الستين من عمره، فقد كان كل ذلك يدير رأسه حتى الثمالة، خاصة هذا التضاد الغريب بين الطفولة والنضج، وبين مظهر البراءة وواقع التجربة. لم تكن المسألة

أن فيرجينيا كانت تمثل نوعين من البيبي، ولكن لأنها كانت النوعين بشكل موضوعي، وفي حد ذاتها.

يا لها من مخلوق شهى! اليد التي كانت ساكنة فوق ركبتيها حتى الآن، أغلقت عليها. بين الإبهام العريض والأصابع القوية، أية نعمة، وأية مرونة وافرة! قال:

- جيني. بيبي!

فتحت البيبي عينيها الواسعتين الزرقاوين وأنزلت ذراعيها إلى جانبها. ارتخى الظهر المشدود، ونزل الصدر لأسفل وللأمام، وكأنه مخلوق حيّ ناعم، يغرق في سَكينة واسترخاء. ابتسمت له:

- لماذا قرصتني يا عم جو؟

قال العم في نبرة تشبه شاعرية آكلي لحوم البشر:

- أود أن أأكلك.

قالت:

- أنا قوية.

قهقه مسترسوت بمبالغة وقال:

- فتاة قوية وصغيرة!

انحنى عليه الفتاة القوية الصغيرة وقبلته.

كان جيريمي بورديج ينظر إلى المنظر الجميل، يكمل ثلاثه الصامحة للإبيسيشيدوين، واستدار في هذه اللحظة ناحية الأريكة، شعر بالخجل الشديد بسبب ما رآه لدرجة أنه بدأ يغرق. أخذ يلوح ذراعيه بعنف ليمنع نفسه من الغرق، واستدار في المياه وسبح مسرعا نحو السلم وخرج، ثم دون أن ينتظر ليجفف نفسه،

هرع نحو المصعد. نظر إلى الفيرمير وقال لنفسه في غيظ:

- حقاً حقاً!

قال مسرّ ستويت عندما اعتدلت البيبي في جلستها:

- كان لدى بعض الأعمال في الصباح.

- أية أعمال؟

أجاب:

- أعمال جيدة. سوف تدر على المال الوفير. مال حقيقي.

- كم؟

قال بحذر مقللاً توقعاته عن عمد:

- ربما نصف مليون، ربما مليون. قد يكون أكثر.

قالت:

- يا عم جو، أعتقد أنك رائع!

بدت في صوتها نبرة صدق حقيقية. كانت تعتقد بالفعل أنه رائع، إذ في العالم الذي تعيش فيه، فإنه من المسلم به أن الرجل الذي يستطيع أن يحصل على مليون دولار، لابد بالضرورة أن يكون رائعاً. الأهل، الأصدقاء، المدرسون، الجرائد، الراديو، الإعلانات - كلها أعلنت بالإجماع، صراحة وضمناً، أنه رائع. ثم إلى جانب كل هذا، كانت فيرچينيا بالفعل تحب عمها جو. كان يسعداها وكانت ممنونة له. ثم إلى جانب كل هذا، كانت تحب الآخرين كلما استطاعت ذلك. كانت تحب أن تسعدهم، إذ أن إسعادهم يشعرها بالارتياح، حتى وإن كانوا مسنين مثل العم جو، وحتى لو كانت بعض الوسائل المطلوب إسعادهم بها، غير شهية على الإطلاق. أخذت تكرر:

- أعتقد أنك رائع.
إعجابها به أعطاه الرضاء الكامل، فقال بتواضع غير حقيقى، ليجتر منها أكثر:
- إنه أمر سهل للغاية.
أعطته فيرجينيا ما أراد فقالت:
- من السهل فعلا ! أقول لك إنك رائع. إذن اسكت.
مبهورا بها، أخذ مستر ستويت حفنة أخرى من اللحم وقرصها فى مودة، ثم قال:

- سوف أعطيك هدية إذا تمت الصفقة. ماذا تريدان يا بيبى.
قالت:
- ماذا أريد؟ لا أريد شيئا.

عدم اهتمامها كان حقيقيا. لم ترغب فى الأشياء هكذا أبدا، مع سبق الإصرار.
فى لحظة ما ينتابها شعور بالرغبة فى الأشياء، أيس كريم صودا مثلا، بعض الـ «يام يام»، معطف من فرو المنك رآته فى نافذة محل. فى مثل تلك الأوقات كانت تريد أشياء، وتريدها بشدة، ولا تستطيع الانتظار. أما بالنسبة للرغبات طويلة المدى، الرغبات التى لا بد أن تفكر فيها مقدما - فلا، لم تكن لها رغبات هكذا. إن أفضل فترات حياتها كانت تلك التى تقضيها فى الاستمتاع بلحظات السعادة الآتية المتعاقبة، والتى كانت تشكل حياتها كلها. وإذا اضطرتها الظروف أن تخرج خارج هذا العالم الأبدى اللاعقلانى، إلى العالم الحالى، فستجد نفسها فى عالم صغير، أقصى مداه أسبوع أو اثنين فى المستقبل. حتى عندما كانت فتاة استعراضى، تكسب ثمانية عشر دولارا فى الأسبوع، كان الاهتمام بالمال أو بالأمان صعبا عليها، أو حتى التفكير فى ما يمكن أن يحدث لها لو أنها أصيبت فى حادثة، ولم تعد قادرة

على الكشف عن ساقبيها. ثم جاء العم چو، وكان كل شيء فى متناول يدها، وكأنه زرع على الشجر - شجر حمام السباحة، شجر الكوكنيل، شجر الشيا باريللى^(٤). كل ما عليها فقط هو أن تمد يدها، ليكون كل شيء متاحا، مثل التفاح فى المزرعة فى بيتها بأوريجون. إذن أين دور الهدايا فى كل هذا؟ لماذا تريد أى شيء؟ إلى جانب ذلك، كان من الطبيعى أن يشعر العم چو بسعادة بالغة لأنها لا تريد شيئا، وكانت تحب أن تشعره بالسعادة لأنها هى نفسها سعيدة.

- أقول لك يا عم چو، لا أريد شيئا.

جاءهما صوت غريب وقريب منهما جدا وقال:

- لا تريدین شيئا حقا؟ لكن أنا أريد.

ظهر الدكتور سيجموند أوبيسو بحركة سريعة بجانب الأريكة، شعره الأسود اللامع ك شعر الشاميين، وأضاف:

- لكى أكون دقيقا، أريد أن أحقق نصف ملى مربع من التستوستيرون فى مؤخرة هذا الرجل العظيم، إذن، اذهبى يا ملاكى.

قالها لفيرجينيا بنبرة تهكم وإبتسامة رغبة فاضحة، ثم أضاف هوب وريت على كتفها، وبعد أن قامت لتعطيه مكانها، ربت على مؤخرتها الحريية البيضاء.

استدارت فيرجينيا نحوه بحدة لتطلب منه أن يكف عن الاستظراف، ولكن عندما حركت بصرها من جردل اللحم ذى الشعر الكثيف، الذى هو مستر ستويت، إلى وجه الآخر الجميل وهو ينظر إليها بمزيج من السخرية والرغبة والتملق، عدلت عن ذلك، وبدلا من أن تقول له بصوت عال أنه تخطى حدوده، عملت حركة بوجهها وأخرجت لسانها له. ما بدأ إذن بتوبيخ، انتهى برضوخ لوقاحتها، كنوع من

٤- شيا باريللى: نسبة إلى إلسا شيا باريللى (١٩٧٣-١٨٩٠) وهى فرنسية إيطالية صاحبة بيروت أزياء باسمها.

التواطؤ مع المجرم أو خيانة ما للعلم جو. مسكين العلم جو. أحست بعاطفة جياشة من الشفقة تجاه الرجل العجوز. مرت لحظات شعرت فيها بالخلجل من نفسها. المشكلة بالطبع هي أن الدكتور أوبيسبو جذاب حقاً، وكان مثيراً للضحك. تحب إعجابه بها، وتحب أن تغالظه لترى كيف سيتصرف. كانت تستمتع حتى بالثورة في وجهه عندما يفعل أشياء غير مهذبة، وقد كان يفعل ذلك كل الوقت.

قالت في محاولة لجرحه:

- أعتقد أنك تظن أنك دوجلاس فيريبانكس^(٥) الصغير.

ثم استدارت بعيداً بكل الكبرياء الذي يمكن للشريطين الحرييين اللذين كانت ترتديهما، أن يسمحا به. استندت على السور ونظرت أسفل نحو الوادي الممتد. رأت أجساداً مثل النمل تتحرك وسط أشجار البرتقال. ترى ماذا يفعلون؟ ولكن عقلها سريعاً ما اتجه إلى أشياء أكثر إثارة وشخصية، إلى سيج، وإلى أنها لا تستطيع سوى أن تشعر بالسعادة في وجوده، حتى عندما يتصرف هكذا كما فعل الآن. في يوم ما - ربما في يوم ما... فقط حتى ترى كيف سيكون، خاصة إذا أحست بالمال في هذا القصر... مسكين العلم جو! ولكن ماذا يتوقع منها في عمره هذا، وعمرها هو؟ والشئ الذي كان فعلاً غير متوقع هو أنها في كل هذه الشهور، لم تعطه أية مسببات للغيرة، إلا بالطبع إذا ذكرنا إينيد وماري لو، وإن تذكرهما لأنها لم تكن مثلهما أبداً. وحتى عندما حدث هذا، لم يكن أكثر من حادثة صغيرة - لطيفة، نعم، ولكن غير ذات أهمية على الإطلاق. أما سيج، فإذا حدث شيء، فسوف يكون مختلفاً، حتى لو لم يكن جدياً - وهو لن يكون كذلك - ليس مثل والته، أو حتى باستير الصغير في بورتلاند. سيكون الأمر مختلفاً عن تلك الحوادث مع إينيد

٥- دوجلاس فيريبانكس: ممثل أمريكي.

ومارى لوء، لأن هذه الأشياء مع رجل كهذا تكتسب أهمية أكثر بالتأكيد، حتى إن كانت لا تريد أن تعنى شيئا. فإن هذا هو السبب الوحيد لعدم إقترافها له، بالإضافة بالطبع لكونها خطايا. ولكن هذه الأخيرة لا تعنى شيئا من قريب أو بعيد، خاصة عندما يكون الشاب جميلا فعلا (وعليها أن تعترف أن سيج كان كذلك بالرغم من أنه من نوعية أدولف مينجو، ولكن بعد التفكير فى الموضوع فإن هؤلاء الرجال ذوى البشرة السمراء، وبالزيت فى شعرهم، هم الذين يعجبونها جدا). وعندما تشرب كأسين، وتريد بعض المغامرة، لم يخطر ببالها قط أنها ترتكب خطيئة، ثم شيئا يودى إلى أشياء أخرى، وقبل أن تدرك ما يحدث، يكون قد حدث بالفعل. ثم إنها حقا غير مقتنعة أبدا على أية حال، بأن المسألة بالبشاعة التى يصفها الأب أورايلى. لاشك أن السيدة العذراء أكثر تفهما وأكثر مغفرة منه. ثم ماذا عن الطريقة التى يأكل بها الأب أورايلى عندما يأتى إلى العشاء؟ إنه يبدو مثل الخنزير - لا توجد كلمة أخرى لوصفه، ثم أليست الشراهة شيئا سيئا تماما مثل الشيء الآخر؟ إذن من هو ليتحدث بهذه الطريقة؟

جلس الدكتور أوبيسبو مكان فيرجينيا على الأريكة، فى محاولة تمثيلية لتقليد الأطباء الجالسين بجانب مرضاهم، وقال:

- كيف حال المريض؟

لقد كانت معنوياته مرتفعة جدا اليوم، إذ أن عمله فى المعمل يتقدم بشكل يفوق توقعاته، لأن مستحضر الأملاح الجديد فعل أشياء عظيمة جدا مع كبده. ثم أن إعادة التسلح جعلت أسهمه فى الطيران ترتفع ثلاث نقاط أخرى، وأخيرا كان من الواضح أن فيرجينيا لن تصمد أمامه أكثر من هذا.

مستمرا فى تمثيلته، قال الدكتور أوبيسبو متحدئا بلكنة بريطانية، حيث أنه كان قد أكمل دراسته بعد التخرج لمدة عام كامل فى جامعة أوكسفورد:

- كيف حال المريض هذا الصباح؟

زمر مستر ستويت بشكل غير مفهوم. كان ثمة جانب ما في الدكتور أوبيسبو هذا، يثير غضبه بشكل مستمر، بل بشكل لا يمكن تحديده. إن به شيئاً ما مهينا عن قصد. رأى مستر ستويت أن مزاح أوبيسبو هو في واقع الأمر تعبير عن تهكم مقصود وخبث، وكلما فكر في ذلك يزداد فوران دم مستر ستويت، وعندما يفور دمه، يعلو ضغطه، وكان يعلم أن هذا يقصر حياته. لا يستطيع أن يغضب من أوبيسبو بالقدر الذي يريده، والأسوأ من هذا أنه لا يستطيع التخلص من الرجل، إذ أنه الشر الذي لا غنى عنه. الله محبة. لا يوجد موت. ولكن، تذكر مستر ستويت بفزع، أنه أصيب بأزمة قلبية من قبل، وأنه يكبر في السن. أما أوبيسبو فقد أوقفه ثانية على قدميه عندما كاد يموت، وقد وعده بعشرة أعوام أخرى من عمره على الأقل، حتى لو لم تلجأ أبحاثه كما كان يتمنى. عشرون عاماً، ثلاثون، أربعون. أو ربما يجد هذا الشخص طريقة ما ليثبت أن السيدة إدى كانت على حق. ربما آنذاك لن يكون هناك موت بالفعل – ليس للعلم جوعلى أية حال. أى تصور، رائع هذا! لكن إلى أن يحدث ذلك... تلهد مستر ستويت بعمق واستسلام، ظل يردد: علينا كلنا أن نحمل صليبنا، وهى الكلمات التى كانت تقولها له جدته عبر السنوات، عندما كانت تريده أن يشرب زيت الخروع.

فى تلك الأثناء، عَمَّ الدكتور أوبيسبو إبرته، وكسر حافة الأمبول الزجاجية، وملاً الحقنة. كانت حركاته وهو يعمل كأنها مدروسة جيداً ودقيقة للغاية، وكأن الرجل كان الباليه نفسه، والجمهور فى آن واحد – جمهوراً ناقداً، رفيع المستوى بالفعل، ولكن أى باليه كان هذا! نيجينسكى^(١)، كارسافينا^(٢)، بافلوفا^(٣)، ماسين^(٤) – كلهم معا على مسرح واحد. مهما كان التصفيق شديداً، فإنه دائماً مستحق له.

قال :

– جاهز؟

فى صمت وطاعة، مثل الفيل المدرب، استدار مستر ستويت ونام على بطنه.

٦- نيجينسكى: نسبة إلى فاكلاف نيجينسكى (١٨٩٠-١٩٥٠) راقص باليه ومصمم رقصات روسى.

٧- كارسافينا: نسبة إلى تمارا كارسافينا (١٨٨٥-٢) راقصة باليه روسية شهيرة .

٨- بافلوفا: نسبة إلى آنا بافلوفا (١٨٨٢-١٩٣١) راقصة باليه روسية.

٩- ماسين: نسبة إلى ليوبولد ماسين (١٨٩٦-١٩٧٩) راقص باليه ومصمم رقصات روسى.

الفصل الخامس

ارتدى جيرمي ملابسه ثائية، وجلس في حجرة المخزن تحت الأرض التي أصبحت مكتبه. صعدت أتربة المخطوطات القديمة جافة لاذعة إلى أنفه وذهبت إلى رأسه، فكان لها تأثير الثمالة. كان وجهه محمرا وهو يجهز ملفاته ويسن أقلامه، وامعت رأسه الصلعاء من قطرات العرق. لمعت عيناه ببريق وإثارة خلف العدسات المزودة لنظارته .

ها هي. كل شيء جاهز. التلف بمقعده الدائري وجلس في سكون، يستطعم مذاق توقعاته مثل الشهوة الجنسية. هناك، في أوراق بنية بلا عدد كانت أوراق الهوبيرك في انتظار قارئها الأول. سبعة وعشرون صندوقا من العذراوات ينتظرن في هدوء. ضحك في نفسه عندما فكر أنه سوف يكون فاتحهن. الآلاف من العذراوات الصامتات تراكمن عبر القرون، وعبر تتالي الأجيال من عائلة الهوبيرك دون كلال. هوبيرك وراء هوبيرك، رتبة بارون، وراء رتبة الفارس، رتبة إيرل وراء رتبة بارون، ثم جاء إيرل جونستر بعد إيرل جونستر حتى الثامن والأخير. ويعد الأخير، لا شيء سوى واجبات الوفاة، وبيت قديم وامرأتين عانستين عجوزين، تسقطان أكثر فأكثر في مستنقع الوحدة والغربة، ثم الفقر والكبرياء العائلي، ولكن في النهاية، سقطتا في الفقر أكثر من الكبرياء. المدلالات المسكينات. لقد أقسمتا على ألا يبعن، ولكن في النهاية اضطررتا لقبول عرض مستر ستويت، وتم شحن الأوراق إلى كاليفورنيا، والآن يمكنهما شراء مدفين فآخرين لأنفسهما. وهذه هي نهاية الهوبيرك. حطام جميل للتاريخ الإنجليزي! رواية تحذيرية - ربما - أو قد تكون، ويشكل أكثر معقولة، رواية بلا معنى رواها شخص غبي. رواية عن قاطعي الرقاب والمتآمرين، عن حماة العلم ومضاربين في التجارة، ومطارنة ونساء الملوك

والشعراء الثانويين، عن الأميرالات والقوادين، عن القديسين والبطلات والنساء الشقيقات، عن البلهاء ورؤساء الوزارات، عن جامعي الفنون والساديين. وها هو كل ما تبقى منهم، في سبعة وعشرين صندوقاً، بشكل عشوائي، لم يتم تبويبها بعد. لم ينظر أحد لهم من قبل، كالعذارى تماماً. وسط غمرة سعادة جيريمي بالكنز، نسي تماماً إرهاب السفر الطويل، ونسي لوس أنجيلوس والسائق، ونسي المدافن والقصر، ونسي حتى مستر ستويت. كانت معه أوراق الهوبيرك، كلها لنفسه فقط. مثل طفل يضع يده في قارورة دون أن يراها، متأكداً أنه سيخرج بهدية مثيرة. رفع جيريمي واحدة من اللفافات الملفوفة بالورق البني، والتي ملأت الصندوق الأول، وقطع الرباط. أي ثراء ولخبطه ينتظرانه في داخلها! كتاب عن الحسابات المنزلية في عام ١٥٧٦ وحتى عام ١٥٧٧، رواية لجندي من عائلة الهوبيرك عن رحلة استكشافية قام بها مع السير كينليم دجبي إلى سكاديرون، ثم أحد عشر خطاباً بالإسبانية من ميغيل دي مولينوس إلى الليدي آن هوبيرك التي فضحت العائلة بتحولها إلى الكنيسة الكاثوليكية. ثم مجموعة وصفات لازمة للمرضى، مكتوبة بخط من بدايات القرن الثامن عشر، ثم نسخة من «عن الموت» لدريلينكورت^(١) وفيليشيا، أو «فرديني»، لأندريه دي نيرسيات^(٢). سمع قرعاً على الباب، وكان قد قطع توا رباط المجموعة الثانية، وكان يتساءل لمن خصلة الشعر البنية تلك المحفوظة بين صفحات كتاب الإبريل الثالث تأملات في الخطة البوبية. نظر من خلال كتبه فرأى رجلاً صغيراً داكناً، يرتدى أوفورول أبيض، يقترب منه. ابتسم الغريب وقال:

- لا تجعلني أقاطحك.

ولكنه مع ذلك قاطعه وأكمل:

١- دريلينكورت: نسبة إلى تشارلز دريلينكورت (١٥٩٥-١٦٦٩) كاتب فرنسي، من أشهر كتاباته عن الموت، ودفاعاً عن كالفين.

٢- أندريه دي نيرسيات: (١٧٣٩-١٨٠٠) كاتب فرنسي من أبرز كتاب الرواية الجنسية في القرن الثامن عشر.

- اسمى أوبيسبو. دكتور سيجموند أوبيسبو. الطبيب فى سرايا سمو الملك ستويت الأول. ونتمنى أن يكون الأخير أيضا.

انفجر ضاحكا بصوت عال رنان، مستمتعا بالنكتة التى ألقاها. ثم بطريقة الأرستقراطية المبالغ فى التأنق وهو وسط كومة من التراب، رفع واحدا من خطابات مولينوس وبدأ يقرأ ببطء وبصوت عال، محاولا فك رموز السطر الأول من كتابة القرن السابع عشر التى قابلت عينيه:

- «حب الله وكأنه فى داخلك وليس كما يقال عنه، وليس كما هو فى خيالك».

نظر إلى جيريمى باهتسامة استمتاع وقال:

- «سهل القول، صعب التنفيذ، فيما أعتقد. لا يمكن حتى أن تحب امرأة كما هى فى ذاتها هكذا، فى النهاية هناك أسباب موضوعية جسدية لهذه الظاهرة المسماة بالأنثى. أسباب جميلة فى بعض الأحيان. فى حين أن الرب المسكين مجرد روح - أى بمعنى آخر، تخيلات محضة. وها هو هذا الغبى، أيا من كان، يقول لغبى آخر، إن الناس لابد ألا تحب الرب لأنه فى خيالهم.

مرة أخرى وبإحساسه بأرستقراطيته، رمى الخطاب بحركة تهكمية من معصمه، ثم أكمل قائلا:

- «أى هراء هذا. مجموعة كلمات متصلة تسمى بالدين. مجموعة أخرى تسمى بالفلسفة. مجموعة أخرى تسمى سياسة. وكل الكلمات إما تحمل معنيين أو بلا معنى أصلا: والناس مستفارة بشكل مذهل بسببها، حتى إنهم يمكن أن يقتلوا جيرانهم لاستخدامهم كلمة لا تعجبهم. كلمة ربما لا تعنى أكثر من تجشؤ. مجرد صوت، بدون حتى العذر بوجود غاز فى المعدة.

أعاد الجملة مرة أخرى بتهكم: «حب الله وكأنه فى داخلك وليس كما يقال عنه،

وليس كما هو فى خيالك ، إنها ليست أكثر معقولة من أن نقول الزغطة ... الزغطة ... الزغطة . لا أعرف كيف تستطيعون أنتم طلاب الدراسات الإنسانية أن تتحملوا هذا . ألا تتمنون بعض المعقولة بين الحين والآخر ؟

ابتسم جيريمى باعتذار وعصبية . قال :

- لحن لا نهتم كثيرا بالمعانى .

ثم توقع نقدا أكثر حينما انتقص من نفسه ومن الأشياء التى يحبها أكثر من أى شىء آخر ، فأكمل قائلا :

- إننا نفرح كثيرا عندما نندبش فى أكوام التراب .

ضحك الدكتور أوبيسو وريت على كثف جيريمى مشجعا ، ثم قال :

- جيد أنك هكذا صريح للغاية ، فهذا يعجبني كثيرا . معظم الأولاد الحاصلين على شهادات الدكتوراه الذين أقابلهم ، صلفين للغاية ، يحاولون التحدث بهذه الثقافة الأخلاقية . أنت تعلم : الحكمة بدلا من المعرفة ، سوفوكليس بدلا من العلم . أقول لهم دائما عندما يحاولون معنى هذا : شىء مضحك أن الذى تأخذون مرتبكم منه هو الشىء الذى سينقذ البشرية . أما أنت فإنك لا تفعل هذا الضجيج معنى . إنك صادق . إنك تعترف أنك فى هذا الشىء لمجرد المتعة . بالمناسبة ، هذا أيضا السبب الذى يجعلنى أبقى فى ضجيجى أنا . المتعة . ولكن بالطبع لو كنت قلت لى أيا من هذا الهراء عن سوفوكليس ، كنت بالمقابل أتحدثك بالعلم والتقدم ، العلم والسعادة ، ولو كنت عنيدا ، لأتحدثك بالعلم والحقائق المطلقة .

أظهر أسدانه البيضاء فى سعادة وتهكم ضد الناس جميعا .

كان استمتاعه مُعديا ، فابتسم جيريمى أيضا ، وقال أنا سعيد أننى لم أكن عنيدا ، وقالها بصوت كالنأى الوديع ، يتم عن اعتراضه على امتلاك أحد للحقيقة المطلقة .

قال أوبيسبو مستكملاً حديثه:

- لاحظ أنتى لست أعمى مطلقاً حيال جاذبية نوعيتك من البشر. إننى أضع خطأ عند سوفوكليس بالطبع، ويمكن أن أموت ضجراً من هذه الأشياء. ولكن ينبغي أن أعترف أنتى كنت أستمع جداً بالكتب القديمة. متعة حقيقية. نتلحج جيريى وربت على صناعته، ولمعت عيانه للكتلة الجميلة الجافة التى هم أن يقولها، إلا أن الدكتور أوبيسبو لم يعطه الفرصة، إذ دون أن يدرك تهيؤ جيريى للإلقاء للكتلة، نظر إلى ساعته، وقام واقفاً، ثم قال:

- أود أن أريك معملى. لدينا وقت كثير قبل الغداء.

اعترض جيريى فى داخله؛ إذ اعتبر أوبيسبو أن هذا أمر واقع، بدلاً من أن يسأله إن كان يريد رؤية معمله اللعين.

ولكنه ابتلع نكتته - وكما كانت نكتة جميلة بلا شك. كان يفضل بالطبع أن يبقى ويكمل إفراغ صناديق أوراق الهيريك، ولكن لم تكن لديه الشجاعة الكافية ليقول ذلك، فقام طائعا وتبع الدكتور أوبيسبو إلى الباب.

أوضح الطبيب، وهما بهمان بالخروج من الغرفة، أن فكرة امتداد العمر هى موضوعه الرئيسى، وقد ظلت كذلك منذ أن ترك كلية الطب. ولكن بالطبع بما أنه يمارس الطب، فلم يتمكن من عمل أى شىء جاد حيال هذا الموضوع. الممارسة كانت قاتلة لأى عمل جاد - قالها وكأنها بين قوسين. كيف تفعل شيئاً ذا معنى وأنت مضطر لأن تبقى طوال الوقت لترعى مرضاك؟ والمرضى ثلاثة أنواع: من يتخللون أنهم مرضى، ولكنهم ليسوا كذلك، ومن هم بالفعل مرضى ولكنهم سيشفون فى كل الأحوال، ومن هم بالفعل مرضى، ويفضل لو ماتوا. إنه لمن الغباء الشديد أن يضجع أحد وقته مع المرضى خاصة لو أنه شخص قادر على القيام بعمل جاد.

وبالطبع لا شيء سوى الضغوط الاقتصادية يجبره على أن يفعل ذلك. كان يمكن أن يمشى فى هذا الأخدود إلى الأبد، يُضيق وقته مع المجانين. ولكن فجأة تبدّل حظه. جاء جو ستويت ليستشيريه. كان هذا ترتيباً إلهياً بلا شك. تتم جيريى بعبارته المفضلة والشهيرة لكوليريدج^(٣):
- «إلهيا بشكل بشع».

أكمل الدكتور أوبيسبو أن جو ستويت كان على وشك الانهيار تماماً. كان وزنه قد زاد أكثر من أربعين رطلا، وأصيب بأزمة قلبية. لم تكن سيئة، ولكنها تكفى لتجعل العجوز ابن الزنا هذا ينزّ عرقاً من الخوف. الخوف حتى الموت! (ضحك الدكتور أوبيسبو وبرقت أسنانه كالذهب). فى حالة جو كانت المسألة حالة دعر. ومن هذا الدعر كان تحرير الدكتور أوبيسبو من مرضاه لأنه أعطاه مرتباً، ومعملاً ليعمل على مشكلات إطالة الحياة، وجاء أيضاً مساعده الرائع. وفى النهاية جاء أيضاً تمويل عمله الصيدلى فى جامعة بيركلى، وهذه التجارب على القرود فى البرازيل، وهذه الرحلة الاستكشافية لدراسة السلاحف فى جزر الجلاباجوس. كل ما يمكن أن يتمناه أى باحث، بالإضافة إلى جو العجوز ذاته، والذى يمثل فأر التجارب المثالى - المستعد للخنوع تقريباً لأى شيء عدا التشريح بدون مخدر، إذا كان فى ذلك أمل لإبقائه فوق سطح الأرض بضعة أعوام أخرى.

لم يكن يفعل أى شيء غير عادى فى الواقع بالرجل العجوز، فى هذا الوقت بالذات. كان فقط يحاول أن يحافظ على وزنه، ويهتم بكليتيه، ويعطيه جرعات نشاط بشكل دورى من الهرمونات الجنسية الاصطناعية، بالإضافة إلى مراقبة هذه

٣- كوليريدج: نسبة إلى صموئيل تايلور كوليريدج (١٨٣٤-١٧٧٢) شاعر رومانسى إنجليزى.

الأوردة . إنه العلاج العادى والمنطقى لرجل فى عمر چو ستويت وبتاريخه الطبى . فى ذات الوقت كان فى الطريق إلى التوصل لشيء جديد، شيء ينبىء بأن يكون مهماً . خلال بضعة أشهر، وربما بضعة أسابيع، سوف يكون فى وضع يمكنه فيه أن يقوم بإعلان قطعى .

قال چيريمى بأدب مصطنع :

— هذا شيق جداً .

كانا يسيران عبر ممر ضيق، لونه أبيض، ومضاء بمجموعة من اللمبات الكهربائية المكشوفة . من خلال الأبواب المفتوحة استطاع چيريمى أن يلمح سراديب كبيرة مكدسة بأعمدة منحوتة مزينة برسوم طوطمية، ودروع كثيرة، وقردة الأورانجوتان المنحطة، ومجموعات من التماثيل الرخامية لثوروالدن^(٤)، والتماثيل المطلية بالذهب مثل البوديستافاس^(٥)، والقطارات البخارية القديمة بعلامات اللينجاسام^(٦) عليها، والعربات، والأواني الخزفية البيروفية بالصلبان والعينات المعدنية .

فى تلك الأثناء كان الدكتور أوبيسبو قد بدأ الحديث عن إطالة العمر . كان مصرأ أن الموضوع لا يزال فى مرحلة ما قبل العلم — مجرد ملاحظات كثيرة بدون أية فرضيات . مجرد فرضى من الحقائق، ولكن أية حقائق غريبة وشاذة! على سبيل المثال، ماذا يجعل اليزان يعيش قدر الثور؟ وماذا يجعل عصفور الكناريا يعيش أكثر من ثلاثة أجيال من الخراف؟ لماذا تصاب الكلاب بالشيخوخة فى سن الرابعة عشرة، بينما تعيش الببغاوات فى نشاط حتى المائة؟ لماذا تصبح الأنثى الإنسانية

٤- ثوروالدن: نسبة إلى بيرثيل ثوروالزن (١٧٦٨-١٨٤٤) نحات نيو-كلاسيكى تخصص فى الموضوعات المأخوذة عن الميثولوجيا الإغريقية .

٥- بوديستافاس: تعنى كائناً مستقبلاً فى الديانة البوذية وهو الذى يرفض التعريفات ليقبذ الآخرين .

٦- لينجاسام: رمز جسمى للمهدأ الكونى المذكور فى الديانة الهندوسية .

عقيمة فى سن الأربعين، بينما أنثى التمساح تظل تبيض حتى قرنھا الثالث؟ لماذا بحق السماء يعيش سمك الكراكى حتى عامه المائتين بدون أن تظهر عليه علامات الشيخوخة، بينما جوستويت العجوز المسكين ...

من طريق جانبى خرج فجأة رجلان يحملان بينهما فوق نقالة جثتى الراهبتين المحنطتين، فاصطدما بهما.

صاح الدكتور أوبيسبو فى غضب:

- أغبياء!

- أنت الغبى.

- ألا تستطيعان رؤية طريقكما؟

- اخرس تماما.

نظر الدكتور أوبيسبو بعيدا بتهكم، واستمر فى طريقه.

صاحا خلفه:

- من نظن نفسك بحق الجحيم؟

فى تلك الأثناء كان جيريمى يتأمل الجثث المحنطة بفضول. قال بصوت عال دون أن يوجه كلامه لأحد بالتحديد: كرمليون^(٧) حُفَاةٌ، ثم أعجبته تركيبة الحروف فكرر الجملة بإصرار وتلذذ.

جاءه الرد من الرجل الأمامى وقد التفت إلى هذا المهاجم الجديد:

- حفاة فى مؤخرتك!

نظر جيريمى إلى الوجه الأحمر الغاضب ثم هرول وراء مرشده بسرعة مُشِينة.

أخيرا توقف الدكتور أوبيسبو وقال وهو يفتح بابا:

٧- كرمليون: طائفة من الرهبان والراهبات يرجع تاريخها للقرن الثانى عشر.

- ها قد وصلنا.

تصاعدت في العمر رائحة الفئران والكحل النقي. قال بترحيب:

- هيا ادخل.

دخل جيريمي. كانت هناك بالفعل فئران - قفصاً وراء الآخر، وفي صفوف على الحائط أمامه مباشرة. إلى الجهة اليسرى كانت هناك ثلاث نوافذ محفورة في الصخر، تفتح على مشهد لملاعب التنس وأشجار البرتقال والجبال الشاهقة. رأى رجلاً جالساً بجوار تلك النوافذ، وأمام مكتب، ينظر من خلال ميكروسكوب. رفع رأسه الشقراء المنكوشة عندما اقتربا، ونظر إليهما بوجه طفولي برىء، وقال بابتسامة ساحرة:

- أهلاً يا دكتور.

قال أوبيسبو موضحاً:

- هذا مساعدى بيتر بوون. بيت، هذا مستر بورديج.

وقف بيت فظهر جسمه الرياضي الضخم.

عندما قال له جيريمي مستر بوون، قال:

- يمكنك أن تتأدينى بيت، الكل ينادينى بيت.

تساءل جيريمي في نفسه هل المقروض أن يطلب منه أن يناديه جيريمي - ولكن كالعادة تساءل فترة طويلة حتى إن المناسبة لقول ذلك مرت دون رجعة. قال أوبيسبو في نبرة كان المقصود منها المحبة، ولكنها في الواقع متعالية:

- إن بيت ولد ذكى. يعرف الفيزياء جيداً. وهو أيضاً جيد استخدام يديه. إنه أفضل جراح رأيته.

ريت على كتف الشاب. بدا لـجيريمي أنه يبتسم ولكن بعدم ارتياح، وكأنه وجد

من الصعوبة بمكان أن يقوم بعمل رد فعل مناسب تجاه ترحيب الآخر به .
استمر الدكتور أوبيسبو وقال :
- إنه يأخذ السياسة مأخذ الجد، أكثر مما ينبغي . هذا خطؤه الوحيد . إننى أحاول أن أعالجه من هذا، ولكنى لم أنجح حتى الآن . أليس كذلك يا بيت ؟
ابتسم الرجل مرة ثانية ولكن بثقة أكبر . فى هذه المرة كان يعرف تماما أين يقف وماذا يفعل . قال :
- لم تلجح حتى الآن .
ثم التفت إلى جيريمى وقال :
- هل رأيت الأخبار الإسبانية فى نشرة هذا الصباح ؟
تبدل التعبير على وجهه الكبير الأشقر وأصبح مهموما . هز جيريمى رأسه بالنفى . قال بيت بوجوم :
- شىء بشع . عندما أفكر فى هؤلاء المساكين بدون طائرات أو إمدادات أو قاطعة الدكتور أوبيسبو ناصحا بابتهاج :
- إذن لا تفكر فيهم . سوف تشعر بتحسن .
نظر إليه الشاب ثم التفت بعيدا دون أن ينبس بكلمة . بعد فترة صمت أخرج ساعته وقال متجها نحو الباب :
- أعتقد سوف أذهب للسباحة قبل الغداء .
رفع الدكتور أوبيسبو قفصا من الفئران وأمسكه على بعد بوصات من أنف جيريمى ثم قال مداعبا بطريقة جعلت جيريمى يشعر بالإهانة :
- هؤلاء هم الأولاد الذين أعطيتهم هرمونات الجنس .
صرخت الفئران وهو يهز القفص . استمر فى كلامه :

- إنها تمتلىء حيوية ما دام التأثير موجوداً. المشكلة هي أن التأثير مؤقت فقط. أكمل موضحاً وهو يضع القفص مكانه، إن التأثير الوقتى ليس شيئاً يستحق الاحتقار، بل من الأفضل دائماً أن تشعر بسعادة وقتية عن أن تشعر ببؤس وقتى. لهذا السبب كان يعطى جو العجوز هذا العلاج من التيستوستيرون. كما أن الرجل العجوز ابن الزنا هذا ليس بحاجة ملحة إليه، خاصة وهذه الفتاة مونسيبل حوله... وضع الدكتور أوبيسبو يده فجأة على فمه ونظر حوله فى اتجاه النافذة، ثم قال: - أحمد الله إنه خارج الغرفة. مسكين بيت.

ابتسم بتهكم وأكمل قائلاً:

- لقد وقع فى الغرام.

ريت على جبهته واستمر:

- يظن أنها مثل شيء ما فى أشعار تليسون^(٨). أنت تعلم، وكأنها نقية نقاء كيميائياً. فى الشهر الماضى كاد يقتل رجلاً لأنه ألمح أنها هى والولد العجوز... أنت تعلم. الله أعلم ماذا يظن هذه الفتاة قاعلة هنا! ربما مثلاً تحكى لجو العجوز عن قرنية العين؟ على أية حال إن كان هذا يسعده فلن أكون الشخص الذى يفسد عليه سعادته.

انفجر دكتور أوبيسبو ضاحكاً ثم قال:

- ولكن للعود إلى ما كنا نقوله عن العم جو...

أوضح أن مجرد وجود الفتاة فى البيت يساوى علاجاً للهرمونات، ولكنه لن

٨- تليسون: نسبة إلى ألفريد تليسون (١٨٠٩-١٨٩٢) شاعر إنجليزى.

يدوم. لم يدم من قبل. براون-سيكوارد^(٩) وفورنوف^(١٠) وكل الآخرين كانوا مخطئين. كانوا يظنون أن الضعف الجنسي هو السبب في الشيوخوخة، بينما هو في الواقع أحد أعراضها. الشيوخوخة تبدأ في مكان آخر، وتضم الآلية الجنسية مع باقي الجسد. العلاج الهرموني مجرد تخفيف لحدة الألم. إنها تساعدك لفترة وجيزة، ولكنها لا تمنع الشيوخوخة.

منع جيريمي نفسه من التثاؤب. استمر الدكتور أوييسو متسائلاً عما يجعل مثل بعض الحيوانات تعيش فترة أطول بكثير من الإنسان دون أن تبدو عليها علامات الشيوخوخة؟ بشكل ما، وفي مكان ما، ارتكبنا خطأً بيولوجياً. استطاعت التماسيح مثلاً تفادي هذا الخطأ. كذلك السلاحف. ونفس الشيء بالنسبة لبعض أنواع الأسماك.

قال وهو يعبر الغرفة:

— انظر إلى هذا.

أزاح ستارة مطاطية فكشف عن حوض أسماك كبير داخل الحائط. اقترب جيريمي ونظر داخله.

وسط الشفافية الخضراء ظهرت سمكتان كبيرتان معلقتان، تكاد تتلامس أنوفهما معاً، بلا حراك سوى تموجات صغيرة بين الحين والآخر عندما تحركان زعانفهما أو عندما تتنفسان من خياشيمهما. على بعد بضعة بوصات من أعينهما المحدقة، خرجت الفقاعات كسلسلة تسيحية بانتظام ولأعلى تجاه الضوء، وحولهما كانت المياه الفضية تلمع بين الحين والآخر ببريق الأسماك الأصغر. غارقين في نشوتهم

٩- براون-سيكوارد: نسبة إلى تشارلز إدوارد سيكوارد (١٨١٧-١٨٩٤) عالم فيسيولوجي فرنسي برز عرف بدراسته للفنعة الأدرينالية.

١٠- فورنوف: نسبة إلى سيرج فورنوف (١٨٦٦-١٩٥١) عالم فيسيولوجي روسي اشتهر بمحاولاته وتجاربه لإطالة الحياة البشرية عن طريق إعطاء عدد الحيوانات، وبخاصة القرود، للبشر.

اللاعقلانية كان الوحشان غير مهتمين.

أوضح الدكتور أوبيسبو أنها أسماك الشبوط - جاءوا بها من أحواض الأسماك في قصر ما في فرانكونيا - نسي اسمه الآن، ولكنه في مكان ما بجانب بامبرج. كانت العائلة فقيرة، ولكن الأسماك كانت متاعاً شخصياً توارثته الأجيال، لا يشتري بمال، كان على جرستويت أن يدفع الكثير من أجل سرقتهم وتهريبهم من البلاد في سيارة صنعت خصيصاً لهذا الغرض، بها حوض مائي تحت المقعد الخلفي. وزنهما أكثر من ستين رطلاً، وطولهما يفوق الأربعة أقدام، وتشير تلك الحقائق فوق ذليلهما إلى أنهما يرجعان لعام ١٧٦١.

قال جيريمي وقد بدا عليه الاهتمام فجأة:
- هذه بداية حقبتى.

عام ١٧٦١ كان عام الفجبال^(١١). ابتسم لنفسه - الشبوط والأوسيان، الشبوط وشاعر نابليون المفضل، الشبوط وأول إيدان بقرب الاضمحلال الكلى^(١٢). كل هذا أعطاه نوعاً من السعادة الغريبة. هذا الموضوع رائع لمقالاته القصيرة. عشرون صفحة من الغرابة والجهدة - انتهاك للحرمات في اللاوندة - عشرون صفحة من عدم الاحترام الرقيق التي يبيدها العالم للموتى المجلين وغير المجلين. ولكن الدكتور أوبيسبو لم يسمح له بالتفكير في سلام. بلا كلل، ممتطياً هوايته، بدأ مرة أخرى. أشار إلى السمكتين الكبيرتين وقال إنهما هذا الآن - سمكتان عمراهما فوق المائتين، في صحة تامة، بدون أعراض الشيخوخة، ولا يوجد سبب واضح يجعلهما لا يستمران ثلاثمائة أو أربعمائة قرن آخر. ها هي، وه أنت. استدار

١١- فجبال: الاسم الذي أعطاه الشاعر ماكفيرسون في قصائده الأرسينية لبطله ((فين))، وهو شخصية بالأساس تسعى لتصحيح الأخطاء وتدافع عن المتهورين، وقد عبر فجبال إلى أيرلندا وساعد الملك الأيرلندي ضد ملك إسكتلندا الذي قام بغزو أيرلندا، وهزمه.

١٢- كلى: اسم يطلق عادة على من يتحدثون اللغات الغالية، مثل فرنسا وأيرلندا.

فجأة نحو جيريمى بنبرة اتهام. ها أنت، لا تزيد عن كونك رجلا فى منتصف العمر، ولكن بالفعل أصبحت أصلع، بالفعل طويل النظر، قصير النفس، بالفعل، تكاد تكون بلا أسنان، وبشكل أو بآخر، لا تستطيع القيام بأعمال بدنية مدة طويلة، ولديك إمساك مزمن (هل تستطيع إنكاره؟)، وذاكرتك لم تعد جيدة كما كانت، والجهاز الهضمى أصبح بالفعل مزاجيا، وقوتك التناسلية تضعف - إذا لم تكن قد ضعفت بالفعل، واختفت إلى الأبد.

أجبر جيريمى نفسه على الابتسام، ومع كل بند جديد كان يهز رأسه فيما يبدو أنه موافقة باستمئاع. لكن فى داخله ظل يتلوى بمزيج من الضيق من جراء هذا التحليل الحقيقى، والغضب ضد هذا المحلل بسبب قلة رحمته وانفصالة العلمى. التحدث عن الشيخوخة بمزاح واستخفاف بالذات كان مختلفا تماما عن أن يقولها لك فى وجهك شخص لا يهتم بك سوى لكونك حيوانا لا يشبه السمكة. ومع ذلك ظل يهز رأسه بالإيجاب ويبتسم.

استمر الدكتور أوبيسبو وقال فى نهاية تحليله ها أنت وها هو الشبوط. لماذا لا تستطيع إدارة أحوالك الفسيولوجية كما تفعل هى؟ أين وكيف ولماذا ارتكبت الخطأ الذى سرق منك أسنانك وشعرك وسوف يذهب بك بعد عدة سنوات إلى القبر؟ سأل ميتشنيكوف^(١٣) العجوز مثل هذه الأسئلة وحاول الإجابة بجرأة. لكن جانبه الصواب فى كل ما قال.. الفاجوسيتويس^(١٤) لا يحدث. حالة الشمالة الأوتوماتيكية للأمعاء ليست السبب الوحيد للشيخوخة. النيورونوفاجس^(١٥) كانت

١٣- ميتشنيكوف: نسبة إلى إيلى ميتشنيكوف (١٨٤٥-١٩١٦) عالم بيولوجى روسى اشتهر باكتشافه دور الخلايا النجمية البيضاء فى محاربة المرض.

١٤- فاجوسيتويس: عملية تدمير الأجسام الغريبة عن طريق الخلايا، وقد اخترع الكلمة ميتشنيكوف، وبنى عليها نظرية الوفاة من الأمراض..

١٥- نيورونوفاجس: النيرون هى خلية العصب الأساسية فى الجهاز العصبى.

وحوشاً ميثولوجية. شرب اللبن المر لا يطيل الحياة بالضرورة، بينما حذف جزء كبير من الأمعاء بالضرورة يقصر الحياة. أخذ يتذكر تلك العمليات التي كانت موصفة قبل الحرب مباشرة وهو يضحك. السيدات والرجال المسنون، بقولونهم المقطوع، مجبرون على التبول كل بضع دقائق مثل عصافير الكنداريا. كله هباء بالطبع، لأن العملية التي من المفترض أن تطيل عمرهم حتى المائة، كانت تقتلهم كلهم بعد عام أو اثنين. أرجع الدكتور أوبيسبو رأسه الالامعة للوراء، وأطلق إحدى ضحكاته العالية والتي كانت رد فعله الدائم عندما يسمع أو يتحدث عن قصص الغباء الإنساني التي تؤدي إلى سوء الحظ. مسكين ميتشنيكوف. استمر في كلامه وهو يمسح دموع الضحك من عينيه. كان مخطئاً على طول الخط، ولكن بالتأكيد ليس مخطئاً بالقدر الذي يظنه الناس. مخطيء نعم، وذلك لأنه اعتقد أن المسألة تتعلق بحالة الثمالة الثقافية للأمعاء. ولكن في الغالب هو على صواب عندما آمن أن السريكمين في مكان ما تحت، في الأمعاء. كرر الدكتور أوبيسبو تلك الجملة مرة أخرى: مكان ما في الأمعاء، ثم يؤمن هو أيضاً أنه قد اقترب من معرفة هذا السر. توقف بضع ثوان في صمت، وأخذ ينقر بأصابعه على زجاج حوض الأسماك. وقفت السمكتان العجوزان السمينتان باتزان بين الطين والهواء، في غسقهما الأخضر، مدركتين وجوده بصفاء وهدوء. هز الدكتور أوبيسبو رأسه لهما وقال في نبرة تمزج بين الاستياء والكبرياء والوجوم، إنها أسوأ حيوانات تجارب في العالم. لا يمكن لأحد أن يتحدث عن الصعوبات التقنية لو لم يكن قد تعامل مع الأسماك. خذ أبسط عملية، إنها كابوس. هل حاولت أن تبقى خياشيمها مبتلة وهي مخدرة على مائدة العمليات؟ أو بالعكس هل قمت بعملية جراحية تحت الماء؟ هل حاولت أبداً أن تقرر عملية الأيض عند الأسماك، أو تأخذ رسم قلب كهربائي لحركة قلبها،

أو تقيس ضغط دمها؟ هل حاولت أبدا تحليل إفرازاتها؟ وإذا كنت قد حاولت، فهل تعرف الصعوبة التي تواجهك في جمع هذه الإفرازات؟ هل حاولت أبدا أن تدرس كيمياء هضم الأسماك أو استيعاب جسمها للطعام؟ أن تقرر ضغط الدم تحت ظروف صعبة؟ أن تقيس سرعة رد فعلها العصبي؟

لا، لم تفعل. قالها الدكتور أوبيسبو بنهم. وحتى تفعل ذلك لا يحق لك الشكوى من أى شيء.

جذب الستائر وأغلقها على أسماكها، ثم جذب ذراع چيريمى وقاده ناحية الفئران.

قال مشيراً إلى مجموعة من الأقفاص على الرف العلوى:
- أنظر إلى هذا.

نظر چيريمى. كانت الفئران المقصودة تشبه تماماً تلك الفئران الأخرى. سأل:
- ماذا بها؟

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال بشكل درامى:

- لو كانت هذه الحيوانات إنساناً، لفاق عمرها المائة عام.

بدأ يتكلم سريعاً وبانفعال عن الكحوليات الدهنية وعن أمعاء الشبوط. لأن السر يكمن هناك. المفتاح لكل مشاكل الشيخوخة وإطالة الحياة. هناك، بين القفص الصدرى وأمعاء الشبوط الغريبة.

هذا القفص الصدرى! هز الدكتور أوبيسبو رأسه وقطّب حاجبيه. دائماً مرتبط بالشيخوخة. المثال الواضح بالطبع هو الكولسترول. يمكن تعريف الحيوان المسن بأنه ذاك الذى به تراكم من الكولسترول على جدران أورته. يبدو أن البوتاسيوم ثايوسيانيت يذيب هذه التراكمات. الأرانب المسنة مثلاً تظهر علامات الحيوية

عندما تعالج بالبروتاسيوم ثايوسيانات، كذلك الإنسان المُسن. ولكن أيضا ليس لفترة طويلة. الكولسترول في الأوردة هو بالتأكيد واحد فقط من المشاكل. ولكن الكولسترول أيضا كان واحدا من الأوردة. إنها مجموعة متصلة تلك الكحوليات الدهنية، إذ تستغرق وقتا طويلا لتحول الواحد إلى الآخر. ولكن لو قرأت أعمال شينجلوك وكل الأشياء التي نشرها في أبسالا^(١٦) لعرفت أن بعض هذه الأشياء سام بالتأكيد - أكثر من الكولسترول حتى في أقصى حالات تراكمه. كان لوجبوثام قد اقترح أن هناك صلة ما بين الكحوليات الدهنية والنيوبلازم. أى بمعنى آخر، يمكن أن يكون السرطان، في التحليل الأخير، من أعراض تسمم الستيرول^(١٧). هو نفسه يقول أيضا أن تسمم الستيرول مسؤول عن الحالة المتردية للشيخوخة في الإنسان والدبليات الأخرى. ما لم يفعله أحد حتى الآن هو البحث في دور الكحوليات الدهنية في حياة الحيوانات مثل الشبوط. هذا هو العمل الذى ظل يقوم به طوال العام العاضى، وقد أثبتت أبحاثه شيلين أو ثلاثة: أولا أن الكحوليات الدهنية في الشبوط لا تتراكم بشكل كبير، وثانيا أنها لا تتحول إلى ستيرول سام، وثالثا أن هذه المداغة ناتجة عن الطبيعة الغريبة لفطريات أمعاء الشبوط. وأية فطريات ا صاحب الدكتور أوبيسور بحماس، إنها غنية جدا ومختلفة. لم يستطع بعد أن يعزل الكائن العضوى المسؤول عن مداغة الشبوط ضد الشيخوخة، ولم يستطع بعد أن يفهم طبيعة الآلية الكيميائية المعنية بهذا الموضوع. ولكن تبقى الحقيقة الأساسية مؤكدة، وهى أنه بطريقة أو بأخرى، مجتمعين أو منفردين، كانت هذه الكائنات هى المتواطئة على منع تحول الستيرول إلى سموم. لهذا السبب استطاع الشبوط أن

١٦- أبسالا: مدينة سويدية. كانت عاصمة للابكتنج في القديم.

١٧- ستيرول: نسبة إلى الكوليسترول.

يعيش مائتى عام، دون أن تبدو عليه علامات الشيخوخة. هل يمكن لفطريات أمعاء الشبوط أن تنتقل إلى أمعاء الثدييات؟ وإن أمكن، هل تستطيع أن تحصل على نفس النتيجة البيولوجية والكيميائية؟ هذا ما كان يحاول أن يكتشفه طوال العامين الماضيين، ولكن دون جدوى. حديثا، على أية حال، استطاعوا أن يقوموا بتجارب مستخدمين تقنيات حديثة - تقنيات تحمى الفطريات من عملية الهضم، وتعطيها الوقت لتتأقلم مع الحالة غير المألوفة. وقد أصبحت لها جذور، وقد كان التأثير على الفئران فوريا وذا أهمية كبيرة. توقفت الشيخوخة، بل إنها انقلبت إلى عكسها. فسيولوجيا، أصبحت الحيوانات أصغر مما كانت على الأقل فى الثمانية عشرة شهرا الماضية - أصغر بمعدل مائة عام عما كانت فى سن الستين.

دق جرس كهبرى فى المعمر الخارجى، إيذانا بموعد الغداء. ترك الرجلان الغرفة وسارا نحو المصعد. قال الدكتور أوبيسبون إن الفئران كانت كعادتها مخادعة بعض الشيء. لقد بدأ يجرب هذا الشيء على الحيوانات الأكبر حجما. لو نجحت مع الكلاب والقرود، فبالأكيد ستنجح مع العم جو.

الفصل السادس

كانت كل المفروشات فى حجرة الطعام الصغيرة، من معرض برايتون. فوق المائدة المطلية بورنيس الأخشاب الأحمر، وقف أربعة ثنائين مطلية، بينما وقف اثنان آخران على جانبى المدفأة كراهبات، إنه حلم الريجيسى^(١) الملكى للشرق البديع. لاحظ جيريمى وهو يجلس على مقعده الأحمر والمذهب، أن المكان كان من ذلك الطراز الذى يمكن أن يجعل كلمة مثل كاثنى^(٢) تظهر فى عقل كيتس^(٣) مثلاً، أو شيللى^(٤) أو اللورد بايرون^(٥) - تماماً مثل هذه الجميلة ليدا^(٦) لإيتى^(٧) الواقفة هناك بجانب البشارة لفرانجليكو، والتي كانت تجسداً دقيقاً لتخيلاتهم عن موضوع الميثولوجيا الوثنية. كانت التمثيل الحقيقى لقصيدة الإلهة سايكى^(٨) والقارورة الإغريقية^(٩) الإنديميون^(١٠) والبروميثيوس غير المقيد^(١١). فكر جيريمى فى كل هذا وضحك فى داخله. إنها عادة العمر من التفكير والإحساس والخيال، يشارك فيها كل من عاش أو عمل فى هذا الوقت - الكل بدءاً من الاستكشافى وانتهاء بالعقري. الريجيسى دائماً هو الريجيسى، إذا أخذت عينة منه من أعلى أو

- ١- الريجيسى: فترة فى تاريخ إنجلترا من ١٨١١-١٨٢٠ عندما تولى جورج ولى العهد وأمير ويلز الحكم بسبب جنون جورج الثالث، ويستخدم اللفظ كناية عن اللب-كلاسيكية فى فنون العمارة والأثاث.
- ٢- كاثنى: الاسم الذى عرفت به الصين فى فترة الحكم المغولى.
- ٣- كيتس: نسبة إلى جون كيتس (١٧٩٥-١٨٢١) شاعر إنجليزى.
- ٤- شيللى: بيرسى بوش شيللى (١٧٩٢-١٨٢٢) شاعر إنجليزى.
- ٥- اللورد بايرون: (١٧٨٨-١٨٢٤) شاعر إنجليزى.
- ٦- ليدا: ابنة تيسيتوس وزوجة ملك سبارتا، ويقال أن زيوس رآها تسبح فى النهر وأحبها واتخذ صورة بجعة ليقرب منها، وولد منها ثلاثة أطفال.
- ٧- إيتى: نسبة للرسم الإنجليزى ويليام إيتى (١٧٧٩-١٨٤٩) وقد اشتهر برسوماته العارية والموضوعات التاريخية والغريبة.
- ٨- سايكى: اسم قصيدة لكيتس الشاعر الإنجليزى، وسايكى هى شخصية ابنة الملك التى يحبها كيبويد ويرفض أن يراه الآخرون، فتصب عليه زينا فى يوم ما وهو تائم قيصو ويفضب عليها ويرفض أن يراها ثانية.
- ٩- القارورة الإغريقية: اسم قصيدة لكيتس.
- ١٠- إنديميون: قصة كتبها بنجامين ديزرائيلى (١٨٠٤-١٨٨١) رئيس وزراء بريطانيا نشرت عام ١٨٨٠.
- ١١- بروميثيوس غير المقيد: مسرحية شعرية كتبها شيللى، نشرت عام ١٨٢٠.

من أسفل. فى عام ١٨٢٠ الرجل الذى كان يغلق عينيه ويحاول أن يرى زجاج النافذة السحرية، الذى يفتح على رغبة البحر السحرية كان يرى - ماذا؟ برج معرض برايتون. ابتسم جيريمى لنفسه فى سعادة. إيتى وكيتس، برايتون وبيرسى بيش شيللى - أية موضوعات جميلة! أفضل من الشبوط والأوسيان، أفضل لدرجة أنهما مثيران للضحك أكثر من ناش^(١٢) والأمير ريجينت. ولكن من أجل الحوار وعلى مائدة الغداء، فإن أفضل الموضوعات لا تساوى شيئا لو لم يكن هناك أحد لنحاوره. سأل جيريمى نفسه: ولكن هل من أحد فى هذه الغرفة يريد، بل يستطيع، أن يتحدث معه فى موضوع كهذا؟ ليس المستر ستويت، وليس، بالتأكيد، الأنسة مونسيبل، ولا الشابتان اللتان جاءتا من هوليود لتناول الغداء معها. وليس الدكتور أويبسو الذى يهتم بالفئران أكثر من الكتب، وليس بيتر يون الذى، فى الغالب، لا يعرف أصلا بوجود الكتب ليهتم بها. الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يتصور اهتمامه بتجسيد الروح الجورجية فى أواخر عصرها، هو الشخص الذى عرفوه عليه تواء، وقالوا إن اسمه الدكتور هيربيرت مالدج، حامل الدكتوراه، ورئيس كلية طارزانا. ولكن كان الدكتور مالدج فى هذه اللحظة يتحدث بصوت ثرى، فيما يشبه البلاغة المنبرية، عن القاعة التى أهداها مستر ستويت إلى الجامعة، والتى سيتم افتتاحها قريبا. كان الدكتور مالدج رجلا ضخما ووسيماء، ذا صوت يعادل وسامته - يمزج بين العمق والرقّة، التزلّف والرنين، وكان استرساله بطيئا ومنتظما، ويبدو أنه لا يعتمد عليه. فى جمل مليئة بالمرادفات المسموعة والأحرف الكبيرة، استمر فى التأكيد للمستر ستويت ولأى فرد آخر يهتم أن يسمع، أنه إلهام حقيقى للشباب والشابات فى طارزانا، أن يأتوا معا إلى المبنى الجديد الجميل من أجل نشاطهم

١٢- ناش: نسبة إلى توماس ناش (١٧٦٧-١٦٠١) كاتب إنجليزى ساخر.

المحلى . مثلاً من أجل الصلاة غير الطائفية ، أو للاستمتاع بأفضل المسرحيات والموسيقى . نعم ، أى إلهام ! إن اسم ستويت سيذكرونه بكل الحب والاحترام ، عبر عدة أجيال من خريجي الجامعات - وربما يذكرونه إلى الأبد ، لأن القاعة ما هى إلا صرح ، أو بصمة على رمال الزمن - بلا شك بصمة . قال الدكتور مالدج بين كل قصمة من الفراح بالكريمة ، لقد صار احتياج طارزان المُلح الآن ، هو مدرسة جديدة للفنون . لأنه بعد كل شيء ، كما بدأنا نكتشف الآن ، أن الفنون تعد واحدة من أهم القوى التعليمية ، وهى الشيء الذى تتجسد فيه ، فى قرننا العشرين ، الروح الأدبية . الفنون هى الطريق الذى يمكن للناس أن يصلوا من خلاله إلى أفضل تعبير خَلَقَ عن الذات ، و...

قالها جيريمى لنفسه:

- هراء! حقاً!

ابتسم لنفسه بمجرد تفكيره أن يتحدث مع هذا الوغد ، عن العلاقة بين كيتس ومعرض برايتون .

وجد بيتر بوون نفسه منفصلاً عن فيرجينيا ، إذ كانت بينهما أشقر الشابتين من هوليبود ، فاستطاع فقط أن يراها عبر «مقدمة» من أحمر الشفاه والأهداب ، والخصلات الذهبية ، بالإضافة إلى عطر زهرة الغاردينيا الثقيل الذى كاد أن يكون مرئياً .

بالنسبة لأى شخص آخر ، يمكن أن تكون هذه المقدمة مُربكة ، ولكن بالنسبة لبيت فلم تكن أكثر أهمية من حفنة من الطين ، فقد كان مهتماً فقط بما وراء المقدمة - فى هذه الشفة العليا القصيرة ، وهذه الأنف الصغيرة التى تجعلك تريد البكاء

عندما تنظر إليها، إذ كانت هكذا أنيقة ووقحة، تبعث على الضحك وملائكية. وهذا الشعر القصير جدا البنى الفاتح الفلورنتيني اللامع، وفي هاتين العينين الواسعتين المفتوحتين، بسطحهما اللامع وخفة دمهما، وعمقهما الأزرق الداكن، والتي كان متأكدا أنها تحمل الحنان الأبدى، والحكمة الأنثوية التي لا تنتهى. كان يحبها كثيرا حتى إنه كان يشعر بألم وضيق تنفس وفراغ لا يمكن أن يملأه سواها، فى مكان قلبه المفترض.

فى تلك الأثناء كانت تحدث للمقدمة الشقراء عن هذا العمل الجديد الذى حصلت عليه المقدمة مع استديو الكوزموبوليتان-بيرلماتر. الفيلم اسمه «قوليها بالجوارب، تقوم فيه المقدمة بدور فتاة ثرية من الطبقة الراقية، تهرب من منزلها بحثا عن مستقبلها العملى، فتصبح راقصة استريزيز، فى معسكر تعدين غريب، وفى النهاية تتزوج من راعى أبقار، نكتشف أنه مليونير.

قالت فيرجينيا:

- تبدو قصة رائعة. ألا تعتقد ذلك يا بيت؟

اعتقد بيت ذلك، بل وكان مستعدا أن يعتقد أى شيء تريده.

قالت فيرجينيا:

- هذا يذكرنى بإسبانيا.

أما جيرمى الذى كان يتنصت على الحوار، فقد حاول جاهدا أن يتصور أى تسلسل للأفكار جعلها تذهب من «قوليها بالجوارب، إلى الحرب الأهلية - هل هى مثلا كلمة كوزموبوليتان-بيرلماتر، فالعداء للسامية، فالنازية، ففرائكو - أم مثلا الطبقة الراقية، فالحرب، فموسكو، فنجرين؟ - أم ربما الستريبيتيز، فالحدائث، فالرايديكالية، فالجمهوريون - وبينما يفكر هكذا بلا جدوى، طلبت فيرجينيا من

الشاب أن يروى لهم ما فعله في إسبانيا، وعندما تلمل أُصرت - لأن المسألة شيقة جداً، ولأن المقدمة لم تسمعها من قبل، وأيضاً في النهاية، لأنها تريده أن يفعل ذلك.

أطاع بيت. تحدث بلغة نصف مفهومة، مفرداتها مزيج من العامية الركيكة والكليشيات، مزينة بألفاظ سباب وشخير - لغة، كما فكر جيريمي وهو يستمع خفية من خلال بلاغة الدكتور مالدج، بلاغة تتميز بالمفردات البائسة والفقيرة والتي تستخدم عندما يخاف شخص ما أن يظنه الآخرون مختلفاً اجتماعياً، أو متفوقاً عليهم بعدم ديمقراطيته، أو متباهياً بثقافته الرفيعة، وبدون روح رياضية، والتي يستخدمها أغلب الشباب الأمريكي والإنجليزي - وبدأ يشرح تجاربه كمتطوع في اللواء الدولي في الأيام البطولية لعام ١٩٣٧. كانت بالفعل رواية مؤثرة. بالرغم من اللغة غير الملائمة، والميثوس منها، استطاع جيريمي أن يستشف حماس الشاب للحرية والعدل، وجرأته، وحبّه لزملائه، وشعوره الجارف بالحنين للماضي، حتى في وسط هذا الجو الذي توجد فيه هذه الشفة العليا القصيرة، وحتى في وسط البحث العلمي الذي يستغرقه، لأن حياة الرجال يجمعها الولاء لقضية ما، تجعلهم ينفقون في وجه الصعوبات، والخطر المشترك، والموت المحتم.

ظل يكرر:

- آه كانوا شباناً رائعين.

كانوا كلهم رائعين - ناد الذي أنقذ حياته ذات مرة هناك في الأراجون، وأنطون وماك والمسكين دينو الصغير الذي قُتل، وأندريه الذي فقد ساقه، وجان الذي كان متزوجاً وله ابلتان، وفريز الذي قضى ستة أشهر في معسكرات النازية، وكل الباقين - أفضل مجموعة أولاد في العالم. وماذا فعل هو لهم، غير إصابته

بحمى رومانيزيمة، ثم فطريات - مما كان يعنى إيقافه عن الخدمة العملية، وإيقاعه جالسا لا يفعل شيئا. أوضح بلبرة اعتذارية أن هذا هو سبب وجوده هنا. ولكن ياه - كم كانت هذه الفترة جيدة! فى ذلك الوقت مثلا، عندما ذهب هو وناد أثناء الليل وصعدا حافة هاوية فى الظلام الدامس، وفاجأ كنيبة من المغاربة وقتلا نصف دسته منها ثم عادا ومعهما رشاش وثلاثة أسرى...

- وما رأيك فى العمل الخلاق يا مستر بورديج؟
فاجأه السؤال وأحس قورا بالذنب لعدم انتباهه المشين، فتمتم العمل الخلاق؟
محاولا كسب بعض الوقت، ثم قال ثانية:

- العمل الخلاق؟ بالطبع أنا معه تماما. بالتأكيد.

قال الدكتور مالدج:

- أنا سعيد بقولك هذا لأن هذا ما أريده فى طارزانا. العمل الخلاق - الخلاق أكثر وأكثر. هل أقول لك ما هو أقصى طموحى؟

لم يرد المستر ستويت ولا جيريى، ولكن الدكتور مالدج قال لهم رغما عنهم:
- أن أجعل طارزانا مركزا حيويا للحضارة الجديدة التى جاءت لتزدهر هنا فى الغرب.

رفع يداً كبيرة بدينة، وأكمل فى تأكيد ووجوم:

- أثينا القرن العشرين على شفا أن تتجلى هنا فى لويس أنجيلوس العاصمة. أريد طارزانا أن تكون بارثينونا^(١٣) لها، وأكاديميتها، وأن تكون مثل الستوا^(١٤) فى هذه البلاد، ومعبداً لآلهة الموسيقى والفنون. الدين، الفن، الفلسفة، العلم - أريدكم كلهم أن يجدوا بيتاً لهم فى طارزانا، لي شعروا الناس بتأثرها من حرم الجامعة إلى ...

١٣ - البارثينون: معبد بنى فوق الأكروبوليس بأثينا فى القرن الخامس.
١٤ - ستوا: مبنى على الطراز الإغريقى القديم.

بينما يحكى بيت عن المغاربة والهوة السحيقة، لاحظ أن المقدمة فقط كانت تستمع له، أما فيرجينيا فقد التفتت بعيدا، خلسة في البداية، ثم صراحة ومجاهرة - التفتت إلى يسارها، حيث صديقتها الأقل شقراوية تجلس، والدكتور أوييسبو يهمس لها شيئا.

قالت فيرجينيا:

- ماذا؟

مال الدكتور أوييسبو عليها ، وبدأ ثانية. تلامست الثلاث رؤوس: السوداء الناعمة الزيتية، والبنية المجعدة، والبنية الفاتحة اللامعة، . من وجوههم، استطاع بيت أن يستشف أن الدكتور أوييسبو يقص عليهم واحدة من قصصه القذرة. عاوده الألم الذى شعر به فى قلبه، مثل ذلك الذى أصابه حينما ابتسمت له، وطلبت منه أن يحكى لهما عن أسبانيا. كان ألما مركبا، خليطا من الغيرة وإحساسا بالضيق واليأس وعدم القيمة، وخوفاً من أن يقوم أحدهم بإفساد ملاكه، بل وخوفاً آخر أكثر عمقا، رفض عقله أن يقبله، وهو الخوف من أنه لا يوجد إفساد أكثر من هذا، وأن الملاك ليس ملائكا كما حمله حبه لها على الاعتقاد. توقف عن الاسترسال فى الرواية ، ولاذ بالصمت.

سألت المقدمة باشتياق، وتعبير إعجاب يملأ وجهها وكأنها تخاطب بطلا تعبه:

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

كان يمكن لأى شاب آخر أن يجد ذلك إطراء جميلا، لكنه هز رأسه وقال:

- لا شيء يُذكر.

- ولكن هؤلاء المغاربة...

قال بعصبية:

- اللعنة! ماذا يهم على أية حال؟

غرقت كلماته وسط انفجار ضاحك، جعل الثلاثة رؤوس المتأمرة، السوداء والبنية والبنية الفاتحة الجميلة، تطير بعيدا عن بعضها بعضاً. نظر إلى فيرجينيا فرأى وجهها مشوهاً من المرح. ولكن على ماذا؟ أخذ يسأل نفسه في ألم شديد، محاولاً قياس مدى فسادها، وجاءته فجأة الذاكرة التليسكوبية الاصطناعية عن كل حكايات الأولاد في المدرسة، وكل هذه اللكات والمقطوعات الشعرية الهزلية التي قد سمعها آنذاك.

هل كانت تضحك على هذه؟ أم تلك؟ أو، يا إلهي، ربما هذه؟ تمنى وصلى ألا تكون. لكن كلما تمنى وصلى، تأكد أكثر لدرجة الجنون، أنها هي التي تضحكها. كان الدكتور مالدج يقول:

- ... وفوق كل هذا، العمل الخلاق في الفنون. ومن ثم الاحتياج الملح لمدرسة للفنون - مدرسة تليق بطارزانا، وتليق بأعلى تقاليد ال... استمرت ضحكات الفتيات العالية منفجرة بقوة من المرح تعادل قوة التابو الاجتماعي المحيط بهن. التفت المستر ستويت بحدة تجاه الصوت وقال في نبرة شك واضحة:

- ما اللكثة؟

لن يترك البيبي تستمع لمثل هذه القاذورات. إنه لا يوافق على القاذورات أمام الآخرين، بكل كيانه، مثلما كانت تفعل جدته التي من بليموث. سأل:

- ما كل هذا الضجيج؟

جاءت الإجابة من الدكتور أوبيسبر. إنه يروى لهم قصة مضحكة كان قد سمعها في المذيع. قدم هذا الشرح بأدب جم، كاد يكون ساخرا. إنها نكتة ممتعة حقا، فريما يريد المستر ستويت أن يعيدها له؟
تململ المستر ستويت بعنف، واستدار بعيدا عنه.

نظرة على وجه مضيفه الغاضب، أقنعت الدكتور مالدج أنه من الأفضل أن يؤجل الحديث عن مدرسة الفنون لوقت آخر يكون مناسباً. إنه لشيء محبط، لأنه كان يعتقد أنه يحرز تقدما ملحوظا في الموضوع. ولكن ها هي مثل هذه الأشياء تحدث أحيانا. كان الدكتور مالدج رئيسا للكلية، ولذلك كان في احتياج مزمن للتبرعات. لكنه يعرف كل شيء عن الأثرياء، فيعرف مثلا، أنهم مثل الغوريلا، كائنات يصعب ترويضها، شكاكة بعمق، تمل بسرعة، ضيقة الروح. ينبغي الاقتراب منها بحرص، والتعامل معها برقة ودهاء كبيرين. وحتى بعد كل هذه الاحتياطات، يمكنها فجأة أن تصبح متوحشة، وتترك أسنانها. نصف عمر من التجارب مع رؤساء البنوك، وأرباب تجارة الصلب، وتجار اللحوم المتقاعدین، علمت الدكتور مالدج أن يأخذ مثل هذا الذي حدث اليوم، بصبر فلسفي حقيقى، وببشاشة وابتسامة على وجهه الكبير الإمبريالى الرومانى. لذلك كله، استدار إلى جبريمى وقال:

– ما رأيك فى طقسنا الكاليفورنى يا مستر بورديج؟

فى تلك الأثناء كانت فيرجينيا قد لاحظت التعبير على وجه بيت، واستطاعت فورا تخمين سبب تعاسه. ممكن بيت. ولكن حقا، لو كان يظن أنه ليس لديها شيء تفعله أفضل من الاستماع لحديثه عن هذه الحرب الغبية فى إسبانيا – أو إن لم تكن إسبانيا، فكان الحديث عن المعمل، وإذا كانوا يقومون بالتشريح هناك، والذي

هو في الواقع شيء بشع، لأنه في النهاية عندما تذهب للصيد فالحيوانات لديها الفرصة للهرب، خاصة لو كنت لا تعرف الصيد مثلها. ثم إن الصيد فيه الكثير من الإثارة، ويمكنك أن تشعر بسعادة وأنت فوق هناك، في الجبال وفي الجو الجميل، أما بيت فإنه يقوم بتقطيعها تحت الأرض، في ذلك القبو... لا، لو كان يظن أنه ليس لديها شيء أفضل تفعله سوى ذلك، فهو مخطيء خطأ جسيماً. على أية حال إنه ولد لطيف، ولكن بالنسبة لكونه يحب فهذا شيء آخر! أن يكون حولك أشخاص تشعر هكذا نحوك، لأن هذا يعطيك شعوراً جيداً نوعاً ما. ولكن قد يكون ذلك مصدراً للضغط أحياناً، لأنهم يشعرون أن لهم شيئاً ما عليك، فيظنون أن من حقهم أن يقولوا لك أشياء، ويتدخلون في حياتك. لا يفعل هذا بيت بالكلام، وإنما كانت له طريقة ما في النظر إليك - مثلاً قد يفعل كلب ما إذا بدأ فجأة في توجيه نقد إليك لأنك تناولت كوكيتلاً آخر. إنه يقولها بعينيه، مثل هيدى لامار^(١٥) - ولكنها ليست نفس ما تقوله هيدى بعينها، بل في الواقع العكس تماماً. وكان هذا العكس الآن - وماذا فعلت؟ ملكت من هذه الحرب الغبية واستمعت لما يقوله سيج لماري لو. على أية حال كل ما يمكن قوله، هو أنها لن تجعل أحداً يتدخل في طريقة اختيارها لحياتها. هذا شأنها هي وحدها. بل إنه شيء في طريقة نظرتها إليها، مثل العم جوه، أو أمها، أو الأب أورابلي. إلا أن هؤلاء بالطبع لم ينظروا فقط، بل كانوا يقولون أشياء أيضاً. إنها تعلم أنه لا يقصد شيئاً سيئاً بالطبع، مسكين بيت. إنه فقط طفل بلا تجارب، وفوق كل شيء يحب مثل الأطفال - مثل تلميذ مدرسة الثانوية في صورة دينا ديرين الأخيرة. مسكين بيت. حظه سيء. ولكن الواقع لا تشعر تجاه هذا النوع من الشباب بأية جاذبية، وهو النوع الكبير الأشقر الذي يشبه كاري جرانت^(١٦). لا تنجذب لهم، وهذا كل ما في الأمر. كانت تستلطفه، وتستمتع بكونه مغرمًا بها. ولكن هذا كل ما في الأمر.

عبر المائدة شددت عينيه، وأعطته ابتسامة مبهرة، ودعته، إن كان لديه نصف ساعة فارغة بعد الغداء، ليأتى ويعلمها هي والبنات كيف يقذفن حدوة الحصان.

١٥- هيدى لامار: ممثلة أمريكية.

١٦- كاري جرانت: ممثل أمريكي.

الفصل السابع

أخيرا انتهى الغداء، وانفض الحفل. كان لدى الدكتور مالدج موعد في باسادينا، لمقابلة أرملة تاجر كاوتشوك، والتي ربما تعطيه ثلاثين ألف دولار لبناء بيت طالبات. أما مستر ستريت فقد ذهب إلى لوس أنجلوس لحضور اجتماع مجلس الإدارة المعتاد ظهر كل يوم جمعة، وللقيام ببعض الاستشارات العملية. الدكتور أوييسو قال إنه سيجرى عملية على بعض الأرانب، لذلك نزل إلى المعمل لتجهيز الأدوات، بينما بيت ينبغي أن يطلع على مجموعة من الدوريات العلمية، ومع ذلك أعطى نفسه بضع دقائق من السعادة في صُحبة فيرجينيا. أما بالنسبة لـ جيريمي فلدیه قراءة بعض أوراق الهوبيرك. كاد شعوره بالارتياح يكون ملموسا، وكأنه عائد إلى بيته حيث ينتمي، عائد إلى السطح. مرت فترة الظهيرة - وبأية فرحة، وأية مكاسب! خلال ثلاث ساعات، اكتشف مجموعة أخرى من خطابات مولينوس^(١) وسط كتب الحسابات والمراسلات العملية. كذلك الجزئين الثالث والرابع من فيليشيا، وطبعة مصورة من أبواب الكرمة، وأيضا، نسخة من أندر أعمال الماركيز الإلهي وهي المائة وعشرون يوما لسدوم^(٢)، ملفوفة مثل كتاب صلاة. أي كنز هذا! أي حظ غير متوقع! أو ربما، في الواقع، كان متوقعا، إذا أخذ في الاعتبار تاريخ عائلة الهوبيرك. لأن تاريخ الكتب يرجح أنها ملك للإيرل الخامس - الرجل الذي حمل اللقب أكثر من نصف قرن، ومات في سن تفوق التسعين، في عصر ويليام الرابع، غير نائب على الإطلاق. وأخذا في الاعتبار شخصية الرجل، لا يوجد سبب يدعو للدهشة من وجود مخزون من الأشياء الإباحية - بل إن لديه

١ - مولينوس: نسبة إلى ميغيل مولينوس (١٦٤٠-١٦٩٦) قس أسباني ومؤسس طائفة الكوابيست، ومن أشهر كتاباته ((الدليل الروحي)) التي نشرت عام ١٦٧٥.

٢ - الماركيز الإلهي: اسم أطلق على الماركيز دي ساد، (١٧٤٠-١٨١٤) الكاتب الفرنسي الذي تنسب إليه اسم السادية، ومن أشهر أعماله المائة يوم في سدوم والتي كتبها عام ١٧٨٥.

أسباباً عديدة في الواقع، ليأمل في المزيد منها.

ارتفعت روح جيريمي المعنوية مع كل اكتشاف جديد، وكدليل أكيد على السعادة، بدأ يدندن كعادته، الأنغام التي كانت مشهورة أثناء طفولته. مولينوس أخرج منه نغمات «تارارارا، بوم دي داي». وفيليشيا وأبواب الكرمة اشتركتا في النغمة الموسيقية لزهر العسل والنحل، بينما المائة وعشرون يوماً لسدوم والتي لم يقرأها من قبل أو حتى رأى نسخة منها، فإن اكتشافها أسعده لدرجة أنه، كنوع من الروتين البيبليوغرافي، رفع الغطاء الكسّي، وتوقع أن يرى الطقوس الأنجليكانية، لكنه وجد بدلاً منها النثر الراقى البارد للماركيز دي ساد، فانفجر في نغمة الورد والخاتم، وهي نغمة علمتها له أمه، ليكررها عندما كان في الثالثة من عمره، والتي بقيت معه كرمز للبهجة والدهشة الطفولية، وكرد فعل مناسب تماماً لأي بركة مفاجئة نحل عليه، أو أية مفاجأة سعيدة إلهية.

«آه، أية سعادة أن نحصل على كعكة البرقوق،

كم أتمنى ألا تنتهي،

ولحسن الحظ أنها لم تنته، بل لم تبدأ بعد. الكتاب لا يزال غير مقروء، وبيت التسلية والتعليم لا يزال أمامه. متذكراً إحساس الغيرة الذي انتابه هناك فوق، في حمام السباحة، ابتسم لنفسه. فليأخذ مستر ستويت كل الفتيات التي يريدها، لكن قطعة واحدة من الأدب المكشوف من القرن الثامن عشر، المكتوب بشكل جيد، أفضل من أية مونسيل. أغلق المجلد، فرأى الغطاء المصنوع من جلد الماعز المدبوغ المزخرف، خشناً وأنيقاً، ومكتوب فوق الغلاف «كتاب الصلاة العامة»، مدموغة بالذهب الذي لم تستطع السنوات أن تمحوه. وضعه مع الشيء الغريب الآخر، في جانب من مكتبه. عندما ينتهي من عمله في المساء، سوف يأخذ

المجموعة كلها معه، إلى غرفة نومه .

« آه، أية سعادة أن نحصل على كعكة البرقوق،

استمر في الغناء أثناء فتح مجموعة أخرى من الأوراق، ثم غنى:

« ذات مساء صيفي حيث زهر العسل وكل الطبيعة هادئة،

هذه اللمسة الوردية عن الطبيعة دائما تعطيه سعادة خاصة. اتضح أن مجموعة الأوراق الجديدة عبارة عن مراسلات بين الإبريل الخامس ومجموعة من الـ (الرجز)^(٣) بخصوص شرائه ثلاثة آلاف فدان من الأراضي في نوتنجهامشاير. وضعهما جيريمي في ملف، وكتب محتوياته باختصار على كارت، ووضع الملف في الدولاب والكارت في الدرج الخاص به، ثم عاد وغرق مرة أخرى في الكعكة، وتناول مجموعة أخرى. قطع الرباط.

« أنت زهرتي، زهرة العسل، وأنا النحلة. »

ما رأى الدكتور فرويد في هذا؟ كانت المطبوعات بدون اسم كاتبها، وكانت ضد الألوهية، إلا أنها كانت مملة، فرماها جانبا. ولكن ها هي نسخة من النداء الجاد للو^(٤) مع تعليقات من إدوارد جيبون^(٥)، وها هي بعض الحسابات المقدمة من المستر روجرز من ليفربول، للإبريل الخامس، وهي حسابات مصروفات وأرباح ثلاث رحلات استكشافية لتجارة الرقيق، والتي ساهم الإبريل في تمويلها. يبدو أن الرحلة الثانية كانت ذات فآل طيب، إذ أن خمس البضاعة نفقت في الطريق، ومن ثم حققت أسعارا عالية ومرضية في سافانا. كان المستر روجرز يرجو الإبريل أن

٣- الـ (رجز): حزب إنجليزي ليبرالي.

٤- لو: نسبة إلى ويليام لو (١٦٨١-١٧٦١) كاتب لاهوتي آثار جدلا كثيرا، واشتهر بكتابه «النداء الجاد لحيية النقيض والكمال المسيحي، الذي نشر عام ١٧٢٩، وقيل عنه إنه أفضل ما كتب في هذا الموضوع على الإطلاق من حيث الشكل والمضمون.

٥- إدوارد جيبون: (١٧٣٧-١٧٩٤) سياسي وكاتب إنجليزي، ومن أشهر كتاباته، كتاب «التاريخ، الذي قدم في بعض فصوله نقدا لاهوتيا، مما أثار حفيظة بعضهم فردد عليها بكتب أخرى.

يبعث حوالة مالية قدرها سبعة عشر ألفاً ومائتين وأربعة وعشرين جنيهًا، وأحد عشر شلًا، وأربعة بنسات. ثم خطاب من فينيسيا، مكتوب بالإيطالية، حيث أعلن كاتبه لنفس الإبرل الخامس عن ظهور نصف مريم المجدلية لقيتيان^(١) في السوق، بسعر وصفه المراسل الإيطالي بأنه تافه. وقد حصل البائع على عروض أخرى، لكنه، احترامًا للعلامة الإنجليزي المبجل، سوف ينتظر رداً من سعادته، لكنه بالرغم من ذلك، ينصح سعادته بالألا يتأخر عليه طويلاً وإلا...

كانت الساعة الخامسة، وقد بدأت الشمس تغيب في السماء، فجاءت فيرجينيا لتشاهد موعد إطعام الببوانات، مرتديةً حذاء وجوربا وشورتاً أبيض، وكابا وسويتر حريريًا وردي اللون.

أطفأت موتور السكوتر الوردية، وركنتها بجانب الرصيف على بعد ثلاثين أو أربعين قدماً فوق القفص. نزلت بمصاحبة الدكتور أوبيسبو وبيت، لترى الحيوانات عن قرب.

أمامهم مباشرة، فوق صخرة اصطناعية، جلست ببوانة أم، تمسك بين ذراعيها جثة طفلها اليايسة، والتي بدأت تتفكك، وقد رفضت التخلي عنها بالرغم من مرور أربعة عشر يوماً على وفاته. بين الحين والآخر، في مودة عنيفة ولا إرادية، كانت تلتق الجسم الشاحب الصغير. فكانت خصلات من الشعر الأخضر وقطع من اللحم تتفكك تحت وطأة حركة لسانها العنيفة. وبرقة بالغة بأصابعها السوداء، كانت تنتقي الشعر من فيها، ثم تبدأ من جديد.

فوقها، في فوهة الكهف الصغير، بدأ ببوانان شابان يتصارعان. امتلأ الجو

٦- تيتيان: نسبة إلى تيزيانو فينتشيلي، رسام إيطالي من فينيسيا (١٤٨٧-١٥٧٦).

بالصراخ والبجاح وصرير الأسنان، إلى أن هرب أحدهما، وفي لحظة كان الآخر قد نسي الصراع، وبدأ يبحث عن بعض القشر فوق صدره. إلى اليمين، فوق صخرة أخرى، وقف ببوان هائل عجوز، بخطمه الجدى، وشعره الرمادى القصير مثل علماء اللاهوت الأنجليكانيين من القرن السابع عشر، حارسا على أنثاه الخاضعة. كانت حراسة شديدة، إذ كلما حاولت الحراك بدون إذنه كان يستدير فوراً ويقضمها، بينما عيناه الصغيرتان السوداوان، وفتحتا أنفه في نهاية خطمه الطويل، ظللتا تلتفتان هنا وهناك بشك لا ينام. رمى بيت قطعة بطاطس من السلة التى يحملها فى اتجاهه، ثم عاد فرمى قطعة جزر ثم قطعة بطاطس أخرى. بوميض مفاجئ لمؤخرته الحمراء، اندفع نازلا من وقفته على الجبل الصناعى، وخطف الجزرة، وبينما هو يأكلها، حشر قطعة البطاطس فى خده الأيسر، والأخرى فى الأيمن، ثم وهو لا يزال يقضم الجزر، تقدم نحو السلك ونظر طالبا المزيد. كان الطريق ممهدا. الببوان الشاب الذى كان منهما فى البحث عن القشر وجد فرصته فجأة. مرتعشا من الانفعال، وثب إلى المكان الذى تجلس فيه الأنثى فى خوف حتى من أن تتبع سيدها. وخلال ثوان معدودة بدأ يتضاجعان.

صفتت فيرجينيا فى سعادة وصاحت:

– أليست جميلة؟ أليست مثل الإنسان؟

ضجيج وصراخ تاليان أغرقا كلماتها.

قطع بيت توزيع الطعام ليقول إنه قد مر وقت طويل منذ أن رأى المستر

برووتر، فلماذا لا يذهبون جميعا وينزلون الجبل لزيارته؟

قال الدكتور أوبيسبو:

– من قصص الببوانات إلى حقل برووتر، ومن حقل برووتر عودة إلى منزل

ستويت، وبيت كلاب مونسييل . ما رأيك يا ملاكى ؟

كانت فيرجينيا منهمكة، ترمى البطاطس للفرد الكبير بحيث تجبره على أن يستدير ويتقهقر للوراء نحو المكان الذى ترك فيه أثناه . كانت تأمل أنه إذا استدار، سيتمكن من رؤية كيف تقضى صديقه وقتها فى غيابه . قالت دون أن تستدير:

- نعم، دعونا نذهب لنرى بروى العجوز.

قذفت قطعة بطاطس أخرى فى القفص . بحركة سريعة من شعره القصير الرمادى، هم الببوان عليها، ولكن بدلا من النظر إلى أعلى، ورؤية مدام ميم تطارح الرجل الثلجى الغرام، التفت الحيوان المثير للسخط فوراً ناحية السور، طالبا المزيد . صاحت فيرجينيا: «أيها العجوز الأحمق!!»، وقذفت قطعة البطاطس هذه المرة عليه مباشرة، فاصطدمت بأنفه . ضحكت واستدارت إلى الآخرين وقالت:

- يعجبني بروى العجوز . يخيفنى قليلا، ولكنه يعجبني .

قال الدكتور أوبيسبو:

-حسنا إذن، لنذهب إلى المستر بورديج فى طريقنا ونحضره معنا .

وافقت فيرجينيا وقالت:

- نعم هيا بنا لنحضر العاج العجوز .

ربتت على خصلاتها البنية، إشارة إلى صلعة جيريمى، وأضافت:

- إنه ظريف نوعا ما، ألا تظن ذلك؟

صعدا الطريق تاركين بيت يكمل إطعام الببوانات، وصعدوا سلما على الناحية الأخرى منه، يودى مباشرة إلى نافذة حجرة جيريمى المنحوتة فى الصخر . فتحت

فيرجينيا الباب الزجاجى وصاحت:

- أيها العاج، لقد جئنا لنضايقك .

بدأ جيريمى يتمم بشيء مضحك وفيه مروة، ولكنه توقف فى منتصف الجملة. تذكر فجأة مجموعة الأدب المدهشة الموضوعة على جانب مكتبه. لو قام ووضع الكتب فى الدولاب، سيبدأ الانتباه إليها، ثم إنه لا توجد جريدة ليغطيها بها، ولا أية كتب أخرى ليخبئها وسطها. لا يوجد شيء يستطيع أن يفعله. لا شيء سوى الأمل فى حدوث أفضل الممكن. ولأنه تمنى ذلك بشدة، فقد حدث الأسوأ فوراً. رفعت فيرجينيا أحد أجزاء نيرسيات، لا شيء سوى الرغبة فى عمل شيء عضلى مهما كانت تفاهته، وفتحته على إحدى الصور الدقيقة جداً، ألقت نظرة واحدة عليها، ثم بعينين مفتوحتين على آخرهما، نظرت مرة أخرى إليها، وأطلقت صوتاً فيه دهشة وذهول. نظر الدكتور أوبيسبو وصاح أيضاً، ثم انفجر الاثنان ضاحكين بصوت عالٍ.

جلس جيريمى يشعر بالإحراج والتعاسة، وابتسم بوهن، عندما سألاه عما إذا كانت تلك هى الطريقة التى يقضى بها وقته، وعما إذا كانت تلك هى الأشياء التى يدرسها. تمنى جيريمى لو كان الناس غير متعبين بهذه الطريقة، ولا يتعاملون هكذا بلا لباقة وبشكل قمىء.

قالت فيرجينيا الصفحات حتى وجدت رسماً آخر. مرة أخرى علت صيحات الدهشة، ولكن هذه المرة كانت صيحات عدم التصديق أيضاً. هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن يحدث هذا فعلاً؟ قرأت التعليق المكتوب بالفرنسية أسفل الرسم :

«الشهوانيون يقرعون كل الأبواب».

هزت رأسها فى تكرر واضح. هذا سىء، لأنها لا تستطيع أن تفهمه. كانت دروس اللغة الفرنسية أيام الدراسة الثانوية فطبعة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها. لم تعلموها شيئاً سوى الكلام الفارغ مثل «هذا قلم عمى»، و«هل تعرف كيف

تزرع الشو؟. دائما تقول إن الدراسة مضيعة للوقت، وقد ثبت لها هذا الآن. ثم لماذا طبعوا هذا الشيء باللغة الفرنسية على أية حال؟ بدأت الدموع تترقق في أعين فيرجينيا، لمجرد التفكير في عيوب النظام التعليمي في ولاية أوريجون، والذي حرّمها من قراءة أندريه دي نيرسيات. إنه شيء مؤسف حقاً!

فجأة جاءت لجيريمي فكرة رائعة حقاً. لماذا لا يعرض عليها ترجمة الكتاب جملة جملة، كالمترجم الفوري باجتماعات مجلس عصبة الأمم؟ نعم، ولم لا؟ كلما فكر في الفكرة أعجبته أكثر. اتخذ قراراً، وبينما يفكر في صياغة العرض في جمل مفيدة، رفع الدكتور أوييسبو الكتاب من يد فيرجينيا بهدوء، ورفع ثلاثة أجزاء أخرى من على المكتب، بالإضافة إلى أبواب الكرمة والأيام المائة وعشرين لسدوم ووضعها كلها في جيب سترته الجانبي، ثم قال لفيرجينا:

- لا تقلقى. سأقوم بترجمتها لك. والآن دعونا نعود للنبوانات. سوف يتساءل بيت عما حدث لنا. هيا بنا يا مستر بورديج.

سار جيريمي خلفهما عبر الباب الفرنسى، ونزل السلم في صمت وغلّيان داخلى، وغضب من نفسه بسبب عدم كفاءته، ووقاحة الدكتور أوييسبو.

كان بيت قد أفرغ سلته وكان مستنداً إلى السور، يتابع بعينيه بدقة، تحركات الحيوانات فى الداخل. عندما اقتربوا استدار ناحيتهم، فبدأ وجهه الشاب مبتهجاً ولامعاً من الفرحة.

قال:

- أتعلم يا دكتور، أعتقد أن له مفعولاً.

قالت فيرجينيا:

- ما الذى له مفعول؟

جاءتها إجابة بيت الباسمة، نملأها السعادة. كم كان سعيدا مرتين وثلاث مرات سعيدا، بسبب تصرفاتها اللطيفة، فقد عوّضت فيرجينيا الألم الذي سببته له عندما التفتت لتلك القصة القذرة. وعلى كل، ربما لم تكن قصة قذرة في النهاية، وقد ظلمها، وظن فيها السوء دون داع. لا، بالتأكيد لم تكن قصة قذرة - ليست قذرة. لأنها عندما استدارت له، كان وجهها مثل وجه هذه الطفلة في صورة الكتاب المقدس في منزله، والتي تنظر ببراءة ولطف، بينما المسيح يقول «من هذا ملكوت السموات». ولم يكن هذا السبب الوحيد لسعادته. كان أيضا سعيدا لأن المزرعة البكتيرية على فطريات الشبوط، أثبتت بالفعل أن لها تأثيرا على الببوانات التي استخدمت في التجربة.

قال لهم شارحا:

- أعتقد أنهم أصبحوا أكثر حيوية. حتى فروتهم تبدو أكثر لمعانا.

أعطاه هذا شعورا بالرضاء، تماما مثل وجود فيرجينيا الذي يزيد ضوء الشمس غنى في المساء، ومثل التفكير في لطفها معه، والافتناع المشجع ببراءتها المحتمة. في الواقع، وطريقة غير مفهومة، كانت حيوية الببوانات ولطف فيرجينيا مرتبطين - ليس فقط ببعضهما بعضا، ولكن أيضا بإسبانيا في ولايتها ومحاربة الفاشية. كانت الأشياء الثلاثة مختلفة، ولكنها شيء واحد... كان قد تعلم بعض الشعر في المدرسة، ماذا يقول؟

لا أستطيع أن أحبك أكثر يا حبيبتي

لولم أكن أحببت شيئا أو آخر (لا يستطيع أن يتذكر ماذا) أكثر،

لم يكن يحب أي شيء أكثر من فيرجينيا.

ولكن اهتمامه بالعلم والعدل، واهتمامه بأبحاثه والأولاد هناك في إسبانيا، أثار

شيئا ما معا، ليجعل حبه لها أكثر عمقا، بل إنه يشعر أنه يحبها من كل قلبه، بالرغم من كون هذا نوعا من التناقض.

أخيرا قال:

- إذن هيا نتحرك.

نظر الدكتور أوبيسبو إلى ساعة يده وقال:

- على أن أكتب بعض الخطابات قبل موعد العشاء. أعتقد أنى سأرى المستر

برويفر فى وقت آخر.

قال بيت محاولا أن يظهر أسفا مهذبا، لا يعنيه فى واقع الأمر:

- هذا مؤسف حقا.

لقد كان معجبا بالدكتور أوبيسبو، بل ويعتقد أنه باحث غير عادى - ولكنه ليس من النوع الذى ينبغى أن تتعامل معه فتاة بريئة وصغيرة مثل فيرجينيا. كان يخاف عليها من تأثير تهكمه الدائم وصلابته. ثم بالنسبة لعلاقته هو بفيرجينا، كان الدكتور أوبيسبو بشكل عقبة دائمة.

قال مرة أخرى «هذا مؤسف حقا»، وقالها بسعادة عميقة، حتى كاد يجرى صاعداً السلم المؤدى إلى قفص الببوانات، ليصل إلى الشارع - وقد جرى سريعا بالفعل، حتى إن قلبه بدأ ينبض بشدة، وبدأ يفقد بعض نبضاته. اللعنة على هذه الحمى الروماتيزمية!

رجع الدكتور أوبيسبو خطوتين للوراء، ليسمح لفيرجينا بالمرور، ثم ربت على الجيب الذى يحوى الأيام المائة والعشرين لسدوم، وغمز لها بعينه، فغمزت له فيرجينيا، وتبعت بيت، صاعدة السلم.

بضع دقائق أخرى، وكان الدكتور أوبيسبو يسير صاعدا الشارع، بينما

الآخرون يلزلون فى الاتجاه المضاد. أو، بدقة أكثر، كان بيت وچيريمى سائرين، بينما فيرجينيا، والتي لا تستطيع مجرد التفكير فى استخدام قدميها للذهاب من مكان إلى آخر، جلست على السكوتر الوردية والمختلطة بالأبيض، ووضعت يدها على كتف بيت، وسحبت لقوة الجاذبية بسحبها.

تلاشى صوت الببوانات خلفهم، وبعد المنحنى الأول للطريق كانت الجيامبولونيا واقفة، ولم نزل المياه تتدفق من صدرها اللامع دون كلال. قطعت فيرجينيا فجأة حديثها عن كلارك جيل وقالت بصوت مجاهدة ضد اللا-أخلاقيات، وفى تدمير تنفى وورع:

- لا أفهم لماذا يسمح العم جو بوقوف هذه هنا. إنها مثيرة للاشمئزاز.

قال چيريمى فى دهشة:

- الاشمنزاز؟

قالت بتأكيد:

- الاشمنزاز!!

سأل وهو يتذكر عريها فى قطعتى الساتان اللتين كانت ترتديهما هناك فى

حمام السباحة:

- هل تعترضين على كونها بلا ملابس؟

هزت رأسها تنفى بعصبية:

- إنها الطريقة التى نخرج بها الماء.

كان التعبير على وجهها كمن تذوق شيئا كريها.

- أعتقد أنه شيء بشع.

وكان هذا هو كل الإيضاح الذى استطاعت أن تعطيه. طفلة فى عمرها، وهو

فى هذه الحالة، عمر زجاجة الرضاعة وحبوب منع الحمل، شعرت بالغضب الشديد من هذه القطعة التى تشى بعدم اللياقة، الآتية من زمن بعيد مضى. كانت شيئا بشعا. هذا كل ما يمكن أن يقال عنها. استدارت الى بيت واستمرت تتحدث عن كلارك جيبيل.

تركت فيرجينيا السكوتر أمام مدخل الكهف المقدس. كان العمال قد أنهوا عملهم فى المقبرة وذهبوا، فكان خاليا. ضبطت فيرجينيا الكاب المائل الأنيق، كنوع من الاحترام، وجرت على السلم، وتوقفت عند العتبة ووشمت الصليب قبل الدخول، ثم ركعت بضع ثوان أمام الصورة. انتظر الباقون فى الشارع فى صمت.

أوضحت فيرجينيا لجيريمى عندما خرجت ثانية قائلة:

- السيدة العذراء كانت عظيمة معى عندما كنت أعانى من جيبوى الأنفية فى الصيف الماضى، ولهذا جعلت العم جو يقيم لها هذا الصرح. ألم يكن رائعا عندما جاء المطران لتدشينها؟

التفتت إلى بيت. هز بيت رأسه بالإيجاب.

استمرت فيرجينيا من فوق السكوتر، وقالت:

- لم تصبنى ولا حتى نزلة برد منذ أن جاءت هنا.

كان وجهها لامعا بالانتصار، كل نصر لملكة السموات، كان أيضا نصرا شخصا لفيرجينا مونسيل. ثم فجأة بدون إنذار، مرت بيدها على جبهتها، وكأنها تقوم باختبار سينمائى وتسلمت تورا الأمر بتمثيل الإرهاق والشفقة على النفس، وفى صوت يملؤه الاكتئاب ووهن العزيمة، قالت:

- على أية حال أنا متعبة هذا المساء. أعتقد أنني ظللت فى الشمس مدة طويلة بعد الغداء مباشرة. يستحسن أن أذهب لأستريح قليلا.

وعمودة لكن بحزم، رفضت عرض بيت بالعودة معها إلى القصر، وأدارت
 السكوتر لتواجه ناحية صعود الجبل. أعطت الشاب نظرة أخيرة وساحرة بشكل
 خاص، كادت أن تكون بحب شديد، وابتسمت له، ثم قالت: «مع السلامة يا
 عزيزي»، وأدارت مفتاح السكوتر وانطلقت بسرعة صاعدة الطريق الحاد، حتى
 اختفت بعيداً عن أنظارهم. بعد خمس دقائق كانت في حجرتها تحضر الآيس كريم
 بالموز، بجانب نافورة الصودا، وكان الدكتور أوييسو جالسا على كرسي مطلق
 ومنجد بألوان الساتان، يقرأ بصوت عال ويترجم بينما يقرأ، الجزء الأول من
 «الأيام المائة والعشرون لسدوم».

الفصل الثامن

جلس المستر برويتر على مقعد خشبي تحت شجرة اليوكالبتس الكبيرة. في ناحية الغرب بدت الجبال مثل السيلويت، أمام خلفية السماء المسائية. ولكن إلى اليسار أمامه، بدت المنحدرات العالية حية بالضوء والخيال، وبالألوان الذهبية الوردية وفي عمق اللون النيلي. في المقدمة، ارتدى القصر ثوبا خرافيا ورومانسيا غير مسبوق. نظر مستر برويتر إليه ثم إلى الجبال، ثم إلى أعلى، إلى السماء الباهتة، من بين أوراق شجر اليوكالبتس الساكنة بلا حراك. أغمض عينيه وردد إجابة الكاردينال بيربول^(١) على سؤال «ما هو الإنسان؟ كان ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، أثناء كتابة دراسته عن الكاردينال، وقرأ تلك الكلمات للمرة الأولى، وقد أثرت فيه آنذاك لجمال ودقة الصياغة. مع مرور الوقت ونمو تجربته، بدت الكلمات ذات معنى أغنى وذات دلالة أعمق. همس لنفسه: ما هو الإنسان؟ «هو لا شيء يحيط بالله، معوز وقدير بالله، مملوء بالله، إذا أراد». وما هو هذا الإله الذي يمكن للإنسان أن يكون قديرا به؟ أجاب المستر برويتر بالتعريف الذي أعطاه جون تولير^(٢) في الفقرة الأولى من كتابه إتباع المسيح: «الله منسحب من خليقته، قوة حرة، عمل نقى. الإنسان إذن، هو لا شيء، يحيط به، وقدير بشخصه، منسحب من خليقته، لا شيء قادر على القوة الحرة، مملوء بالعمل النقي إن هو أراد». فكر مستر برويتر بنوع من الحزن المرير المفاجيء، «إن هو أراد، ولكن قلائل هم الذين يريدون، أو، وهم يريدون، يعلمون ماذا يريدون، بل وكيف يصلون إليه! المعرفة الحقيقية نادرة بقدر النية على العمل بها. ومن بين القلائل الذين

١- الكاردينال بيربول: كاردينال وسياسي فرنسي اسمه بيردى بيربول (١٥٧٥-١٦٣٩)، اشتهر بقوة وذكائه السياسي، وله العديد من المؤلفات الدينية.
٢- جون تولير: نسبة للواعظ والصوفي الألماني يوهانس تولير (١٣٠٠-١٣٦١) والذي تأثر بكتابات إيكهارت وتوماس أكيناس.

يبحثون عن الله، فإن غالبيتهم يجدون، بسبب جهلهم، انعكاسا لإرادتهم الشخصية، إله الحرب، وإله الشعب المختار، ومجيب الصلوات، والمخلص.

ويما أن مستر برويتر انحرف في تفكيره هكذا نحو السلبية، استمر في الانشغال بشيء أقل فائدة، وهو هموم اليوم المادية والخاصة. تذكر لقاءه هذا الصباح مع هانسن، وكيل أعمال چوستويت في الوادي. كانت معاملة هانسن للمهاجرين العاملين في جمع الفاكهة أسوأ من المتوسط، إذ يستغل أعدادهم واحتياجهم الماس، ليخفض أجورهم. في الحقول التي يديرها، يعمل الأطفال طوال اليوم في الشمس بمعدل سنتين أو ثلاثة سنوات في الساعة. وفي نهاية يوم عمل شاق، يعودون إلى منازل لا تعدو كونها صفوفاً من الحظائر الغاصة بالهوام والحشرات، في الأرض القضاء بجانب النهر. وكان هانسن يحاسبهم على عشرة دولارات في الشهر، إيجاراً لهذه الحظائر. عشرة دولارات في الشهر لامتياز التجمد والاختناق، ولامتياز النوم في مضاجعة قذرة، ولامتياز أن يأكلك البق والقمل، ولالتقاطك الرمد، وربما دودة الأنكاستوما، أو الدوستاريا الأميبية. إلا أن هانسن كان رجلاً محترماً وطيباً، إذ يصدمه رؤية كلب يتألم، ويطير ليحمي امرأة تُساء معاملتها، أو طفل يبكي. وعندما نبهه مستر برويتر لذلك، احمر وجه هانسن غضباً وقال:

- هذا مختلف.

حاول المستر برويتر معرفة لماذا هو مختلف، فأجاب هانسن أن هذا واجبه. ولكن كيف يمكن أن يتضمن واجبه معاملة الأطفال أسوأ من العبيد، وتطعيمهم بالأنكاستوما؟

إنه واجبه نحو الأملاك، فهو لا يفعل شيئاً لنفسه. ولكن لماذا يكون فعل الخطأ من أجل شخص آخر، مختلفاً عن فعل الخطأ

لنفسه؟ النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين، فالضحية لا تتأثر بشكل أقل عندما تقوم بما تسميه وإجبك، عنها عندما تقوم بما تتصور أنه من أجل خاطر ك أنت.

فى هذه المرة، انفجر الغضب وأصبح شنائم عنيفة. لاحظ مستر برويتر أنه غضب رجل ذى نوايا حسنة، ولكنه رجل غبى، واضطر رغما عنه، أن يسأل نفسه أسئلة محرجة، عن أشياء كان يفعلها بشكل طبيعى من قبل. لا يريد أن يسأل هذه الأسئلة، لأنه يعرف أنه لو فعل، سوف يجبر إما على الاستمرار فيما يفعل، ولكن بوعى ساخر بأنه يرتكب خطأ، أو، إذا كان لا يريد أن يكون ساخرا، أن يغير نمط حياته كلها، ليجعل رغبته على فعل الصواب فى توافق مع الحقائق كما أظهرها استجوابه لذاته. وبالنسبة لمعظم الناس، فإن أى تغيير جذرى يعتبر شيئا بغیضا جدا أكثر من السخرية. إن الطريق بين قرنى المأزق هو الاستمرار فى الجهل بأى ثمن، لأن الجهل يسمح لل فرد أن يستمر فى ارتكاب الخطأ، وهو يؤمن مرتاح البال، أنه يقوم بواجبه - واجبه نحو الشركة، نحو المستثمرين، نحو المدينة، نحو الدولة، نحو الوطن، ونحو الكنيسة. لأن قضية هانسن المسكين بالطبع ليست فريدة من نوعها بأى حال من الأحوال، ولكنها فقط على نطاق أضيق، وبالتالي له قدرة أقل على ارتكاب الشر. لقد كان يتصرف مثل هؤلاء الموظفين ومسئولى الدولة، والكنهنة، الذين يسرون فى الحياة ينشرون البؤس والدمار باسم معتقداتهم، وبأوامر من مأموريهم المطلقين.

فكر مستر برويتر بحزن أنه لن يصل لشيء مع هانسن. لابد أن يحاول مرة أخرى مع مستر ستويت ذاته. فى الماضى كان يرفض مستر ستويت دائما الاستماع إليه، تحت دعوى أن الأملاك كانت من اختصاص هانسن. كانت الذريعة مناسبة جدا حتى إنه عرف مسبقا أنه من الصعب تكسيها.

ومن هانسن وجو ستويت، سرحت أفكاره إلى تلك العائلة من عمال التراحيل الآتين من كانساس، والذين جاءوا حديثا، وقام بإعطائهم واحدا من أكواخه. الأطفال الثلاثة وسوء تغذيتهم، بأسنانهم التى بدأت تتآكل فى أفواههم، والمرأة الهزيلة، بسبب - الله أعلم - أية أمراض مركّبة، غارقة فى اللامبالاة والضعف، ثم الزوج الذى يعانى من الامتعاض والرتاء على نفسه، والعنف والوجوم.

ذهب مع الرجل لإحضار بعض الخضروات من الحديقة، وأرنب لعشاء العائلة. جالسا هناك، أثناء تنظيف الأرنب، اضطر للاستماع إلى شكواه غير المفهومة وسخطه. شكواه وسخطه من سوق القمح الذى يكسد فكلما بدأ يريح فيه، ومن البنوك التى اقترض منها ولم يستطع تسديد ما عليه لها، ثم من الجفاف والرياح اللذين حولاً أرضه إلى مائة وستين فداناً من التراب والأرض القاحلة، ومن الحظ العاثر الذى كان دائما ضده هو بالذات، ومن الناس التى كانت دائما تسيء معاملته فى كل مكان، طوال حياته.

قصة مألوفة لدرجة الكتابة! سمعها آلاف المرات من قبل مع بعض الاختلافات. أحيانا كانوا جامعى محاصيل من أقصى الجنوب، استغنى عنهم الملاك، فى محاولة يائسة لجعل الفلاحة تدر عليهم مكسبا. وأحيانا أخرى كانوا مثل هذا الرجل، ذوى أراضٍ خاصة، ولكن استغنت عنهم قوى الطبيعة - تلك القوى الطبيعية التى جعلوها هم أنفسهم مدمرة، باقتلاعهم الحشائش ولأنهم لا يزرعون شيئا إلا القمح. وأحيانا أخرى كانوا رجالا مأجورين تم استبدالهم بالميكنة. وفى النهاية، كلهم جاءوا إلى كاليفورنيا كما للأرض الموعودة، وكاليفورنيا جردتهم إلى حالة مدينين ورحالة، وحولتهم بسرعة إلى مذبذنين. أخذ المستر برونر يفكر أن القديس فقط هو الذى يستطيع أن يكون مدينا ومذبذبا ولكن

ذو حصانة أيضا، لأن القديس يمكن أن يقبل هذا الوضع بسرور وكأنه اختاره بمحض إرادته. الفقر والمعاناة يجعلان الإنسان أكثر نبلاً فقط عندما يكونان اختياريين. أما الفقراء والذين يعانون دون اختيار، فإنهم يصبحون أسوأ من ذي قبل. إنه أسهل لجمل أن يمر من ثقب الإبرة عن أن يدخل رجل فقير بدون إرادته، إلى ملكوت السموات. ها هو مثلا، الوغد المسكين من كانساس . كيف وصل إلى الفقر والمعاناة لا إراديا؟ يستطيع المستر برويتر أن يحكم بنفسه، أن الرجل كان يعوض نفسه عن سوء حظه بالقسوة على من هم أضعف منه. انظر طريقة صراخه في الأطفال... كلها أعراض مألوفة جدا.

عندما انتهيا من تنظيف الأرنب، قطع مستر برويتر مونولوج رفيقه وقال فجأة:

- هل تعرف أسوأ مقطع في الإنجيل؟

في دهشة واستغراب واضح، هز الرجل من كانساس رأسه بالنفى.

قال المستر برويتر وهو يناول له هيكل الأرنب:

- إنه هذا: «لقد أبغضوني بدون سبب».

تحت شجر اليوكالبتوس تهدد مستر برويتر متعجبا. إن الشرح لمن هم الأقل حظا أنهم بشكل ما مسئولون بالتأكيد عن سوء حظهم، وتوضيح أن جهلهم وغباءهم كانا عقابا طبيعيا وليس عن ضغينة مقصودة، كانت مهمة غير سارة. دائما غير سارة، ولكن أيضا دائما ضرورية. لأنه أى أمل، وأية بارقة أمل هناك، لرجل يؤمن حقا أنهم أبغضوه بلا سبب؟ وأنه لا دخل له فى مصائبه؟ بالتأكيد لا أمل على الإطلاق. إننا نعرف، كنوع من الواقع المؤلم، أن المصائب والكراهية دائما ليستا بلا سبب. إننا نرى أيضا أن بعض هذه الأسباب هى بشكل عام تحت سيطرة هؤلاء الذين يعانون من تلك المصائب، أو الذين هم هدف أو موضوع الكراهية. إنهم

مستولون عنها بشكل مباشر أو غير مباشر، وهو مباشر عن طريق التصرفات الغبية والضغائن. وهو غير مباشر بسبب عدم استخدام الذكاء والمودة قدر استطاعتهم، وإذا قاموا بهذه الاستيعادات، فإن ذلك عامة لأنهم اختاروا تقليد المستويات المحلية وطريقة المعيشة الحالية، دون تفكير. عاد مستر برونر يفكر في الرجل المسكين من كانساس . لا شك أن لديه برا ذاتيا، وبالتأكيد يضايق جيرانه، وهو فلاح غير كفء. ولكن تلك ليست كل القصة. إن أسوأ إساءاته كانت قبوله الحياة التي وجد نفسه فيها، كشيء مُسلم به، ومنطقي وصائب. مثل كل الباقين، سمح لأصحاب الإعلانات أن يضاعفوا احتياجاته، وتعلم أن يساوى بين سعادته وممتلكاته، وازدهاره بحجم المال الذي ينفقه في محل ما. ومثل كل الآخرين، تخلى عن أية فكرة عن الفلاحة من أجل البقاء، ليفكر فقط في المحصول الذي يدرّ مالا، بل وظل يفكر بهذه الطريقة حتى عندما لم يعد المحصول يدر مالا. ثم مثل كل الآخرين، أصبح مديونا للبنك. وفي النهاية، مثل كل الآخرين أيضا، تعلم أن ما ظل يقوله الخبراء عبر أجيال كثيرة كان صحيحا جدا: الحشائش، في البلد شبه الجافة، هي التي تبقى التربة، لذلك إذا نزع الحشائش، تموت التربة. ومع الوقت ماتت بالفعل، وأصبح الرجل من كانساس اليوم مدينا ومنبوذا، وقد صنعت منه التجربة رجلا أسوأ مما كان.

كان القديس بيتر كلافر^(٣) أحد الشخصيات التاريخية التي درسها. عندما جاءت مراكب العبيد إلى الميناء في كارتاجينا، كان بيتر كلافر الرجل الوحيد الذي جازف بالزول إلى القاع، وسط الرائحة النفاذة البشعة والسخونة، ووسط البخار المعبأ

٣- بيتر كلافر: القديس بيتر كلافر عاش تقريبا ما بين (١٥٨١-١٦٥٤)، وهو قديس إسباني عرف باسم رسول الزوج إذ كان يحارب من أجل إطلاق العبيد، وعندما فشل في ذلك حارب من أجل رفع الظلم والوحشية عليهم.

بالصديد والبراز. وقد قام برعاية المرضى، ومداواة تقرحات من جرحته القيود، بل واحتضن بين ذراعيه الرجال الذين أصابهم اليأس، وقام بمواساتهم، وكلمهم بمحبة - وبين هذا وذاك، حدثهم عن خطاياهم. خطاياهم هم!! لاشك أن الإنسان العصري سوف يضحك من هذا، إن لم تصبه الدهشة. وبالرغم من ذلك - وهذه هي النتيجة التي توصل إليها مستر برونر تدريجيا وبالرغم من نفسه - كان القديس بيتر كلافر غالبا مصيبا. ليس كلية بكل تأكيد، لأن تصرفه هذا كان ناتجا عن معرفة خاطئة، ولا يمكن لرجل مهما كانت نواياه حسنة في مثل هذه الحالة، أن يكون مصيبا إلا جزئيا فقط. ولكنه كاد يكون مصيبا، على أية حال، كما يمكن لرجل صالح، ذى فلسفة معاكسة للإصلاح الكاثوليكي، أن يكون. كان مصيبا في إصراره أن الإنسان، تحت أية ظروف يجد نفسه فيها، ينبغي أن يغفل بعض الأمور ليكون صالحا، وينبغي لهذا الإغفال، إن أمكن، أن يكون محيدا. لقد كان مضيبا في إيمانه أنه صالح بالنسبة حتى للمُخطأ في حقهم، وأن يقوم بتذكيرهم بقصورهم.

لكن العيب في رؤية بيتر كلافر للعالم هو في كونها خاطئة، بالأساس. بينما يميزها في بساطتها ودراماتيكيته. مع معطيات «الرب الشخصي»، المعطى للمغفرة، ومعطيات الجنة والنار، واقع الذات الإنسانية، ومع ميزة وجود النوايا الحسنة، والإيمان الذي لا يشك في مجموعة من الآراء الخاطئة، ومع معطيات الكنيسة الواحدة الحقيقية، وجدوى وساطة القساوسة، وسحر الأسرار المقدسة - مع كل تلك المعطيات، كان بالفعل سهلا للغاية أن يقنع العبد المستورد حديثا أنه خاطئ، وأن يشرح له ما ينبغي أن يفعله حيال ذلك. ولكن في حالة عدم وجود كتاب واحد ملهم، ولا كنيسة مقدسة فريدة، ولا وساطة قساوسة، ولا سحر أسرار مقدسة، وفي حال عدم وجود إله شخصي يسترضى لمغفرة الإساءات، وإذا كان

هناك حتى في العالم الأخلاقي، مجرد أسباب ونتائج، والتركيبية المعقدة للعلاقات الكبيرة المتداخلة - إذن فمهمة شرح ما ينبغي أن يفعله البشر حيال قصورهم تصبح مهمة أكثر صعوبة، لأن كل فرد في هذه الحالة، ليس مطلوباً منه فحسب أن يظهر النوايا الحسنة، التي لا تكل، بل أيضاً الذكاء الذي لا يكل. وهذا ليس كل شيء، فلو أن الفردية ليست مطلقة، لو كانت الذات شيئاً وهمياً، ونسجاً من الخيال، مصدوعاً من الإرادة الذاتية العمياء لحقيقة وجود وعي أكثر-من-ذاتي، بلا حدود ولا رفض، فلا بد من تحويل كل مجهودات الإنسان في النهاية، لتحقيق هذا الوعي الأكثر-من-ذاتي. حتى إن الذكاء ذاته لا يكفي كملحق للنوايا الحسنة. لا بد أيضاً من وجود ذاكرة تسعى لتحويل الذكاء وتخطيه. الكثيرون يطلبون، ولكن القليلين هم المختارون - لأن القليلين يعرفون مكونات الخلاص أصلاً. لنأمل مرة ثانية هذا الرجل من كانساس... هز مستر برويتر رأسه بحزن. كان كل شيء ضد هذا الشخص المسكين - أرثوذكسيته الأصولية، وذاتيته المجروحة المتضخمة، وتهيجه العصبى، وذكاءه المحدود. ربما يمكن إزالة العيوب الثلاثة الأولى. ولكن هل يمكن فعل أى شيء حيال الرابعة؟ إن طبيعة الأشياء متصلبة تجاه الضعف. الذي ليس معه يؤخذ منه، حتى هذا الذي معه. وما هي كلمات سبينوزا^(٤)؟ «يمكن أن يكون الفرد معذوراً ولكن هذا لا يمنع أن يتعذب بطرق عديدة. الحصان معذور لأنه ليس إنساناً، ولكن بالرغم من ذلك لا بد أن يظل حصاناً وليس إنساناً». على كل حال، لا بد أن هناك شيئاً ما يمكن عمله لمثل هذا الرجل من كانساس - شيء لا يتضمن قول اللاحقية المؤذية، عن طبيعة الأشياء. اللاحقية مثلاً كقول إن شخصاً ما هناك في العلا، أو هذه اللاحقية الأكثر حداثة والتي تقول إن القيم الإنسانية

٤- سبينوزا: نسبة إلى بنديكت دى سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧)، الفيلسوف الهولندي.

مطلقة وإن الله هو الأمة، أو الحزب، أو الجنس البشرى بأكمله. بالتأكيد يوجد شيء يمكن عمله لمثل هؤلاء الناس. لقد بدأ الرجل من كانساس أولاً برفض ما قاله عن سلسلة الأسباب والنتائج، وشبكة العلاقات - رفضها كنوع من الإهانة الشخصية. ولكن بعد ذلك، عندما رأى أنه لم يكن الملام، وأنه لم تكن هناك أية محاولة لكسبه، بدأ يظهر بعض الاهتمام، ليرى إذا كان في آخر الأمر شيئاً مفيداً له. قد يستطيع أن يجعله يفكر تدريجياً بنوع من الواقعية، على الأقل فيما يخص عالم الحياة اليومية، وهو عالم المظاهر الخارجى، وعندما ينجح فى هذا، ربما لن يكون عسيراً عليه بعد ذلك أن يفكر بشكل أكثر واقعية، فيرى هذه الذات المهمة كضرب من الخيال، أو كابوس، أو لا - شيء مضطرب وثائر بجنون، ربما لو هدأت ثورته، يمكنه أن يمتلئ بالله، أن يرى الله ويختبره ككيان أكثر من مجرد وعى شخصى، كقوة حرة، كعمل نقى، كشخص منسحب... فجأة، عندما عاد إلى نقطة البداية، أدرك مستر برويتر الطريق الطويل الملتوى، غير المجدى الذى سار فيه حتى يعود إليها. لقد جاء إلى هذه الدكة تحت شجرة اليوكاليبتوس ليستجمع ذاته، ليرى ولو للحظات، وجود هذا الوعى الآخر فى خلفية تفكيره وأحاسيسه الشخصية، هذه القوة الحرة النقية الأكبر منه. لقد أتى من أجل هذا، ولكن ذكرياته خائنه بينما هو غير منتبه. بدت تأملاته، مثل سحابة وراء الأخرى، أو مثل عصافير البحر تخرج من عشها لتحجب الشمس وتجعلها داكنة. العبودية هى حياة الذات، بسبب العبودية سوف تُحارب النفس بلا كلال، وبكل الطرق وبالعناد الخبيث. إن ثمن الحرية هو الصحوة الأبدية، وقد فشل فى أن يبقى صاحباً. القضية ليست أن الروح تريد، ولكن الجسد ضعيف. هذا تضاد خاطئ. إن الروح دائماً تريد، ولكن الشخص، الذى هو عقل كما هو جسد، هو الذى دائماً لا يريد - وذلك الشخص، بالمناسبة، ليس

ضعيفاً، بل قوياً جداً.

نظر إلى الجبال، والسماء الباهتة عبر أوراق الشجر، ثم إلى جزع شجرة اليوكالبتوس ذات الألوان الوردية والخمرية الناعمة الممزوجة بالبنفسجية والرمادية، أغلق عينيه مرة أخرى.

- «لا شيء يحيط به الله، مستقل عن الله، قادر بالله، مملوء من الله، إن هو أراد. ولكن ما هو الله؟ كائن منسحب من الخليفة، قوة حرة، عمل نقى».

لم تعد صحوته تدريجياً، عملاً إرادياً، وإزالة متعمدة للأفكار والرغبات والمشاعر الشخصية التي لا صلة لها الآن. إذ أصبحت هذه الأفكار والرغبات والمشاعر مستقرة تدريجياً، مثل الرواسب العكرة في إناء مياه، وعندما استقرت أصبحت لصحته الحرية في أن تحول نفسها لنوع من الوعي المستقل بلا مجهود، حاد وساكن، يقظ ومستسلم - هذا الذي يحيط بالكلمات. ولكن هذا الذي يحيط بالكلمات هو الوعي ذاته، لأن هذه الصورة، والتي أصبحت الآن وعياً بلا مجهود - ما هي إلا وجهة واحدة، تعبير جزئي، عن هذا الوعي غير الشخصي، وغير المضطرب، الذي سقطت فيه الكلمات، والتي تسقط من خلالها ببطء. وكلما سقطت اتخذت معنى جديداً لهذا الوعي الذي تتبعها إلى عمق ذاته - معنى جديداً ليس بالنسبة للكيانات التي تعنيها الكلمات، ولكن في طريقة فهمها، والتي لكونه كائناتاً متقفاً، أصبحت حدسية ومباشرة، حتى إن طبيعة الإنسان في كينونته، وطبيعة الله في حقيقتها، أصبحتا متاحيتين من خلال التجربة الحسية المشابهة، ومن خلال التفاعل بدون وساطة.

لا شيء إلا ذاته المشغولة، اختبرها في تجاورها، وقدرتها على السلام والنفاء،

وعلى الانسحاب من النفور والرغبات، وعلى نعيم الحرية من الذات...
صوت اقتراب أقدام جعله يفتح عينيه. إنه بيتربون، ومعه ذلك الرجل
الإنجليزى الذى جلس معه فى السيارة، وكانا يقتربان من مكانه تحت شجرة
اليوكاليتوس. رفع مستر برويتز يده مرحبا بهم، وابتسم. كان يحب بيت الشاب، إذ
يتميز بالذكاء والطيبة الفطريين، وكذلك بالحساسية، والكرم، والأخلاقيات وردود
الأفعال العفوية. كلها صفات جذابة وجميلة! ولكن المؤسف حقا، أنها فى حد ذاتها،
ويدون توجيه ومعرفة سليمة عن طبيعة الأشياء، تصبح عاجزة عن عمل الخير،
وغير قادرة على أى شئ يمكن لأى رجل منطقى أن يسميه الخلاص. إنه مثل
الذهب الراقى، ولكن فى طوره الخام، غير المنصهر، لم يشتغل فيه أحد. ربما فى
يوم ما، سيتعلم هذا الشاب كيف يستخدم ذهبه، ولكن عليه أولا أن يرغب فى أن
يتعلم - ويرغب أيضا فى أن «يزيل» ما تعلمه من أشياء كثيرة يراها الآن واضحة
وصحيحة فى ذاتها. لكن هذا كله سيكون عسيرا عليه - ربما عسيرا - ولكن
لأسباب أخرى، غير ذلك الرجل من كانساس.

قال:

- أهلا بيت. تعال اجلسْ معى هنا. جاء معك مستر بورديج، هذا حسن.

تحرك إلى منتصف الدكة، حتى يجلسا على جانبيه.

سأل جيريلى مشيرا نحو القصر:

- وهل قابلت الغول؟

لوى جيريلى عضلات وجهه وهز رأسه بالإيجاب وقال:

- تذكرت الاسم الذى كنتم تنادونه به فى المدرسة، وقد جعل الأمور أكثر

يسرا.

قال مستر بروبتر:

- مسكين چو. مفروض أن البدناء يبدون أكثر سعادة . ولكن من يستمتع بكونه أضحوكة للناس ؟ هذه الطريقة المبهجة التي يتعاملون بها، والنكات التي يلقونها على حساب أنفسهم - إنها فقط مسألة أعداء ووقاية، فهم بسخريتهم كمن يطعمون أنفسهم حتى لا يقوموا برد فعل عنيف حيال سخرية الآخرين منهم.

ابتسم جيري. كان يعلم هذا. قال:

- إنه مخرج جيد للخروج من مأزق غير سار.

هز مستر بروبتر رأسه بالإيجاب وقال:

- مع الأسف، لم يكن هذا مسلک چو؛ إذ هو من نوع الأولاد الذين يتصدون للآخرين، النوع الذي يحارب. ويستبد ويخطرس، النوع الذي يتباهى ويستعرض، النوع الذي يشتري حب الناس بشراء الآيس كريم للبنات، حتى لو سرق عشرة سنتات من محفظة جدته. إنه النوع الذي يستمر في السرقة حتى بعد أن يفتضح أمره ويضرب، ومع ذلك يصدقهم عندما يقولون له إنه سيذهب للجحيم. مسكين چو. لقد كان من ذلك النوع من الأولاد البدناء طوال حياته.

أشار مرة أخرى ناحية القصر واستمر قائلا:

- هذا صرحه الذي يعبر به عن خلال غُدَّتِه الخامسة.

ثم التفت إلى بيت وسأل:

- ما أخبار سير عملك ؟

كان بيت يفكر في فيرجينيا بوجوم - متسائلا للمرة المائة عن سبب تركها لهم،

وما إذا كان قد فعل شيئا ليضايقها، وعن ما إذا كانت فعلا مرهقة أو أن هناك سببا آخر. عندما ذكر مستر برويتر العمل، نظر إليه وأضاء وجهه، وقال بسرعة :
-سوف يكون جيدا.

ثم فى جمل سريعة وحماسية، ويخليط غريب من الإنجليزية الدارجة والألفاظ التقنية، روى للمستر برويتر النتائج التى توصلوا إليها مع فئرانهم، والتى بدأت تظهر، فيما يبدو، أيضا مع الببوانات والكلاب.
سأل مستر برويتر :

- وإذا نجحت، ماذا يحدث لكلاك؟

- سوف تطول حياتهم بالطبع.

قال الرجل الأكبر سنا:

- نعم، نعم، أعرف هذا. ما قصدته شيئا مختلفا. الكلب عبارة عن ذئب لم يكتمل، أى هو مثل الجنين الذئب، أكثر من ذئب ناضج. أليس كذلك؟
هز بيت رأسه بالإيجاب.

قال المستر برويتر:

- أى بمعنى آخر، إنه حيوان دمث ولسل لأنه لم يكبر، ولم يصل إلى مرحلة التوحش. أليست هذه آلية للتطور والارتقاء؟

هز بيت رأسه ثانية بالإيجاب، وقال موضحا:

- هناك نوع من التوازن فى الغدد. ثم يأتى تغيير ما يطررها جانبا، فيحدث توازن جديد يؤخر معدل النمو. أنت تكبر، ولكن ببطء، حتى إنك تموت قبل أن تصبح مثل جنين جد، جد، جد جدك.

قال مستر برويتز:

- تماما . ماذا يحدث إذن لو أطلت حياة حيوان تطور بهذه الطريقة ؟

ضحك بيت وهز كتفيه:

- أعتقد أنه علينا أن ننتظر ونرى .

قال مستر برويتز:

- لا بد أنه شيء مقلق نوعا، لو أن كلابك عادت للوراء في إطار نموها .

ضحك بيت ثانية بابتهاج وقال:

- تصور أرامل كلاب البيكينيز تطاردها أبناؤها .

نظر إليه مستر برويتز في فضول ثم لاذ بالصمت، وكأنه ينتظر تعليقا آخر من

بيت، وعندما لم يأت التعليق، قال:

- أنا سعيد أنك هكذا سعيد بالموضوع .

ثم استدار إلى جيريمي واستمر في كلامه:

- «التمو...» - لو كنت أتذكر جيدا يا مستر بورديج - «التمو مثل شجرة كبيرة

الحجم لا يجعل الإنسان بالضرورة أفضل» .

ابتسم جيريمي بسعادة كما يفعل دائما عندما يقول له أحد مقولة مناسبة في

الوقت المناسب وأضاف:

- «ولا الوقوف طويلا مثل شجرة البلوط، ثلاثمائة عام» .

قال مستر برويتز بتأمل:

- ماذا سنفعل في سن الثلاثمائة ؟ هل تعتقد أنك سنظل عالما وجنتلمان ؟

تنحج جيريمي وریت على رأسه الصلعاء، ثم أجاب:

- بالتأكيد لن أكون جنتلمان . حمدا لله لقد بدأنا نتوقف عن ذلك من الآن .

- ولكن العالم سوف يستمر فى الطريق ؟
- توجد كتب كثيرة فى المتحف البريطانى .
سأل مستر برويتر:
- وأنت يا بيت ؟ هل تعتقد أنك ستستمر فى أبحاثك العلمية ؟
قال الشاب بإصرار:
- ولم لا ؟ ماذا يمنعنى من الاستمرار فيها إلى الأبد ؟
قال مستر برويتر:
- إلى الأبد ؟ ألا تعتقد أنك سوف تصاب بالملل ؟ تجربة وراء الأخرى . أو كتاباً وراء الآخر .
أضاف الجملة الأخيرة ونظر إلى جيريمى ، ثم قال:
- شيء ملعون وراء الآخر بشكل عام . ألا تعتقد أنها سوف تفترس عقلك قليلاً ؟
قال بيت:
- لا أرى سبباً لذلك .
- لا يضايقك الوقت إذن ؟
هز بيت رأسه بالنفى وتساءل:
- ولماذا يضايقنى ؟
قال مستر برويتر مبتسماً بود واستمتع:
- ولماذا لا يضايقك ؟ أتعلم أن الوقت شيء يضايق ؟
- ليس وأنت لا تخاف الموت أو الشيخوخة .
قال مستر برويتر بإصرار:
- نعم هو كذلك ، حتى لو كنت لا تخاف . إنه كابوس فى حد ذاته - كابوس بطبيعته ، إذا كنت ترى ما أعنيه .

سأل بيت بارتياك:

- بطبيعته؟ لا أفهم. كابوس بطبيعته؟

قال جيريمي:

- كابوس في الوقت الحاضر بالطبع. أما إذا أخذته في وضعه كحفريات في

شكل أوراق الهوبيرك، مثلا...

ترك الجملة دون أن يكملها.

قال مستر برويتر موافقا على النتيجة الضمنية:

- هذا يسعدني فعلا. ولكن مع كل ذلك، التاريخ ليس الشيء الحقيقي، فالزمن الماضي شر عن بعد فقط. وبالطبع فإن دراسة الزمن الماضي في حد ذاته مرحلة من الوقت. تبويب قطع الحفريات الشريفة لا يمكن إلا أن يكون بديلا أقل جودة من تجربة الأبدية.

نظر إلى بيت بفضول، محاولا تكهن رده على ما قال. إن الدخول هكذا في قلب الموضوع، بداية من القلب ذاته ومركز الغموض - كان مجازفة بلا شك، إذ هناك دائما خطر من إثارة لاشيء سوى التشويش الفكري، أو، بالتناوب، لا شيء سوى الغضب المستخف. لكن رد فعل بيت كان أقرب إلى النوع الأول، ولكنه كان أيضا تشويشا مشويا بالاهتمام، كمن ينظر وكأنه يريد أن يعرف عما يتحدثون. في ذات الوقت بدأ جيريمي يشعر أن الحوار بدأ يأخذ منحى غير مرغوب فيه. قال بشكل لاذع:

- عن ماذا نتحدث بالضبط؟ أورشليم الجديدة؟^(٥) ابتسم له مستر برويتر بروح

رياضية وقال:

- لا تخف. لن أقول كلمة عن آلة الهارب أو الأجنحة^(٦).

٥- أورشليم الجديدة: يقصد بها الفردوس.
٦- الهارب والأجنحة: يقصد الملائكة

قال جيريمى:

- هذا حسن.

استمر مستر برويتر فى كلامه:

- لا أستطيع أن أرتضى ب خطاب لا معنى له. أحب أن تكون الكلمات التى أستخدمها ذات علاقة ما بالحقائق. لهذا السبب أنا مهتم بالأبدية - الأبدية السيكلوجية، لأنها واقع حقيقى.

قال جيريمى بنبهة تتم عن أن الناس الأكثر تحضرا لا يعانون من مثل هذه الهلاوس:

- ربما بالنسبة لك.

- بل بالنسبة لأى شخص يختار أن يحقق الشروط التى يمكن من خلالها تجربة هذا الشيء.

- ولماذا يختار أى شخص تحقيق هذا؟

- لماذا يختار أى شخص الذهاب إلى أثينا ليرى البارثينون؟ لأنه يستحق التعب. ونفس الشيء بالنسبة للأبدية. إن تجربة الصلاح الأبدى تستحق كل التعب الذى يأتى منها.

كرر جيريمى الكلمات بنفور:

- الصلاح الأبدى. لا أفهم معنى هذه الكلمات.

قال مستر برويتر:

- ولماذا نفهم؟ نحن لا نفهم المعنى الحقيقى لكلمة البارثينون حتى نراه فعلا.

- نعم، ولكنى على الأقل رأيت صورا له، وقرأت شرحا عنه.

أجاب المستر برويتر:

- لقد قرأت شرح الصلاح الأبدى، بل المئات منها. فى كل أدبيات الفلسفة والدين. قرأتها، ولكلك لم تشتت تذكرتك إلى أثينا.
فى صمت ونفور، اعترف جيريى لنفسه أن هذا حقيقى. ولأنه حقيقى، أصبح غير راض عن الحوار أكثر بكثير من ذى قبل.
كان مستر برويتز يقول لببيت:

- أما بالنسبة للوقت، فى هذا الإطار بالذات فما هو سوى الوسيط الذى يتكاثر من خلاله الشر ذاته، وهو العنصر الذى يعيش فيه الشر، أكثر من كونه مجرد وسيط له. إذا ذهبنا أبعد من هذا فى تحليلك، فسوف تجد أن الوقت هو الشر، لأنه أحد عناصر تكوينه الأساسية.

استمع جيريى وقد خامره شعور متزايد من الضيق والنفور. لقد كانت مخاوفه مبررة، إذ أن الرجل العجوز بدأ يطلق عليه أسوأ أنواع اللاهوت. الأبدية، التجربة الخيرة بلا حدود، الوقت كأساس للشر - يعلم الله أن كل هذا موجود بما فيه الكفاية فى الكتب، ولكن هكذا، أن يكون مصوبا نحوك مباشرة، من خلال شخص يأخذ تلك المسائل مأخذ الجد، فإنه لشيء مخيف حقا. لماذا بحق السماء لا يقدر الناس أن يعيشوا حياتهم بشكل منطقى ومتحضر؟ لماذا لا يأخذون الأشياء كما هى؟ الإفطار فى التاسعة، الغداء فى الواحدة والنصف، الشاي فى الخامسة. الأحاديث. والتمشية اليومية مع مستر جلدستون كلبه اليوركشير. والمكتبة، وأعمال فولتير^(٧) فى ثلاثة وثمانين مجلدا، وكنوز هوراس والبول^(٨) التى لا تنتهى، ومن أجل التخيير، «الكوميديا الإلهية»^(٩). ثم فى حالة أخذك العصور الوسطى مأخذ الجد، فالسيرة

٧- فولتير: الاسم المستعار للكاتب الفرنسى الشهير فرانسوا ماري أويت (١٦٩٤-١٧٧٨).

٨- هوراس والبول: كاتب إنجليزى (١٧١٧-١٧٩٧).

٩- الكوميديا الإلهية: التى كتبها دانتي أليغييري (١٢٩٥-١٣٢١).

الذاتية لسالميين^(١٠)، وقصة الطحان^(١١). وأحيانا الزيارات المسائية - الكاهن، السيدة فريدجوند بلاعب المزمار السيد فيل. والمناقشات السياسية - إلا أنه في هذه الشهور الأخيرة منذ الأنشلاس وميونخ، وجد أن المناقشات السياسية أصبحت غير سارة ومن الحكمة تجنبها. ثم الرحلة الأسبوعية للندن، والغداء في مطعم الريفورم، والعشاء دائما مع ثريب العجوز من المتحف البريطاني، والحديث السريع مع أخيه المسكين توم في مكتبة الخارجية (إلا أن هذا أيضا أصبح من الأشياء التي لا بد من تجنبها). ثم بالطبع مكتبة لندن والصلوات الرسمية في كاتدرائية ويست مينستر، خاصة لو كانوا يرمنون لبالاسترينا^(١٢). ثم كل أسبوع آخر بين الخامسة والسادسة والنصف، ساعة ونصف الساعة يقضيها مع ماري أو دوريس في شقتهما بالميدا فيل. قذارة بلا نهاية في الغرفة الصغيرة، كما كان يحب أن يسميها. تسعد بعمق سحيق. هذه هي الأشياء التي كانت تأتي، فلماذا لا يأخذونها بهدوء ورشد؟ ولكن لا، لا بد أن يتحدثوا عن الكلام الفارغ والأبدية وكل الأشياء الأخرى. مثل هذه الأشياء كانت تجعل جيريمي دائما يريد أن يجذف - أن يسأل لو كان الله مثلا له مؤخرة، وأن يعترض، مثل الياباني في النادرة الذي كان مندھشا ومشوشا تماما بموقف العصفور المحترم. ولكن مع الأسف، كان الموقف الآن من تلك المواقف المثيرة للسخط بشكل خاص، والتي كان رد فعلها في غير محله. لأنه بعد كل شيء، برويتر العجوز هو كاتب الدراسات القصيرة، ولا يمكن استبعاد ما يقول على أنه بخار عقل مخلول. ثم أنه لم يتحدث عن المسيحية، فأصبحت نكاته عن التشبيه في غير محلها. كان شيئا مثيرا للسخط حقا! وضع على وجهه تعبير

١٠- سالميين: موسيقار وراهب فرنسكاني إيطالي (١٢٢١-١٢٨٨).

١١- قصة الطحان: قصة من ((قصص كاتدرائي)) التي كتبها جيفري تشوسير (١٤٠٠-١٣٥٤).

١٢- بالاسترينا: نسبة إلى الموسيقار جيوفاني دي بالاسترينا الإيطالي، وقد اشتهر بموسيقاه المقدمة للكنيسة الكاثوليكية.

انفصال متعالٍ يبدأ بدندن نغمة الزهرة واللحلة، أراد به الإحياء بأنه كائن متعالٍ،
لا يمكن أن نتوقع منه أن يضيق وقته في الاستماع لمثل هذه الأشياء .
نظر إليه مستر برويتر وأحس أنه منظر مثير للضحك، إلا أنه بالطبع كان في
ذات الوقت، مثيرا للاكتئاب بشدة .

الفصل التاسع

قال مستر برويتر:

- الوقت والشهوة - إنهما وجهان لذات الشيء، وهذا الشيء هو المادة الخام للشر.

التفت إلى بيت وقال بببرة مختلفة:

- إذن أترى يا بيت أى حاضر شاذ سوف تساعد على قيامه، لو نجحت فى عمالك؟ ستزيد قرناً آخر من الوقت والشهوة. حياتان من الشر المحتمل.

قال الشاب معترضاً بإصرار:

- وخير محتمل أيضاً.

وافق مستر برويتر وقال:

- نعم، وخير محتمل، ولكنه بعيد تماماً عن الوقت الإضافى الذى ستعطيه لنا.

قال بيت:

- ولماذا نقول ذلك؟

أجاب متأملاً:

- لأن الشر المحتمل موجود داخل الوقت، أما الخير المحتمل فليس كذلك. كلما امتدت حياتنا، اصطدمنا لا إرادياً بالشر. إننا لانجد خيراً أكثر بمجرد امتداد حياتنا فترة أطول. من الغريب حقاً أننا نركز على مشكلة الشر بشكل مطلق، وكأن طبيعة الخير مسلمٌ بها، بالرغم من أنها ليست كذلك، لأنه توجد مشكلة خير بذات إشكالية مشكلة الشر.

قال بيت متسائلاً:

- وما الحل؟

- الحل بسيط جدا ولكنه غير مقبول. الخير الحقيقي يقع خارج الزمن.
- خارج الزمن؟ كيف إذن...؟
- قال مستر برويتر:
- قلت لك إنه غير مقبول.
- ولكن إذا كان خارج الزمن إذن...
- ..إذن لا شيء داخل الزمن يمكن أن يكون خيرا حقيقيا. الوقت هو الشر المحتمل، والرغبة تحول هذا الاحتمال إلى شر حقيقى، بينما التصرف الوقتى لا يمكن إلا أن يكون خيرا محتملا، وهذا الاحتمال لا يمكن أن يتحقق فى الواقع سوى خارج الزمن.
- ولكن داخل الزمن هنا - أنت تعلم، بينما نفعل الأشياء العادية - اللعنة! أحيانا نفعل أشياء خيرة. لكن ما هى الأعمال الخيرة؟
- قال مستر برويتر:
- فى الواقع، لا يوجد. ولكن عمليا، أعتقد أنه يمكن تبرير إعطاء هذا المسمى لبعض الأعمال. أى عمل يساهم فى تحرر المعطين به - يمكن تسميته عملا خيرا.
- ردد الشاب الكلمة متشككا:
- التحرر؟ التحرر من ماذا؟
- دائما كانت توحى له هذه الكلمة بمعانٍ اقتصادية وثرورية، ولكن من الواضح أن مستر برويتر لم يكن يتحدث عن ضرورة التخلص من الرأسمالية.
- تردد مستر برويتر قبل أن يجيب. هل يستمر فى هذا؟ كان من الواضح أن الرجل الإنجليزى أصبح عدائيا، وقد أصبح الوقت ضيقا، بينما الشاب نفسه جاهل تماما، ولكنه جهل مخفف بالنوايا الطيبة، ورغبة مؤثرة للكمال. فى النهاية قرر أن

يستمر، وقال:

- التحرر من الوقت. التحرر من الرغبات والكراهيات. التحرر من الذات.

قال بيت:

- ولكن اللعنة! إنك تتحدث دائما عن الديمقراطية. ألا يعنى هذا احترام الذات؟

وافقه المستر برويتر وقال:

- طبعاً. احترامها من أجل أن تتخطى نفسها. العبودية والتعصب يزيديان الإحساس بالاستحواذ بالوقت والشر والذات. وتلك هى قيمة المؤسسات الديمقراطية وطريقة التفكير التى تتشكك فى الأشياء. كلما احترمت الذات، أصبحت فرصتك أفضل لاكتشاف أن كل الذات لا تعدو كونها سجنًا. الخير المحتمل هو كل شيء يساعدك على الخروج من هذا السجن. الخير الحقيقى إذن يقع خارج السجن، فى اللاوقت، فى حالة الوعي النقى، الذى ليست له اهتمامات.

قال الشاب:

- لست أجيد التجريد، فاعطنى بعض الأمثلة الملموسة. ماذا عن العلم مثلاً؟

هل هو خير؟

- خير وشر وبين الاثنين، وهذا يعتمد على كيفية السعى وراءه واستخدامه. خير وشر وما بين الاثنين، أولاً بالنسبة للعلماء أنفسهم - تماماً مثلما يمكن أن يكون الفن والدراسة، لا أكثر من خير وشر، ثم لا هذا ولا ذاك بالنسبة للفنانين والدارسين. إنه خير إذا سهّلت التحرر، وهى لا هذا ولا ذاك إذا لم تساعد ولم تعرقل، وهى فى النهاية شر إذا جعلت التحرر أكثر صعوبة، من خلال تكثيف الاستحواذ بالذات. وتذكّر أن إنكار الذات الظاهر على العلماء والفنانين ليس بالضرورة تحرراً من الذات. إن العلماء والفنانين مكرسين لما نسميه، بشكل مبهم،

المثل العليا. ولكن ما هي المثل العليا؟ إنها مجرد إبراز للذات على نطاق متضخم جدا.

قال بيت:

- قل هذا ثانية.

حتى جيريمي نسي انفصاله المتعالي وأبدى اهتماما واضحا.

قال مستر بروينر ثانية:

- هذا حقيقي عن كل المثل العليا، إلا قيمة التحرر إذ هي أعلاها، - التحرر من الذات، التحرر من الوقت والرغبات، التحرر والوصول إلى اتحاد مع الله، إذا كنت لا تعترض على هذه الكلمة يا مستر بورديج. الكثيرون يعترضون، لأنها إحدى تلك الكلمات التي ترى السيدات مدعيات الثقافة أنها نوع من الصدمة. إنني أحاول دائما أن أتجنبها كلما استطعت. والآن لنعود إلى مثلنا.

شعر بسعادة أن جيريمي اضطرب أن يبتسم رغما عنه.

- إذا خدم أي مثل سوى أعلاها - سواء كانت قيمة الجمال عند الفنان أو قيمة الحقيقة عند العالم، أو القيمة الإنسانية لما نسميه اليوم بالخير - فهو حينئذ لا يخدم الله، بل يخدم ذاته المتضخمة. من الجائز جدا أن يكون مكرسا لها، ولكن في التحليل الأخير، نجد أن هذا التكريس مُسلط نحو جزء من ذاتيته. إن عدم أنايته ليست في الواقع تحررا من ذاتيته، وإنما هي نوع آخر من العبودية، وهذا يعني أن العلم يمكن أن يكون شرا للعلماء، حتى عندما يبدون وكأنهم مخلصون، ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للفنون الجيدة، والدراسة والإنسانيات.

فكر جيريمي بحتين في مكتبته بالأروكارياس. لماذا لا يسعد هذا الرجل العجوز بالأشياء كما هي؟

سأل بيت:

- وماذا عن باقى البشر؟ ألم يساعد كونهم من غير العلماء فى تحررهم؟

هز مستر برويتر رأسه بالإيجاب:

- بل وساعد أيضا على أن يربطهم بذواتهم أكثر. وبالإضافة إلى ذلك، أعتقد

أن ذلك زاد من عبوديتهم أكثر من كونه قللها - وسوف يظل يزيدها بشكل

تصاعدى.

- وكيف تحسب هذا؟

قال مستر برويتر:

- من خلال التطبيقات. تطبيقات الحرب أولا. طائرات أفضل تفجيرات أفضل،

بنادق وغازات أفضل - كل التعديلات لتزيد قدر الخوف والكراهية، وتوسع من

درجة الهيستيريا القومية. بمعنى آخر، كل تقدم فى التسليح، يجعل من الصعوبة

بمكان أن تهرب الناس من ذواتها، ومن الصعوبة بمكان نسيان هذا التجسيد للذات

والذى يطلقون عليه مثلهم عن الوطنية والبطولة، والمجد، وكل هذه الأشياء

الأخرى. وحتى بالنسبة للتطبيقات العلمية الأقل تدميرا فهى فى الواقع ليست

أفضل حالا، لأن ما هى نتيجتها؟ مضاعفة الأشياء التى نمتلكها - اختراع أدوات

تحفيز جديدة، وتوزيع احتياجات جديدة من خلال الدعاية التى تعادل بين

الممتلكات والصلاح، والتحفيز المستمر بالسعادة. بالرغم من أن السعادة المستمرة

من الخارج لا تعدو كونها نوعا من العبودية. وكذلك الانشغال بالممتلكات. والآن ها

أنت تهدد بإطالة حياتنا حتى نستمر فى تحفزنا، ونستمر فى رغبتنا فى الامتلاك،

ونستمر فى رفرقة أعلام الكراهية فى وجه أعدائنا، ونستمر فى الخوف من الهجوم

الجوى - ونستمر ونستمر، جيلا وراء جيل، غائصين أكثر فأكثر فى مستنقع قذارة

ذواتنا.

هز رأسه ثم أضاف:

- لا أستطيع أن أشاركك تفاؤلك بالعلم.

ساد صمت بينما بيت يتجادل مع ذاته حول ما إذا كان ينبغي أن يسأل مستر برويتز عن الحب. في النهاية قرر ألا يسأل، إذ كانت فيرجينيا مقدسة جدا بالنسبة له. (ولكن لماذا عادت وهم هناك عند الكهف؟ ماذا قال أو فعل ليضايقها؟) وحتى يمنع نفسه من التفكير مليا في تلك المشكلات، ولأنه يريد أن يعرف رأى الرجل العجوز في الأشياء الثلاثة التي تبدو له ذات أهمية قصوى، نظر إلى مستر برويتز وقال:

- وماذا عن العدل؟ أعنى خذ مثلا الثورة الفرنسية، أو روسيا. وماذا عن هذه

المسألة الإسبانية - الحرب من أجل الحرية والديمقراطية ضد الاعتداء الفاشي؟

لقد حاول جاهدا أن يظل هادئا وعلميا حيال هذا الموضوع، لكن صوته ارتجف قليلا وهو يتفوه بهذه الكلمات الأخيرة، فبالرغم من أنها مألوفة له، (أوراما بسبب ألفتها) كانت كلمات مثل «الاعتداء الفاشي» لا تزال قوية الوقع، بحيث تحركه من الأعماق.

قال مستر برويتز بعد فترة صمت:

- لقد خرج لنا نابليون من الثورة الفرنسية، والقومية الألمانية خرجت من

نابليون. حرب ١٨٧٠ خرجت من القومية الألمانية، وحرب ١٩١٤ خرجت من حرب ١٨٧٠. وهتلر خرج من حرب ١٩١٤. كل تلك تعد النتائج السلبية للثورة الفرنسية. أما النتائج الإيجابية فهي منح الحقوق المدنية للفلاحين، ونشر الديمقراطية السياسية. ولكن ضع النتائج الإيجابية في كفة من ميزانك، والنتائج

السلبية فى الكفة الأخرى، وانظر أيهما أثقل، ثم افعل نفس الشيء مع روسيا. صنع إلغاء نظام القيصصر والرأسمالية فى كفة، وفى الأخرى، صنع ستالين والبوليس السرى، والمجاعات، وعشرين عاما من معاناة مائة وخمسين مليون شخص، وتصفية المثقفين وطبقة أغنياء الفلاحين، والبولشويين القدامى، وأفواجاً من العبيد فى معسكرات السجون، وضع التجنيد العسكرى للجميع، رجالا ونساء، من الطفولة إلى الشيخوخة، وضع دعاية الثورة التى حركت البرجوازية لاختراع الفاشية.

هز مستر برويتر رأسه فى أسى وأكمل كلامه قائلا:

— أؤخذ الحرب من أجل الديمقراطية فى إسبانيا. كانت هناك حرب من أجل الديمقراطية فى أوروبا كلها فى وقت ليس ببعيد. التكهّن العاقل يمكن فقط أن ينبئ على التجربة السابقة. انظر إذن إلى نتائج ١٩١٤، ثم أسأل نفسك ما هى فرص أن يؤسس الولاثيون نظاما حرا فى نهاية الحرب الطويلة؟ مع الأسف الآخرون هم المنتصرون الآن، لذلك لن نتاح لنا الفرصة لرؤية ما كان يمكن أن تقود إليه الظروف ويقود إليه شغفهم، إذا ما أتى هؤلاء الليبراليون، ذوو النوايا الحسنة، للحكم.

انفجر بيت:

— ولكن اللعنة! ماذا تتوقع أن يفعل الناس عندما يهاجمهم الفاشيون؟ أن يجلسوا ويبنظروا حتى تقطع رقابهم؟

قال مستر برويتر:

— بالطبع لا. أتوقع أن يحاربوا. ولكن توقعى مبنى على معرفتى المسبقة بالطبيعة البشرية. ولكن كون الناس عامة يتصرفون هكذا فى مثل هذه الأوضاع، لا يثبت بالضرورة أن تلك هى أفضل طريقة رد فعل. ولكن التجربة أيضا تجعلنى أتنبأ بأنهم لو تصرفوا هكذا، فسوف تكون النتائج كارثة.

- إذن كيف تريدنا أن نتصرف؟ هل تريد أن نبقي ساكنين ولا نفعل شيئا؟
قال مستر برويتر:
- ليس لا شيء. ولكن أفعل شيئا مناسباً.
- ولكن ما هو المناسب؟
- ليست الحرب على أية حال. ولا الثورة العنيفة. لا، ولا السياسة كذلك، فيما
أعتقد.
- ماذا إذن؟
- هذا ما ينبغي اكتشافه. إن الخطوط العريضة واضحة، ولكن هناك عمل كثير
ينبغي أن نفعله بالنسبة للتفاصيل العملية.
- لم يستمع بيت. فقد عاد ذهنه إلى ذلك الوقت في أراجون، عندما كانت حياته
ذات معنى كبير. انفجر قائلاً:
- ولكن هؤلاء الشباب هناك، في إسبانيا، أنت لا تعرفهم يا مستر برويتر، كانوا
رائعين، حقاً رائعين. لا يمكن أن يتعاملوا بسخف، وكانوا شجعان وذوي ولاء و...
وكل شيء.
- تصارع مع عدم كفاءة مفرداته، خائفاً أن يبدو وكأنه يستعرض ذاته بالكلام
الكبير، مثل الذين يتباهون بثقافتهم.
- كانوا لا يعيشون من أجل أنفسهم، أستطيع أن أؤكد لك ذلك يا مستر برويتر.
نظر إلى وجه الرجل العجوز بنوع من الرجاء، وكأنه يرجوه أن يصدق.
- كانوا يعيشون لشيء أبعد من أنفسهم - مثل هذا الذي كنت تتحدث عنه
الآن. أنت تعلم، شيئا أكثر من كونه شخصياً.
- قال مستر برويتر:

- وماذا عن صبية هتلر؟ وماذا عن صبية موسوليني؟ هل تعتقد أنهم فقط يفتقدون الشجاعة بالقدر الكافي، أو أنهم ليسوا طبيبين بعضهم مع بعض، وليسوا ذوى ولاء لهدفهم، أو أنهم غير مقتنعين بأنه هدف العدل والحق والحرية والصواب والشرف؟

نظر إلى بيت متسائلا، ولكن بيت لم ينطق.

- أن يكون لدى بعض الناس فضائل كثيرة لا يثبت بالضرورة شيئا من ناحية عدم صلاح تصرفاتهم. يمكن أن يكون لك كل الصلاح - إلا اثنان فى الواقع، هما الفهم والشفقة - يمكن أن يكون لك كل الباقي، ومع ذلك تظل رجلا سيئا. بل فى الواقع لا يمكن أن تكون سيئا حقا إلا إذا امتلكت كل الصفات الحسنة تقريبا. انظر إلى إيليس ميلتون^(١) على سبيل المثال، فستجده شجاعا وقويا وكريما وذا ولاء، فطنا ومعتدلا، ومضحيا بنفسه. دعونا إذن نعطي الديكتاتوريين الإقرارات التي يستحقونها: البعض منهم حقيقة يمتلك فضائل كثيرة، تماما مثل إيليس - ليس بالضبط، وأنا أقر بذلك، ولكن تقريبا مثله. لكن لهذا السبب يستطيعون القيام بكل هذا الشر.

جلس بيت مقطب الوجه، واضعا مرفقى يديه على ركبتيه. ثم أخيرا قال
- ولكن ذلك الإحساس... ذلك الإحساس الذى كان بيننا. أنت تعلم - الصداقة - بل كانت أكثر من صداقة عادية. والإحساس بأننا هناك معا - نحارب من أجل نفس الشيء - وهذا الشيء يستحق كل هذا - ثم الخطر، والمطر، والبرد القارس فى الليل، والحر فى الصيف، والإحساس بالعطش، وحتى ذلك القمل، وتلك القذارة - التعاون، والمشاركة فى كل شيء جيد وسىء - والمعرفة أن غدا قد يكون دورك

١- ميلتون: نسبة إلى جون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤) شاعر وكاتب إنجليزى شهير، ومن أهم كتاباته «الجنة المفقودة»، و«الجنة العائدة»، ومن أهم شخصياتها إيليس.

أنت، أو دور واحد من الشباب - دورك فى المستشفى (وفى الغالب لن يكون لديهم البنج الكافى إلا ربما للبتر أو شىء من هذا القبيل)، أو دورك أنت لحفل الدفن. كل تلك الأحاسيس يا مستر برويتر - لا يمكن تصديق أنها لا تعنى شيئاً.

قال مستر برويتر:

- بل معناها فى ذاتها.

وجد جيريemy الفرصة للهجوم المضاد، وبسرعة غير معهودة به، انتهزها وقال:

- ألا ينطبق نفس الشىء على إحساسك بالأبدية أو أيا ما كانت؟¹

قال مستر برويتر:

- بالطبع تنطبق.

- إذن والوضع كذلك، كيف تدعى أية صلاحية لها بينما الإحساس موجود فى

حد ذاته، وهذا كل ما فى الأمر؟

وافقه مستر برويتر وقال:

- إنها تعنى ذاتها. ولكن ما هو ذاتها بالضبط؟ أى بمعنى آخر، ما هى طبيعة

هذه الأحاسيس؟

هز جيريemy رأسه بشكل كوميدى مضطرب، وقال رافعا حاجبيه:

- لا تسألنى، فأنا حقا لا أعرف.

ابتسم مستر برويتر:

- أعلم أنك لا تريد أن تعرف، ولن أسألك. سوف أقول لك فقط الحقائق.

الإحساس الذى نتحدث عنه هو تجربة غير شخصية للسلام الأبدى، ومن ثم فهى

تعنى ما هو غير شخصى، وأبدى، وسلام. والآن دعونا نفكر فى الإحساس الذى

كان يتحدث عنه بيت. كلها أحاسيس شخصية، ناجمة عن المواقف الوقتية، وتتميز

بالإحساس والإثارة. إنها إذن تكثيف للذات وسط عالم الوقت والرغبات - هذا هو معنى هذه الأحاسيس.

قال بيت:

- ولكذك لا تستطيع أن تسمى التضحية بالذات تكثيفاً لها.

قال مستر برويتر بإصرار:

- بل أستطيع، وهذا ما أقوله بالفعل، لسبب بسيط أنها فعلاً كذلك ... إن التضحية بالذات من أجل أى شيء سوى الهدف الأسمى، لا تعد كونها تضحية لقيمة ما، والتي هي إبراز للذات، وما يعرف باسم التضحية بالذات ما هو إلا تضحية بجزء من الذات من أجل جزء آخر، ومجموعة من الأحاسيس والمشاعر من أجل مجموعة أخرى من الأحاسيس والمشاعر - مثل الأحاسيس المرتبطة بالمال والجنس والتي نضحى بها من أجل أن نشعر الذات بالتفوق، والتضامن والكراهية، وكلها مرتبطة دائماً بالوطنية، أو أى نوع من التعصب السياسى أو الدينى.

هز بيت رأسه وابتسم بحيرة آسفة، ثم قال:

- أحياناً نتحدث مثل الدكتور أوبيسبو. أنت تعلم - بسخرية.

ضحك مستر برويتر وقال:

- إنه شيء جيد أن تكون ساخراً. هذا بالطبع لو كنت تعلم متى تتوقف. معظم الأشياء التي تعلمنا أن نحترمها ونقدسها - لا تستحق سوى السخرية. خذ مثلاً حالتك أنت. لقد علموك أن تعبد قيماً مثل الوطنية، والعدل الاجتماعى والعلم والحب الرومانسى، وعلموك أن قيماً مثل الولاء والاعتدال والشجاعة والفتنة أشياء جيدة فى حد ذاتها وتحت أية ظروف، وأكدوا عليك أن التضحية دائماً رائعة، وأن المشاعر الراقية دائماً صالحة. وهذا كله هراء ومجموعة من الأكاذيب، اخترعها

البشر ليبرروا استمرارهم فى نفى الله، ويبرروا إغراقهم فى ذواتهم. أما إذا لم تكن ساخرا باستمرار تجاه هراء الوجود الذى يقوله الكهنة ومديرو البنوك والأساتذة والسياسيون وكل الآخرين، فإنك سوف تضيع، بل وتضيع تماما، وسيكون محكوماً عليك بالسجن الأبدى داخل ذاتك - ومحكوماً عليك أن تكون ذاتاً فى عالم الذوات، وعالم الذوات فى هذا العالم، هو عالم الجشع والخوف والكراهية والحرب والرأسمالية والديكتاتورية والعبودية. نعم، لابد أن تكون ساخرا يا بيت. بل وساخرا بشكل خاص من كل التصرفات والمشاعر التى تعلمت أن تعتبرها جيدة. إن معظمها ليس جيداً، بل هو مجرد شر يبدو ذا مصداقية. ولكن مع الأسف، الشر ذو المصداقية لا يقل سوءاً عن الشر بدون مصداقية. الكتبة والفريسيون ليسوا أفضل، فى التحليل الأخير، من العشارين والخطاة. بل إنهم أسوأ فى أغلب الأحيان، وذلك لأسباب كثيرة، إذ بم أن الآخرين يعتقدون أنهم أفضل، فقد أصبحوا يعتقدون أنهم أفضل، ولا شيء يؤكد الذاتية مثل التفكير الجيد عن ذاتك. ثانياً، إن العشارين والخطاة بشكل عام، بشر حيوانيون، بدون الطاقة الكافية، أو السيطرة على الذات الكافية، لارتكاب الأذى الكثير. أما الكتبة والفريسيون فلديهم كل الفضائل، إلا المهم منها، ولديهم الذكاء لى يفهموا كل شيء إلا طبيعة العالم الحقيقية. العشارين والخطاة يتضاجعون ويأكلون أكثر من حاجتهم، ويسكرون أيضاً. أما الذين يبدؤون الحروب، والذين يدنون زملاءهم من مستوى العبودية، والذين يقتلون ويعذبون ويقولون الأكاذيب باسم أهدافهم المقدسة، فهم الأشرار الحقيقيون - ليسوا أبداً العشارين والخطاة. لا. إنهم الرجال الفضلاء المحترمون، الذين يملكون أفضل المشاعر، وأفضل العقول وأنبأ المثل.

سأل بيت بنبرة غضب ويأس:

- إذن فالنتيجة التى تنتهى بها من كل هذا، هى أننا لا نستطيع أن نفعل شيئا.
أليس كذلك؟

قال مستر بروبتر بطريقة الهادئة القضائية:

- نعم ولا . على المستوى البشرى المحض، وعلى مستوى الوقت والرغبات،
أعتقد أن هذا صحيح . فى النهاية، لا يوجد شيء تستطيع أن تفعله .

قال بيت معترضاً:

- ولكن هذه انهزامية .

- هل هى انهزامية أن نكون واقعيين؟

- لا بد أن هناك شيئاً ما يمكن عمله .

- لا أرى أى لا بد فى الموضوع .

- إذن ماذا عن المصلحين وكل هؤلاء الناس؟ إذا كنت مصيباً، فإنهم يضيعون
وقتهم .

أجاب مستر بروبتر:

- هذا يعتمد على ما يعتقدون أنهم فاعلون . إذا كانوا يظنون أنهم يقومون
بتخفيف بعض المضايقات مؤقتاً، وإذا كانوا يرون أنفسهم كبشر يحاولون تغيير
مسار الشر من ممراته القديمة إلى ممرات جديدة ومختلفة قليلاً، ففى هذه الحالة
يمكن أن يدعوا النجاح . أما إذا كانوا يظنون أنهم يجعلون الخير يتجلى مكان الشر،
فإن التاريخ يظهر بوضوح أنهم فعلاً يضيعون وقتهم .

- ولكن لماذا لا يستطيعون تبديل الخير مكان الشر الذى كان؟

- لماذا نسقط عندما نقفز من نافذة الدور العاشر؟ لأن طبيعة الأشياء كذلك: أن
نسقط . وطبيعة الأشياء هى أنه على المستوى البشرى، الذى يحوى الوقت

والرغبات، لن نتمكن من الوصول إلى شيء سوى الشر. إذا اخترت أن تعمل بشكل مطلق على هذا المستوى، وبشكل مطلق من أجل القيم والأهداف التي تميزها، إذن فأنت مجنون لو توقعت أنك تقدر أن تحول الشر إلى خير. إنك مجنون لأنه كان عليك أن تتعلم من التجربة أنه لا يوجد أي خير على هذا المستوى. هناك فقط درجات وأشكال مختلفة من الشر.

- إذن ماذا تريد أن يفعل الناس؟

قال مستر برويتر:

- لا تتحدث وكأن الذنب ذنبى. أنا لم أ اخترع الكون.

- إذن ماذا ينبغي أن يفعل الناس؟

- إن إرادات الناس توليدات جديدة للشر، فليستروا فيما يفعلون الآن. ولكن إن كانوا يريدون الخير، فلا بد أن يغيروا تكتيكاتهم. والشئ المٌشجع حقا أنه توجد تكتيكات سوف تثمر عن الخير. لقد رأينا أنه لا يوجد شيء نفعله على المستوى البشرى المحض، أو بالأحرى، هناك الملايين من الأشياء التي يمكن أن نفعلها، ولكن لن تصل بنا أى منها إلى الخير. ولكن هناك شيئا مؤثرا فعلا يمكن أن نفعله على المستويات الموجودة فيها الخير. أترى يا بيت، إننى لست انهزاميا، بل إستراتيجيا، إذ أؤمن بأنه إن وجدت معركة فلا بد أن ندخلها، ولكن تحت الشروط التي بها على الأقل بعض الفرص لكسبها. أؤمن أنك لو كنت تريد صوقا ذهبيا، فمن الأوقع أن نذهب إلى المكان الذى يوجد به مثل تلك الأصواف بدلا من الجرى وعمل أشياء خارقة من الشجاعة فى بلد لا يوجد بها غير الأصواف فاحمة السواد.

- إذن أين نحارب من أجل الخير؟

- فى المكان الذى يوجد فيه الخير.

– ولكن أين هو؟

– فى المستوى تحت البشرى وفوق البشرى. فى المستوى الحيوانى وفى مستوى ... عليك أن تختار الاسم بنفسك: مستوى الأبدية، المستوى الإلهى (لولم يكن لك اعتراض عليه)، مستوى الروح – إلا أن هذه الكلمة من أكثر الكلمات ازدواجية فى اللغة. على المستوى الأدنى، الخير موجود كوظيفة مناسبة للكائن العضوى، بالتناسب مع قوانين وجوده. إنه موجود، على المستوى الأعلى، فى هيئة المعرفة بالعالم دون رغبة أو كراهية. إنه موجود كتجربة للأبدية، ولتجاوز الذات، وكامتداد للوعى بعد الحدود المفروضة على الذات. الأنشطة البشرية المحضة أنشطة تمنع ظهور الخير على المستويين الآخرين. لأنه فيما أننا بشر، فإننا مستحوذون بالوقت ومهتمون بشدة بذواتنا، وبهذه الإسقاطات لذواتنا التى نسميها السياسات أو مثلاً العليا، أو دياناتنا. وما هى النتيجة؟ الاستحواذ بالرغبة والقلق. ولكن لا شيء يعرقل الوظائف الطبيعية للكائنات العضوية مثل الرغبة والكراهية، والطمع والخوف والقلق. معظم متاعبنا الجسدية وعجزنا ناتج عن القلق والرغبة، بشكل مباشر أو غير مباشر. إننا نقلق ونرغب أنفسنا لدرجة أننا نصاب بضغط الدم، وأمراض القلب، والسل، وقرحة المعدة، والمقاومة الضعيفة للأمراض، وضعف الأعصاب، والانحرافات الجنسية، والجنون والانتحار، هذا بدون ذكر كل الأمراض الأخرى.

أشاح مستر برويتر بيده واستمر قائلاً:

– إن الرغبة تمنعنا حتى من الرؤية الجيدة، وكلما حاولنا الرؤية أكثر، أخطأنا أكثر فى التكيف. ونفس الشيء بالنسبة للموقف الجسدى: كلما أصابنا القلق حول عمل الأشياء التى أمامنا مباشرة فى الوقت، تعارض هذا مع موقف جسدنا الصحيح، ومن ثم تسوء وظائف الكائن العضوى كله. أى بمعنى آخر، بما أننا بشر،

فإننا نمنع أنفسنا من معرفة الصلاح الفيسيولوجي والفطرى الذى يمكننا معرفته .
كحيوانات. وبالمثل، نفس الشيء ينطبق على المستوى الأعلى . بما أننا بشر، فإننا
نمنع أنفسنا من التعرف على الصلاح الروحى والأبدى الذى نستطيع معرفته
كسكان دائمين محتملين للأبدية، وكمستمعين محتملين للرؤية المغتربة . إننا نقلق
ونرغب أنفسنا حتى نخرج خارج إمكانية تجاوز الذات، ومعرفة الطبيعة الحقيقية
للعالم، أولاً من خلال الثقافة ثم من خلال التجربة المباشرة .

صمت مستر برونر قليلاً، ثم بابتسامة مفاجئة استمر قائلاً:

— لحسن الحظ غالبيتنا لا يستطيعون التصرف كبشر طوال الوقت . إننا ننسى
ذواتنا الصغيرة البائسة، وهذه الإسقاطات الكبيرة المخيفة لذواتنا فى العالم المثالى —
ننساها ونترد إلى الحيوانية غير الضارة معظم الوقت . وهكذا يتاح للكائن العضوى
الفرصة ليعمل حسب قوانينه هو، أى بمعنى آخر، تتاح له الفرصة ليحقق الصلاح
القادر عليه . لهذا السبب نحن بهذا الشكل الصحى والعقلى . حتى فى المدن الكبيرة،
يستطيع أربعة أشخاص من بين كل خمسة أن يعيشوا فى الحياة بدون علاج فى
مصحة عقلية . لو كنا بشراً بشكل ثابت، فإن معدل الحالات العقلية كانت سترتفع
من عشرين إلى مائة . ولكن لحسن الحظ معظمنا لا يقدر على الثبات — فالحَيَوان
دائماً يطالب بحقه . وبالنسبة لبعض الناس يتكرر ذلك مراراً . لكن ربما بين الحين
والآخر يأتى بعض وميض استنارة للكثيرين — لمحات خاطفة وقتية فى طبيعة
العالم، مثل وعى متحرر من شهوة الوقت، عن العالم كما يمكن أن يكون، لو لم
نكن قد اخترنا رفض الله، من خلال كوننا ذواتاً شخصية . هذا الوميض يأتى إلينا
ونحن غير ملتفتين، ثم نعود فوراً للرغبات والقلق، ويختبئ الضوء مرة أخرى
خلف ذواتنا ومثلها المجنونة، وسياساتها وخططها الإجرامية .

ساد الصمت. كانت الشمس قد غربت. خلف الجبال تجاه الغرب تلاشى ضوء
أصفر باهت ليحل محله الأخضر ثم الأزرق وأخذ ينحو إلى الأزرق الداكن تدريجيا
فى صعود. فى القمة كان الليل قد حل.

جلس بيت ساكنا، يحدّق فى السماء المظلمة التى لم تزل شفافة فوق القمم
الشمالية. الصوت الذى كان هادئا فى البداية ثم بدأ فى الرنين فى النهاية بقوة
هكذا، وهذه الكلمات التى أصبحت الآن ساخرة بلا رحمة من كل الأشياء التى
أعطى لها ولاء كله، وأصبح الآن محتقنا بالوعود نصف-المفهومة عن أشياء أكثر
قيمة من الولاء، كل هذا تركه متأثرا من الأعماق، لكن فى ذات الوقت مشوشا
وضائعا. فهم أنه لا بد أن يعيد التفكير فى كل شيء، ومن البداية - العلم، السياسة،
ربما حتى الحب، وحتى فيرجينيا. كان مذهولا من الموضوع، ولكن جزء آخر من
ذاته كانت منجذبة له. كان رافضا التفكير فى مستر برويتر، ولكن فى ذات الوقت
كان يحب الرجل العجوز المثير للقلق. كان يحبه لما يفعله، وفوق كل شيء لما كان
فى ذاته، كما عرفه بيت بإعجاب من خلال تجربته -- وهو الصديق بدون نفعية،
صافٍ وقوى، رقيق وشديد، مبتعد ولكن موجود بكثافة، موجود ومتألق أكثر حتى
من أى شخص آخر.

وجد جيريمى بورديج نفسه أيضا مهتما بما يقوله الرجل العجوز، بل وإنه أيضا،
مثل بيت اختبر حراك نوع من القلق والانزعاج - انزعاج ليس بقليل لكونه قد
أزعجه من قبل. كان مغزى ما قاله مستر برويتر مألوقا له، إذ أنه بالطبع، قد قرأ
كل الكتب ذات الدلالة المعنوية بهذا الموضوع - بل كان يمكن أن يعتبر نفسه غير
مثقف وهمجى لو لم يكن قد قرأها - لقد قرأ سنكارا وإيكارت^(١)، ونصوص

٢- إيكارت: نسبة إلى يوهانس إيكارت (١٢٦٠-١٣٢٧) عالم لاهوت ألماني، وقد أداته الفاتيكان بعد وفاته
بسبب كتاباته.

البالي^(٣) ونصوص جون الصليبي^(٤) وتشارلز كوندران وباردو وبانتانجلي^(٥) والدينونيسياس المزيف. كان قد قرأها جميعا وتأثر بها لدرجة أنه تساءل إذا ما كان ربما ينبغي أن يفعل شيئا حيال ذلك. ثم لأنه تأثر بهذه الطريقة، فقد فعل كل ما بوسعه ليسخر منها، ليس فقط أمام الناس، بل أيضا، وفوق كل شيء، أمام نفسه.

قال الرجل «لم تشتر لنفسك تذكرة لأثينا». اللعنة على هاتين العينين! لماذا يريد قذف هذه الأشياء في وجهنا؟ كل ما نريده هو أن نترك في سلام، لنأخذ الأشياء كما تأتي - كتبه، مقالاته الصغيرة، ومزار أذن اللیدی فريديجون، والباليستريدا، وكعكة اللحم والكبد في الريفورم ومارى ودوريس. وجعله بهذا يتذكر أن اليوم هو الجمعة، ولو كان في إنجلترا لقضى الأمسية في البيت، في مايدا فيل. استدار بعيدا عن مستر بروينر عن عمد، وفكر بدلا منه في أمسيات أيام كل جمعة أخرى، وفي الأباجورات وردية اللون، ورائحة بودة تلك والعرق، والنساء الطروديات، كما كان يسميهن لأنهن كن يعملن بجد، مرنديات الكيمونو من محلات ماركس وسبنسر، ثم الصور المعقدة المبرورة لبوينتر^(٦) وألما تاديا^(٧)، (ومن سخريات القدر الجميلة أن الأعمال التي اعتقد الفيكوريون أنها فن، أصبحت اليوم، بعد جيل واحد، تستخدم كقطعة من الفن القاصح في حجرة نوم بغي). ثم أخيرا، الروتين الجنسي، منحن بطبيعته، كزبه ودلىء بشكل كلى وحرفى، بالخطاط ودناءة تشكل بالنسبة

٣- نصوص البالي: الكتابات الدينية التي كتبت بلغة البالي، وهي لغة البوذيين الجنوبيين في سرى لانكا، وهرزما، وبالاوند، ولأوس، وكامبوديا.

٤- جون الصليبي: وهو دوق برجاندني بفرنسا (١٣٧١-١٤١٩) وقد عرف باسم جون الذي لا يهاب شيئا وذلك لجراحته الحربية.

٥- بانتانجاني: نسبة إلى أحد مطوري اليوجا وهو من القرن الثاني بعد الميلاد، وقد طورها كطريق للوصول إلى الاستنارة من خلال التحكم بالجسد والتأمل.

٦- بوينتر: نسبة لسير دوارد جون بوينتر (١٨٣٦-١٩١٩) رسام بريطاني.

٧- ألما تاديا: نسبة إلى سير لورانس ألما-تاديا (١٨٣٦-١٩١٢) رسام هولندي اشتهر برسومانه الترومانسية ولوحاته التاريخية.

لجبريمى أفضل سحر فيه، حتى أنه كان يعتبره أعلى من أى قدر من الحب والرومانسية، بل وأى عدد من القصائد الغنائية وقصائد الحب. الدناءة المتناهية فى الغرفة الصغيرة! كان هذا تأليه للرُقَى، والنتيجة المنطقية للذوق الرفيع.

الفصل العاشر

فى يوم الجمعة هذا، على غير العادة، كان مساء مستر ستويت بدون أحداث تُذكر، أثناء وجوده فى البلد. لم يحدث شئ غير لائق طوال الأسبوع السابق. خلال اجتماعاته ومقابلاته العديدة لم يقل أو يفعل أحد شئنا يجعله يفقد أعصابه. كل تقارير الأحوال التجارية كانت مرضية. اليابانيون اشتروا مائة ألف برميل آخر من البترول، والنحاس زاد بمقدار سنتين، وكان الطلب على القروض من البنك مؤسفاً، إلا أن وباء الإنفلونزا جعل نسبة الإقبال الأسبوعى على البانكيون أعلى من المتوسط.

كانت الأمور تسير بسلاسة لدرجة أن مستر ستويت أنهى كل أعماله فى حوالى ساعة كاملة وأسرع مما توقع، ولأنه وجد نفسه بلا عمل، توقف فى طريقه إلى البيت عند وكيل أعماله، ليقف على ما يحدث فى أملاكه. لم تدم المقابلة أكثر من بضع دقائق - ولكنها كانت كافية لتجعل مستر ستويت يجرى مسرعاً فى غضب نحو سيارته.

أغلق الباب بعنف وقال أمراً سائقه بلهجة خشنة:

- اذهب إلى مستر برويتر.

ظل يسأل نفسه ماذا يظن بيل برويتر أنه فاعل؟ لماذا يدس أنفه فى شئون الآخرين؟ وكل هذا بسبب الأغبياء القذرين الذين جاءوا ليجمعوا البرتقال! كل هذا من أجل الصعاليك، هؤلاء الأقدار ذوو الرائحة العطلة! كان مستر ستويت يشعر بكرهية خاصة تجاه مجموعات عمال التراهيل المهلهلين، الذين يعتمد عليهم فى جمع محصوله - كراهية تفوق كراهية الرجل الغنى العادى للقراء. ليس أنه لم يختبر هذا الشعور المختلط بالخوف والقرع، والعطف المكتوم والخجل الذى تحول

من خلال الكبت إلى غيظ مزمن. بل كان يشعر بكل هذا، بالإضافة إلى الكراهية العادية والطبيعية بين أمثاله للفقراء، كانت تحركه كراهيات خاصة أخرى. كان مستر ستويت رجلاً غنياً بعد فقر. في السنوات الست ما بين هروبه من أبيه وجدته في ناشفيل، وحتى الوقت الذي تبناه فيه العم توم الذي تكرهه كل العائلة في كاليفورنيا، تعلم جوستويت كما تصور، كل ما يمكن تعلمه عن الفقر. لقد تركت تلك السنوات لديه كراهية لا تمحي تجاه الفقر، وفي ذات الوقت كراهية لكل الأغنياء أو الضعفاء أو غير المحظوظين الذين لم يتمكنوا من الصعود خارج هذا الجحيم الذي سقطوا فيه أو ولدوا به. كان الفقراء منفريين له، ليس فقط لأنهم تهديد محتمل لمكانته في المجتمع، وليس فقط لأنهم يذكرونه بمعاناته في الماضي، بل لأنهم كانوا لا يزالون فقراء وهذا إثبات كافٍ لاستحقاقهم الازدراء، بل وإثبات أيضاً لتفوقه هو. وبم أنه عانى مما يعانونه اليوم، فإن الصواب أن يظلوا يعانون مما عانى منه هو. وأيضاً بما أن فقرهم المستمر يثبت أنهم يستحقون الازدراء، فاللائق أنه وقد أصبح، غنياً الآن، أن يعاملهم بكل وسائل الازدراء التي أثبتوا أنهم يستحقونها. هكذا كان منطق مشاعر مستر ستويت، وها هو بيل برويتر يسير عكس منطق حين قال لو كي له إنهم لابد ألا ينتهزوا فرصة وفرة قوة عمل العابرين ليخففوا المرتبات، بل على العكس من ذلك، ينبغي رفعها - رفعها إذا سمحت، في الوقت الذي يعج فيه هؤلاء الأغنياء في الولاية مثل وباء من الصراخ المورمونية^(١). وهذا ليس كل شيء، بل ينبغي أن يبنوا لهم أماكن للإيواء - أكواخاً، مثل التي بناها هذا الأبله العجوز المجنون بيل لنفسه، مكونة من غرفتين، تكلف كل منها ستمائة أو سبعمائة

١- المورمونيون: طائفة مسيحية.

دولار - من أجل أغبياء مثل هؤلاء، ونسائهم، وهؤلاء الأطفال المقرفين القذرين لدرجة أنه لن يدخلهم مستشفى، إلا إذا كانوا سيموتون فعلا من المصراة أو شيء من هذا القبيل - فى هذه الحالة لن تستطيع رفضهم بالطبع. وإلى أن يحدث هذا، فماذا يظن بيل برويتر أنه يفعل بحق الجحيم؟ ثم إن هذه ليست المرة الأولى أيضا التى يحاول أن يتدخل فيها. متهاديا وسط حقول البرتقال فى الغسق، ظل مستر برويتر يخطب كفه الأيسر بقبضته اليمنى.

همس لنفسه:

- سوف أعطيها له هذه المرة. سوف أعطيها له.

منذ خمسين عاما كان بيل برويتر هو الطفل الوحيد فى المدرسة الذى لم يسخر منه بسبب بدانته، بالرغم من أنه كان أكبر وأقوى الأطفال. وقد تقابلا ثانية عندما كان بيل يقوم بالتدريس فى جامعة بيركلى، وقد بدأ بنجح فى لعبة السمسة، ثم دخل مجال البترول. جزئيا، وكنوع من العرفان بالجميل للطريقة التى عامله بها بيل برويتر عندما كانا طفلين، وجزئيا أيضا حتى يستعرض قوته، ليعيد صياغة ميزان القوة لصالحه، أراد جرستويت أن يفعل شيئا خيرا مع المدرس المساعد الشاب. ولكن بالرغم من مرتبه الضئيل، والاثنان أو ثلاثة آلاف دولار فى السنة الباقسة التى تركها له والده، لم يكن بيل برويتر يريد أن يفعل أحد شيئا له. كان بدا بالفعل معترفا بالجميل، وكان مهذبا بشدة وودودا للغاية، ولكنه فقط لا يريد أن يأتى إلى الدور الأرضي لزيوت كونسول - لم يكن يريد - كما أوضح له - لأن لديه كل احتياجاته، وكان يفضل ألا يحصل على أى شيء آخر. فشلت محاولات جو ستويت لضبط ميزان القوة. بل فشلت فشلا ذريعا، لأنه برفضه العرض، وبالرغم من أن جو ستويت أسماه آنذاك غبيا، إلا أنه أجبره على احترامه أكثر من أى وقت مضى.

ولأن هذا الإعجاب كان خارجا عن إرادته، فقد أفضى في النهاية إلى رفض موازٍ للرجل ذاته. غضب چو ستويت أن بيل أعطاه أسبابا كثيرة ليحبه. كان يفضل لو أنه أحبه بدون سبب، بالرغم من قصوره. ولكن لم يكن لدى بيل قصور كثير، وكانت فضائله كثيرة، بل هي فضائل غير موجودة لدى چو ستويت ذاته، وكونها موجودة في بيل اعتبرها چو ستويت إهانة له. وهكذا فإن كل الأسباب التي جعلت چو يحب بيل برويتير هي ذاتها المبرر لكراهيته. ظل يدعو بيل بالأحمق، ولكنه شعر أيضا أنه يؤنبه. وهذا التأنيب كان لأنه يحب صحبة بيل. بل لقد قرر مستر ستويت أن يبني قصره هنا لأن بيل كان قد استقر على قطعة أرض مكونة من عشرة فدادين، في هذا الجزء من الوادي. كان يريد أن يظل بجوار بيل برويتير بالرغم من أنه عمليا، لا يوجد شيء يمكن أن يفعله أو يقوله بيل لا يسبب له ضيقا اليوم. واليوم، كان ضيقه المزمن قد ازداد مع إضافة كراهيته لعمال التراحيل، وتحول إلى غضب جامح.

أخذ يكرر لنفسه مرة وراء الأخرى:

- سوف أعطيها له هذه المرة.

وقفت السيارة، وقبل أن يفتح له السائق الباب، اندفع مستر ستويت خارجها مسرعا نحو هدفه، لا ينظر يمينا أو يسارا، مهرعا عبر الطريق المؤدى من الشارع العمومي إلى كوخ صديقه القديم.

قال صوت مألوف من تحت ظلال شجرة اليوكالبتوس:

- أهلا چو.

استدار مستر ستويت ونظر في ضوء الغسق، ثم هرع صوب الدكة التي كان يجلس عليها الرجال الثلاثة دون أن ينطق بكلمة. قابله الرجال الثلاثة بكلمات

الترحاب، وعندما اقترب وقف بيت بأدب وعرض عليه مكانه. متجاهلا الحركة، بل ومتجاهلا وجوده أصلا، خاطب بيل برويتر مباشرة وصاح:

- لماذا بحق الجحيم لا تترك رجلى فى حالة؟

نظر إليه مستر برويتر بدهشة معتدلة، فقد كان معتادا لمثل هذه الانفعالات من جوال المسكين، وقد عرف منذ زمن أسبابها الأساسية، وعرف كذلك بالتجربة كيفية التعامل معها.

سأل:

- أى رجل يا چو؟

- بوب هانسن بالطبع. ماذا تعنى بذهابك إليه خلف ظهري؟

قال مستر برويتر:

- عندما جئت إليك قلت لى إنه شأن هانسن. لذلك ذهبت إلى هانسن.

كان هذا حقيقيا بدرجة مثيرة للغضب حتى أن مستر ستويت لم يستطع سوى أن يلجأ إلى الزئير، وأخيرا قال:

- إنك تتدخل فى عمله. ما الفكرة بالضبط؟

قال مستر برويتر:

- بيت يعرض عليك مكانه. أو، إن كنت تفضل، يوجد كرسي حديدي وراءك. يفضل أن تجلس يا چو.

جار مستر ستويت وقال:

- لن أجلس وأريد جوابا منك. ما الفكرة؟

قال مستر برويتر الهادئ البطيء:

- الفكرة؟ إنها فكرة قديمة فى الواقع. أنت تعلم. لم اخترعها.

- ألا تستطيع أن تعطيني إجابة؟
- الفكرة أن الرجال والنساء عموما بشر وابسوا طفليات.
- هؤلاء الأغبياء!
- استدار مستر برويتر نحو بيت وقال:
- يمكنك الجلوس ثانية.
- هؤلاء الأغبياء! إننى أقول لك، لن أتحمل هذا.
- استمر مستر برويتر:
- ثم إننى رجل عملى، وأنت لست كذلك.
- ردد مستر ستويت بدهشة وسخط:
- أنا لست عمليا؟ لست عمليا؟ إذن انظر لهذا المكان الذى أعيش فيه وهذه الزبالة التى تعيش فيها.
- بالضبط. هذا يثبت ما أعنيه. إنك رومانسى بلا أمل يا جر - رومانسى لدرجة أنك تظن أن الناس يمكن أن تعمل بينما ليس لديهم ما يكفيهم ليأكلوا.
- إنك تحاول أن تجعلهم شيوعيين.
- كلمة «شيوعيون» أعادت لمستر ستويت أنفعاله، وفى نفس الوقت بررته له.
- توقف سخطه عن كونه سخطا شخصيا، وأصبح يتحدث بتقوى شديدة:
- لست سوى مشاغب شيوعى.
- لاحظ مستر برويتر بحزن أن صوته ارتجف تماما مثلما ارتجف صوت بيت منذ نصف ساعة عندما قال «الاعتداء الفاشى». تساءل فى نفسه لو لاحظ الشاب هذا، أو، لو كان قد لاحظ، إن كان فهم المعنى.
- كرر مستر ستويت كلماته بحماس المبشرين قائلا:

- لست سوى شيوخى مشاغب.

قال مستر برويتر:

- كنت أعتقد أننا نتحدث عن الطعام.

- أنت تراوغي!

- الطعام والعمل - ألم يكونا هذين؟

قال مستر ستويت:

- لقد تحملت كل هذه السنوات من أجل العشرة بيننا. ولكننى انتهيت منك الآن. نتحدث عن الشيوعية مع هؤلاء الأغبياء! إنك تجعل المكان خطرا بالنسبة للناس المحترمين.

ردد مستر برويتر ورامه:

- محترمون؟

كان يريد أن يضحك، ولكنه راجع نفسه فورا. لو ضحك عليه أمام بيت ومستر بورديج، فربما يفعل هذا الشخص المسكين شيئا غيبيا لا يمكن علاجه.

ظل مستر برويتر يزار:

- سوف أطردك من الوادى. سوف أرى أنك...

سكت فجأة فى منتصف جملة، وتوقف بضع ثوان دون أن ينبس بكلمة، وفمه لا يزال مفتوحا ومتحركا، بينما عيناه مفتوحتان. هذا النقر فى أذنيه، وهذه السخونة المدغدة فى وجهه - ذكرته فجأة بضغط دمه، وبالدكتور أوبيسبو والموت. الموت، وهذا النص الملون الملتهب فى غرفة نومه فى المنزل. «شيء مخيف أن نسقط فى يد الإله الحى» - ليس رب برودنس بالطبع، ولكن هذا الرب الآخر الحقيقى، رب أبيه وجدته.

تنهد مستر ستويت بعمق، وأخرج منديلته ومسح به وجهه وعنقه، ثم دون أن يندس بكلمة أخرى استدار ومشى بعيداً عنهم.

هب مستر برويتز من مكانه وأسرع وراءه، وبالرغم من أن الآخر شد ذراعه بعيداً، فقد أمسك به برويتز وسار بجانبه، ثم قال:

– أريد أن أريك شيئاً. شيئاً سوف يثير اهتمامك فيما أعتقد.

قال مستر ستويت من بين أسنانه:

– لا أريد أن أراه.

لم يلتفت له مستر برويتز، وظل يقوده نحو خلفية بيته. قال:

– إنه ابتكار ميكانيكى كان يعمل عليه رئيس دير السميشسونيان منذ مدة طويلة.

لاستخدام الطاقة الشمسية.

توقف ونادى على الآخرين ليتبعوهم، ثم استدار مرة أخرى إلى مستر ستويت واستمر فى الحديث:

– إنه أصغر من أى شيء صنع من قبل، وأكثر فعالية.

استمر يشرح نظام العاكسات المصنوع على شكل الحوض، ومواسير الزيوت التى تم تسخينها لدرجة حرارة تصل إلى أربعمئة وخمسمئة درجة فهرنهايت، والغلاية لرفع البخار إن كنت تريد أن تشغل موتوراً من الضغط المنخفض، ثم موقد الطبخ وسخان المياه لو كنت تستخدمه فقط لأغراض منزلية.

قال وقد وقفوا أمام الماكينة:

– خسارة أن الشمس قد غربت. كنت أود أن أريك كيف تعمل. لقد أصبح عندى مقدار قوة حصانين، لمدة ثماني ساعات فى اليوم الواحد، وذلك منذ أن جعلت هذا الشيء يعمل خلال الأسبوع الماضى. هذا ليس سيئاً لأننا لا نزال فى

- شهر يناير، سوف نجعلها تعمل أكثر في فترة الصيف.
- كانت نية مستر ستويت أن يظل صامتا - فقط ليرى بيل أنه لا يزال غاضبا، وأنه لن يسامحه. ولكن اهتمامه بالماكينة، ثم فوق كل هذا اهتمامه الذي يغيظه بفلسفات بيل الغبية المجنونة، فاقت قدرته على الاحتمال، فقال:
- ولماذا بحق الجحيم تحتاج إلى قوة حصانية لمدة ثماني ساعات في اليوم؟
- لتشغيل المولد الكهربائي.
- ولكن لماذا تريد مولدا كهربائيا؟ ألا تأتيك الكهرباء من المدينة؟
- طبعاً، ولكنى أحاول أن أرى مدى إمكانية استقلالي عن المدينة.
- لماذا؟
- ضحك مستر برويتر وقال:
- لأننى أؤمن بديمقراطية جيفرسون^(٢).
- قال مستر ستويت بضيق متصاعد:
- وبحق الجحيم ما علاقة ديمقراطية جيفرسون بهذا؟ ألا يمكن أن تؤمن بجيفرسون ومع ذلك تستخدم كهرباء المدينة؟
- قال مستر برويتر:
- هذه بالضبط المسألة، تقريبا لا يمكن.
- ماذا تعنى؟
- أجاب مستر برويتر بلطف:
- ما أقوله بالضبط.
- قال مستر ستويت معلنا بنظرة تحد:

٢- نسبة إلى توماس جيفرسون (١٧٤٣-١٨٢٦) الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية.

- أنا أيضا أؤمن بالديمقراطية.
- أعلم هذا. وأنت تؤمن أيضا أنك لا بد أن تكون الرئيس الذى لا يناقشه أحد فى كل أعماله.
- أتمنى هذا.
- قال لمستر برويتر:
- توجد تسمية أخرى للرئيس الذى لا يناقشه أحد: الديكتاتور.
- ماذا تحاول أن تقول؟
- مجرد حقائق. إنك تؤمن بالديمقراطية، ولكنك رئيس لكل أعمالك التى لا بد أن تديرها بشكل ديكتاتورى. وأتباعك لا بد أن يقبلوا ديكتاتوريتك لأنهم يعتمدون عليك فى معيشتهم. إنهم يعتمدون فى روسيا على مسئولى الحكومة من أجل معيشتهم. ربما تظن أن هذا نحسن؟
- قالها واستدار ينظر إلى بيت، فhez بيت رأسه بالإيجاب وقال:
- إننى أؤمن تماما بالملكية العامة لسبل الإنتاج.
- لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يجاهر بمعتقداته أمام مخدمه. كان سعيدا أنه تجرأ وأصبح دانيالا^(٣).
- كرر مستر برويتر وراءه:
- الملكية العامة لسبل الإنتاج. ولكن مع الأسف بعض الحكومات لديها طريقته فى النظر إلى الأشخاص المنتجين على أنهم أحد هذه السبل. بصراحة، أفضل أن يكون رئيسى چو ستويت عن أن يكون چو ستالين.
- وضع يده على كتف مستر ستويت وأكمل قائلا:

٣- دانيالا: نسبة إلى النبى دانيال وجلباط فى العهد القديم.

- هذا الجوّ - هذا الجو لا يمكن أن يحكم عليك بالإعدام، ولا يمكن أن يرسلك إلى القطب الشمالي، ولا يمكن أن يمنعك من الحصول على وظيفة في خدمة رئيس آخر. أما جو الآخر...

هز رأسه وأكمل قائلاً:

- لا ليس هذا. بل إنني أتوق لأن يكون هذا الجو هو رئيسي.

زمر مستر ستويت وقال:

- سوف أقوم بطردك بسرعة.

قال مستر برويتر:

- أنا لا أريد أي رؤساء. كلما كثر الرؤساء كلما قلّت الديمقراطية. لو لم يستطع الناس أن يصرفوا على أنفسهم، فعليهم أن يظلوا تحت رئيس يفعل هذا بدلا عنهم. إذن كلما قلّ الاعتماد على الذات كلما قلّت الديمقراطية. في أيام جيفرسون اعتمد كثير من الأمريكيين على أنفسهم، وكانوا مستقلين اقتصاديا - مستقلين عن الحكومة ومستقلين عن الأعمال الكبيرة. ولذلك كان الدستور.

قال مستر ستويت:

- لا يزال عندنا الدستور.

وافق مستر برويتر وقال:

- بلا شك، ولكن لو كان علينا أن نصنع دستورا جديدا اليوم، فكيف سيكون؟ دستورا يتوافق مع حقائق نيويورك وشيكاغو وديترويت، مع شركة صلب الولايات المتحدة والمرافق العامة، وجنرال موتورز والسب. آي. أو، والإدارات الحكومية. كيف سيكون بحق السماء؟ إننا نحترم الدستور القديم ولكننا نعيش في ظل دستور

جديد. وإذا كنا نريد أن نعيش بظل القديم فعلىنا إعادة اختراع شيء ما مثل الظروف التي صنع الدستور الأول في ظلها. لهذا السبب أنا مهتم بهذا الاختراع الميكانيكي. ريت على الماكينة واستمر قائلاً:

- لأنه ربما يساعد على منح الاستقلالية لكل من يريدوها، ليس لأنه يوجد الكثيرون الذين يريدونها. إن الدعاية في صالح التواكل قوية جداً. لقد أصبح الناس لا يؤمنون بإمكانية أن تكون سعيداً إلا إذا كنت معتمداً كلية على الحكومة، أو الأعمال المركزية. ولكن بالنسبة للقلائل المهتمين بالديمقراطية، والذين يريدون أن يصبحوا أحراراً فعلاً بالمفهوم الجيفرسوني، ربما يساعدهم هذا الشيء. إذا جعلهم مستقلين عن الوقود والطاقة، فهذا شيء كبير جداً.

نظر إليه مستر ستويت بقلق:

- هل تعتقد حقاً أنها ستفعل هذا؟

قال مستر برويتر:

- ولم لا؟ توجد شمس شديدة في هذا الجزء من البلاد، تذهب هباء.

فكر مستر ستويت في رئاسته لشركة بترول كونسول وقال:

- لن يكون هذا جيداً لبيرزيس البترول.

قال مستر برويتر بمرح:

- ما كنت أحببته لو كان جيداً لبيرزيس البترول.

سأل مستر ستويت:

- وماذا عن الفحم؟ (كانت لديه اهتمامات بمجموعة من المناجم في ولاية

ويست فيرجينيا) والسكك الحديدية؟ (كانت لديه هذه المجموعة الكبيرة من

الأسهم في اليونيون باسيفيك التي كانت تملكها برودنس) لا يمكن أن تعمل السكك

الحديدية بدون الجرات والصلب. (قال هذه الأخيرة بلا اكترات لأن نصيبه فى شركات صلب بيثلهاام يكاد لا يذكر) وماذا سيحدث للصلب إذا أذيت السكك الحديدية وقللت النقل؟ إنك تسير ضد التقدم.

انفجر عند هذه الكلمات فى سخط وتقوى مرة ثانية وقال:

– إنك تدبر الساعة للوراء.

قال مستر برويتر:

– لا تقلق يا جو. لن تؤثر على أسهمك لمدة طويلة قادمة. يوجد وقت كافٍ للتأقلم على الظروف الجديدة.

بمجهود كبير استطاع مستر ستويت أن يسيطر على أعصابه، وقال بكبرياء:

– يبدو أنك تعتقد أننى لا أفكر فى شىء سوى المال. ربما يهكم أن تعرف أننى

قررت أن أعطى الدكتور مالدج ثلاثين ألف دولار أخرى لبناء كلية الفنون.

القرار كان بالطبع قد اتخذ توا، ليكون نوعاً من السلاح فى الحرب الأزلية مع

بيل برويتر. بعد لحظات تفكير أضاف:

– وإذا كنت تظن أننى مهتم فقط باهتماماتى الشخصية، فاقراً قسم مهرجان

العالم فى عدد «النيو يورك تايمز».

ثم أضاف بوجود الأصولى الذى يعطى النصيحة بقراءة سفر الرؤيا:

– سوف ترى أن أكثر الرجال تطوراً فى هذا البلد يفكرون مثلى.

تكلم كمن يمسح بالزيت، بشكل غير معتاد وغير ملائم، فى جمل تشبه بلاغة

ما بعد العشاء، وقال:

– إن طريق التقدم هو طريق التنظيم الأفضل وإعطاء خدمة أكثر، ومواد

استهلاكية أكثر للمستهلكين.

ثم قال بكلام غير مترابط:

- انظر إلى الطريقة التي تذهب بها سيدة البيت إلى البقال لتشتري بعض البقول المعلن عنها محليا، أو شيئا من هذا القبيل. هذا هو التقدم، وليس فكرتك المجنونة عن عمل كل شيء في المنزل بهذه الآلة الغريبة.

عاد مستر ستويت إلى طريقته المعتادة وقال:

- كنت دائما أحمق يا بيل، وأعتقد أنك ستظل كذلك دائما. تذكر ما قلته لك عن التدخل في شئون بوب هانسن. لن أقبل هذا.

في صمت درامى سار بعيدا، ولكن بعد بضع خطوات توقف، والتفت قائلا:

- تعال إلى العشاء إن كنت تريد.

قال مستر برويتر:

- شكرا. سوف آتى.

سار مستر ستويت سريعا نحو سيارته. لقد نسي ضغط دمه العالى والرب الحى، وأحس فجأة ويدون سبب أو منطلق، أنه سعيد. ليس لأنه أحرز أى نجاح ملحوظ فى صراعه مع بيل برويتر، لأنه فى الواقع لم يحرز شيئا. بل أكثر من هذا، لأنه لم يحرز أى نجاح، جعل نفسه أحمق، والأسوأ أنه لاحظ ذلك. لكن مصدر سعادته كان فى شيء آخر. كان سعيدا بالرغم من عدم رغبته للاعتراف بذلك، لأنه بالرغم من كل شيء، كان بيل فيما يبدو يحبه.

فى السيارة، متجها إلى القصر، أخذ بصفر.

دخل مستر ستويت عبر القاعة الكبيرة، مرتديا قبعته كالعادة، لأنه حتى بعد كل هذه السنوات كان لا يزال يستمد سعادة طفولية من الفارق بين القصر الذى يعيش فيه والسلوك البروليتارى الذى يتصنعه. دخل المصعد، ومن هناك أنتجه

مباشرة إلى مخدع فيرجينيا.

عندما فتح الباب كان الاثنان جالسين وبينهما على الأقل خمسة عشر قدماً، إذ كانت فيرجينيا جالسة إلى الطاولة تأكل الآيس كريم بالموز والشيكولاتة وكأنها غارقة في تفكير عميق، بينما كان الدكتور أوبيسبو جالسا بأناقة فوق واحد من الكراسي الكبيرة وردية اللون المصنوعة من الساتان، وكان يشعل سيجارة. كان تأثير الشك والغيرة هو الصفة الموجهة مباشرة إلى شبكة الأوعية الدموية كلها للمستمر ستويت، إذ كانت الصدمة بدنية ومركزة في الحجاب الحاجز. انقبض وجهه ألماً، ومع ذلك لم يكن قد رأى شيئاً، ولم يكن هناك داع واضح لغيرته، ولا يوجد سبب جلي في طريقتهم، أو تصرفاتهم، أو تعبيراتهم، يدعو إلى الشك. كان سلوك الدكتور أوبيسبو سلساً وطبيعياً تماماً، وابتسامة البيبي مرحبة بدهشة وسعادة ملائكية في صراحتها.

صاحت راكضة نحوه وواضحة ذراعيها حول عنقه:

- العم جوا! العم جوا!

كان لدفع صوتها ونعومة شفيتها تأثير مضاعف على مستر ستويت. لقد أثرت فيه لدرجة أنه قال كلمة «بيبي» بمعناها المزدوج وإصرار وتباطؤ. إن مجرد التفكير في أنه شك، ولو للحظات، في هذه الطفلة النقية الرائعة الدافئة المرنة المعطرة، ملأه بالخل. ثم قام الدكتور أوبيسبو وأمطر رأسه بالفحم الملتهب، إذ قال وهو يلهض من كرسيه:

- لقد شعرت ببعض القلق عليك بسبب الطريقة التي كنت تسعل بها بعد الغداء، لذلك جئت إلى هنا لكي أتأكد من الوصول إليك فور عودتك.

وضع يده في جيبه، وأخرجها، ثم بسرعة أعاد طرف المجلد الصغير الجلدى

الذى يشبه كتاب الصلاة، وعاد فأخرج سماعته بدلا منه، ثم قال:
- الوقاية خير من العلاج. لن أجعلك تصاب بالإنفلونزا إذا كنت أستطيع منع ذلك.

تذكر مستر ستويت الأسبوع النشط فى بانثيون بيغزلى بسبب الوباء، فقال
بغزع:

- لا أشعر بشيء، وأعتقد أن هذا السعال لم يكن شيئا. إنه فقط - أنت تعلم -
النزلة الشعبية المزمنة القديمة.

- ربما هى كذلك، ولكن على أية حال أود أن أستمع لها.
بسرعة وحرفية، وضع الدكتور أوبيسبو طرفى السماعه حول رقبتة. قالت
البيبي:

- معه حق يا عم جو.

متأثرا بكل هذا الاهتمام الشديد، وفى نفس الوقت مضطربا من فكرة احتمال
إصابته بالإنفلونزا، خلع مستر ستويت معطفه والصدري، ثم بدأ يفك رباط عنقه،
وبعد لحظات كان واقفا عاريا حتى وسطه، تحت الثريا الكريستالية. عادت فيرجينيا
إلى شرايها. فى حياء. أدخل الدكتور أوبيسبو أطراف سماعته الملتوية فى أذنيه،
وقال وهو يدفع الفوهة فى صدر مستر ستويت:

- خذ نفسا عميقا. مرة ثانية.

ثم قال بلهجة أمرة:

- والآن اسعل.

نظر عبر الدلو المشعر البدين، إلى الحائط المقابل، حيث يستعد سكان جنة واتو
الحزانى للسفر بالمركب إلى جنة أخرى، هى فى أغلب الظن أكثر بؤسا.

قال الدكتور أوبيسبو بلهجة أمرة ، وقد عاد من «الصعود إلى سيثيرا» إلى الرؤية الأقرب لقص مستر ستويت الصدرى ولحنجرته:

- قل: تسع وتسعون.

قال مستر ستويت :

- تسع وتسعون، تسع وتسعون. تسع وتسعون.

بدقة وحرفية، حرك الدكتور أوبيسبو فوهة السماعة من نقطة إلى أخرى فوق دلو اللحم الموجود أمامه. لا شيء بالطبع أصاب الصقر العجوز. فقط الحشرة والأريز المعتادان. ربما يبدو أكثر واقعية لو أخذ هذا المخلوق إلى مكتبه ووضعه أمام الجهاز الفلورسنتى. ولكن لا، لا يريد أن يزجج نفسه. ثم أن هذه التمثيلية الهزلية كافية بلا شك.

قال:

- اسعل ثانية.

وضع آله وسط الشعر الأبيض حول حلمة مستر ستويت اليسرى. ثم بينما يجبر مستر ستويت نفسه على السعال المتتالى المصطنع، لاحظ ، من بين أشياء أخرى، أن أجولة الأمعاء القديمة كانت ذات رائحة غير سارة بالمرّة. كيف يمكن لأى فتاة شابة أن تتحملها، حتى من أجل المال، فهذا شيء يصعب عليه فهمه. ولكن الواقع يقول إنه يوجد آلاف منهن اللاتى لم يتحملنها فقط، بل أيضا يستمتعن بها. أو ربما كلمة يستمتعن غير صائبة، لأن فى معظم الحالات مسألة الاستمتاع لم تكن مطروحة بالمعنى الفيسيولوجى الحقيقى للكلمة. كان كله يحدث فى العقل، وليس فى الجسد. كن يحببن أجولة الأمعاء العجوز بعقولهن، ويحببنها لأنهن معجبات بها، ومتأثرات بمكانة أجولة الأمعاء فى الحياة، أو بمعرفتهن، أو بشهرتهن. إنهن لا

يضاجعن الرجل، بل سمعته التى هى تجسيد لعمل ما. ثم بالطبع كانت الفتيات يشبهن فتيات إعلانات يوم الأم، بعضهن يشبهن فلورنس نايتنجيل^(٤) فى شبابها، يبحثن عن الحرب الكريميانية. فى هذه الحالات كانت أمراض أجولة الأعماء بمثابة جاذبية إضافية، إذ أعطتهن رضاء ليس فقط بمضاجعة سمعة أو حكمة كبيرة، وليس فقط قاضيا فيدراليا مثلا، أو رئاسة الغرفة التجارية، ولكن أيضا، وفى نفس الوقت، جنديا مصابا، أو طفلا أبله أو رضيعا صغيرا ذا رائحة نفاذة، لا يزال يتبول فى سريره. حتى هذه اللطيفة (نظر الدكتور أوبيسيو نظرة خاطفة نحو الطاولة) حتى هذه بها شيء يشبه فلورنس نايتنجيل، أو الأم ذات اللجمة الذهبية. (وهذا بالرغم من أنها بعقلها الواعى، تشعر بنوع من الكراهية البدنية من الأمومة الحقيقية). كان جو ستويت جزئيا طفلها، وجزئيا جنديها. وفى ذات الوقت كان بالطبع أيضا إبراهيم لينكولن الشخصى لها. وبالمصادفة أيضا كان هو ذاته الرجل الذى يمتلك دفترا للشيكات، وهذا شيء يؤخذ فى الاعتبار بالطبع. ولكن لو كان الوضع كذلك ما بدت فيرجينيا هكذا سعيدة بأى حال من الأحوال، وهى تبدو كذلك حقيقة. كان دفتر الشيكات أكثر جاذبية لأنه بين يدي شبه إله، ينبغى أن تكون له مربية لتغير له حقاضته.

— استدر من فضلك.

أطاع مستر ستويت. لم يكن ظهره منفرا مثل وجهه. ربما لأنه ليس شخصا قال:

— خذ نفسا عميقا.

كان ينوى أن يلعب التمثيلية الهزلية مرة أخرى ومن البداية على هذا المسرح

٤- فلورانس نايتنجيل: (١٨٢٠-١٩١٠) ممرضة تعتبر أول من أسس مهنة التمريض ومؤسسة المستشفيات الحربية.

الجديد.

- ونفسا آخر.

تنفس مسنر ستريت بعمق مثل الحوت. قال الدكتور أوبيسبو:

- ونفسا آخر، وآخر.

بينما الرجل يتنفس كان الدكتور أوبيسبو يفكر أن الميزة الرئيسية التي تميزه هي اختلافه المنعش عن هذا الكيس القديم العجوز ذي الرائحة النفاذة. سوف تأخذه، بل أكثر من ذلك، سوف تأخذه بشروطه. لا تمثيلات مثل روميو وجولييت، لا هراء عن الحب بالأحرف الكبيرة، ولا شيء مثل هذه الأغنية الشعبية عن السماء الزرقاء، والأحلام التي تتحقق، والجنة التي بين يديك. مجرد شهوانية لذاتها، أى الشيء الحقيقي الملموس، وليس أقل من هذا بالتأكيد. ولكن (لأن الداعرات بالطبع يحاولن دائما أن يرفعهن المرء فوق ركيزة تمثال، أو أن يجعلك رفيق روحهن) ولكن أيضا لا أكثر من هذا. لا أكثر، بداية، لأن ذلك يشكل احتراما للحقيقة العلمية، إذ كان يؤمن بالحقيقة العلمية. الحقائق هي الحقائق، ولا بد أن يقبلها على ما هي عليه. كانت حقيقة مثلا أنه سهل إغراء الفتيات الصغيرات اللواتي يدفع لهن الرجال المسنون الأغنياء، بدون أية صعوبات. وكان أيضا حقيقيا أن الرجال المسنين الأغنياء، مهما كان نجاحهم فى البيزنس فهم خائفون بشكل عام، وجهلة وأغبياء، لدرجة أن أى شخص ذكى يستطيع أن يخدعهم إن أراد.

قال بصوت عال:

- قل: تسع وتسعون مرة ثانية.

- تسع وتسعون. تسع وتسعون.

أيضا احتمالات عدم اكتشافهم شيئا كان تسعا وتسعين بالمائة. وهذه هي حقيقة

الرجال المسنين. أما حقيقة الحب فإنه مكون بالأساس من الانتفاخ ثم عدم الانتفاخ. لماذا إذن نزين الواقع بالخيال دون داع؟ لماذا لا نصبح واقعيين؟ لماذا لا نتعامل مع الموضوع كله بشكل علمي؟

استمر مستر ستويت:

- تسع وتسعون. تسع وتسعون.

واستمر الدكتور أوبيسبو في تأملاته، مستمعا بلا اكتراث إلى الهمسات والهناات الصادرة من داخل الدلو الدافئ ذي الرائحة النفاذة. ثم أن هناك أسباباً شخصية أكثر تجعله يفضل أن يأخذ الحب بدون تنميق، ويأخذه في حالته الكيميائية النقية. أسباب شخصية بالطبع تشكل أيضاً حقيقة لا بد من قبولها، حيث كان من الحقيقي أن يجد متعة شخصية إضافية في فرض إرادته على الشريكة التي يختارها. لكي تكتمل متعته، لا بد أن يكون فرض الإرادة هذه مسألة صعبة، وهذا شيء واضح وأكيد، ولهذا فهو يستبعد المحترقات. كان على الشريكة أن تكون هاوية، ومثل كل الهواة مكرسة لنظرية أن الانتفاخ وعدم الانتفاخ لا بد أن يكونا مرتبطين بالحب والعاطفة القوية، ورفاقة الروح - كلها بأحرف كبيرة. أما عندما يفرض إرادته، فكان يفرض مذهباً متناقضاً، وهو الانتفاخ وعدم الانتفاخ من أجل الانتفاخ وعدم الانتفاخ. كل ما يطلبه هو أن تعطى الشريكة لهذه النظرية حق التجربة العلمية - مهما كانت رافضة مهما كانت تجريبية، فقط مرة واحدة. لأنه في الواقع لا يهتم. مجرد تجربة واحدة. بعد ذلك تتوقف المسألة عليها. لولم يستطع أن يحولها بشكل دائم ومتحمس، كما يرى هو، فذلك إذن خطأ فيه هو.

قال مستر ستويت بصبر يضرب به الأمثال:

- تسع وتسعون. تسع وتسعون.

قال الدكتور أوبيسيو بأدب:

- يمكنك أن تتوقف الآن.

مجرد تجربة واحدة، ويمكن بعدها أن بضمن لنفسه فعليا النجاح. إنه فرع من الفيسيولوجيا التطبيقية، وقد كان خبيراً ومتخصصاً فيه. كان مثل كلود برنارد^(٥) في الموضوع. ولنتكلم عن فرض الإرادة: إنها تبدأ بإجبار الفتاة على قبول نظرية المخالفة بوضوح لكل الأفكار التي تربت عليها، خاصة القصة المشوشة الطويلة في الأيديولوجيا الشعبية عن الأحلام التي تتحقق. وهذا في حد ذاته يعد نجاحاً هائلاً بلا شك. ولكن فقط عندما تنزل إلى الفيسيولوجيا التطبيقية، تبدأ سلسلة الانتصارات المرضية حقاً. تأخذ إنسانة عاقلة في العادة بنسبة مائة بالمائة، وأمريكية ذات خلفية ومكانة في المجتمع، ومجموعة من التقاليد، وميثاقاً قيمياً، وديناً (كاثوليكياً في هذه الحالة كما تذكر الدكتور أوبيسيو) تأخذ هذه المواطنة الصالحة، التي بضمن لها الدستور حقوقها كاملة وبشكل رسمي، تأخذها - وربما تكون عائدة لتوها إلى المكان المحدد لها في سيارة زوجها الباكار، أو عائدة توا من حفل تكريم الدكتور موارى باتلر^(٦) مثلاً، أو مطران ولاية إنديانا بوليس الذي على وشك التقاعد - فأقول تأخذها وتبدأ بشكل منهجي وعلمي في تجريد هذه الشخصية الفريدة إلى مجرد جسد متشنج، يأواه ويتمتع تحت تأثير المتعة المعذبة التي وضعتها أنت فيها، مثل كلود برنارد الموضوع، وأنت مسئول عنه، وتظل من خلاله أنت المستمتع دائماً، والمنفصل دائماً، أى المتفرج المستمتع الساخر.

- بضعة أنفاس أخرى إن كنت لا تمنع.

تنفس مسطر ستويت بأريز، ثم أفرغ رئتيه بتهيدة مثل نخير الحصان.

٥- كلود برنارد: (١٨١٣-١٨٧٨) عالم فسيولوجي، وقد كان رئيساً للأكاديمية الملكية العلمية.

٦- نيكولاس موارى باتلر: (١٨٦٢-١٩٤٧) تربيوي أمريكي تخرج من جامعة كولومبيا ونال جائزة نوبل بالمشاركة عام ١٩٣١، له العديد من المؤلفات التربوية والتعليمية.

الفصل الحادى عشر

ساد الصمت بعد ذهاب مستر ستويت. صمت طويل، بينما كل واحد منهم يفكر بأفكاره الخاصة. كان بيت أول من تحدث فقال بوجود:

- مثل هذه الأشياء تجعلى أتساءل لو كان المفروض أن استمر فى أخذ نقوده. ماذا كنت ستفعل يا مستر برويتز لو كنت مكانى؟
قال مستر برويتز بعد لحظة تفكير:

- ماذا أفعل؟ استمر فى العمل فى معمل چو، ولكن مادمت متأكداً أننى لن أتسبب فى الأذى أكثر من الخير. لابد أن نكون نفعيين فى هذه الأشياء. نفعيين مع الفارق، بنثام^(١) مخلوط بإيكهارت مثلاً، أو ناجاريونا^(٢).

قال چيريمى وهو يفكر فى فطاعة ما يرتكبهه نحو من سُمى باسمه:
- مسكين بنثام.

أبتسم مستر برويتز وقال:

- مسكين بنثام فعلاً! كان رجلاً صالحاً ولطيفاً وغريباً وذكياً! مقترباً جداً من الصواب، ولكن مخطئاً بفطاعة. كان يخدع نفسه بفكرة أن أكثر سعادة بالفعل ممكنة لأكثر عدد من الناس، ويمكن الوصول إليها على المستوى البشرى المحض - مستوى الوقت والشر، مستوى غياب الله. مسكين بنثام. كان يمكن أن يكون رجلاً عظيماً لو أنه استوعب فقط أننا لا يمكن أن نصل للصالح حيث هو.

قال بيت:

- بالإشارة لهذا النوع من النفعية التى نتحدث عنها الآن، كيف سيكون شعوره

١- بنثام: نسبة إلى چيريمى بنثام (١٧٤٨-١٨٣٢) الفيلسوف الإنجليزى الذى أسس الفلسفة النفعية.
٢- ناجاريونا: فيلسوف هندى من القرن الأول والثانى الميلادى، وقد أسس مدرسة البوذية المسماة بالطريق الوسطى.

تجاه العمل الذى أقوم به الآن؟

أجاب مستر بروينر:

- لا أعرف. لم أفكر فى الموضوع كثيراً لكى أخمن ما يمكن أن يقوله. ثم على أية حال لم نحصل بعد على المادة الاستقرائية التى تمكننى من بناء رأى مناسب. كل ما أعرفه أنتى لو كنت مكانك لأصبحت حذراً، وحذراً حتى النهاية.

قال بيت:

- وماذا عن النقود؟ لأننى أرى من أين تأتى ولمن هى، هل تظن ينبغى أن

أخذها؟

أجاب مستر بروينر:

- كل النقود قذرة، ولا أرى سبباً يجعل نقود چو المسكين أكثر قذارة من غيرها. ربما تعتقد أنها كذلك، ولكن هذا فقط لأنك، ولأول مرة، ترى المال من منبعه - منبعه الشخصى والبشرى. إنك مثل أطفال المدينة الذين اعتادوا أن يروا اللبن فى زجاجات معقمة تأتيهم فى سيارات بيضاء حتى المنازل، لكن حين يذهبون للقريه ويرون اللبن بسخ من حيوان ذى رائحة نفاذة وكبير وسمين، يصابون بصدمة ويشعرون بالاشمزاز. إنه نفس الشيء بالنسبة للمال. لقد اعتدت الحصول عليه من خلف طلاء برونزى فى بنك رخامى كبير. والآن ها قد أتيت إلى القريه وأصبحت تعيش فى بيت البقرة مع الحيوان الذى يخرج الشيء شخصياً. والطريقة لا يراها شهية، أو نظيفة. ولكن ذات الأسلوب كان مستمراً، حتى عندما كنت جاهلاً به. وإذا لم تكن تعمل لدى چو ستويت، فأغلب الظن أنك كنت ستعمل لدى جامعة أو كليه. ولكن من أين تحصل الكليات والجامعات على نقودها؟ من الأثرياء. بمعنى آخر، من أمثال چو ستويت. مرة أخرى إنها القذارة المعبأة فى

آنية معقمة - وهذه المرة، من جننلمان يرتدى كاباً وعباءة.

قال بيت:

- إذن تعتقد أنه لا ضير في استمرارى هكذا؟

قال مستر برويتزر:

- لا ضير بمعنى أنها ليست أسوأ من غيرها.

ابتسم فجأة وقال بصوت مختلف وأخف:

- لقد سعدت عندما سمعت أن الدكتور مالدج حصل على مدرسة الفنون التي كان يريدوها، بل وفورا بعد القاعة أيضا. إنه مال وفير. ولكنى أعتقد أن هيبة أن تكون راعيا للعلم تستحق هذا. وبالطبع هناك ضغوط إجتماعية كبيرة على الأغنياء ليصبحوا رعاة للعلم. يضغط عليهم الخجل وتجذبهم الرغبة الملحة ليؤمنوا أنهم بالفعل رعاة للإنسانية. ومع الدكتور مالدج يمكن للرجل الغنى أن يحصل على مجده آمنا ويسعادة بالغة. لن يغير أى عدد من مدارس الفنون بطازانا من وضعه الحالى. أما لو طلبت من جو خمسين ألف دولار لتمويل أبحاث حول تقنيات الديمقراطية، سيرفض رفضا قاطعا. لماذا؟ لأنه يعرف أن مثل هذه الأشياء خطيرة. إنه يحب الحديث عن الديمقراطية. (بالمناسبة فإن الدكتور مالدج رائع حقا فى هذا الموضوع)، ولكنه لا يوافق على الماديين الخليطين الذين يحاولون أن يكتشفوا كيف يطبقون هذه المثل. أنت رأيت كيف غضب بسبب آلتى الشمسية الصغيرة المسكينة، لأنه بشكل ما مصغر، تعتبر إنذارا بالخطر للبيزنيس الكبير الذى يدر عليه المال. ونفس الشيء مع الابتكارات الصغيرة التى أحدثته عنها بين الحين والآخر. تعالا للتظا إن لم تكونا قد مللتما.

أخذهم ادخل المنزل. ها هى الطاحونة الكهربائية الصغيرة، بالكاد أكبر من

ماكينة القهوة ، والتي يطحن فيها الدقيق حسب احتياجه . وها هو النول الذى تعلم عليه وأصبح الآن يعلم الآخرين كيف ينسجون عليه .

بعد ذلك اصطحبهما خارجاً إلى الحظيرة ، والتي كانت معدة لعمل كل أشكال النجارة ، وبعض الأعمال المعدنية الخفيفة ، وذلك فقط ببضع مئات من الدولارات تكلفة هذه المعدات الكهربائية . بعد الحظيرة قادهم إلى بعض الصوبات غير مكتملة النمو ، وذلك لأن أماكن الخضراوات لم تكن كافية لمتطلبات العابرين .

أشار من خلال الظلال إلى صفوف الأكواخ المصماء ، وأوضح أنهم هناك . استطاع أن يفعل هذا إلى البعض منهم فقط ، أما الباقون فكانوا مضطرين للعيش فى أكوام الزبالة مكان النهر الجاف - يدفعون إيجارا للجو ستويت لهذا الامتياز . بالطبع ليست أفضل الأشياء ، ولكن مثل هذا البؤس لا يترك لنا الاختيار . لم يكن علينا غير الاعتناء بهم . لقد أتى البعض منهم فاقدين أرواحهم المعنوية تماما ، ومن وسط هؤلاء البعض يمكنه أن يرى ما ينبغى عمله وما يعنيه كل هذا . اثنان أو ثلاثة كانوا يعملون معه هنا ، وقد تمكن من إيجاد المال لإقامة اثنين أو ثلاث آخرين فوق أرض بجانب سانتا سوزانا . مجرد بداية ، إلا أنها غير مرضية ، لأنك بالطبع لا يمكن أن تبدأ بالتجربة الفعلية الصحيحة إلا إذا كان لديك مجتمع كامل يعمل تحت ظروف جديدة . ولكن إيقاف مجتمع ما على قدميه ، يتطلب مالا كثيرا . والأغنياء لن يقرروا هذا العمل ، لأنهم يفضلون مدارس الفنون فى طارزانا . أما المهتمون فليس لديهم نقود ، بل وربما يكون هذا أحد أسباب اهتمامهم . وفى ظل النسب التجارية الحالية ، فإن السلفة شىء خطير ، لأنه باستثناء ظروف نادرة وجيدة ، فإنك فى أغلب الظن سوف تبغ نفسك فى حالة من العبودية للتسديد لبنك ما .

قال مستر بروبتر وهم فى طريقهم للعودة إلى المنزل:

- ليس أمرا سهلا، ولكن الشئ الرائع حقا، سواء كان سهلا أم لا، أن هناك عملا ينتظرنا لنقوم به، لأنه يا بيت بعد كل شئ، يوجد بالفعل ما يمكن عمله.
دخل مستر بروبتر لحظات إلى بيته ليطفىء النور، ثم خرج ثانية إليهما. سار الثلاثة معا فى الممر حتى الطريق الخارجى. وقف القصر أمامهم أسود كبيرا، يتخلله بعض الضوء.

قال مستر بروبتر:

- يوجد شئ يمكن أن تفعله، ولكن بشرط أن تعرف طبيعة العالم. لو عرفت أن المستوى البشرى هو مستوى الشر، لن تصنع وقتك فى محاولة لعمل الخير على هذا المستوى. الخير يظهر فقط على المستوى الحيوانى وعلى المستوى الأبدى. عندما تعرف ذلك، سوف تدرك أن أفضل ما يمكن أن تفعله على المستوى البشرى هو فى مقام الوقاية فقط. سوف ترى أن الأنشطة البشرية البحتة لا تتدخل كثيرا فى تجلى الخير على المستويات الأخرى. هذا هو كل شئ. ولكن السياسيين لا يعرفون طبيعة هذه الحقيقة. لو عرفوا، ما أصبحوا سياسيين. رجعيين أو ثوريين، كلهم إنسانيون ورومانسيون، يعيشون فى عالم الوهم، عالم كله إبراز لذواتهم البشرية. يتصرفون بطريقة قد تكون مناسبة لو أن العالم الذى يظنون أنهم يعيشون فيه كان بالفعل موجودا. ولكن مع الأسف، لا وجود له سوى فى خيالهم، لذلك فلا شئ مما يفعلونه مناسب للواقع المعيش. كل تصرفاتهم تصرفات مجانيين، وكلها، كما يبين التاريخ، تنبىء بالكارثة. هذا بالنسبة للرومانسيين. إنهم يعرفون أن الأنشطة البشرية بشكل مطلق نحو الحياة، دائما قاتلة، وأنها لابد أن توظف للخير الحيوانى والروحى. أى إنهم يعرفون أن شغل الإنسان الشاغل لابد أن ينحصر فى جعل العالم

آمنا للحيوانات والأرواح. أو...

التفت تجاه جيريمي وأكمل قائلا:

- ... أوريما كرجل إنجليزي، تفضل مقولة لويد جورج^(٣) على ويلسون^(٤):
بيت يليق بأن يعيش فيه الأبطال - ألم يقل هذا؟ بيت مناسب للحيوانات والأرواح،
للفيسيولوجيا، والوعى غير المبالي. أخشى أن أقول، هذا كلام غير مناسب على
الإطلاق الآن. إن العالم الذى أقمناه لأنفسنا هو عالم من الأجسام المريضة والذوات
المجنونة أو الإجرامية. كيف نجعل هذا العالم آمنا لأنفسنا كحيوانات وأرواح؟ لو
تمكنا من الإجابة على هذا السؤال نكون قد اكتشفنا ما يمكن عمله.

توقف مستر برويتر عند مكان يشبه الضريح، وفتح بابا صغيرا من الصلب
بمفتاح يحمله فى جيبه. رفع سماعة التليفون المعلقة بداخله وأعلن عن وجودهم
لبواب غير مرئى فى مكان ما على الناحية الأخرى من الخندق.

استمروا فى السير. قال مستر برويتر:

- ما هى الأشياء التى تجعل العالم غير آمن للحيوانات والأرواح؟ إنها - لاشك -
الجشع، الخوف، الرغبة فى السلطة، الكراهية، الغضب...
فى تلك اللحظة ظهر ضوء مفاجئ لطمهم على وجوههم، ثم اختفى فجأة.
صاح جيريمي:

- ما هذا بحق السماء...

أجاب بيت:

- لا تقلق. إنهم يريدون فقط التأكد من شخصياتنا، وإننا لسنا عصابة. إنها

٣- لويد جورج: (١٨٦٣-١٩٤٥) سياسى إنجليزى وكان رئيسا لوزراء بريطانيا من ١٩٢٢-١٩١٦).
٤- ويلسون: إشارة إلى روبرت ويلسون (١٨٥٦-١٩٢٤) الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية.

أضواء الكشافات.

قال مستر برويتز ممسكا بذراع جيري:

- إنه مجرد صديقنا العجوز جو يعبر عن شخصيته. أى بمعنى آخر، يعلن للعالم أنه خائف لأنه كان جشعا ومسيطرا. وهو كذلك للعديد من الأسباب، منها أن النظام الحالي يضع أولوية لمثل هذه الخصال. إن مشكلته هي إيجاد نظام يتيح فرصة، ولو بسيطة، للبؤساء مثل جو ستويت ليحققوا ذواتهم.

انخفض الجسر عندما اقتربوا من الخندق، ودقت الأخشاب تحت أرجلهم مدوية بصوت الفراغ أسفلهم.

قال مستر برويتز:

- قد تعجبك الاشتراكية يا بيت، ولكن الاشتراكية مهمة بشكل قاتل بالمركزية والإنتاجية المدنية الجماعية. ثم إننى أرى فرصاً كثيرة للاستبداد - فرصاً للجبروت ليشيعوا جبروتهم، ولكسالى ليجلسوا ويصبحوا عبدا. انفتح الحاجز الحديدى وانفتحت البوابات لاستقبالهم.

- إذا كنت تريد أن تجعل العالم آمنا للحيوانات والأرواح، لابد أن توجد نظاما يقلل من حجم الخوف والجشع والكراهية والسيطرة، إلى أقل معدل لها. وهذا يعنى أنك ينبغي أن توجد آمنا اقتصاديا كافيا، يخلصك بعض الشيء من هذا القلق. لابد أن توجد مسؤولية ذاتية لمنع الناس من السباحة فى الحضيض، وممتلكات تكفى لتحميهم من جبروت الأغنياء. ونفس الشيء بالنسبة للحقوق السياسية والسيطرة - الكثير من الأولى لحماية الكثيرين، والقليل من الثانية لسيطرة القلة.

قال بيت متشككا:

- يبدو أنك تعنى الفلاحين.

- نعم الفلاحون، بالإضافة إلى الماكينات الصغيرة، والطاقة. وهذا يعنى أنهم لن يصبحوا فلاحين إلا فى كونهم يعتمدون على أنفسهم.

- ومن يصنع الماكينات؟ الفلاحون؟

- لا. نفس الأشخاص الذين يصنعونها اليوم. لابد أن تظل الأشياء التى لا يمكن صناعتها بشكل مريض سوى بالإنتاج بالجملة، كما هى. إنها تشكل حوالى ثلث الإنتاج - هذا هو العدد. أما الثلثان الآخران فيتم صناعتهم بشكل اقتصادى فى المنزل أو فى ورش صغيرة. المشكلة الآتية والعملية هى إيجاد تقنيات لهذه الإنتاجية صغيرة الحجم. كل الأبحاث الآن متجهة إلى اكتشاف مجالات جديدة للإنتاج بالجملة.

فى الكهف، وقفت خمس وعشرون شمعة كهربائية تحترق فى عبادة دائمة أمام السيدة العذراء. إلى أعلى، فى ملعب التنس، وقف الخادم الثانى، وخادمتان، وكبير الكهربائيين يلعبون بالأضواء الكثيرة.

- وهل تظن أن الناس ستريد أن تترك المدن لتعيش بالطريقة التى تقترحها، فى مزارع صغيرة؟

قال برويتر وعلامات الرضا تبدو على وجهه:

- آه، أخيرا نتحدث يا بيتا بصراحة إذن لا أتوقع أن يتركوا المدينة، كما لا أتوقع أن يكفوا عن الحروب والثورات. كل ما أتوقعه هو أننى إذا قمت بعملى وكان مرضيا، سوف أجد من يريد أن يتعاون معى. هذا كل شىء.

- ولكن لو استحصل على القلة فقط. فما الهدف إذن؟ لماذا لا تحاول أن تفعل شيئا بالمدن والمصانع، خاصة وأنت ترى أن معظم الناس ستبقى هناك؟ أليس هذا

عمليا أكثر؟

قال مستر بروينتر:

- هذا يتوقف على تعريفنا للكلمة. مثلاً أنت تعتقد أنه عمليا أن تساعد الكثير من الناس ليتبعوا سياسة معروف أنها فائلة في النهاية، بينما تجد أنه ليس عمليا أن تساعد القلة القليلة منهم ليتبعوا سياسة توجد أسباب كثيرة لاعتبارها صالحة. أنا لا أوافقك.

- ولكن الكثيرين موجودون. لابد أن نفعل شيئا حيالهم.

أبدى مستر بروينتر موافقته وقال:

- لابد أن نفعل شيئا حيالهم، ولكن في نفس الوقت توجد ظروف لا يمكن أن تفعل شيئا حيالها، لأنك لا يمكن أن تفعل شيئا مؤثرا حيال شخص لا يختار أو لا يستطيع التعاون معك في عمل الشيء الصالح. فمثلاً، عليك أن تساعد الذين تقتلهم الملايا. ولكن عمليا، لا يمكن أن تساعدكم إذا رفضوا وضع أسلاك على نوافذهم أو إذا أصروا على السير بجانب المياه الراكدة في المساء. نفس الشيء بالنسبة لأمراض الجسم السياسي. لابد أن تساعد الناس في الحروب أو الدمار أو الأسر، أو لو كانوا تحت تهديد الثورة المفاجئة أو انحطاط بطنىء. نعم، لابد أن تساعد. ولكن بالرغم من ذلك، تبقى حقيقة واضحة، وهى أنك لن تستطيع أن تساعدكم إذا أصروا على نفس طريقة تصرفاتهم التى أدت بهم إلى المشاكل أصلاً. مثلاً لن تستطيع حماية الناس من أهوال الحرب إذا لم يتخلوا عن نشوة الوطنية، ولن تستطيع أن تنقذهم من التهاوى والاكتئاب إذا ظلوا يفكرون في المال فقط، باعتباره الخير المطلق. ولن تستطيع منع الثورات والأسر إذا ظل الناس يساؤون بين التقدم وازدياد المركزية، وكذلك بين الرفاهية وازدياد الإنتاج بالجملة. لن تستطيع

حمايتهم من الجنون الجماعى والانتحار اذا أصرروا أن يقدسوا المثل التى هى فى الواقع إبراز لذواتهم، أى بمعنى آخر، إذا أصرروا يعبدون ذواتهم بدلا من الله. هذا بالنسبة للكلام الشرطى. أما الآن فدعنا نتحدث عن الحقائق الآتية. من أجل حوارنا، فإن الحقائق الأكثر دلالة هى الآتية: إن سكان كل دولة متحضرة مهددون دائما، ورغبتهم الحقيقية هى أن يتم إنقاذهم من هذا الدمار القادم. الغالبية العظمى منهم ترفض تغيير طريقة تفكيرها، ومشاعرها وتصرفاتها المعنادة، والتى هى كلها، وبشكل مباشر، مسؤولة عن وضعهم الحالى. بمعنى آخر، لا يمكن مساعدتها لأنها غير مستعدة للتعاون مع أى مساعد يأتيناها ليقترح طريقا عقلانيا وواقعيا. تحت هذه الظروف، ماذا ينبغي أن يفعل هذا المساعد؟

قال بيت:

- لا بد أن يفعل شيئا.

ابنسم مستر برويتر بحزن وقال:

- حتى لو كان بهذه الطريقة يُسرّع عملية الدمار؟ إنه العمل من أجل العمل فقط. إننى أفضّل أوسكار وإيلد. إن الفن السئ لا يمكن أن يتسبب فى أذى كثير، مثل عمل سياسى أسىء تقديره. إن عمل الخير عموما، لو لم يكن فى أضيق الحدود، يحتاج إلى ذكاء أكبر مما يمتلكه معظم الناس. لا بد أن يسعد الناس فقط بالابتعاد عن الأذى، لأن ذلك هو الأسهل، ونتائجه ليست مخيفة مثل محاولة فعل الخير بالطريقة الخاطئة. العبث بالأصابع وحسن السلوك فى معظم الأحيان، أكثر فائدة من عمل الأشياء بسرعة وبإتقان حسن.

وقفت حورية جيامبولونيا تبعث الماء منها بلا كلل وسط الأضواء المنبعثة حول أقدامها، وفى خلفيتها أظلمت الدنيا كالعطيفة السوداء. نظر إليها جيريى. لقد كتب

على الكهرياء والنحت أن يكونا شركاء . ما أكثر الأشياء التي كان يمكن أن يفعلها برينلي لو كانت لديه مجموعة من الكشافات ... الأضواء المذهلة، والظلال الغنية الرائعة، والأنوثة الصوفية في نشوتها، والملائكة المتجمعة، والجماجم خارجة من المقابر البابوية مثل الصواريخ السمائية، والقديسين في ملابسهم الخفاقة مثل أعاصيرهم الذاتية، وشعرهم المجعد يرفرف في الهواء . أية نشوة! أى جمال! أى تأكيد على الذات! أى روعة مذهلة! أى ذوق سيء للغاية! وكم هو مخجل أن الرجل كان عليه أن يرتضى بضوء النهار والشموع المشحمة!

كان مستر برويتر يجيب على سؤال اعتراضى من الشاب:

- لا، لا . أنا بالطبع لا أنصح بالتخلي عنهم . بل أنصح دائما بإعادة صياغة الحقائق التي قبلت لهم من قبل مرات ومرات عبر ثلاثة آلاف سنة، وأثناء ذلك، أقوم بعمل فعال تجاه تقنيات تحسين النظام، والتعاون الفعال مع القلة التي تفهم النظام، والتي لديها الاستعداد لدفع ثمن تحقيقه . وبالمناسبة إن الثمن غالٍ جدا بالقياس للبشر، إلا أنه بالطبع أقل من الثمن المطلوب بطبيعة الحال، خاصة من هؤلاء المصيرين على التصرف بالطريقة البشرية العادية . إنه أقل من ثمن الحرب مثلا - خاصة الحرب بالأسلحة الحديثة، وأقل من ثمن الركود الاقتصادى والأسر السياسى .

قال جيريمى بصوت يشبه آلة الفلوت:

- وماذا يحدث إذا حصلت على حريك؟ هل ستكون القلة أفضل من الكثرة؟

أجاب مستر برويتر:

- الشيء الغريب أنه يوجد احتمال لذلك . لهذا السبب . إذا تعلم الناس تقنيات الاكتفاء الذاتى سوف يجدون من السهل عليهم البقاء أحياء فى وقت الفوضى، أكثر

من هؤلاء الذين يعتمدون في معيشتهم على النظم المركزية والمتخصصة. لا يمكن أن تعمل للخير دون الاستعداد في ذات الوقت للأسوأ.

توقف عن الكلام، وساروا وسط صمت لا يتخلله سوى صوت محطتى مذياع متبعثتين من أعلى في اتجاه القصر. وكانت الببوانات، على العكس من ذلك، نائمة في سبات عميق.

الفصل الثانى عشر

فى كنيسة السيدة الصغيرة، ذات الأعمدة والأرفف والأشياء المستحضرة من جنوب إيطاليا، والبرانكوسى^(١) وتابوتها الحجرى من إتروسكا^(٢) المستخدم كعمود شمسية، بدأ جيريمى يشعر فجأة بالحيوية، وكأنه عاد نوا إلى منزله. قال وهو يبتسم فى سعادة، واضعاً القبعة فوق العمود، وسائراً وراء الآخرين نحو القاعة الكبيرة:

– إن هذا يشبه السير فى عقل مجنون.

ثم أوضح أكثر:

– أو بالأحرى أبله، لأننى أعتقد أن المجنون شخص أحادى الاتجاه. بينما هذا...

أشار بيده فى شكل دائرة وأكمل موضحاً:

– إنه عقل بلا اتجاه أصلاً. وهو بلا اتجاه لأنه متعدد الاتجاهات إلى ما لا نهاية. إنه عقل أبله عبقرى، مملوء عن آخره بأفضل ما قيل وما فكر فيه الناس. قالها بنوع من التأكيد على كل كلمة مثل امرأة عانس، مما جعله يبدو سخيلاً. أضاف:

– اليونان، المكسيك، الخلفيات، الصليبان، الآلات، جورج الرابع، أميدا بوذا، العلوم، الكريستيان ساينس، الحمامات التركية – أى شىء يمكن أن تذكره. وكل منها لا يمت للآخر بصلة.

مسح يديه معا ويرقت عيناه من خلال نظارته ثم أضاف:

١- البرانكوسى: نسبة إلى كولمستانين برانكوسى (١٨٧٦-١٩٥٧) نحّات رومانى-فرنسى اشتهر بتكويناته الغريبة والتي تكون أشكال الإنسان والحيوان.

٢- إتروسكا: نسبة إلى حضارة إيطالية قديمة يرجع تاريخها إلى ما بين القرن الثامن إلى الأول قبل الميلاد.

- كنت قلقا في البداية، ولكن أتعلم ؟ لقد بدأت أستمتع بها . وجدت أنني غالبا
أستمتع بالعيش داخل شخص أبله .

قال مستر برويتر كنوع من تقرير واقع :

- لا أشك في هذا . إنه الذوق الشعبي .

شعر جيريمي بالإهانة . فقال وهو يشير برأسه إلى لوحة الجريكو :

- لا أظن أن مثل هذا الشيء شعبي .

قال مستر برويتر موافقا :

- إنه ليس كذلك . ولكنك تستطيع أن تعيش في العالم الأبله دون المرور ببناء
هذا الإسمت أو حشوه بالأعمال الفنية .

سادت فترة صمت وهم يدخلون المصعد، ثم استمر مستر برويتر قائلا :

- يمكنك أن تعيش داخل أبله مثقف، وداخل مجموعة من الكلمات والمعلومات
غير المتصلة . أو إن كنت من قليلي العلم والآداب، يمكنك أن تعيش في عالم
الأغبياء الذي ينتمي إليه الإنسان المتوسط الحسى، حيث الأشياء غير المتصلة
مكونة من صحف، وكرة البيسبول، والجنس، والقلق، والإعلانات، والأمال، المرض،
ومحاولة مجازاة آل جونز . إنها هيدركية من الأغبياء، لكن بالطبع أنت وأنا نفصل
التنويحات رفيعة المستوى .

توقف المصعد . فتح بيت الباب وخرجوا جميعا إلى الزده البيضاء للبدروم
الذى تحت البدروم .

أكمل مستر برويتر قائلا :

- لا يوجد شيء مثل الكرن الأبله، إن كنت تريد أن تعيش بلا مسؤوليات . هذا
بالطبع إن كنت تستطيع تحمل الغباء، إذ أن الكثيرين لا يستطيعون . بعد مرور

بعض الوقت، يتعبون من العالم الذى يسير بدون اتجاهات، ويشعرون بالحاجة إلى أن يكونوا مركزين وذوى اتجاه ما. يريدون لحياتهم معنى ما، وهذا هو الوقت الذى يذهبون فيه إلى الشيوعية، أو ينضمون إلى كنيسة روما، أو لجماعة أوكسفورد، أو أى شيء يجعلهم ذوى اتجاه واحد. وبالطبع الغالبية العظمى تختار الطريق الخاطيء. لا شك يوجد مليون طريق خاطيء وواحد فقط صائب - مليون مثل، ومليون إبراز للذات، وإله واحد ورؤية واحدة لجلب السعادة. غالبيتهم يسرون فى طريق الغباء المتعدد إلى طريق واحد مجنون، أو كما هى العادة، طريق إجرامى، فهذا يعطيهم الإحساس بأنهم أفضل بالطبع، ولكن بشكل برجماتى، فإن الحالة الأخيرة أسوأ دائما من الحالة الأولى. إن كنت لا تريد الشيء الوحيد الذى يستحق أن تريده، فخذ نصيحتى: التزم بالغباء.

عندما فتح جيريمى باب مكتبه قال برويتر بذبرة مختلفة فى صوته:
- هل هذا محل عملك؟ وهذه أوراق الهوبيرك فيما أعتقد. لقد فنى القلب، أليس كذلك؟

هز جيريمى رأسه بالإيجاب وقال:
- وكذلك العائلة - أو أوشكت، ولم يبق غير امرأتين عانسيتين فى بيت مسكون، ودون أية نقود.
برقت عيناه وهو يتنحج كالمعتاد، ويريت على رأسه الصلعاء، ثم قال بتأكيد مبالغ فيه:
- سيدات تتأكلن.

أى فن خطابة هذا! كان من أفضل تعبيراته. أكمل قائلا:
- والتأكل لابد أنه ذهب إلى أبعد مدى، وإلا لما باعنا الأوراق. لقد رفضنا كل

العروض السابقة.

قال مستر برويتز:

- كم نحن محظوظون أننا لا نلتحق لعائلة عريقة. كل هذه الولاءات للوطوب والمونة، وكل هذه الالتزامات نحو المقابر قصاصات الورق والقماش المرسوم. أى نوع كتيب من العبادة الجبرية!

فى تلك الأثناء كان جيريمى قد عبر الغرفة وفتح درجا، وعاد بملف أوراق أعطاه للمستر برويتز ثم قال:

- انظر إلى هذه.

نظر مستر برويتز ثم قال بدهشة:

- من مولينوس؟

قال جيريمى مستمدا سعادته الخبيثة من الحديث عن أمور صوفية بلغة غير مناسبة على الإطلاق:

- ظننت أنها مثل فنجان شايفك المفضل^(٣)!

ابتسم مستر برويتز وقال:

- فنجان شايف المفضل، ولكن ليس الماركة التى أحبها. هناك شىء ما لم يكن جيدا عند مولينوس المسكين. به وتر - كيف أعبر عنه؟ - وتر من الشهوانية السلبية. لقد كان يستمتع بالمعانة العقلية، والجانب المظلم الليلي للروح - كان حقا يتمرغ فيها. بالتأكيد كان هذا المسكين يؤمن حقا أنه يدمر الإرادة الذاتية، ولكن دون أن يدري كان يحول عملية الدمار إلى تأكيد آخر للإرادة الذاتية.

أخذ مستر برويتز الخطابات واقترب بها من الضوء لينظر إليها أكثر وأضاف:

٣- فنجان شايفك المفضل: تعبير إنجليزي يعنى أفضل ما يجب، ونورده هنا كما هو لأن برويتز يلبس على نفس الكلمات فى إجابته.

- شيء مؤسف لأن بالتأكيد كانت لديه بعض التجارب المباشرة عن الحقيقة، وهذا يثبت أنك لا يمكن أن تكون متأكدا من الوصول إليها حتى وأنت قريب منها بحيث تستطيع أن ترى ما تفعله. وما هي جملة جميلة: حب الله، وكأنه بداخلك وليس كما يقال عنه، وليس كما هو في خيالك.

كاد جبريمي أن يضحك للمصادفة التي جعلت مستر برويتر يختار نفس الفقرة التي لفتت نظر الدكتور أوييسبو هذا الصباح، مما أعطاه نوعاً من الارتياح. قال:
- خسارة أنه لم يقرأ بعضاً من كانط. إن حب الله، تبدو مثل الهراء وهي تبدو غير معروفة للعقل البشرى.

وأفقه مستر برويتر وقال:

- غير معروفة للعقل البشرى الشخصى. لأن الشخصية هي الإرادة الذاتية، والإرادة الذاتية هي رفض للحقيقة، ورفض لله. بالنسبة للعقل البشرى العادى كان كانط مصيباً عندما قال إن الشيء ذاته لا يمكن معرفته. حب الله لا يمكن أن يفهمه وعى بسيط تسيطر عليه الذاتية. ولكن لفترض أن هناك طريقة لإزالة الذاتية من الوعى، لو كنت تستطيع أن تفعل هذا، سوف تقترب من الحقيقة، وسوف تكون فى وضع لفهم حب الله.،والآن الشيء الشيق فعلاً أن الواقع المحض يقول إننا يمكن أن نفعل هذا الشيء وأنه قد تم فعله مرات ومرات. حارة كانط العمياء هي لمن اختار أن يبقى على المستوى الإنسانى. لو اخترت الصعود للمستوى الأبدى فالحارة المسدودة لن يعود لها وجود.

ساد صمت. أخذ المستر برويتر يقلب الصفحات، ويتوقف بين الحين والآخر ليفك رموز سطر أو اثنين من الخط اليدوى الجميل. ثم قرأ بصوت عالٍ بالإسبانية:

- «هناك ثلاثة طرق للصمت: الأول بالكلام، والثاني بالرغبات، والثالث بالفكر. إنه يكتب جيداً، ألا تعتقد هذا؟ أغلب الظن أن لذلك علاقة بنجاحه الباهر. إنها كارثة عندما يعرف الرجل كيف يقول الأشياء الخاطئة بالطريقة الصائبة! نظر إلى جيريمي مبتسماً وأكمل قائلاً:

- بالمناسبة، قليلون هم الكتاب الكبار الذين قالوا أشياء صائبة، وهذه إحدى المشكلات في تعليم الدراسات الإنسانية. أفضل ما قيل وفكر فيه الإنسان، جميل جداً ولكن الأفضل بأى معنى؟ مع الأسف أفضل في الشكل فقط، وأما المضمون ففي العادة شيء بغيض.

عاد مرة أخرى إلى الخطابات، ولفنت نظره فقرة أخرى بعد قليل فقرأ بالإسبانية:

- «إن الشخص المنطقي سوف يقرأ هذه الأمور الروحية، ولكنه لن يستطيع أن يفهمها. يقول القديس بولس: إن الإنسان الحيوانى لا يستطيع أن يفهم ماهية الروح. وليس فقط الإنسان الحيوانى، ولكن أيضاً الإنسان البشرى، بل إنه قبل كل شيء الإنسان البشرى. ويمكن أيضاً أن تصنيف أن الإنسان الإنسانى لن يفهم الإنسان الحيوانى. بما أننا نفكر فقط كبشر، فإننا نفشل في فهم ما هو أقل منا تماماً مثلما نفشل في فهم ما هو أعلى. ثم أنه توجد مشكلة أخرى: لنفترض أننا توقفنا عن التفكير بشكل إنسانى محض، ولنفترض أننا جعلنا من الممكن لأنفسنا أن يكون لنا حدس فيما يتصل بالحقائق البشرية، والتي بشكل ما نكون منغمسين فيها. هذا حسن وجيد. ولكن ماذا يحدث عندما نحاول نقل المعرفة التي حصلنا عليها عن هذا الطريق؟ نكون مقعدين. المفردات الوحيدة التي بين أيدينا هي المفردات المعنى بها أساساً التفكير البشرى فقط والاهتمامات البشرية. ولكن الأشياء التي نريد أن نتحدث

عنها هي حقائق لا بشرية وطريقة تفكير لا بشرية، ولكن عدم جدوى كل الجمل التي تقال حول الطبيعة الحيوانية وهي أكثر من ذلك، كل تصريحاتنا عن الله والروح والأبدية.

تدحج جيريمي ثم قال:

- أستطيع أن أفكر في بعض الجمل المناسبة جدا عن...

توقف. أشرق وجهه بابتسامة، ثم ربت على صلته اللامعة وأكمل بخجل:

- مثلا عن الأشياء الأكثر حميمية المتصلة بطبيعتنا الحيوانية.

فجأة علت وجهه سحابة عندما تذكر كنزه، وسرقة الدكتور أوبيسبو الوقحة.

سأل مستر برويتز:

- ولكن على ماذا يعتمد نفعها؟ ليس على مهارة الكاتب بقدر رد فعل القارئ.

الحدس المباشر الحيواني لا يمكن أن يترجم بالكلمات. الكلمات تذكرك فقط بتجارب مماثلة. «نوتاس كالور»، كما قال فيرجيل^(٥) عندما تحدث عن مشاعر فالكان في

حصن فينوس^(٦). السخونة المألوفة. لم يحاول الشرح أو التحليل، ولم يجهد نفسه

ليبحث عن مقولة معادلة للحقائق. مجرد تذكيرة. ولكن هذه التذكيرة تكفي لتجعل

هذه الفقرة من أكثر الفقرات شهوانية في الشعر اللاتيني. لقد ترك فيرجيل العمل

لقرائه، وعادة هذا ما يفعله معظم الكتاب الذين يكتبون عن الجنس ويسعدون بهذه

الطريقة. القليلون فقط يحاولون أن يقوموا بالعمل بأنفسهم، وعليهم أن يعثوا بالمجاز

والتشبيه والتوازي. أنت تعلم هذه الأشياء: النار والعواصف، والجنة والسهام.

قال جيريمي مستشهدا ببيت شعر:

٥- فيرجيل: نسبة إلى الشاعر الإغريقي بابليوس فيرجيليوس مارو (٧٠-١٩ ق.م)، ونوتاس كالور تعني باللغة اللاتينية للهب الزائف.

٦- فالكان وفيينوس: كان فالكان إله النار الروماني، ويعتبر مساعد العاملين في المعادن، وهو ابن هيرا الذي قذفه زيوس من جبل أوليمب وسقط على رجليه بعد تسعة أيام فأصبح أعرج، وقد اتخذ أفروديتي أو فينوس زوجة له، ولكنها لم تكن مخلصه.

- وادى الزنبق وظلال النشوة .

قال مستر برويتر:

- هذا بالإضافة إلى إرهاب الروح بلا فائدة في الخزي، ومثل تلك الاستعارات، تنوع بلا نهاية، وشيء واحد مشترك بينهما، وهو أنها كلها مكونة من مجموعة من الكلمات التي لا تدم عن الموضوع الذي يفترض أنها تشرحه .

قال جيريمي مضيفا:

- نقول شيئا للنعني به شيئا آخر. ألا يمكن أن يكون هذا تعريف مُحتمل للأدب

الخيالي؟

أجاب مستر برويتر:

- ربما. ولكن ما يهملنى بالأساس فى الوقت الحالى هو أن حدسنا الحيوانى الآتى لم يعط أبدا سوى تعبيرات موجزة لا تفى بالغرض. إننا نقول مثلا أحمر أو الشعور بالنشوة ونتركها هكذا بدون محاولة البحث عن المنطوق المعادل للأوجه المتنوعة لرؤية الاحمرار أو تجربة الشعور بالسعادة .

سأل بيت:

- أليس هذا لأنك لا تستطيع تخطئ أكثر من الأحمر والنشوة؟ إنها وقائع .

مجرد وقائع .

أضاف جيريمي:

- مثل الزرافات. الشخص العقلانى يقول لا يوجد مثل هذا الحيوان عندما يرى

صورة له. ثم ها هو يدخل برقبته كله .

قال مستر برويتر:

- نعم هذا صحيح. الزرافات حقيقة مطلقة لابد أن تقبلها سواء أعجبك أم لا،

ولكن قبول الزرافات لا يمنعك من دراسته أو وصفه، ونفس الشيء ينطبق على الاحمرار والشعور بالنشوة أو النوتاس كالور. يمكن أن نحللها ويمكن أن نصف نتائج التحليل بكلمات مناسبة، ولكن الحقيقة التاريخية هي أن هذا لم يحدث قط.

هزبيت رأسه بالإيجاب وقال:

- ولماذا حدث هذا في رأيك؟

أجاب مستر برويت:

- في الحقيقة يمكن أن أقول: إن الإنسان كان دائما مهتما بالفعل والإحساس أكثر من الفهم، وكان دائما مشغولا بعمل الخير والإثارة، وعمل ما تم عمله، بالفعل، وعبادة الأصنام المحلية. إنه مشغول بكل هذا حتى أنه انصرف عن أية رغبة في الحصول على منطق مناسب يشرح تجاربه. انظر إلى اللغات التي ورثناها، إنها قادرة - بلا جدال - على إثارة المشاعر العنيفة والمثيرة، بل إنها مساعدة دائمة الوجود لكل من يريد الاستمرار في الحياة، ولكنها أسوأ من سيئة لكل من يتوق للفهم الموضوعي، ولذلك حتى على المستوى البشرى المحض فإن الحاجة ملحة إلى لغات غير ذاتية مثل الحساب والمفردات التقنية للمعلوم المختلفة. أينما أراد الإنسان أن يفهم، تخلص من اللغة التقليدية واستبدلها بلغة أخرى خاصة وأكثر دقة، وفوق كل شيء أقل تلوثا بالمدفوعة الذاتية. والآن ها هي حقيقة ذات دلالة كبيرة، أن الأدب الخيالي معنى بالأساس بالحياة اليومية للرجال والنساء، بينما هذه الحياة اليومية للرجال والنساء مكونة إلى درجة كبيرة من التجارب الحيوانية الآتية. ولكن صانعي الأدب الخيالي لم يزيغوا لغة غير شخصية وغير ملوثة للتعبير عن التجارب الآتية، بل اكتفوا فقط باستخدام أسماء التجارب عارية وبدون تحليل، كنوع من المساعدة لذاكرتهم وذاكرة قرائهم. كل حدس مباشر هو نوتاس كالور بما تتم عنه

الكلمات متروكة مفتوحة، لكل قارئ منفردا ليعطى حسب طبيعة تجربته أو تجربتها الماضية، مسألة بسيطة ولكنها ليست بالضرورية عملية. ولكن الناس لا تقرأ الأدب لفهم. إنهم يقرأونه لأنهم يريدون أن يعيشوا مرة ثانية في المشاعر والأحاسيس التي أثارتهم في الماضي. يمكن للأدب أن يكون أشياء كثيرة، ولكن في التطبيق الواقعي فإن معظمه مجرد معادل عقلي للخمر والمخدرات.

نظر مستر برويتر مرة ثانية لخطوط خطابات مولينوس القريبة من بعضها ثم قرأ بالإسبانية بصوت عال:

– الإنسان العقلاني سوف يسمع ويقرأ هذه الأشياء الروحية ولكنه لن يستطيع أن يفهمها. سوف يسمع ويقرأ هذه الأشياء ولكنه لن ينجح في فهمها.

أغلق مستر برويتر الملف وأعطاه لجيريمي وأكمل قائلا:

– ولن ينجح في فهمها – لن ينجح – لسبب مهم من اثنين: إما لأنه لم ير الزرافات من قبل، ولكونه إنسانا عاقلا يعلم جيدا أنه لا يوجد مثل هذا الحيوان، أو لأنه لمحه بشكل خاطف أو لديه سبب آخر يجعله مؤمنا بأنه موجود، ولكنه لا يفهم ما يقوله الخبراء عن الموضوع. وإنه لا يفهم بسبب قصور اللغة التي توصف بها عادة حيوانات العالم الروحي. أى بمعنى آخر، إما أنه لم يحصل على التجربة المباشرة للأبدية، وبالتالي لا يوجد سبب يجعله يؤمن أن الأبدية موجودة، أو أنه لا يؤمن بالأبدية أصلا ولكنه لا يفهم رأساً من قدم في هذه اللغة التي يتحدث بها البعض ممن مروا بتجربتها. بالإضافة إلى ذلك عندما أراد أن يتحدث عن الأبدية بنفسه – وقد يرغب في ذلك إما لنقل تجربته للآخرين أو لفهمهم بشكل أفضل من وجهة النظر البشرية – فيجد نفسه في معضلة. إما أنه يعترف بأن اللغة العالية غير مناسبة – وفي هذه الحالة له اختياران عقلانيان، وهما ألا يقول شيئا على الإطلاق،

أو يخترع لغة تقنية جديدة أفضل، كنوع من الإحصاء الأبدى أو جبر خاص بالتجربة الروحية - وإذا قام بالفعل باختراعها فلن يفهم أى أحد ممن لم يتعلمها ما يعنيه. هذا بالنسبة للشق الأول من المعضلة. أما الشق الثانى فمحجوز لهؤلاء الذين لا يلاحظون قصور اللغة الحالية، أو حتى من يلاحظون ولكن لديهم الأمل اللاعقلانى ليجربوا استخدام أداة يعرفون مسبقاً أنها بلا قيمة، وهؤلاء سوف يكتبون باللغة الموجودة، ولكن كتاباتهم سوف يسىء فهمها غالبية القراء بشكل أو بآخر، وهذا لا محالة، لأن الكلمات التى يستخدمونها لا تتوافق مع ما يتحدثون عنه، إذ أن أغلبها كلمات مأخوذة من لغة الحياة اليومية... ولكن لغة الحياة اليومية تشير بشكل يكاد يكون مطلقاً، للأشياء البشرية المحضة. ماذا يحدث حينما تطبق كلمات مستمدة من هذه اللغة على التجارب التى على المستوى الروحى، ومستوى التجربة الأبدية؟ بالطبع إنك تخلق سوء فهم، إذ تقول ما لا تعنيه.

قال بيت مقاطعاً:

- أريد مثالا يا مستر برويتز.

أجاب الآخر:

- حسناً. لنأخذ الكلمة المألوفة فى كل الأدبيات الدينية - الحب. ماذا يعنى الحب على المستوى البشرى؟ إنه يكاد يعنى كل شىء بدءاً من الأم وانتهاه بالماركيز دى ساد.

تذكر جيريمى والمائة وعشرون يوماً لسدوم، وما حدث لها. حقا إنه شىء غير محتمل! يا للوقاحة!!

- إننا حتى لا نفرق بين التعبير الإغريقى إيرا، وفيلو، وإيراس، وأجابى^(٧)، إذ بالنسبة لنا كل شىء مجرد حب، سواء كان مضحياً بالذات أو أنانياً،

٧- إيرا، فيلو، إيراس، أجابى: كلها مرادفات فى اللغة اليونانية للحب، والشهوة.

أو كان صداقة أو شهوة، أو جنونا قاتلا. إنه كله مجرد حب. يا لها من كلمة غبية! حتى وأنت على المستوى البشرى فهي ذات معنيين بشكل لا أمل فيه. وعندما تبدأ فى استخدامهما فيما يتصل بالتجارب على المستوى الأبدى - فإنها تصبح كارثة. «حب الله»، «حب الله لنا»، «حب القديس لرفاقه». ماذا تعنى هذه الكلمة فى مثل هذه الجمل؟ وبأى شكل ترتبط بما تعنيه عندما نطبقها على أم صغيرة ترضع وليدها؟ أو على روميو وهو يصعد إلى غرفة جوليت؟ أو على عطيل وهو يخنق ديدمونة؟ أو للباحث فى العلوم الذى يحب العلم؟ أو للوطنى الذى على استعداد للموت فى سبيل وطنه - ليموت ولكن فى ذات الوقت يقتل، ويسرق، ويكذب وينصب، ويُعذب من أجله؟ هل هناك بالفعل شيء مشترك بين ما تعنيه الكلمة فى هذه الأطر، وبين ما تعنيه عندما تتحدث مثلا عن حب بوذا لكل البشر الحساسين؟ بالتأكيد الإجابة لا، لا يوجد. على المستوى البشرى، الكلمة تعبر عن حالات مختلفة وكثيرة من العقل وطريقة التصرف غير متشابهة فى أشياء كثيرة، ولكنها متشابهة على الأقل فى أنها يصحبها كلها إثارة للمشاعر، وفيها كلها عامل الاشتياق، بينما الملمح الأكثر وضوحا لتجربة الإنسان المستنير هو السكينة وعدم الاهتمام، أى بمعنى آخر، غياب الإثارة والاشتياق.

كرر بيت فى نفسه «غياب الإثارة والاشتياق، بينما لاحظت أمام عينيه صورة فيرجينيا مرتدية الكاب وملتصقة دراجتها السكوتر، وراكعة أمام مدخل الكهف بالشورت.

كان مستر برويتر يقول:

- الفارق فى الواقع لابد أن يعادله فارق فى اللغة. إذا لم يكن كذلك. فينبغى ألا نتوقع أن نتحدث بكلام ذى معنى. وبالرغم من ذلك، إننا نصر على استخدام كلمة

واحدة لنتم عن أشياء مختلفة لا نهائية. إننا نقول «الله محبة»، وهى نفس الكلمة التى نستخدمها عندما نتحدث عن كوننا واقعين فى الحب، أو أننا نحب أطفالنا، أو ملهمين بمحبة بلدنا. ومن ثمة فإننا بشكل أو بآخر نعتقد أن الشيء الذى نتحدث عنه لا بد وأن يكون بشكل أو بآخر نفس الشيء. إننا نتصور بشكل مبهم ومن باب الاحترام أن الله مكوّن من اشتياق كبير ومضخّم جدا.

هز رأسه وأكمل:

- إننا خلق الله على صورتنا لأن ذلك يدغدغ غرورنا، وبالطبع إننا نفضل الغرور على الفهم، ومن ثمة كان الإرباك فى اللغة. إذا كنا نريد فهم الكلمة، وكنا نريد أن نفكر فيها بشكل واقعى، لابد أن نقول إننا نحب، ولكن الله إكس-حب. بهذه الطريقة من لم يكن لهم أى اختبار مباشر على المستوى الأبدى سوف تتاح لهم الفرصة للمعرفة العقلية بأن ما يحدث على هذا المستوى ليس مثل ما يحدث على المستوى البشرى المحض، وسوف يعرفون؛ لأنهم سوف يرون أن هناك فرقاً بين الحب والإكس-حب مكتوب ومطبوع، وبالتالي سوف يكون لديهم عذر أقل مما لدى بعضهم اليوم، ليتصوروا أن الله مثلهم، ولكنهم أيضا سوف يصبحون أكثر ميلا تجاه الاحترام وأقل بالطبع تجاه الناحية الأخرى. ولا شك أن ما ينطبق على كلمة الحب ينطبق كذلك على كل الكلمات الأخرى المستمدة من اللغة اليومية، والمستخدمه لوصف التجربة الروحية. كلمات مثل المعرفة، الحكمة، القوة، العقل، السلام، الفرح، الحرية، والخير، كلها تعنى أشياء معينة على المستوى البشرى. أما الأشياء التى يحاول الكتاب أن يجبروها أن تعنيه عندما يصفون أحداثا على المستوى الأبدى فهى تختلف، وبالتالي فإن استخدامها يسبب ارتباكاً للأمور فقط، فهم يجعلون من المستحيل لأى فرد أن يعرف عما يتحدثون. وفى تلك الأثناء لابد

أن تتذكر أن الكلمات المستخدمة من لغة الحياة اليومية ليست المشكلات الوحيدة، فالذين يكتبون عن تجاربهم على المستوى الأبدى يستخدمون أيضا الجمل التقنية المأخوذة من الأنظمة الفلسفية المختلفة.

قال بيت:

- أليس هذا مثل معادلة الجبر في التجربة الروحية؟ أليست هذه هي اللغة العملية الخاصة التي كنت تتحدث عنها؟

أجاب مستر برويتر:

- إنها محاولة للوصول لمثل هذه المعادلة الجبرية، ولكن مع الأسف محاولة فاشلة جدا، لأن هذه المعادلة مستمدة من لغة الميتافيزيقيا - وبالمناسبة الميتافيزيقيا السهلة - إن الذين يستخدمونها يورطون أنفسهم - سواء أرادوا أو لا - لشرح الحقائق بالإضافة لوصفها، أى شرح تجاربهم الفعلية في إطار الكيانات الميتافيزيقية والتي يعتبر وجودها أصلا مجرد افتراض لا يمكن إثباته. وبمعنى آخر، إنهم يصفون الحقائق في إطار نسيج من الخيال، ويشرحون ما هو معروف أصلا في إطار غير المعروف، وإليك بعض الأمثلة، بل وها هو مثال سهل، كلمة النشوة. إنها كلمة تقنية تشير إلى قدرة الروح على الخروج من الجسد، وبالطبع تحمل أيضا المعنى الضمني، إننا نعرف ما هي الروح وكيفية اتصالها بالجسد وبباقى الكون. أو خذ مثلا آخر، وهو تعبير تقني ضروري لنظرية الكاثوليكية عن التصوف: التأمل المغروس. هنا يبدو أن المعنى الضمني يشير إلى أنه يوجد كائن آخر من خارجنا يصب نوعا من التجربة السيكلوجية في عقولنا. والمعنى الآخر أيضا أننا نعرف من هو هذا الشخص. أو تأمل حتى جملة «التوحد مع الله». إن معناها يعتمد على تربية المتحدث، فقد تعنى التوحد مع يهوه من العهد القديم، أو قد تعنى التوحد مع

الذات الإلهية في المسيحية الأرثوذكسية، أو قد تعنى ما كانت في الغالب تعنيه مثلا لإيكهارت وهو التوحد مع الذات الإلهية والتي جزء منها إله الأرثوذكسية. وبالمثل أيضا لو كنت هندية، قد تعنى التوحد مع إيسفارا أو التوحد مع برهما^(٨). وفي كل هذه الحالات الكلمة تفترض ضمنا معرفة سابقة عن طبيعة الأشياء التي لا يمكن معرفتها أصلا، أو في أفضل الأحوال، يمكن استنتاجها من طبيعة التجارب التي من المفترض أن الكلمة تصفها. وها هو الشق الثاني من المعضلة - المعضلة التي يضع فيها نفسه كل من يستخدم لغة الدين الحالية لوصف تجربته.

قال جيري مي متسائلا:

- والطريق للخروج من المعضلة؟ أليس هو الطريق الذي كتب به أطباء النفس المتخصصون عن الصوفية؟ لقد طوروا لغة مناسبة، ولكنك لم تذكرهم.

قال مستر برويتز:

- لم أذكرهم لنفس السبب الذي جعلني لا أذكر متخصصي الجمال عندما أتحدث عن الجمال، خاصة الذين لم يدخلوا قط معرضا للوحات.

- أتعلني أنهم لا يعرفون عم يتحدثون؟

ابتسم مستر برويتز وقال:

- قد أطرحتها بشكل مختلف، إنهم يتكلمون عما يعرفونه، ولكن ما يعرفونه لا يستحق الحديث عنه، لأن ما يعرفونه هو أدبيات الصوفية وليس التجربة ذاتها.

قال جيري مي مختتما الحوار:

- إذن لا يوجد مخرج من المعضلة.

برقت عيناه خلف نظارته وابتسم بخبث كطفل منتصر بعد فلة شقية. استمر

٨- إيسفارا وبرهما: الآلهة الأعلى في الميثولوجيا الهندوسية.

قائلا:

- أى لذة هذه أنه لا يوجد مخرج من الورطة! هذا يجعل العالم يبدو جميلا ودافئا عندما تتعري كل الأمور ولا يوجد مكان للذهاب إليه بكل أدواتك المعدنية وملابسك اللامعة. هيا يا جنود، إلى الأمام يا كتيبة مضيفة! وكل الوقت أنت تدور وتدور - من الرأس إلى القدم، وامش وراء الفوهرر - مثل يرقة فابير. هذا حقا يعطينى سعادة كبيرة.

هذه المرة ضحك مستر برويتز مباشرة وقال:

- أنا آسف لأننى مضطر أن أخيب ظلك ولكن مع الأسف يوجد مخرج من الورطة وهو عبر الطريق المملى. يمكنك أن تذهب وتبحث عن معنى ذلك بنفسك ومن خلال التجربة المباشرة، مثلما يمكنك أن تعرف شكل لوحة آل جريكو صلب القديس بطرس وذلك بصعودك المصعد إلى القاعة، ولكنى أخشى أنه فى هذه الحالة لا يوجد مصعد. لابد أن تصعد على قدميك، ولا تخطئ.

ثم استدار إلى بيت وأضاف:

- توجد سلالم كثيرة جدا.

اعتدل الدكتور أوبيسبو وأخرج طرفى السماعه من أذنيه ووضع الآلة داخل جيبه بجانب كتاب المائة وعشرين يوما لسدوم.

سأل مستر ستريت بقلق:

- هل من سوء؟

- هز الدكتور أوبيسبو رأسه بالنفى وأبتسم له ابتسامة طمأنينة ثم قال:

- لا توجد إنفلونزا على أية حال. مجرد زيادة طفيفة فى الحالة الرئوية وسوف

أعطيك شيئاً لها الليلة قبل أن تذهب للفراش .
 ارتخى وجه مستر ستويت وبدأ متجهماً، ثم قال وهو يستدير ليجذب ملابسه
 الملقاة في كومة على الأريكة تحت لوحة الواتو:
 - أنا سعيد أنه كان إنذاراً خاطئاً .
 صاحت فيرجينيا من مقعدها وقالت بانتصار أليس هذا رائعاً! ثم أضافت
 بصوت أكثر جدية:
 - أتعلم يا عم جو لقد أخافنى جداً بهذا السعال . جداً .
 ابتسم العم جو بانتصار ولطم صدره بعطف حتى إن جلده ذا الشعر الكثيف
 الذى كاد يكون أنثوياً اهتز مثل الجيلي من وطأة اللطمة . قال متفخراً:
 - لا شيء فى .
 ظلت فيرجينيا ترتقبه من فوق كوبها وهو يرتدى قميصه ويحكم ربطة عنقه .
 كان التعبير على وجهها البريء الصغير ينم عن السكينة المطلقة، ولكن خلف هاتين
 العينين الزرقاوين الشافيتين كان عقلها يغلى نشاطاً . أخذت تردد لنفسها: «كان هذا
 قريباً جداً! كان قريباً! كلما تذكرت هذه الانتفاضة العنيفة الفزعة عندما سمعنا باب
 المصعد يفتح، وهذه الأقدام المسرعة نحوهما فى الممر، أحست بدغدغة ما من
 الخوف والمتعة، ومن الترقب والانتصار، مثل إحساسها وهى طفلة تلعب الاستغماية
 فى الظلام . لقد كان هذا قريباً فعلاً! ثم ألم يكن سيح رائعاً حقاً؟ أى حضور ذهنى!
 وخدعة السماعه هذه التى أخرجها من جيبه - أى ذبذبات عقل! لقد أنقذت هذه
 الحركة الموقف، لأنه لولا حركة السماعه تلك لقام العم جو بأحد مشاهد الغيرة . إلا
 أنه بأى حق يُصاب بالغيرة، حقاً لا تعلم! وبإحساس شديد بالحرج، استمرت تفكر
 فى هذا . ثم أنه لم يحدث شيء بالفعل سوى بعض القراءة بصوت عال . وعلى كل

حال، لماذا لا يُسمح لفتاة شابة أن تقرأ هذه النوعية من الأشياء إن كانت تريد؟ خاصة وإنها باللغة الفرنسية. ثم إلى جانب هذا تريد أن تعرف من يكون العم جو ليتصرف هكذا بطريقة مفرطة في الاحتشام؟ إنه يغضب من الناس عندما يقصون قصصا مضحكة، بينما أتبين ما يفعله هو نفسه طوال الوقت - ثم يتوقع منك أن تتحدث مثل لويزا م. ألكوت^(٩) معتقدا أنه ينبغي أن يحميك من سماع كلمة فذرة واحدة! أيضا الطريقة التي لا يسمح بها لها أن تقول الحقيقة عن نفسها حتى لو كانت تريد... إنه يبنيها لتصبح على غير ما هي عليه في الحقيقة - تتصرف تقريبا كأنها ديزى ماى من سلسلة الكرتون، وهو أبتر الذى سينقذها في الوقت المناسب. إلا أنها بالطبع لابد أن تعترف أن هذا قد حدث بالفعل على الأقل مرة واحدة قبل أن يأتى، لأنه لو لم يكن قد حدث، لكان بلا عذر الآن. لقد حدث بالفعل - ولكن بدون إرادتها - أتعلم - كنوع من الاغتصاب - أو شخص يستغل كونها غبية وبريئة - فى نادى الكرنفو، وهى مرتدية لاشيء سوى قطعة مايوه واحدة رفيعة وبودرة التلك. وبالطبع كان لابد أن تكره هذا، وأن نظل تبكى حتى يجرى العم جو، ثم يتغير كل شيء. ولكن فى هذه الحالة، وقد خطر هذا على بال فيرجينيا فجأة، لو كانت تلك هى الطريقة التى يفكر بها فيها، فماذا بحق الجحيم يعنى بعودته للمنزل هكذا، فى السابعة وخمس عشرة دقيقة، بينما كان قد قال لها إنه لن يعود حتى الثامنة؟ الغشاش العجوز! هل يحاول التجسس عليها؟ لأنه لو كان كذلك، فلن تقبل هذا، ولو كانت تلك هى الطريقة التى سيعاملها بها فسوف تطلب من سيج المجيء كل يوم وقراءة فصل آخر. وبالمناسبة إنها لا تدرى كيف سيظل الرجل الذى كتب هذا الكتاب يكتب هكذا لمدة مائة وعشرين يوما، إنها حقا لا تدرى،

٩- لويزا م. ألكوت: (١٨٣٢-١٨٨٨) روائية أمريكية تكتب عن الحياة الأسرية فى أمريكا، ومن أشهرها نساء صغيرات (١٨٦٨).

هذا مع الأخذ في الاعتبار ما حدث في الأسبوع الأول - وها هي كانت تظن أنه لا يوجد شيء لا تعرفه! حقاً نعيش ونتعلم. إلا أن البعض منه كانت لا تريد أن تعلمه على الإطلاق، لأنها أشياء تجعل معدتها تمرض. بشعة! في بشاعة الولادة! ارتجفت. ليس لأنه لا توجد أشياء غريبة ومضحكة في الكتاب أيضاً، مثل هذه الفقرة التي جعلت سيج يقرأها مرات ومرات - كانت عظيمة وقد أضحتها بالفعل. وهذه الفقرة الأخرى حيث الفتاة...

قال مستر ستويت وهو يغلق آخر أزرار قميصه:

- إذن يا بيبى أنت لا تتحدثين كثيراً، أليس كذلك؟ من أخذ عقلك!

رفعت فيرجينيا هذه الشفة العليا الطفولية وابتسمت تلك الابتسامة التي تجعل

القلب يذوب حناناً ورغبة وقالت:

- كنت أفكر فيك يا عم جو.

الفصل الثالث عشر

«لو كنت تبدو غير متأثر بالفكر الرصين
فإن طبيعتك ليست أقل ألوهية،
إذ أنك ترفد في حصن إبراهيم طوال العام
وتتعبد في الهيكل الداخلى
فالله معك ، وإن كنا لا نعرف ذلك».

قال جيريمى بصوت عال:
- وجميل أيضا .

أخذ يفكر أن الكلمة هى الشفافية، والمعنى كان موجودا مثل ذبابة فى
الكهرمان، أو بالأحرى لا توجد ذبابة، كان هناك فقط الكهرمان، والكهرمان هو
المعنى. نظر إلى ساعته، ثلاث دقائق قبل منتصف الليل. أغلق كتاب ريردورث،
وظل يذكر نفسه بمرارة أنه كان من الممكن بدلا من هذا أن يكون الآن قد أنعش
عقله ب فيليشيا! وضع المجلد على المائدة بجوار سريره وخلع نظارته. أصبحت
عيناه فى حالة سيكولوجية يائسة بعد أن حرهما من ست درجات ونصف من
التصحيح. لقد أصبحت عيانه تعتمدان على الكريستال المقوس، وبدون هذه النظارة
كانت ستصبح مثل قنديل البحر المأخوذ فجأة خارج المياه. ثم انطفأ النور، وكأنه
أسقط العينين المسكينتين بلا رحمة فى حوض أسماك.

مدد جيريمى جسده تحت الغطاء وثأب، أى يوم هذا! ولكن الآن حمدا لله ها
هو نعيم السرير، وها هى السيدة المباركة تميل فوق سرير النعيم الذهبى، ولكن
كانت هذه الملاءات مصنوعة من القطن وليست من الكتان، وهو شئ غير لائق

ببيت كهذا، حيث لوحات روبين وآل جريكو. أما صلب القديس بطرس - فأى آلة رائعة حقاً، تكاد تكون فى جمال الصعود الموجودة فى التوليد^(١)، والتي فى الغالب قد أصيبت بقنبلة أصلاً، وهذا يثبت ما يحدث عندما تؤخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم. ليس لأنه لا يوجد شيء مؤثر فى ذلك المسمى ببروتر - لأنه قرر أن يسميه الشيء-بروتر فى عقله - وعندما يكتب لأمه. ربما مثل نوع من البحار العجوز^(٢)، أو صيف الفرح الذى يلطم صدره أحياناً، وربما كان الأجدر به أن يلطمها مرات أكثر، بسبب الانحطاط المخيف لكل الآداب العامة، وبخاصة قلة الآداب العامة، مثل فيليشيا، ومثل كل يوم جمعة آخر فى مايدا فايل، وكان ذلك الكائن مغروساً فيه، لكن ليس بدون قدر كبير من الإقناع - اللعنة على عيبيه اللامعتين! إذ أن هذا البحار بالتحديد لا يمسكك بعينه فقط، ولكنه فى ذات الوقت كان كالمزمار الجهير الذى تريد أن تسمعه، بل وتسمعه دون إرغام - إلا أنه بالطبع لم تكن لديه النية للسماح بإغواء هياكله الصغيرة المكونة من اللياقة وعدم اللياقة الأدبية. لم يسمح للدين (من بين كل الأشياء!) أن يغزو قدسية حياته الخاصة من قبل. إن بيت أى رجل إنجليزى هو قصره، والغريب أنه بدأ يكتشف بعد أن زالت الصدمة الأولى، أن قصر الرجل الأمريكى أصبح بيته، وهو بيته الروحي، لأنه تجسيد لعقل الأبله الذى يفتقر إلى طريق محدد، لأنه لا توجد أصلاً قضايا ولا شيء يؤدي إلى أى مكان، وأية ورطة لها طرق متعددة مغلقة، فتظل تدور وتدور مثل

١- التوليد: متحف فى إسبانيا.

٢- البحار عجوز: نسبة إلى قصيدة بهذا الاسم كتبها كولبريدج الشاعر الإنجليزى نشرت عام ١٧٩٨، وتحكى عن بحار قديم قابل ثلاثة أشخاص ذاهبين لمرس ما فأوقف أحدهم ليحكى له حكايته، وكيف أن مركبه سحبها عاصفة إلى القطب الجنوبي، وعندما أحاطت بها اللوح قابله بجعة كبيرة فأطلق عليها الرصاص مما تسبب فى إحلال لعنة على المركب ومن فيه، ويموت كل من عليها سوى هذا البحار، وتزول اللعنة عندما يدرك جمال الطبيعة ويحمد الله عليها فى قلبه، ويظل يرحل من مكان إلى الآخر ليشير لكل ويعلم تقدير مخلوقات الله.

شرقة برقات فابر في كون مغلق من السكينة - تدور وتدور بين أوراق الهوبيرك ، من القديس بطرس إلى مورفيل الصغيرة، إلى الجامبولونيا إلى البوديسنافاس المطلية، إلى الببوانات، إلى الماركيز دى ساد إلى القديس فرنسواز دى سال إلى «فيليشيا»، وتدور لتعود مرة أخرى في حينها إلى القديس بطرس. تدور وتدور في سكينة من الأفكار والأحاسيس والأفعال التي بلا قضايا، وفي فنون علم مغلق في زجاجة كالزهيان، في ثقافة من أجل الثقافة، وفي اللياقة الأدبية القليلة، وقلة اللياقة الأدبية التي تعطى اكتفاء ذاتياً، وفي ورطات لا يمكن تخطيها، وأسئلة أخلاقية تجيب عليها البلاهة بما فيه الكفاية.

تدور وتدور، تدور وتدور، من أقدام بطرس، إلى مؤخرة مورفيل الصغيرة، إلى الببوانات، من الحلزون الصبني الجميل في طيات رداء بوذا، إلى العصفور الغناء وهو يشرب متعلقاً في الهواء، عودة مرة أخرى إلى قديمي بطرس بالمسامير... الناس أظلم فجأة، مفسحاً الطريق للنوم.

في غرفة أخرى من نفس الطابق، لم يحاول بيت بوون أن ينام، بل على العكس كان يحاول فهم الأشياء. يحاول فهم العلوم والمستربروتر، والعدل الاجتماعي، والأبدية وفيريجينا، والصد-فاشية. لم يكن الأمر سهلاً، لأنه لو كان المستر بروتر مصيباً، فلا بد أن يبدأ التفكير بشكل مختلف. البحث عن الحقيقة بدون انشغال ذاتي - هذا ما كنت ستقوله لو أجبرت في أي وقت أن تقول شيئاً مخرجاً عن أسباب كونك عالماً بيولوجياً. أما بالنسبة للاشتراكية فكانت بسبب الإنسانية، وبسبب تحقيق أكثر سعادة لأكثر عدد. وبالطبع فإن هذا مرتبط بالبيولوجيا أيضاً: السعادة والتطور من خلال العلم والاشتراكية. وبينما السعادة

والتطور في طريق التحقيق، فلا بد من وجود الولاء لقضية ما. لقد تذكر فقرة عن الولاء من أيام الجامعة، كتبها جوزايا رويس^(٣)، وكانت مقررة عليه في السنة الثانية، تقول ما معناه أن جميع المخلصين يستوعبون بطريقتهم الخاصة نوعاً من الحقيقة الدينية، ويكتسبون نوعاً من البصيرة الدينية الحقيقية. في ذلك الوقت تركت هذه الكلمات أثراً كبيراً في نفسه، إذ كان قد فقد توا الإيمان بمسألة دم الخروف تلك التي تربي عليها، وجاءت هذه الكلمات كنوع من الطمأنينة - جعلته يشعر أنه بعد كل شيء، لا يزال متديناً حتى لو لم يعد يذهب إلى الكنيسة، وكان متديناً لأن لديه ولاء، وهو ولاؤه للقضايا والأصدقاء. بدا له أنه كان متديناً هناك في أسبانيا، ومتديناً أيضاً في الطريقة التي يشعر بها نحو فيرجينيا. ولكن لو كان مستر برويتر مصيباً، فإن كل أفكار رويس عن الولاء خاطئة، بل وعلى العكس من ذلك، يمكنها أن تمنحك من البصيرة - بل قطعاً بالتأكيد ستمنحك. لو أنك أعطيت ولاءك لأي شيء أقل من أسمى القضايا. وأسمى القضايا، لو كان مستر برويتر مصيباً، كانت تقريباً مخيفة في بعدها وغرابتها. تكاد تكون مخيفة، ولكن كلما فكر فيها، كلما شعر بالتشكك في كل شيء آخر. ربما كانت بالفعل الأسمى، ولكن لو كانت كذلك فالاشتراكية إذن غير كافية، وهي غير كافية لأن الإنسانية غير كافية، لأن السعادة الأكبر غير موجودة في المكان الذي يظنه الناس، لأنك لن تستطيع جلب السعادة من خلال العمل في المجالات التي تعمل فيها لو كنت مصلحاً اجتماعياً. أفضل ما تستطيع عمله في هذه المجالات هو عملية تسهيل للآخرين ليذهبوا إلى حيث يمكن أن يحصلوا على أكبر قدر من السعادة. وبالطبع فإن ما ينطبق على الاشتراكية ينطبق كذلك على البيولوجيا، أو أي علم آخر، لو فكرت فيه كوسيلة للتطور. ولكن

٣- جوزايا رويس: (١٨٥٥-١٩١٦) فيلسوف أمريكي من أبرز الماديين بالمثالية.

مرة بعد أخرى لو كان مستر برويتر مصيبا، فإن البيولوجيا وباقي العلوم هي البحث بدون ذاتية، عن جانب واحد فقط من الحقيقة. ولكن نصف الحقيقة هو الزيف ذاته، ويظل مزيفا حتى لو قلته وأنت تظن أنها الحقيقة كلها، إذن يبدو أن هذا التبرير لن ينجح أيضا - أو على أي الحالات، كأنه لن ينجح، إلا إذا كنت في ذات الوقت، وبدون ذاتية، تحاول أن تكتشف الجانب الآخر من الحقيقة، وهو الجانب الذي كنت تبحث عنه عندما أعطيت ولاءك إلى القضية الأسمى من كل القضايا. وفي ذات الوقت ماذا عن فيرجينيا؟ سأل نفسه هذا السؤال في لوحة متصاعدة - ماذا عن فيرجينيا؟ لأنه لو كان مستر برويتر مصيبا، فإن فيرجينيا غير كافية - بل حتى فيرجينيا ربما تكون بالفعل حاجزا يمنع من إعطاء ولاءه لأسمى القضايا. هاتان العيان وبراءتهما، وهذا الفم الخرافي، وحتى ما يشعر به تجاهها، وحتى الحب نفسه، وحتى أفضل أنواع الحب - إذ يستطيع أن يقول حقيقة أنه يكره النوع الآخر - بيت الدعارة هناك في برشلونة مثلا، وهنا في البيت، كل هذه الأحضان بعد الكوكيتل الثالث أو الرابع، وتلك اللمسات في السيارات المركونة في الشوارع - نعم حتى أفضل أنواع الحب قد تكون غير كافية، بل قد تكون أسوأ من ذلك. «لا أستطيع أن أحبك يا عزيزتي هكذا كثيرا، لو لم أكن قد أحببت شيئا ما أكثر منك». حتى الآن كان هذا الشيء هو البيولوجيا والاشتراكية. ولكنهما الآن لا يفيان بالغرض، وحتى لو أخذهما كغاية في حد ذاتهما، فهي أسوأ من غير كافية. لا يوجد ولاء صالح في حد ذاته، أو يستطيع أن يمنحه أية بصيرة دينية، سوى الولاء لأسمى القضايا. «لا أستطيع أن أحبك يا عزيزتي هكذا كثيرا، لو لم أكن قد أحببت شيئا ما أكثر منك». ولكن السؤال المؤلم حقا كان، هل تستطيع أن تحب أسمى القضايا وتظل تشعر بنفس المشاعر نحو فيرجينيا؟ إن أسوأ أنواع الحب كان بالطبع

غير ملائم للولاء لأسمى القضايا، وهو بالطبع هكذا لأن أسوأ أنواع الحب كان مجرد الولاء للفيسيولوجيا، بينما لو كان مستر برويتر مصيبا، لا يمكن أن تصبح مخلصا لأسمى القضايا بدون رفض هذه الولاءات لنفسك. ولكن بعد كل شيء، هل أفضل أنواع الحب مختلف جذريا عن الأسوأ؟ إن الأسوأ هو أن تكون أمينا لفيسيولوجيتك. إنه شيء بشع أن يعترف بهذا، ولكن أفضل أنواع الحب كذلك هو أن تكون ذا ولاء لفيسيولوجيتك في ذات الوقت، وهذا ما يميز هذا النوع الأخير، أن تكون أمينا أيضا تجاه أسمى مشاعرك، ولهذا الألم الخاوي من الشوق، ولهذا الحنان اللانهائي، ولهذا العبادة، وهذه السعادة، وهذه الآلام، وهذا الإحساس بالوحدة، وهذا الاشتياق للذات. تكون مخلصا لكل هذا، وكونك مخلصا له، فهذا تعريف لأفضل أنواع الحب، ولما يسميه الناس الرومانسية، ويمتدحونه كأفضل ما في الحياة. ولكن ولاءك لهذه الأشياء هو ولاؤك لذاتك، ولا يمكن أن تكون مخلصا لذاتك وفي نفس الوقت مخلصا لأسمى القضايا. الخاتمة العملية كانت بديهية. ولكن بيت رفض هذه الخاتمة. هاتان العبدان الزرقاوان الشفافتان، وهذا الفم الرائع في براءته، ثم كم هي لطيفة وكم تراعى مشاعر الآخرين! لقد تذكر حوارهما وهما في طريقهما للعشاء. سألهما عن صداعها فهمت له:

- لا تتحدث عنه لأنه قد يضايق العم جو، فقد كان الدكتور أوبيسبو عنده اليوم بسماعته تمر فوق جسده كله - ولا يعتقد أنه بخير هذا المساء، لذلك لا أريده أن يقلق على أنا، ثم على أية حال، ما هو الصداع؟

إنها ليست جميلة فقط، وليست بريئة ولذيذة فقط، ولكنها شجاعة أيضا وغير أنانية. وكم كانت لطيفة معه طوال المساء، تسأله عن عمله، وتحكى له عن بيتها في أوريجون، وقد جعلته يتحدث عن بيته هناك في ال باسو. وفي النهاية جاء

مستر ستويت وجلس بجانبهما - فى صمت، وجهه أسود مثل الرعد. نظر بيت إلى فيرجينيا فى تساؤل، فأعطته نظرة معناها أرجوك اذهب، ثم أعطته نظرة أخرى عندما قام ليقول تصبحون على خير، وكانت هذه النظرة اعتذارية برجاء شديد، مملوءة بالامتنان، متفهمة ولذيذة وحنونة، حتى إن مجرد التفكير فيها كان يجعل عينيه تغورقان بالدموع. جالسا هناك فى الظلام، أخذ بيكى فى سعادة.

لا شك أن الكوة فى الحائط فى غرفة نوم فيرجينيا بين الحائط والنافذة، كان مقصوداً بها أن تكون مكتبة، ولكن بم أن فيرجينيا لم تكن مهتمة بالكتب، فقد تم وضع معبد صغير بدلا منها، بحيث تفتح ستارتان بيضاوان مصنوعتان من القטיפه - لأن كل شىء فى الغرفة كان أبيض - فهناك وسط الورود الاصطناعية، تقف السيدة العذراء مرتدية ملابس حريرية حقيقية، وألطف تاج صغير فوق رأسها، وستة صفوف من اللؤلؤ حول عنقها، وكانت مضاعة بذكاء بمجموعة من اللمبات الكهربائية المخبأة. كانت فيرجينيا حافية القدمين، ترتدى بيجامتها البيضاء المصنوعة من الساتان، وكانت راكعة أمام بيت الدمية المقدس، تتمتع بصلوات المساء. بدت لها السيدة العذراء وكأنها لطيفة بشكل خاص وطيبة هذا المساء. وبينما شفتاهما تنطقان صياغات المديح والتضرع، قررت أن أول شىء ستفعله فى الغد هو الذهاب مباشرة إلى غرفة الخياطة والإتيان بإحدى الفتيات لتصنع لها عباءة بلا أكمام للسيدة العذراء من هذه القماشة الزرقاء الجميلة المنسوجة بالقصب، التى اشتريتها فى الأسبوع الماضى من محل الخردة فى جلنديل. رداء أزرق منسوج بالقصب، مقفول من الأمام بزر من الذهب، أو حتى أفضل من هذا، برباط صغير ذهبى تستطيع أن تربطه فى فيونكة بينما أطرافه مدلاة حتى أقدام السيدة. آه سوف يكون هذا رائعا! نمتت لوجاء الصباح حتى تبدأ فوراً فى هذا.

تمت فريجينا بآخر صلواتها، ورشمت الصليب ثم قامت من ركعتها، لكنها أثناء قيامها وهى تنظر إلى أسفل، وجدت لفرط هولها، أن بعض الطلاء السيكلامانى كان قد زال وتقرش من الإصبعين الثانى والثالث فى قدمها اليسرى. بعد دقيقة واحدة كانت جالسة القرفصاء على الأرض بجانب السرير، ساقها اليسرى ممدودة، والثانية فوقها، فى وضع استعداد لإصلاح التلف، وبجانبيها زجاجة مفتوحة، وكانت ممسكة بفرشاة صغيرة فى يدها، تغلفها رائحة الأسيتون الصناعية، وتطغى على عطر شيا باريللى المسمى بالصدمة، والذى كان جسدها مغمور به. بدأت فى العمل، وبينما هى متحنية للأمام انفلتت خصلتان من شعرها البنى المحمر وسقطتا على جبهتها. تحت حاجبيها المقطبين كانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تحدقان بتركيز، وللمساعدة على التركيز أيضا كان طرف لسانها الوردى ممسوكا بين أسنانها. قالت «اللعة، فجأة بصوت عال بعد أن صنعت خطأ خاطئا، ثم عادت الأسنان تمسك باللسان مرة أخرى.

توقفت عن عملها حتى تسمح لطبقة الطلاء الأولى أن تجف، وأدارت بصرها من أصابع قدميها إلى عظم الساق بين الركبة والقدم، وبطن الساق اليسرى. لاحظت بضيق أن الشعر قد بدأ ينمو مرة ثانية، وسوف يحين الوقت قريبا لإحدى وسائل الإزالة. تركت عقلها يسرح مع أحداث اليوم، وهى تربت على ساقها بتفكير عميق. لا تزال ذكرى اللقاء الذى كاد ينكشف مع العم جو يصيبها برجفة من الإثارة المترقبة، ثم بدأت تفكر فى سيج بسماعته تلك، فارتفعت شفتها العليا بابتسامة استمتاع، ثم ذلك الكتاب... إن العم جو يستحق، فقد جعلها تدفع سيج ليقرأها لها. وبالطبع كان سيج يغازلها بين الفصل والآخر، ولكن هذا أيضا يستحقه العم جو لأنه يحاول التجسس عليها. لقد تذكرت غضبها من سيج - ليس بسبب ما

فعله - لأنه بجانب أن العم جو يستحق هذا، وبالطبع اكتشفت أنه يستحق هذا فيما بعد، فإن ما فعله كان بالفعل مثيراً، وليس العكس، لأنه بعد كل شيء (كان سيج جذاباً للغاية، وبهذه الطريقة لا يحسب العم جو - بل إنك حتى تستطيع أن تقول إنه يحسب بالعكس - في الخط الأحمر كما يقولون - يحسب أقل من أى أحد، لدرجة أن أى شخص جذاب يبدو بالفعل أكثر جاذبية بجانب العم جو. لا، لم يغضبها منه بالفعل، ولكنها طريقة تصرفاته، إذ يضحك عليها هكذا! إنها لا تمنع الهرج بالأوقات العادية، ولكن أن يهرج وهو يغازلها بالفعل، فكأنه يعاملها كداعرة من الشارع. لا رومانسية ولا شيء، مجرد تلك الضحكة المكتومة والقفشات القذرة. ربما كان ذلك نوعاً من الدراية بشؤون الحياة، ولكنه لا يعجبها. ثم ألا يرى أنه من الغباء أن يتصرف هكذا؟ لأنه فى النهاية، عندما تقرأ هذا الكتاب مع شخص جذاب هكذا مثل سيج، فإنك تشعر أنك ترغب فى بعض الرومانسية. رومانسية حقيقية مثل الأفلام، بضوء القمر، وموسيقى السوينج، أو ربما غناء التورتش، لأنه كان شيئاً لطيفاً أن تشعر بالحزن وأنت سعيد، وشاب يقول لك أشياء جميلة، وقبلات كثيرة، ثم فى النهاية، وتقريباً بدون أن تعرف، وكأن شيئاً لم يحدث، لدرجة أنك لن تشعر أن هناك شيئاً خاطئاً أو شيئاً يمكن أن تعترض عليه السيدة العذراء... تنهدت فيرجينيا بعنف وأغلقت عينيها. بدا على وجهها تعبير كالسكينة الساروفيمية. تنهدت مرة ثانية وهزت رأسها وقطبت حاجبيها، ثم فكرت بغضب أنها بدلا من ذلك، أفسد سيج كل هذا بتصرفاته المتمرسة الواثقة. لقد أطلق الرصاص على الرومانسية وحطمها إلى قطع صغيرة، وجعلك تثور عليه. وما المقصود من كل هذا؟ ظلت فيرجينيا تفكر فى ذلك بضيق. ما المقصود سواء من وجهة نظره أو من وجهة نظرها؟

بدأت طبقة الطلاء الأولى وكأنها جفت، فانحنيت على قدميها ونفخت فيها قليلاً، ثم بدأت فى طلاء الطبقة الثانية. خلفها، فجأة، انفتح باب الغرفة، وأغلق ثانية.

قالت بصوت تساؤل ونوع من الدهشة دون أن ترفع رأسها:

- العم چو؟

لم تأتأها الإجابة، ولكنها سمعت صوت اقتراب أقدام. قالت مرة ثانية:

- العم چو؟

استدارت للتظر، فرأت الدكتور أوبيسبو واقفا بجانبها. همست فى دهشة:

- سيچ! ماذا تفعل هنا؟

ابتسم الدكتور أوبيسبو بإعجاب ساخر، وبنوع من الحدة المصحوبة بالرغبة

الجنسية الفاضحة الساخرة وقال:

- ظننت أنه ربما يمكننا إكمال درس اللغة الفرنسية.

قالت بتوجس وهى تلظر نحو الباب:

- أنت مجنون! إنه عبر الردهة مباشرة. ربما يأتى...

اتسعت ابتسامة الدكتور أوبيسبو فى سرور واستهزاء وقال:

- لا تقلقى من العم چو.

- سوف يقتلك لو وجدك هنا.

أجاب الدكتور أوبيسبو:

- لن أجدنى هنا. لقد أعطيته قرص نيبوتال قبل النوم. سوف ينام حتى

المزمار الأخير.

قالت فيرجينيا:

– أعتقد أنك فظيع!

ولكنها لم تستطع منع نفسها من الضحك، جزئياً بسبب الارتياح، وجزئياً لأنه شيء مضحك فعلاً أن تفكر في العم جو يشخر في الغرفة المجاورة بينما سيح يقرأ لها ذلك الشيء. سحب الدكتور أوبيسبو كتاب الصلوات العامة من جيبه، وقال وهو يحاول ادعاء الأدب والتهذيب:

– لا تجعليني أقطع عليك عملك. عمل المرأة لا ينتهي. استمرى وكأني لست موجودا. سوف أجد الفقرة التي توقفتنا عندها، وأبدأ في القراءة. ابتسم إليها بوقاحة وهدوء أعصاب، وجلس على حافة السرير الروكوكو وأخذ يقلب صفحات الكتاب.

فتحت فيرجينيا فمها لتقول شيئاً، ولكنها أمسكت بقدمها اليسرى وأغلقت فمها ثانية، تحت وطأة احتياج أكثر إلحاحاً من أن تشير إلى الموضوع الذي توقفت عنده، إذ قد جف الطلاء وبدا ككتل غير منتظمة، لذلك فإن لم تستمر في عملها فوراً، سوف تبدو أصابعها بشعة. بسرعة أغرقت فرشاتها في زجاجة الطلاء الأسيتوني، وعادت تطلو مرة ثانية بتركيز شديد مثل تركيز فان آيك⁽⁴⁾ أثناء عمله في التفاصيل الميكروسكوبية للوحته عبادة الخروف.

نظر الدكتور أوبيسبو من كتابه وقال:

– لقد أعجبتني الطريقة التي تعاملت بها مع بيت اليوم، ومغازلته هكذا طوال فترة العشاء حتى إنك جعلت الرجل العجوز يغار منه. كان ذلك بارعاً، أو ربما نقول – تصرفت كالعشيقة.

أطلقت فيرجينيا لسانها وقالت بتأكيد:

4- فان آيك: رسام فلمنكي (١٣٦٦-١٤٢٦).

- بيت ولد لطيف .

قال الدكتور أوبيسبو موضحاً:

- ولكنه غبى .

تمدد على السرير برشاقة واعية وبوقاحة أثارت فيها الغيظ، لأنه كان يبدو كمن يتمدد في بيته وعلى سريره . استمر ضاحكاً:

- وإلا ما كان وقع في غرامك هكذا . المسكين يعتقد أنك ملاك - ملاك صغير سماوى، مكتمل بأجنحته، والهارب وعذرية مثل الخاتم الماسى ذى الثمانية عشر قيراطاً المصنوع فى سويسرا . اذا لم يكن هذا غباء...

قالت فيرجينيا بنبرة تهديد، دون أن ترفع رأسها لأنها كانت قد وصلت لنقطة حساسة فى إنجاز عملها الفنى:

- انتظر قليلا حتى يكون لدى الوقت لك!

تجاهل الدكتور أوبيسبو تعليقها واستمر بعد فترة صمت:

- كنت دائما أقتل من قيمة تعلم الدراسات الإنسانية . ولكنى الآن لا أقع فى مثل هذا الخطأ .

ثم فى صوت هادىء مثل ويتبير^(٥) وهو يقرأ أحد أعماله قال:

- دروس الأدب العظيم! الحقائق العميقة! جواهر الحكمة!

قالت فيرجينيا:

- أصمت!

استمر الدكتور أوبيسبو بنفس الطريقة التنبؤية:

- عندما أفكر فيما أنا مدين به لدانتى وجوته! خذى مثلاً حالة باولو يقرأ

٥- ويتبير: نسبة إلى جون جريليف ويتبير، شاعر أمريكى (١٨٠٧-١٨٩٢).

بصوت عال لفرانشسكا، ويحصل على أفضل النتائج:

- «نحن نصحو ذات يوم مثل لانسيلوت لنحب، ولكن لا يوجد لدينا أدنى شك أبدا فيما سوف يحدث لنا. لا يوجد لدينا أدنى شك».

نظر الدكتور أوبيسبو إلى أحد النقوش على كتاب «المائة وعشرون يوما لسدوم» وقال:

- لا، ولا يوجد أدنى شك حتى في جهنم، إلا أنهم بالطبع لا بد أن يحذروا منها. كان ينبغي أن تكون لديهم الفطنة الأساسية ليحموا أنفسهم من أن يرسلوا إلى هناك بصدمة الموت المفاجيء. لو أخذوا بعض الاحتياطات الصغيرة فقط، لحصلوا على أفضل ما في العالمين. كان يمكنهم أن يحصلوا على متعتهم بينما الأخ بعيد عن الطريق، وعندما ينتهى وقت الاستمتاع كان يمكن أن يتوبوا ويموتوا في عطر القديسين. ولكن لا بد أن نعترف أنه لم تكن لديهم ميزة قراءة فاوست لجوته. لم يتعلموا أن الأقرباء المزعجين يمكن إعطاؤهم حبوباً منومة، وحتى لو كانوا تعلموا هذا، لما استطاعوا أن يذهبوا إلى الصيدلية لشراء زجاجة نمبوتال. وهذا يبين أن تعلم الإنسانيات ليس كافياً، بل لا بد من تعلم العلوم أيضاً. دانتي وجوته يعلمانك ماذا تفعل، وأستاذ علم الدواء يريك كيف تصيب الصقر العجوز بالغيبوبة ببعض الحبوب المنومة.

أنهت فيرجينيا طلاء أصابعها. استدارت إلى صيفها وهى لا تزال ترفع قدمها اليسرى حتى تمتع أى مس قد يلحق بها ضرراً قبل أن يجف الطلاء تماماً، وقالت بغیظ:

- لن أسمح لك أن تسميه الصقر العجوز.
قال الدكتور أوبيسبو مقترحاً:

– هل نقول إذن ابن الزنا؟

قالت فيرجينيا وفي صوتها نبرة إخلاص حقيقى:

– إنه أفضل مما يمكن أن تكونه أنت. أعتقد أنه رائع.

قال الدكتور أوبيسبو:

– تعتقدون أنه رائع ولكن بالرغم من ذلك بعد خمس عشرة دقيقة سوف

تضاجعيني.

ضحك وهو يتحدث وانحنى للأمام وأمسك ذراعيها من تحت إبطيها من

الخلف. حاولت فيرجينيا الإفلات منه ولكنه قال:

– احترسى لأصابعك.

الخوف من إفساد عملها الفنى جعلها تتردد قليلا قبل أن تبدأ فى الحراك. استغل

الدكتور أوبيسبو ترددها وانحنى فوقها وقبلها فوق عنقها الجميل، ثم من خلال هالة

الأسيتون، واقتربا من عطر الصدمة، وصل إلى فمها الدافئ الحارم، عبر وجنتيها

وشعرها الحريري. نزعت فيرجينيا رأسها بعيداً وهى تلعه، ولكن بدأ شعور جميل

يسيطر عليها، وبدغدغ أحاسيسها فى نفس الوقت مع الإحساس بالتذمر.

هذه المرة قبلها الدكتور أوبيسبو خلف أذنها، وهمس:

– هل أقول لك ما سأفعله بك؟

أجابته بأنه قد قدر، وبالرغم من ذلك قال لها كل شيء بالتفصيل الدقيق.

مرت أقل من خمس عشرة دقيقة عندما فتحت فيرجينيا عينيها ونظرت عبر

الغرفة التى أصبحت الآن مظلمة. لمحت السيدة العذراء تبتسم بعطف وسط أزهار

بيت دميته المضاء، قفزت من مكانها بصرخة فزع، ودون أن ترتدى ملابسها

جرت نحو المعبد وأغلقت الستائر. انطفأ الضوء تلقائيا. مدت يديها أمامها فى

الظلام وبحثت عن طريق عودتها إلى السرير بحذر.

الجزء الثاني

الفصل الأول

بعد ثلاثة أسابيع، كتب جيريمي خطاباً لأمه قال فيه:

«مرة ثانية لا يوجد قحط في الأخبار، أخبار من كل نوع وشكل ومن كل القرون . وكبدائية، ها هي بعض الأخبار حول الإيرل الثاني، فيما بين خسائره الحربية أمام تشارلز الأول، كان الإيرل الثاني شاعراً، ولكنه كان شاعراً سيئاً بالطبع - لأن الفرصة دائماً ألف لواحد أن يكون أى شاعر جيداً - ولكن مع بعض الانحرافات غير المقصودة نحو الجاذبية. ماذا عن هذه مثلاً والتي وجدتتها في المخطوطات بالأمس فقط:

«شمعة واحدة تحترق، ولكنها كثير جداً،

حبنا يحتاج إلى الاختفاء الكامل

فلجعل النظر يحل محل الأطراف والشفاه..»

ألا تعتقدين أنها جيدة؟ ولكن مع الأسف فهي الشذرة الوحيدة التي عثرت عليها وسط الطمي. لو كان الباقي صمتاً! ولكن هذه مشكلة الشعراء، الجيدين منهم والسليين. لن يغلقوا شراكتهم أبداً، كما نقول نحن أهل شمال الكرة الأرضية، أية سعادة لو كان باقى وردزورث كله صمتاً، وباقى كوليريدج وباقى شيلي!

وأثناء ذلك كله، أدهشنى الإيرل الخامس بالأمس بسبب مذكرة مملوءة بالملاحظات العابرة المتنوعة. لقد بدأت توا فقط فيها، لأننى لا بد ألا أقضى وقتى كله على أية واحدة منها قبل أن أكون قد فككت وفهرست المجموعة كلها بشكل مبدئى. ولكن القطع التي قرأتها بالتأكيد فاتحة للشهية. وجدت هذه مثلاً في الصفحة الأولى: «اللورد تشستر فيلد كتب لابنه أن الجنتللمان لا يتحدث بنبرة فظة إلى خادمه، ولا حتى إلى الشحاذ في الشارع، ولكن يقوم بإصلاح الأول ببرود،

ويرفض الثاني بالإنسانية... إذن فصاحب السيادة كان لابد أن يضيف أن هناك فنا من خلاله يمكن لمثل هذا البرود أن يكون هائلا أكثر من الغضب، بل ومثل هذه الإنسانية أكثر تجريحا من الإهانة.

بالإضافة إلى هذا، فالخدم والشحاذون ليسوا الأشياء الوحيدة التي يمكن ممارستها هذا الفن عليهم. صاحب السعادة نسي بكل قلة شهامة، أن يذكر الجنس، لأنه هناك أيضا فن للتعامل ببرود، بل وإغاطة أنثى مخلصه، وانتهاك شخصها، بكل الذوق الذي يليق بأفضل الجنتمانات.

إنها ليست بداية سيئة. سأظل أخبرك بأية اكتشافات متتالية في هذا المجال. أما الأخبار العصرية فهي غريبة، ومربكة، وغير مريحة بعض الشيء، فبداية العم جو متجهم الوجه بشكل مزمن، وحاد المزاج هذه الأيام. إنني أشك في الوحش أخضر العينين^(١)، لأن الوحش أزرق العينين، أى مس مونسيبل البببي، كانت تدبرهما منذ فترة لحروب الصغير. إن كانت تدبر أكثر من العينين فهذا ما لا أعرفه، وإن كنت أعتقد أنها تفعل ذلك، لأن لها هذه النظرة الداخلية الحاملة، وهى النظرة البعيدة كتعبير وجه السائرين نياما، والتي يمكن ملاحظتها عادة على أوجه الفتيات الصغيرات اللاتي يقمن بالكثير من المضاجعة الجهيدة. أنت تعرفين التعبير الذى أعنيه، وهو تعبير روحى فاخر، يشبه ما قبل الرفائيلية^(٢)، ما علينا سوى أن ننظر إلى هذا الوجه لنعلم أن الله موجود. الملمح الوحيد الغريب فى تلك اللحظة هو الملابس. تعبير ما قبل الرفائيلية يحتاج إلى ملابس ما قبل الرفائيلية، ذات الأكمام الطويلة، والكمرات المربعة، وباردات وباردات من قطيفة الحرية. أما عندما ترينها

١- الوحش أخضر العينين: كناية عن الغيرة فى اللغة الإنجليزية.

٢- رفايلية: نسبة إلى رافائيل الرسام الإيطالى (١٤٨٣-١٥٣٠).

كما رأيتها اليوم، ترتدى شورتاً أبيض وعصابة رأس وقبعة كاروبى فإنك سترتبكين وتفقددين الاهتمام. ولكن دفاعاً عن شرف البيبي، لابد أن أصرّ أن كل هذه تكهنات وتخمينات فقط. قد يكون طبعاً هذا التعبير الروحي الجديد على وجهها ليس نتيجة لإجهاذ المضاجعة، بل على العكس، أن البيبي قد تحولت من خلال تعليم الشيء-بروتير، وأنها الآن تمشى فى حالة من السرمدية الدائمة. ومن ناحية أخرى، فإننى أراها بالفعل تغازل وتعطى عين الرضاء لبيت. بل والأكثر من ذلك أن العم جو يبدى كل أعراض الشك فيهما، وهو حائق جداً على كل الآخرين، وأنا من بينهم بالطبع، بل ربما منى أكثر من الآخرين، لأننى قرأت كتباً أكثر منهم جميعاً وبالتالي فإننى أمثل الثقافة. والثقافة بالطبع شيء يكرهه كالتنار، ولكن على عكس التنار، إنه لا يريد حرق الآثار الثقافية، بل يريد شراءها. إنه يعبر عن تفوقه على الموهبة والعلم من خلال التملك وليس التدمير، ومن خلال تعيين ثم إهانة الموهوبين والمتعلمين بدلاً من قتلهم. إلا أنه ربما قتلهم لو سلحت لديه فرصة وقوة التنار. كل هذا يعنى أننى عندما لا أكون فى السرير أو تحت الأرض فى أمان مع أوراق الهوبيرك، فإننى أقضى وقتى أبتسم رغماً عنى وأتحمل، وأفكر فى ذى البطن الجبلى ومرتبى الجميل، لكى أنشغل عن التفكير كثيراً فى أخلاق العم جو السيئة. كلها أشياء غير سارة، لكنها لحسن الحظ محتملة، ثم إن الهوبيرك بمثابة عزاء كبير وتعويض لى.

هذا بالنسبة للصعيد الجنى والثقافى. أما بالنسبة للصعيد العملى، فالأخبار تعنى أننا غالباً أقرب ما نكون للعيش طويلاً مثل التماسيح. حتى وقت كتابة هذه الكلمات، لم أقرر بعد إن كنت أريد أن أعيش طويلاً مثل التماسيح أم لا.

عندما خط كلمة تمساح للمرة الثانية، أحس جيريمى بوخزة مفاجئة. سوف تبلغ أمه سبعة وسبعين عاما فى أغسطس القادم. تحت كل هذه المدنية، وخلف الأحاديث الجذابة المثيرة للإعجاب، كان لديها نهم عميق للحياة. قد تتحدث بشكل موضوعى عن قرب فنائها، وقد تقول النكات الصغيرة عن موتها وجنازتها. ولكن خلف كل هذا الكلام والنكات الصغيرة كان هناك، كما يعرف جيريمى، تريص وإصرار شرس للتمسك بما تبقى، لتستمر فى فعل ما كانت تفعله دائما، بين أسنان الموت، وبالتحدى للشيخوخة. هذا الكلام عن التماسيح قد يؤلمها، إذ قد تفسر تشككه فى إطالة الحياة بأنه نقد غير مستحب لها، أخذ جيريمى ورقة جديدة وبدأ الفقرة من جديد.

- هذا بالنسبة للصعيد الجنسى والثقافى. أما بالنسبة للصعيد العلمى فلا جديد، إلا أن الدكتور أوبيسبو أصبح أكثر غرورا من ذى قبل. وهذا ليس بجديد لأنه كان دائما أكثر غرورا من ذى قبل، إنه ليس من أحب شخصياتى - إلا أنه ليس غير ممتع أيضا، خاصة عندما أشعر أننى أميل لبضع لحظات من العريضة، يبدو أن فكرة إطالة العمر تتقدم. بار العجوز^(٣) والكونتيسة ديزموند فى الطريق.

وماذا على الصعيد الدينى؟ إن الشىء-بروتر قد يلس من الحض على الفضيلة على الأقل فيما يخصنى. حمدا لله! لأنه كم تكون صحبته ممتعة عندما ينزل من على حصانه! إن عقله مملوء بكل أشكال «المتبقيات»، وكل «المتبقيات»، هذه مرتبة مثل كعكة التفاح. إننى أحسده على تماسكه الثقافى، ولكنى أعزى نفسى بأننى لو فكرت مثله، ولو كان لدى مثل هذا التماسك، لأفسدت حياتى الخاصة الصغيرة.

٣- بار العجوز: اللقب الذى اشتهر به توماس بار (١٤٨٣-١٦٣٥) والذى تحدث عن حياته الطويلة بعض الشعراء مثل تايلور، وقد أرسل إلى السجن عام ١٦٣٥ حيث قيل إن تغيير نمط حياته قد قُتل.

عندما يمتلك موهبة الوقوف برشاقة فوق رؤوسنا، أصبحنا أغبياء وغير ممتنين لو حسدنا عداء الماراثون. إن مقالة أدبية مضحكة صغيرة في اليد تساوى على الأقل ثلاثاً من نقد العقلانية البحت الذى على الشجرة.

أما آخر شيء فهو الصعيد المنزلى، وأشير إلى خطابك الأخير من جراس. أى احتفال هذا! روايتك عن مدام دى فيليمبول كانت لا تقل عن كتابات بروس^(٤). أما شريك للطريق إلى كاب داي وقضاؤك اليوم مع مخلفات الأميرة، وهذا الرجل المسكين - فماذا أقول سوى أنه يليق بموراساكي^(٥): أصل كل التراجيديا مصفى إلى ملعتين من الشاي بلون العنبر فى فنجان من البورسلين فى حجم زهرة الماجنوليا. أى درس هذا فى فن الطهارة الأدبية مثير للإعجاب! إن اتجاهاتى - فقط فى عالم الأدب حمدا لله، هى تجاه نوع من الاستعراض. أما النثر العذرى الذى تكتبينه فقد أخرجنى.

إذن لم يعد هناك شيء بعد لقوله، كما كنت أكتب فى المدرسة بخط كبير جدا، أتذكرين؟ كنت أحاول أن أجعل الكلمات تملأ نصف صفحة من الكراس. لا يوجد شيء أقوله سوى بالطبع ما لا يمكن قوله، وسأتركه دون أن يقال لأنك تعرفينه أصلا.

أغلق جيريemy خطابه وكتب عليه العنوان - أروكارياس - لأن أمه سوف تعود من جراس بينما الخطاب يعبر الأطلنطى - ووضع الخطاب فى جيبه. كانت أوراق الهوبيرك حوله تناديه ليلتفت إليها، ولكنه ظل متكاسلا بعض الوقت. وضع مرفقيه على المكتب فى وضع صلاة، وبدأ فى حك رأسه - حكها بيديه الاثنتين فى

٤- بروس: نسبة إلى مارسيل بروس (١٨٧١-١٩٢٢) وهو روائى فرنسى.
٥- موراساكي: نسبة إلى الكاتبة الروائية اليابانية شيكيكو موراساكي (١٩٧٨-١٠٢٦)، وتعتبر روايتها قصة جلى، أقدم رواية معروفة فى العالم.

الأماكن التي تركت بقع جُلبة صغيرة عند جذور شعره الذي نبقى له - وهي جُلبة كان يستمد سعادة غريبة في نقشيرها بظفر إصبعه وإزالتها بعناية. كان يفكر في أمه، وبالرغم من أنه قد قرأ الأدبيات الفرويدية عن مسألة أوديب هذه، وكل الروايات بدءاً من «أبناء وعشاق»^(٦) إلى آخره، حول خطورة ولاء الابن لأمه، ومخاطر الحب الأمومي الزائد عن الحد - بالرغم من أنه قرأها كلها إلا أنه لا يزال، ويعين مفتوحين، مستمراً في أن يظل كما هو: ضحية لأم متسلطة طمّاعة ومستأثرة. وربما الأغرب من كل هذا، أن هذه الأم المستأثرة قد قرأت أيضاً كل الأدبيات المرتبطة بهذا الموضوع وكانت تعي تماماً أنها فعلت ما فعلت بابنها. ولكن بالرغم من ذلك هي أيضاً ظلت كما هي، تفعل ما كانت تفعله دائماً - مثله تماماً، ويعين مفتوحين ليس أقل منه. (ها قد أزيلت القشرة تحت اليد اليمنى. جذبها خارج خصلة الشعر الكثيف فوق أذنه ونظر إلى النسيج اللين الصغير المجفف، وتذكر فجأة الببونات. ولكن بعد كل شيء، ولماذا لا؟ إن أكثر المتع استمرارية وضماناً هي أصغر وأبسط المتع الحيوانية الأولية - متعة الرقود في حمام ساخن مثلاً، أو تحت الملاءات بين الصحو والنوم في الصباح، ومتعة الاستجابة إلى نداء الطبيعة، ومتعة التدليك من قبل مدلك محترف، وأخيراً متعة الحك عندما يصاب بالحكة الجلدية. لماذا الخجل؟ أسقط القشرة المجففة في صندوق القمامة واستمر يحك باليد اليسرى).

لا شيء مثل معرفة الذات. أن تعرف لماذا تفعل الخطأ والغباء، إذ أن ذلك يمنحك مبرر الاستمرار في فعله. التبرير من خلال التحليل النفسي - وهو البديل الحديث للتبرير بالإيمان، مثل الأسباب البعيدة التي جعلتك سادياً أو محباً للمال، أو

٦- أبناء وعشاق: رواية للكاتب الأمريكي د.ه. لورانس (١٨٨٥-١٩٣٠).

عابدا لأملك أو أكلا للحوم البشر. إذن لديك المبرر الكامل للاستمرار في أن تكون أكلا للحوم البشر، وعابدا لأملك ومحبا للمال وساديا. لا عجب إذن أن أجيالاً بأكملها قامت لتبارك اسم فرويدا! على أية حال هذه هي الطريقة التي يتعامل بها هو وأمه. كانت المسز بورديج تقول على نفسها - وفي حضور الكاهن كذلك، «نحن الأمهات مصاصات دماء». أو تصيح في طيلة أذن المسز فريدجوند تعلن براءتها، وتقول، «الچوكاستا»^(٧) العجائز مثلى مع إبن في منتصف العمر في البيت. ويكمل جيري مي لعبتها فيعبر الغرفة ويصرخ وسط هذه المقبرة من الحوار الذكى ويقول طرفة هزلية ضعيفة عن كونه أصبح عانسا عجوزا مثلا، أو عن أن الجهبذة العلمية بديلا للتطريز - أو أى عفن ينفع. والعجوز الشمطاء تعطيه تلك الضحكة العميقة مثل ضحكات أفراد العصابات، وتهز رأسها فيهتز أى شىء تضعه على رأسها في ذلك الوقت مثل القبة المزخرفة بالنوارس المحنطة، أو بزهور البتونيا الصناعية - والتي تهتز مثل الريش الزينة فوق حصان في مهرجان فرنسى من الدرجة الأولى. نعم، كم كان غريبا، ولكن أيضا كم كان رشيدا منهما، أنهما، هو وأمه، لا يريدان شيئا أكثر من استمرارهما كما هما. الأسباب التي جعلتها تريد أن تظل متسلطة كانت واضحة جدا، إذ لاشك إنه شىء ممتع أن تصبح ملكة، وممتع أكثر أن تتلقى فروض الطاعة ويكون لها رعية أمينة. ولكن ما كان أقل وضوحا، على الأقل بالنسبة لشخص من خارجهما، هو أسبابه هو لتفضيل الوضع القائم. ولكن بالنظر إلى الموضوع، بدا له مقنعا بشكل كافٍ، بادئ ذي بدء كانت هناك مودة، لأنه تحت نوع من السخرية السطحية والتكلف كان مرتبطا ارتباطا شديدا بأمه. ثم كانت هناك العادة - العادة طويلة الأمد، حتى إنه أصبح يعتبر أمه جزءا من أعضاء

٧- چوكاستا؛ وهى أم أوردب التي تزوجها.

جسده، جزءاً لا يقل أهمية عن البنكرياس أو الكبد. بل كان هناك إحساس بالامتنان تجاهها لأنها فعلت أشياء له بدت في حينها قاسية بشدة وبلا مبرر. كان قد أحب فتاة وهو في الثلاثين من عمره، وكان يرغب في الزواج منها. أما أمه، دون أن تقوم بمشهد واحد، ودون أن تفعل أى شيء سوى إظهار المحبة العظيمة نحوه، والتصرف بجاذبية شديدة في كل تعاملاتها مع آيلين الصغيرة العزيزة، كانت المسز بروديج تقال دائماً من شأن العلاقة بين الاثنين، وقد نجحت في ذلك الهدف بشكل جيد، حتى إن العلاقة تقوضت على نفسها مثل البيت الذى انهار أسفله. كان تعيساً في ذلك الوقت، وجزء منه على الأقل كره أمه لما فعلته. ولكن مع مرور السنوات بدأت مرارته تقل شيئاً فشيئاً، حتى إنه أصبح الآن بلا شك ممثناً لها لأنها خلصته من بشاعات المسؤولية، والعائلة والعمل المنتظم الذى يدرّ ربحاً وفيراً - ومن زوجة كانت في أغلب الظن ستصبح طاغية أسوأ من أمه، لأن آيلين أصبحت تدريجياً سيدة وقورة نشيطة ولكنها كانت من أسوأ أنواع الإناث بين كل معارفه. كانت شيئاً تقليدياً بحرارة، فخورة بانفراج زاريتها، ومثل النملة في كفاءتها، وخيرة بشكل طاع. باختصار، مارد جبار. لولا خطة أمه الإستراتيجية لأصبح اليوم المستر ويلكين سيء الحظ الذى هو الآن زوج آيلين وأباً لما لا يقل عن أربع ويلكينيات صفار في نفس سوء آيلين في طفولتهم وصباهم مثلما أصبحت آيلين في منتصف عمرها. كانت أمه بلا شك تقول الحقيقة عندما أسمت نفسها جوكاستا، وأم متسلطة مصاصة للدماء، وبلا شك أيضاً كان أخوه توم مصيباً عندما أسماه بيتربان، وتحدث بنهم عن «أحبال المريلة». ولكن تبقى حقيقة أنه أصبحت لديه الفرصة ليقراً ما يريد، ويكتب مقالاته الصغيرة، في حين أن أمه اهتمت بكل الجوانب العملية في حياته، وطالبت في المقابل بكم من الولاء لم يكن صعباً عليه أن يمنحه

لها، وتركته حرا، كل يوم جمعة آخر، ليتذوق المتعة الراقية فى القذارة اللانهائية فى مايدا فيل. بينما انظر ما حدث لتوم المسكين! السكرتير الثانى فى طوكيو، السكرتير الأول فى أوسلو، المستشار فى لا باز، والآن عودة إلى الأبد، فى مكتب الخارجية، يصعد ببطء الهيرركية، نحو وظائف ذات مسئوليات أكبر ودناءة متزايدة. وكلما زاد المرتب وزادت أخلاقيات ما كان مطلوبا منه أن ينجزه كلما غطس أكثر، كان عدم ارتياح المسكين يتزايد إلى حد أنه أخيرا، وبسبب الخلاف حول الحبشة، لم يعد يستطيع التحمل، فأصيب بانهيار عصبى وهو على شفا الاستقالة، وتمكن فى الوقت المناسب أن يحول نفسه إلى الكاثوليكية. ومنذ ذلك الحين استطاع أن يجمع مسئولياته الأخلاقية فى الإثم العام، ويأخذها إلى شارع المزرعة، ويتركها هناك فى الكافور، مع الآباء اليسوعيين. ترتيب يدعو للإعجاب! لقد جعله ذلك رجلا جديدا. وفجأة أنجبت زوجته طفلا بعد أربعة عشر عاما من العقم، وكانت غالبا - كما قام جيريمى بعملية حسابية - قد حملت به ليلة بدء الحرب الأهلية الإسبانية. ثم بعد يومين من نهب نانكينج قام توم بنشر ديوان من الأشعار الكوميدية - شىء مدهش حقا عدد الكاثوليك الإنجليز الذين يكتبون الأشعار الكوميدية. وفى تلك الأثناء كان قد بدأ وزنه يزيد، فبين أنشلاس و ميونيخ زاد وزنه أحد عشر رطلا. بعد عام أو اثنين آخرين سوف يزيد توم أربعة عشر أخرى، وسوف يكون قد انتهى من كتابة كلمات أوبرا لكوميديا موسيقية. لا. لقد قرر جيريمى أن هذا لن يكون مسموحا به. الأفضل أن يظل بيتر بان بحبال المريلة وبالقذارة اللانهائية فى الغرفة الصغيرة... أفضل ألف مرة. أولا أفضل بشكل جمالى، لأن السمعة عن طريق السياسة الحقيقية، وكتابة الأشعار الكوميدية على هوامش نقوش الصلب، حقا كل هذا لم يكن لائقا. وهذا ليس كل شىء. كان وضعه

هكذا أيضا أفضل أخلاقيا، لأنه بالطبع الشيء-برويتر كان مصيبا فيما قال: لو كنت غير متأكد أنك تفعل الخير الأكيد، على الأقل ابق بعيدا عن الأذى. وما هو نوم المسكين العجوز، صار مشغولا مثل القُدس، وما أنه الآن تابع للكنيسة الكاثوليكية، فهو سعيد كالقنبرة، يعمل بالتحديد في المكان الذي يمكن أن يسبب فيه أقصى قدر من الأذى لأكبر عدد ممكن من الناس.

انفلتت القشرة الأخرى. تنهد جيريمي ومال إلى الوراء في كرسية. إننا نحك أنفسنا مثل الببوانات، ونعيش في سن الرابعة والأربعين في أمان خيال والدتنا، وحياتنا الجنسية في ذات الوقت طفولية وفاسدة. ولذلك فلا يمكن أن نعتبر عملنا بأي حال من الأحوال، مفيدا أو مهماً. ولكن عندما يقارن بين نفسه والآخرين، مع نوم مثلا، أو حتى مع النوابغ والمبجلين، مع الوزراء وأرباب صناعات الصلب والمطارنة والكتّاب المشهورين - فحقا لا يبدو سينا لهذه الدرجة. وبالاحتكام إذن إلى معيار عدم الأذى السلبي، بدا حتى كأنه جيد جدا. يأخذ كل شيء عن أي شيء، وما أنه توصل لهذا القرار، فقد حان وقت العودة للهويريك.

الفصل الثانى

لم تصحُ فيرجينيا هذا الصباح حتى العاشرة تقريبا، وحتى بعد أن أخذت حماما وتناولت فطورها بقيت فى سريرها ساعة أو اثنتين أخريين، عيناها مغلقتان، مستعدة بلا حراك إلى الوسادات المكونة خلفها، مثل فتاة جميلة صغيرة فى حالة نقاهة، خارجة توا من وادى الظل.

وادى ظل الموت، الموت الأكبر وكل موت صغير. من خلال الموت تأتى التجليات. من أراد أن ينقذ حياته لابد أن يضيعها. نساء ورجال يحاولون دائما إضاعة حياتهم، الحياة غير المنعشة، غير المجدية، والتي بلا معنى.

دائما يحاولون التخلص منها، وبألف طريقة مختلفة. فى طيش القمار والإحياء الدينى، فى هوس الجشع والانحراف، فى الأبحاث والطائفة والطموح، فى الجنون التعويضى للخمر، فى القراءة، فى أحلام اليقظة، فى المورفين، فى هلوسات الأفيون والسينما والطقوس، فى التشنجات الهائجة للحماس السياسى واللذة الجنسية، فى غيبوبة المنومات والإرهاق. إلى الهروب، نسيان الذات القديمة المتعبة، ليصبحوا أشخاصا آخرين، أفضل من ذلك، شيئا آخر، مجرد جسد، فاقد الحس بشكل غريب، أو ربما حساس أكثر من اللازم، أو ربما مجرد حالة من التعقل غير الذاتى، ونوعاً من الوعي غير الفردى. أية سعادة، وأى تخفيف هائىء، حتى بالنسبة لمن لم يبع من قبل أن هناك شيئا ما يستدعى التخفيف. كانت فيرجينيا من هؤلاء، سعيدة فى حدودها، غير واعية بما يكفى بشخصيتها الذاتية لدرجة أنها لا تلاحظ قبورها ونقصها، أو البؤس العام للوضع البشرى. ومع ذلك عندما هندس الدكتور أوبيسبو بشكل علمى عملية هروبها إلى التشنجات الجنسية، وكانت أكثر قوة من أى شيء عرفته أو حتى تصوريته من قبل، عرفت فيرجينيا أنه فى النهاية، يوجد شيء

ما فى الوجود بحاجة إلى تخفيف، وأن هذه القفزة فى ظلام النسيان الكامل إلى وعى أقوى وغريب جدا عنها، كانت بالتحديد التخفيف الذى يحتاجه هذا الشيء . ولكن مثل كل أنواع الإدمان الأخرى، سواء للمخدرات أو للكتب، للسلطة أو للتصفيق، كان إدمان اللذة يجعل الحالة التى يخففها مؤقتا تتفاقم . ينزل المدمن إلى وادى ظل موته الذاتى الصغير - ينزل بلا كلال، بيأس، بحثا عن شيء آخر، شيء ليس نفسه، شيء آخر وأفضل من الحياة التى يعيشها بائسا كبشر فى العالم البشع المملوء بالذوات البشرية . إنه ينزل، إما بعنف أو بقوة الدفع الجميلة، ليموت ويتجلى، ولكنه يموت فقط لفترة قصيرة، ويتجلى لفترة قصيرة، ويعد الموت الصغير توجد القيامة الصغيرة، قيامة من اللاوعى، خارج الإثارة، حتى لدرجة إبادة الذات، عودة إلى بؤس معرفة الذات، فى وحدة وضعف ولا قيمة، عودة إلى انفصال أكثر اكتمالا، وإحساس أقوى بالذات . وكلما أحسست أكثر بانفصال الذات، كلما كان الطلب أكثر إلحاحا لتجربة أخرى من تخفيف الموت والتجلى . الإدمان يخفف، بينما تزيد الرغبة فى التخفيف .

كانت فيرجينيا راقدة ومسلودة إلى وسادتها، تعاني من قيامتها اليومية، من وادى ظل موتها اللئلى، من كونها شيئا متشنجا آخر . بدأت تستعيد ذاتها مرة ثانية - تلك الذات التى لا تزال بلا إحساس إلى حد ما، وكانت مذهولة من الإرهاق، ولا تزال تسكنها ذكريات مناظر غريبة ومشاعر جامحة، ولكن بالرغم من ذلك هى نفسها لا تزال فيرجينيا القديمة، المعجبة بالعم جولنجاه، والتى تشعر بالامتنان له لأنه منحها وقتا جميلا، وهى نفسها فيرجينيا التى كانت تضحك دائما وتعتقد أن الحياة عظيمة، والتى لم تكثرث لشيء . نفس تلك الفيرجينيا التى جعلت العم جولو يبنى لها الكهف المقدس، والتى أحببت السيدة العذراء منذ أن كانت طفلة . والآن ها

هى هذه الفيرجينيا تخدع العم جو المسكين العجوز الذى يعجبها. لم تكن فقط تقول بعض الكذب الأبيض الصغير، والذى يفعله أى شخص، ولكنها تخدعه عن عمد وبشكل منهجى. وأيضاً لا تخدعه هو فقط، بل كانت تخدع بيت المسكين كذلك. كانت تتحدث معه طوال الوقت، وتعطيه عين المحبة - عين المحبة على أية حال بقدر استطاعتها تحت هذه الظروف - بل وتكاد تطارحه الغرام على الملأ، لكى لا يشك العم جو فى سيج. ليس لأنها لن تسعد نوعاً ما لو أن العم جو شك فى هذا الأخير، فقد كانت تود لو تلقى لكمة فى فكه وتراه يرمى خارجاً. كم كانت تود ذلك! ولكن مع ذلك كانت تعمل كل ما بوسعها للتغطية عليه، بينما تجعل هذا الولد المسكين الغبى يتصور أنها مرتبطة به هو. مخادعة - هذا كل ما فى الأمر. مخادعة. لقد أقلقها معرفة ذلك، وجعلها تشعر بالتعاسة والخجل. لقد امتنعت عن الضحك على الأشياء مثلما كانت تفعل من قبل، وجعلها تظل تفكر، وتشعر بالضيق مما تفعل، وتقرر عدم ارتكابه ثانية. تقرر ولكن لا تستطيع أن تمنع نفسها من ارتكابه ثانية، بالرغم من أنها كرهت نفسها لذلك، وكرهت سيج لأنه يجعلها ترتكب ذلك الفعل، بل وفوق كل ذلك، لأنه يقول لها كيف فعل ذلك ولماذا لا تستطيع مقاومته بهذه الطريقة البشعة الواثقة الساخرة. ومن بين الأسباب التى تجعلها تريد أن تفعل ذلك ثانية هو أن هذا يوقف إحساسها السيء حول كونها قد ارتكبت من قبل. ولكن بعد ذلك كانت تشعر بالضيق ثانية. كانت تشعر بالضيق حتى إنها كانت تخجل من النظر مباشرة إلى وجه السيدة العذراء. بالرغم من مرور أسبوع الآن، ظلت الستائر البيضاء القطيفة مغلقة أمام بيت الدمية المقدس. ببساطة، لم تجرؤ على فتحها لأنها كانت تعلم أنها لو فتحتها، ولو أعطت وعداً للسيدة العذراء هناك وهى راكعة، فلن يكون ذلك ذا جدوى. عندما يأتى هذا السيج

البشع مرة أخرى، سوف تشعر بهذا الإحساس الغريب في داخلها، وكأن كل عظامها قد تحولت إلى مطاط، وتخور قواها، وقبل أن تعرف أين هي، يحدث كل شيء ثانية. وسوف يكون ذلك أسوأ بكثير من كل المرات السابقة بسبب وعدها للسيدة العذراء، ولذلك فالأفضل ألا تعطى أية وعود بالمرة - ليس الآن على أية حال، ليس دون وجود فرصة أفضل للحفاظ عليها، لأنه بالطبع لا يمكن أن تستمر الأمور على ما هي عليه إلى ما لا نهاية. لقد رفضت ببساطة أن تصدق أنها سوف تظل دائما تشعر بذات الإحساس المطاطي في عظامها. يوما ما سوف تشعر بالقوة بمكان، بحيث تستطيع أن تقول لسيح أن يذهب للجحيم. وعندما تفعل ذلك سوف تعطى هذا الوعد. لكن إلى أن يحين هذا الموعد، فالأفضل ألا تفعل.

فتحت فيرجينيا عينيها ونظرت بحنان لتلك الكوة بين النافذة والستائر المغلقة التي تخبئ بداخلها الكنز - التاج الصغير الداخية، وحببات اللؤلؤ، والثوب الأزرق الحريري، والوجه الحنون، والأيدى الصغيرة الرائعة. تنهدت فيرجينيا بعمق، وأغلقت عينيها ثانية، تحاول التظاهر بالنوم، لتعيد إمساك لحظات النسيان السعيد التي أخرجها منه ضوء النهار رغما عنها.

الفصل الثالث

قضى مستر ستويت صباحه فى بانثيون بيفرلى رغما عنه، إذ كان لديه فرع شديد من المقابر حتى لو كان يملكها. ولكن تكتيز المال كان شيئا مقدسا بالنسبة له، وكان العمل واجبا يمكنه أن يضحى من أجله بأية اعتبارات شخصية. اليبيزنس! كان لبانثيون بيفرلى أهم أملاك عقارية فى البلاد. وقد اشترى الأرض بخمسائة دولار للفدان الواحد أثناء الحرب، وتحسنت - عن طريق إنشاء الطرق والتاج محل الصغير والخزائن ومجموعة التماثيل - حتى وصلت الآن إلى عشرة آلاف دولار للفدان، وهو الآن يبيعها كمقابر منفصلة بالقطعة بمعدل مائة وستين ألفا للفدان - ويبيع بسرعة كبيرة لدرجة أن رأس مال التكلفة الأولية للمشروع قد تم إيفاؤه كله، حتى إنه من الآن فصاعدا أصبح كل شيء مجرد مكسب. وبالطبع كلما زاد عدد سكان لوس أنجيلوس، أصبح المكسب أكثر وفرة، وكان السكان بالفعل يزدون بواقع عشرة فى المائة تقريبا كل عام - بل والأهم أن الزيادة الأساسية مكونة من المسنين على المعاش قادمين من ولايات أخرى من الاتحاد، وهم بالتحديد الذين سيدرون مكسبا فوريا للبانثيون. ولذلك عندما أرسل له تشارلى هاباكوك لىأتى ليحدثه عن أحدث خطط التحسين والامتداد، وجد مستر ستويت أنه من المستحيل أخلاقيا أن يرفض. كبح نفوره وأدى واجبه. طوال الصباح جلس الرجلان فى مكتب تشارلى أعلى قمة برج القيامة، بالسيجار فى فمهما، وقام تشارلى بتلويح يديه ونفث دخان السيجار من فتحتى أنفه، وتحدث - يا الله كم تحدث! وكأنه أحد هؤلاء الرجال الذين يرتدون الطربوش ويحاولون أن يجعلوك تشتري سجادة شرقية - وبالعنصرية فكر مستر ستويت فى وجوم أن تشارلى كان بالفعل يشبههم تماما، إلا أن لديه نظام تغذية أفضل من معظم باعة السجاد هؤلاء ومن ثمة كان أكثر سمنة.

زمر مستر ستريت بصوت عال:

- كف عن كلام الباعة هذا. يبدو أنك نسيت أنني أمتلك المكان.

نظر إليه تشارلي بوجه تملوه الدهشة المتألّمة. كلام باعة؟ ولكن هذا ليس كلام باعة. إنه حقيقي، وجاد كل الجدية. كان البانثيون مثل ابنه - لقد اخترع المكان بنفسه. إنه هو الذى فكر فى التاج محل الصغير، فى الكنيسة وفى شكسبير. اشترى بمبادرة منه شخصيا مجموعة من التماثيل اللقطة بالجملة من جنوا، وكان هو الذى اخترع سياسة حقن الموت بالاجاذبية الجنسية، وهو الذى قاوم بعناد كل محاولة لتقديم أى نوع من الحزن أو الشيخوخة أو أى رمز للفناء، وأية صورة للمسيح المعذب، فى تلك المقابر. كان عليه أن يحارب من أجل أفكاره، وعليه أن يستمع للنقد الكثير، ولكن النتائج أثبتت أنه على حق، إذ أن كل من يشكى من عدم وجود صلبان فى المكان يمكن أن يحال إلى الحسابات المنشورة. وها هو مستر ستريت يسخر من كلام الباعة. كلام باعة فعلا، عندما يكون الطلب على مكان فى البانثيون كبيرا جدا لدرجة أن الوضع الحالى سوف يصبح غير كافٍ فى القريب العاجل. لابد من وجود توسعات، أماكن أكثر، ومبانٍ أكثر، ومرافق أكثر. أكبر وأفضل، تقدم خدمات.

فى أعلى قمة برج القيامة كشف تشارلي هاباكوك عن خطته. لابد أن يحوى التوسع الجديد على ركن للشعراء، ويكون مفتوحا لكل ذوى النوايا الحسنة - بالرغم من أنه يخشى أنه لن يسمح لكتاب الإعلانات أن يدخلوه، وهو شيء مؤسف حقا لأن البعض منهم يكسب المال الكثير، ويمكن إقناعه بدفع المزيد من أجل شرف دفعه مع ممثلى السينما المتحركة. ولكن هذا السلاح ذو حدين - لأن كتاب السيناريو لن يشعروا أن ركن الشعراء قاصر عليهم بالدرجة الكافية لو أدخل صبية

الإعلانات. وبما أن أفراد السينما المتحركة يكسبون أكثر بكثير من الآخرين - فيكون منطقياً إذن هكذا. نعم، قرر تشارلي أنه من المتطقى هكذا. وبالطبع لابد أن تكون لديهم نسخة طبق الأصل من كاتدرائية ويستمينستر^(١) في ركن الشعراء. ويستمينستر صغيرة - سوف يبدو هذا جيداً. ويم أنهم بحاجة إلى أفران المدافن على أية حال، فلا بد من تركيبها هناك في فناء القسيس. وسوف يضعون جهاز اسطوانات موسيقية أوتوماتيكية في القبو تحت الأرض حتى يكون هناك تنوع موسيقى. ليس لأن الناس لا يقدرون الوريلتزر - بل كانوا يقدرونها. ولكن بالرغم من ذلك أحياناً يصبح مملاً بعض الشيء، حتى أنه فكر ربما يحصل على بعض التسجيلات من كورال يغنى الترنيمات والأشياء، وربما بين الحين والآخر، لمجرد التغيير، قد يعطى واعظاً ما رسالة مُلهمة، حتى إنك تستطيع أن تجلس في حديقة التأمل مثلاً، وتستمع للوريلتزر، ثم صوت باريتون لطيف يقول مثلاً جزءاً من خطاب جيتيسبرج أو اضحكْ تضحك معك الدنيا، أو مثلاً شيء لطيف مشوق تغنيهِ المسز إيدي^(٢) أو رالف والدو ثراين - أى شيء ينفع طالما كان ملهماً بما يكفي. ثم كانت هناك فكرة سراديب الموتى. وحقا كانت أفضل ما فكر فيه. قاد مستر ستويت إلى النافذة الشرقية، وأشار عبر واد من المقابر وشجر السرو والأضرحة المصغرة للآثار الزائفة، إلى حيث الأرض ترتفع مرة أخرى إلى حافة مرتفعة من الجبال المشرشرة على الناحية الأخرى. صاح بانفعال إنه هناك، في هذه الحديقة في الوسط، سوف يحفرون نفقاً في هذا. مئات اليادرات من السراديب، مبطنة بالإسمنت المسلح لجعلها مقاومة للزلازل. السراديب من الطبقة الأولى الوحيدة في العالم. وكنائس صغيرة، مثل تلك الموجودة في روما. والكثير من

١ - كاتدرائية ويستمينستر: أشهر كاتدرائية في إنجلترا، مدفون بها معظم الشعراء والكتاب المشهورين.

٢ - المسز إيدي: نسبة إلى ماري باكر جولفرموسية طائفة الكريستيان سايس.

الصور الجدارية المزيفة التي تشبه الحقيقية. يمكنك أن تنفذها رخيصة التكلفة من خلال أحد مشاريع إدارة تقدم العمل تلك. ليس أن هؤلاء يعرفون كيف يرسمون لوحات بالطبع، ولكن لا بأس لأن اللوحات لابد أن تبدو مزيفة على أية حال. ولن يكون حولها شيء سوى الشموع والمصابيح ليحملها الناس معهم - بدون لمبات كهربائية على الإطلاق، إلا في نهاية كل هذه السرايب الملتوية والصلال، حيث توجد كنيسة كبيرة تحت الأرض، بها إحدى تلك التماثيل العارية التي تباع في أسواق سان فرانسيسكو، وسوف يسعدون ببيعها بألف دولار أو أقل عندما ينتهي السوق - وأحد من هذه النساء العصريات ذوات العضلات الكثيرة - وسوف يوقفونها في الوسط، وربما يضعون حولها نافورة تقذف المياه، بأضواء وردية مٌخَبة لتبدو حقيقية. بل إن السائحون سوف يأتون آلاف الأميال ليرونها، لأنه لا يوجد شيء يحبه الناس أكثر من الكهوف. أنظر مثلا إلى كهوف كارلزباد^٣ وكل هذه الكهوف الأخرى في فيرجينيا. وهذه مجرد كهوف طبيعية في حديقة عادية، بدون لوحات جدارية أو أي شيء من هذا القبيل. أما هذه فسوف تكون سرايب. نعم يا سيدي، سرايب حقيقية، مثل الأشياء التي عاش فيها الشهداء المسيحيون - وبإلله هذه فكرة أخرى! الشهداء بل سوف يُقيم كنيسة للشهداء، بها تماثيل لمجموعة من الفتيات بدون ملابسهن، على وشك أن يأكلهن أسد. لن ينحمل المشاهدون الصلب، ولكنهم سوف يذبحون.

استمع مسترستويت بإرهاق ونفور. إنه يكره البانثيون وكل شيء يتصل به. يكرهه لأن بالرغم من التماثيل والورليتز، فإنها لا تحدثه عن شيء سوى المرض

^٣ - كهوف كارلزباد: كهوف في حديقة أسفل جبال الجوادالوب جنوب شرق نيو-مكسيكو، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة جدا من الممرات والغرف المعقدة تحت الأرض، لم يكتشف سوى البعض منها فقط، وقد تكررت نتيجة لتسرب المياه الجوفية إلى الصخر منذ أكثر من ستمائة مليون سنة.

والموت والفساد ويوم الحساب، إذ أنهم سوف يدفنونه هنا، فى البانثيون، عند أسفل تمثال القبة لرودان - ذات يوم أخطأ مساعد المدير ونصح به بذلك وقد تم فصله على الفور، ومع ذلك لم يستطع إغفال ذكرى ما ارتكبه. لم يثر حماس تشارلى للسراديب والويستمنستر الصغيرة أى رد فعل دافىء، ولكن مجرد شخير بين الحين والآخر، ثم فى النهاية موافقة بوجه مكفهر، على كل شيء باستثناء كنيسة الشهداء. ليس لأن كنيسة الشهداء هذه فكرة سيئة بالنسبة لمستور ستويت، بل على العكس من ذلك، كان مقتنعا أن الجمهور سوف يجنّ عليها. إن رفضه لها كان من باب المبدأ - لأنه لا يصح أبدا أن يسمح لتشارلى هاباكوك أن يظن أنه دائما على صواب.

قال بصوت آمر عنيف كاد يكون مثل التأنيب:

- أحضر الخطط والتقديرات لكل شيء آخر، ولكن لا شهداء. لن أسمع بأى

شهداء.

أخذ تشارلى يرجوه وهو يكاد يبكى، طالبا ولو حتى أسداً واحداً، مجرد عذراء مسيحية واحدة من العصر الأول بيدين مربوطتين خلف ظهرها - لأن الناس تنبهر دائما بأى شيء يتعلق بالحبال أو الكلبشات. بالطبع لو كان هناك عذراوان أو ثلاث فهذا يكون أفضل، ولكنه سوف يرضى بواحدة.

قال وهو يصم يديه المعبرتين ويرجاء:

- مجرد واحدة يا مستر ستويت. مجرد واحدة.

هز مستر ستويت رأسه بالنفى وهو يصم أذنيه بعناد لكل رجاء، وقال:

- لا شهداء هنا. وهذا نهائى.

ولم يظهر أن هذا نهائى، قذف سيجاره بعيدا وقام ليذهب.

بعد خمس دقائق كان تشارلى هاباكوك ينفس عن نفسه مع سكرتيره. دائما

الناس ناكرون للجميل. يا للغباء! بل إنه يفكر فى الاستقالة حتى يرى الصقر العجوز أنه لن يستطيع الاستمرار بدونه - ولا حتى خمس دقائق. من صنع هذا المكان ليصبح بالصورة التى عليه الآن، كأفضل مقابر فى العالم؟ بالتأكيد الوحيد من نوعه. من؟ - خبط تشارلى نفسه على صدره. ومن كسب كل المال؟ جو ستويت. وماذا فعل هذا الأخير لجعل المكان ناجحاً؟ لا شيء على الإطلاق. ولم يكن الشيطان العجوز معترفاً بالجميل أو حتى مهذباً بما يكفى. كان يدفعك وكأنك أبله فى الشارع! ولكن هناك شيء واحد مريح فى الموضوع، أن جو العجوز لا يبدو فى حالة جيدة هذا الصباح. ذات يوم فى المستقبل ربما، سوف ينالون سعادة دفنه - هناك فى الأسفل، فى بهو الخزائن، ثمانية أقدام تحت الأرض. وكم كان مستحقاً لذلك!

لم يكن فقط فى حالة سيئة. استند مستر ستويت إلى الورا فى السيارة التى أخذته إلى أسفل تجاه بيغرلى هيلز فى طريقه إلى كلانسى، وظل يفكر فى نفسه مثلما فكر كثيراً هذين الأسبوعين أو الثلاثة الأخيرة، بأنه يشعر أنه ليس على ما يرام. كان يصحو فى الصباح وينتابه إحساس بخمول وبالثقل نوع ما، ولم يكن ذهنه صافياً كما كان من قبل. قال أوبيسبور إنها أعراض أنفلونزا مكتومة، وجعله يأخذ هذه الحبوب كل ليلة، ولكنها تبدو بلا مفعول، واستمر يشعر هكذا بالرغم من ذلك. وفوق كل شيء آخر، كان يقلق نفسه حتى المرض على فيرجينيا. كانت الببى تتصرف بطريقة غريبة، مثل شخص غير موجود حقيقة، هادئة جداً، لا تلاحظ شيئاً، وتتلفض عندما يتحدث إليها متسائلة عما يقول. كانت تتصرف تجاه العالم مثل واحدة من هذه الإعلانات عن السال هلبيتيكا، أو مشروب تين كاليفورنيا، وهذا ما كان يمكن أن يعتقده لولا الطريقة التى تتعامل بها مع هذا

الشخص المسمى بيتر بون. كانت دائما تحدثه أثناء تناول الطعام وتطلب منه الذهاب معها للاستحمام، وتريد النظر داخل ميكروسكوبه - وماذا يهمها هي بالميكروسكوب، يريد أن يعرف؟ - إنها ترمى نفسها عليه - هذا ما بدا له على السطح. وهذه الطريقة في التصرفات مثل مشروب التين ذاك - مثل هؤلاء الذين كانوا يحضرون اجتماعات الكويكرز التي كانت فيرجينيا تأخذه إليها قبل أن تتحول للكريستيان ساينس - كل هذا في الموضوع أيضا. يمكنك أن تقول إنها مغرمة بهذا الشخص. ولكن لماذا حدث ذلك فجأة خاصة وأنها لم تظهر أية علامات عن كونها مغرمة به من قبل؟ كانت دائما تعامله كما تعامل كلباً كبيراً - بمودة وكل هذه الأشياء، ولكن عندما يهز ذيله تفكر هي في شيء آخر. لا. لا يستطيع أن يفهم هذا - لا يستطيع أن يحلله. كانت تبدو وكأنها مغرمة به، ولكن في ذات الوقت تبدو وكأنها لا تلاحظ إن كان ولداً أو كلباً. لقد أولته اهتماما كبيرا - ولكن بالطريقة التي يمكن أن تبديها لـ كلب صيد جميل. وهذا ما أريكه. لو كانت مغرمة ببيت بالطريقة العادية، كان سيجن، ويفتح جهنم عليهما، ويرمي الولد خارج البيت. ولكن كيف يمكنه أن يفتح باب جهنم على كلب صيد؟ كيف يصاب بالجنون تجاه فتاة لأنها تقول لـ كلبها إنها تريد أن تنظر داخل ميكروسكوبه؟ لن يستطيع حتى لو حاول ذلك، لأن جنونه بلا معنى. كل ما تمكن منه هو الشعور بالقلق، محاولاً أن يفهم الأشياء، ولكنه لم يستطع. هناك شيء واحد واضح وهو أن البببي تعنى له أكثر مما كان يعتقد، وأكثر مما كان يمكن أن يتصور نحو أحد على الإطلاق. لقد بدأ الموضوع برغبته فيها فقط - رغبته في لمسها وحضنها والتعامل معها والتهامها - رغبته فيها لأنها كانت دافئة وذات رائحة عطرية، ولأنها شابة بينما هو عجوز، ولأنها كانت بريئة بينما هو قد تعب من كل شيء سوى البراءة التي تثيره. هكذا بدأ. ولكن

بعد ذلك مباشرة حدث شيء آخر. شبابها هذا، وهذه البراءة واللذة - كانوا أكثر من مجرد إثارة بالنسبة له. كانت ظريفة جدا وجميلة وطفولية، فكان يشعر وكأنه يريد أن ييكي عليها، حتى وهو يريد إمساكها والتعامل معها والتهاهما. فعلت أغرب الأشياء به - أعطته إحساسا جيدا، مثلما يشعر عندما يكون في الكنيسة، أو يستمع إلى ويليام جينكنز بريان، أو يسعد طفلة مسكينة بإعطائها عروسة أو أى شيء من هذا القبيل. ولم تكن فيرجينيا طفلة أى أحد هكذا، مثل هؤلاء الأطفال فى المستشفى، بل كانت طفلة هو، ملكا له هو. لم تستطع بروندس أن تعطيه أطفالا، وكان آنذاك يشعر بالمرارة. ولكنه الآن سعيد، لأنه لو كان لديه طابور من الأطفال، لوقفوا فى طريق البيبي. وكانت فيرجينيا تعنى بالنسبة له أكثر من ابنة. لأنها حتى لو كانت مجرد ابنة، وهى لم تكن كذلك، ولربما كانت أفضل من واحدة من دمه ولحمه - خاصة وأن آل ستويت كلهم يتمتعون بوجه متجههم. وكانت بروندس عبيدة نوعا ما وإن كانت امرأة خيرة - ومما لا شك فيه أنها كانت خيرة - وربما خيرة أكثر مما ينبغي. بينما مع البيبي كل شيء هكذا كان رائعا وكاملا. لقد أصبح أكثر سعادة من أى وقت آخر منذ أن تعرف عليها. بدت الأشياء مرة أخرى ذات قيمة فى وجودها. لم يعد يسير فى الحياة متسانلا: لماذا؟ مسببات كل شيء هناك، أمامه، مرتدية كاب البحارة الصغير الذكى، أو ربما مرتدية ملابسها كاملة، مرصعة بالزمرد وكل شيء، ومستعدة للذهاب إلى حفل ما مع جماعة من ممثلى السينما المتحركة.

والآن حدث شيء ما. لقد أخذ منه سبب استمراريته. لقد تغيرت البيبي. كانت تتلاشى بعيدا عنه، وذهبت إلى مكان آخر. ولكن أين ذهبت؟ ولماذا؟ ولماذا تريد أن تتركه؟ تتركه هكذا وحيدا. فى هذه الرعدة النائمة كان رجلا عجوزا، وكانت الكتلة

الصلابة البيضاء فى بهر الخزائن هناك فى انتظاره .

لقد سألتها «ماذا بك يا بيبى؟» مرارا وتكرارا بلوعة فى قلبه ، وكان بانسا لدرجة أنه لم يعد يستطيع الغضب، خائفا من أن تتركه هناك بمفرده، لدرجة أنه لم يعد يهتم لكرامته أو حقوقه أو أى شيء سوى الاحتفاظ بها بأى ثمن كان . «ماذا بك يا بيبى؟»

وكل ما كانت تفعله هو النظر إليه وكأنها تراه من مكان ما يبعد ملايين الأميال - تنظر إليه هكذا وتقول لا شيء . كانت بخير، لا شيء يشغل ذهنها، ولا ، لا يوجد شيء يمكن أن يفعله لها، لأنه قد أعطاها كل شيء، وهى سعيدة جدا . ولو ذكر بيت - بشكل عابر - نوعا ما حتى لا تعتقد أنه يشك فى أى شيء - لا يهتز لها جفن، وكانت تجيبه بأن بيت حقا يعجبها، فهو ولد لطيف، ولكنه غير متمرس - وكان يجعلها تضحك، وهى تحب الضحك .

ولكنه يقول ولكن يا بيبى أنت مختلفة، وكان عسيرا عليه أن يمنع صوته من الارتجاف لأنه كان بانسا جدا، وكان يضيف إنك لا تتصرفين كما كنت يا بيبى .

وكل ما كانت تجيب به هو أن هذا غريب جدا لأنها تشعر وكأنها كما هى .

وكان يجيب: ولكنك لا تشعرين نحوى بنفس الشعور، فكانت تقول إنها لا تزال كما هى، وهو يقول لا، وهى تجيب هذا غير صحيح، ما الأسباب التى تجعله يقول إنها تشعر بشعور مختلف نحوه؟ وبالطبع كانت على صواب إذ لم يكن هناك سبب يمكن أن يضع إصبعه عليه، ولا يمكن أن يقول حقا إن تصرفاتها أقل وداً مما كانت، أو أنها لا تريده أن يقبلها، أو أى شيء من هذا القبيل . كانت مختلفة لسبب لا يستطيع أن يعطيه اسما . شيء ما فى طريقة نظرتها وحركتها وجلساتها، لا يستطيع أن يصفه سوى بأنها كانت كمن ليست هناك حيث يظن، بل فى مكان آخر، لا يمكن أن تلمسها أو تحدثها أو حتى تراها حقا فيه . الأمر هكذا . ولكن كلما

حاول أن يشرحه لها، ضحكت منه، وقالت إنه بالتأكيد يمتلك حدس الأنثى الذى تقرأ عنه فى الروايات - إلا أن حدسه الأنثوى هذا كان مخطئا تماما.

وهكذا يعود من جديد من حيث بدأ، محاولا حل اللغز دون أن يتمكن من ذلك، ويظل يشعر بالقلق الشديد. نعم، قلق حتى المرض لأنه بعد أن يتخطى إحساس الثقل والكسل اللذين أصبحا العادة كل صباح، كان يشعر بالقلق على البيبي لدرجة أنه يبدأ فى الصراخ فى الخدم، ويصبح وقحا مع هذا الرجل الإنجليزي الملعون، ويستشيط غضبا من أوبيسبو. والشئ التالى الذى يحدث هو أنه لا يمكن من هضم طعامه. لقد أصيب باحتراق فى القلب والمعدة، بل وذات يوم أصيب بألم جعله يظن أنه المصران الأعور. ولكن أوبيسبو قال إنها غازات ناتجة عن الإنفلونزا المكتومة. وحينئذ استشاط غضبا وقال للرجل إنه بلا شك طبيب فاشل لأنه لا يستطيع معالجة شئيه صغير مثل هذا. وقد وضع هذا بالتأكيد خوف الله فى قلب أوبيسبو إذ قال وأعطنى يومين أو ثلاثة آخرين وهذا كل ما أحتاجه لإتمام العلاج. وقد قال إن الإنفلونزا المكتومة شئ غريب حقا لأنها لا تظهر مثل أى شئ بل تسمم النظام كله حتى إنك لا تستطيع التفكير بشكل مستقيم، وتبدأ فى تخيل الأشياء والقلق عليها، وهى التى لم تكن حقا موجودة.

وبشكل عام، قد يكون هذا حقيقيا، إلا أنه فى هذه الحالة يعرف أن كله ليس محض خيال. لقد كانت البيبي بالفعل مختلفة، وكان لديه سبب وجيه للقلق.

سار مستر ستويت عبر الطريق الجبلى الملتوى، غارقا فى مزاجه المرتبك ووجومه القلق، ومن خلال الواحة المظلمة بالأشجار فى منطقة بيفرلى هيلز متجها شرقا - لأن كلانسى يعيش فى هوليبود - وعبر طريق سانتا مونيك. لقد شرح كلانسى هذا الصباح عبر التليفون إحدى خططه التآمرية الميلودرامية. من القصص الطويلة المشوشة والتلميحات والإشارات الغامضة والأسماء التى تبدلت، فاستطاع مستر ستويت أن يفهم أن الأخبار كانت جيدة. يبدو أن كلانسى والأولاد

قد نجحوا فى شراء الغالبية العظمى من أفضل أرض متاحة فى وادى سان فيليبى. لو كان هذا فى وقت آخر، لتهال مستر ستويت انتصارا. ولكن اليوم، حتى فكرة حصوله على مليون أو اثنين آخرين لم تمنحه أية سعادة. فى العالم الذى أصبح يعيش فيه، كانت الملايين بلا قيمة، فماذا ستفعل الملايين لتزيل عنه بؤسه ؟ إنه بؤس رجل عجوز ومرهق وخاوي، رجل لا هدف فى حياته سوى ذاته، لا فلسفة ولا معرفة سوى ما يهيمه هو، لا تقدير ولا حتى أصدقاء - مجرد ابنة عشيقه، محظية طفلة، يريد لها بجنون، ويتوق إليها لدرجة العبادة. والآن هذا الكائن بدأ يخيب ظنه. لقد بدأ يشك فى إخلاصها - ولكن يشك بلا أسباب ملموسة، ويشك لدرجة أنه لا يوجد رد فعل مرضٍ ومناسب من الغضب والعنف والمهاترة. كان الإحساس قد بدأ يخرج من حياته ولم يعد يستطيع أن يفعل شيئا، لأنه فى وضع لم يعد يعرف كيف يتعامل معه. كان مشوش الفكر لدرجة ميلوس منها. ودائما، فى خلفية تفكيره، تهوم صورة هذه الحجرة الرخامية المستديرة، وصورة رغبة رودين فى منتصف الغرفة، وتلك الكتلة البيضاء فى أرضيتها أسفلها - تلك الكتلة التى ستحتوى يوما ما على اسمه، جوزيف بانتون ستويت، منحوتا فيها، وتواريخ ميلاده ووفاته. ومع هذه الكتابة رأى كتابة أخرى بأحرف برتقالية على خلفية سوداء فاحمة إنه شيء مخيف أن نسقط فى يد الله الحى،، بينما ها هو كلانسى يعلن انتصاره بطريقة تأمرية. أخبار سعيدة! أخبار سعيدة! بعد سنة أو اثنتين من الآن سيصبح أغنى مليوناً أخرى. ولكن تلك الملايين كانت فى عالم، بينما الرجل العجوز التعس الخائف فى عالم آخر، ولم يكن هناك أى اتصال بينهما.

الفصل الرابع

ظل جيري مي يعمل ساعتين، يفرغ ويفحص ويفهرس بشكل مؤقت، ويرتب. لم يجد أية اكتشافات هذا الصباح - مجرد حسابات، ووثائق قانونية، وخطابات عمل، وكلها ليست من التي يحبها على الإطلاق على الإطلاق، بل تنفع أمثال كولتون وتولي^(١) وآل هاموند^(٢).

عندما دقت الساعة الثانية عشرة والنصف كان ثقل الملل أكثر مما يتحمل، فأوقف العمل بحثاً عن بعض المنعشات الروحية، ولذلك أحضر أجندة الإبرل الخامس المغلفة بالجلد الرقيق. بدأ يقرأ:

- يوليو ١٧٨٠. ترتبط الشهوانية بالحزن، وقد يحدث أحياناً أن الأرملة الباكية من فرط صدق حزنها، يخونها إحساسها فتجد نفسها غير قادرة على مقاومة الحاح ضيف الجنازة الذي يعرف فن المرور دون أن يراه أحد من العزاء إلى الألفه. أنا نفسي خُنت دوق وفايكونتان بعد وفاتهما مباشرة - أحدهما بالأمس فقط - فوق ذات الأسيرة التي نُقلوا من عليها في أبهة، قبل بضعة ساعات من ذلك، إلى المقبرة العتيقة.

خَصَّ شيئاً لأمه، لأنه من نوعية الأشياء التي تعشقها. إنه يفكر جدياً في إرساله لها في خطاب الليلة، لو لم يكن ذلك مكلفاً. عاد إلى أجندته:

١- تولى: نسبة إلى ريتشارد هنري تولى (١٨٨٠-١٩٦٢) إقتصادي إنجليزي.
٢- هاموند: في الغالب نسبة إلى هنري هاموند (١٨٠٧-١٨٦٤) صحافي وسياسي أمريكي كان مؤيداً لنظام العبيد بشدة، وقد قدم استقالته من الكونجرس عندما تم انتخاب أبراهام لنكولن.

- «بما أن مكان أحد القساوسة في منطقتي قد فرغ، فقد أرسلت لى شقيقتي اليوم توصيني بقس شاب وتشكر في أخلاقه النزيهة . لكنى لن أسمح بوجود قساوسة حولى سوى الذين يشربون كثيرا، ويركبون مع الكلاب للصيد، ويتحسسون على زوجات وبنات الرعية . القس النزيه لا يفعل شيئا ليُجرب إيمان رعيته أو يمارسه، ولكن، كما كتبت لشقيقتي، «بالإيمان وحده نحصل على الخلاص» .

جاء القيد الثاني بتاريخ مارس ١٧٨٤ :

- «فى مقابر قديمة تم فتحها حديثا يوجد نوع من اللزوجة تدلى كالأحبال من السقف وتغلف وتغلف الحائط . إنها الرطوبة العفنة المكثفة .

- «يناير ١٧٨٦ . نصف دسنة زهور البانسيه على مر سنوات كثيرة . لو ملأت كتابا بهذا المعدل، فلا بد أن سأعيش أكثر من الآباء . إننى نادم على كسلى، ولكنى أعزى نفسى بأن البشر الآخرين يستحقون التهمك، فلا أريد إذن أن أضيع وقتى لتعليمهم أو تسليتهم» .

مر جيريى سريعا عبر ثلاث صفحات من التأملات حول السياسة والاقتصاد . وتحت تاريخ ١٢ مارس ١٧٨٧ وجد مدخلا أكثر تشويقا :

- «الموت تقريبا هو أقل عمل روحى وسط أعمالنا، وهو أكثر حسية حتى من ممارسة الحب . آلام الموت مثل إجهاد الإمساك أثناء التبرز . اليوم رأيت م.ب. يموت» .

- «يناير ١٧٨٨ . لقد ولدت فى مثل هذا اليوم منذ خمس وخمسين عاما . من وحدة الرحم نخرج، إلى الوحدة بين البشر، ونعود ثانية إلى الوحدة فى القبر . نعيش حياتنا فى محاولات لتخفيف هذه الوحدة . لكن القرب ليس هو التلاحم، فإن أكثر المدن الآهلة بالسكان ليست إلا حشداً من الوحشة . نتبادل الكلمات، لكننا نتبادلها من

سجن إلى سجن، دون أمل في أنها ستعني للآخرين ما تعنيه لنا، ننزوح، فنصبح
 فردين وحيدين في البيت بدلا من واحد. ننجب الأطفال، ويمتلئ البيت بمستوحدين
 كثيرين. نكرر عملية المضاجعة، ولكن مرة ثانية القرب ليس أبدا مثل التلاحم. إن
 أكثر الحركات حميمية هي مجرد حركة على السطح، وننزوح مثلما رأيت السجناء
 في نيو جيت يتزاوجون مع عاهراتهم من بين قضبان أقفاصنا. لا يمكن أن نشارك
 السعادة. مثل الألم، يمكن فقط أن نخبرها أو نتسبب فيها، وعندما نعطي السعادة
 إلى عشاقنا أو نهب الإحسان إلى المحتاجين، نفعل ذلك ليس إرضاء للشخص
 المعنى بالعطف، ولكن إرضاء لأنفسنا فقط. لأن الحقيقة هي أننا كرماء لذات السبب
 الذي يجعلنا قساة: لكي نزيد من إحساسنا بقوتنا، وهذا ما نحاول أن نفعله دائما أبدا،
 بالرغم من أنه بعملنا هذا، نشعر أنفسنا بالوحدة أكثر من ذي قبل. إن طبيعة الوحدة
 هي نفسها في كل البشر. خاصة وأنه لا يوجد تخفيف لها سوى عن طريق النسيان،
 والغباء أو الأوهام. ولكن إحساس الرجل بالوحدة يزيد أو ينقص بالتناسب مع
 إحساس وحقيقة قوته. تحت أي نوع من الظروف، كلما ازدادت قوتنا، شعرنا
 بوحدتنا أكثر. لقد تمتعت بقوة كبيرة في حياتي، -

- يونيو ١٧٨٨. جاء القبطان بافي اليوم ليسلم على، وهو رجل مستدير ومرح
 ومنحط. وحتى انبهاره بي لا يمنعني تماما من الانفتاح نحوه بالمرح السوقي الذي
 يألّفه. لقد سأله عن رحلته الأخيرة، وقد شرح لي تفصيلاً طريقة وضع العبيد في
 عداير السفينة، والسلاسل المستخدمة لربطهم، وإطعامهم، التمارين التي يمارسونها
 على سطح السفينة حين يكون الجو هادئاً. (لا أنهم دائما يضعون الشباك حول
 متاريس السفينة ليمنعوا الأكثر بؤسا من إلقاء أنفسهم في البحر. حكى عن العقوبات
 المطبقة على المعاندين المقاومين، وأسراب أسماك القرش الجائعة التي تتبعهم،

وروى عن داء الإسقربوط والأمراض الأخرى، وتآكل جلد الزوج بسبب صلابة الألواح الخشبية التي يرقدون عليها مع الحركة الدائمة للأمواج، والرائحة الكريهة لدرجة أن أعتى البحارين يشحب وجهه ويسقط مغشيا عليه لو حاول النزول إلى العنبر. روى عن الموت الكثير والتعفن الذي يكاد يكون فوريا، خاصة مع الرطوبة الشديدة بجانب الخط الاستوائي. عندما قام ليمشى، أعطيته هدية عبارة عن علبة نشوق مصنوعة من الذهب. ولأنه لم يكن يتوقعها فقد كان صوته عاليا ومتحسرا وهو يقدم لى شكره، ويعبر عن امتدانه وإخلاصه المستقبلى لمصالحى، فاضطرت إلى إيقافه عن هذا. لقد كلفتنى علبة النشوق ستين جينياً^(٣)، وقد أحضر لى القبطان بافى خلال الثلاث رحلات الأخيرة أكثر من أربعين ألفا من الجينيات. السلطة والمال يزيدان بالتناسب مباشرة مع بُعد الرجل عن الأشياء المادية التى يستمد منها فى النهاية السلطة والمال. أمام كل مخاطرة يخوض فيها الضابط العام، يخوض العسكرى الخاص مائة، بينما كل جينى يحصل عليه هذا الأخير، يحصل الضابط على مائة مقابله. هكذا الحال بينى وبين بافى وبين العبيد. العبيد يعملون فى الحقول بلا مقابل سوى الضرب والتجريح، والقبطان بافى يخوض المصاعب ومخاطر البحار، ويعيش ليس بأفضل من خردواتى أو تاجر خمور. إننى أضع يدى على لا شيء سوى حسابات البنوك وأمطار من الذهب الذى يسقط على من جراء عملى هذا. فى عالم مثل عالمنا، الرجل أمامه ثلاثة اختيارات: أولا يمكن أن يفعل كما كانت الملايين تفعل دائما، ومن ثمة لأنه غبى ولا يمكن أن يصبح وغدا، يخفف انحطاطه الفطرى بحماقة فطرية. ثانيا، يمكنه أن يقد الأكل غباء، وهم الذين ينكرون انحطاطهم الفطرى بشدة لكى يمارسوا الفضيلة. ثالثا، يمكن أن يختار

٣- جينى: عملة إنجليزية قديمة.

أن يصبح رجلا عاقلا - ذلك الذى يعرف مقدار انحطاطه الفطرى - ومن ثم يتعلم كيف يستخدمه من خلال تلك المعرفة، ليرتفع فوقه، وفوق الرفاق الحمقى الآخرين. لقد اخترت شخصا أن أكون رجلا عاقلا.

- «مارس ١٧٨٩. العقل يعد بالسعادة. المشاعر تعترض وتؤكد أنها هي السعادة. الرشد وحده يمنح السعادة. والسعادة ذاتها كالتراب فى الحلق».

- «يوليو ١٧٨٦. لو استخدم الرجال والنساء غبطتهم بنفس إزعاج القطط حين تغتبط، فلن يأمل أى فرد منا فى لندن أن ينال قسطا من اللوم أثناء الليل».

- «يوليو ١٧٨٩. لقد سقط الباستيل. يحيا الباستيل!»

تحدثت بعض الصفحات التالية عن الثورة. تخطاها جيريمى وقلبها. فى عام ١٧٩٤ حل اهتمام الإيرل الخامس بصحته محل اهتمامه بالثورة.

كتب يقول:

- «إننى أقول لمن يزورنى إننى كنت مريضا والآن شفيت، ولكن هذه الكلمات غير صحيحة لأننى لست الواقف على باب الموت، ولا أنا الذى شفيت. الأول كان من فعل الحمى، تجسيدا للألم والإعياء. أما الثانى فليس أنا، بل رجل عجوز، ضعيف، منكش، وبدون رغبات. كل ما تبقى من الشخص الذى كنته، هو اسمى وبعض ذكرياتى، وكأن رجلا قد مات وأراد أن يعيش صديق له بمجموعة من الحلى الصغيرة الرخيصة التى لا قيمة لها، ليذكره بها».

- «١٧٩٤. الرجل المريض الغنى مثله مثل شخص مجروح ووحيد ملقى فى صحراء مصر، تحوم حوله الصقور وتظل تنخفض وتنخفض، بينما ابن آوى والضباع تعسح حوله حيث يرقد، فى دوائر تضيق وتضيق. حتى ورثة الرجل الغنى لا يمكن أن يكونوا أكثر انتباها. عندما أنظر إلى وجه ابن أختى وأقرأ هناك،

خلف قناع الوحدة، نفاذ صبره وانتظاره لموتى، وخيبة أمله فى أننى لم أذهب بعد، أشعر بتدفق حياة وقوة جدينتين تسريان فى داخلى. سوف أظل حيا، وإن كان فقط لأسرق منه سعادته التى يؤمن أنها فى متناول يده - لأنه واثق أننى سأنتكس، .
- ١٧٩٤ . العالم مرآة تعكس صورة الناظر إليها، .

- يناير ١٧٩٥ . جرّيت وصفة الملك داود ضد الشيخوخة ووجدتها ناقصة . إن الدفاء لا يمكن أن يُصفى ولكن فقط يحرك . وحيثما لا توجد شرارة مستمرة، لا يمكن إشعال حتى الصوفان . قد تكون المسألة كما قال القس، إننا نخلص بالتفويض من خلال معاناة الآخرين . ولكنى أستطيع أن أجزم أنه لا جدوى من السعادة بالتفويض سوى زيادة مشاعر التفوق والقوة داخل هذا الذى يشعر بها، .

- ١٧٩٥ . كلما تعفنت متطلبات الأحاسيس، نقوم بتعويض أنفسنا عنها بحرث مشاعر الكبرياء والغرور . إن حب السيطرة مستقل عن القدرات الجسدية، ولذلك فعندما يفقد الجسد قوته، تحل محل السعادة التى تلاشت . أنا نفسى لم أكن يوما بدون حب السيطرة حتى فى خضم السعادة . منذ موتى أخيرا يضطر الشبح الباقي منى أن يرضى بالرضا الأول والأقل جوهرية، وفوق كل ذلك الأقل ضررا من الاثنين، .

- يوليو ١٧٩٦ . قام الرهبان بحفر الدير الذى يقف مكانه البيت الحالى فى جونبستر فى عصر الخرافات . فى عصر الملك تشارلز أحضرت جدة جدتى مجموعة من الأقراص المصنوعة من الرصاص وقامت بحفر اسمه وتاريخه عليها، وربطتها بواسطة حلقات فضية فى ذيل خمسين سمكة من أسماك الشبوط البالغة . لا يقل عن عشرين سمكة منها لا تزال حية للآن، كما يمكننا أن نحصى عددها كلما رن جرس موعد إطعام هذه الكائنات . أسماك أخرى كبيرة جدا تأتى معها أيضا -

يبدو أنها ظلت على قيد الحياة منذ أيام الرهينة، قبل أن يزيل الملك هنرى بيوت العبادة. أنظر إليها من خلال المياه الشفافة وأنبهر بالقوة والرشاقة غير المنقوصة لهذه الأسماك الكبيرة، والتي غالبا عاش أكبرها أيام أن كتبت «المدينة الفاضلة»^(٤)، بينما عاصر أصغرها كاتب «الفردوس المفقود»^(٥). هذه الرواية الأخيرة حاولت أن تبرر طرق الله مع الإنسان. ربما كان الأفيد لها لو حاولت تبرير طرق الله للأسماك. لقد ضيع الفلاسفة وقت قرائهم في تأملات حول أبدية الروح، وانكفأ الكيميائيون على بوتقاتهم محاولين بلا جدوى اكتشاف الإكسير أو الحجر، بينما في كل بركة وكل نهر يمكن أن يجدوا الشبوط الذي عاش أكثر من ثلاثة أفلاطونات ونصف دسنة باراكليسيس^(٦). سر الحياة الأبدية ليس في الكتب القديمة، ولا في الذهب السائل، ولا في السموات. إنه موجود في الطين، في انتظار الصياد الماهر فحسب.

رن الجرس في اليهود الخارجى معلنا موعد الغداء. قام جيريمي ووضع كتاب الإبريل الخامس جانبا، وسار نحو المصعد ميتسما لنفسه وهو يفكر في السعادة التي سيستمدتها من قوله لهذا الحمار المغرور أوبيسبو إن أفضل أفكاره حول إطالة الحياة قد سبقه إليها آخرون في القرن الثامن عشر.

٤- المدينة الفاضلة: كتبها السير توماس مور ونشرت عام ١٥١٦.

٥- الفردوس المفقود: كتبها جون ميلتون.

٦- باراكليسيس: نسبة إلى ثيوفراتس بومباستاس باراكليسيس (١٤٩٣-١٥٤١) طبيب وكيميائى سويسرى، وتعتبر أفكاره متقدمة بكثير عن معاصريه إذ أنه لم يكن يؤمن بالعلاج الميتافيزيقى.

الفصل الخامس

كان الغداء مرحا في غياب مستر ستويت، فقد قام الخدم بعملهم دون توبيخ، واستطاع چيريمى أن يتحدث دون مخاطرة الرد الجاف أو الإهانة، وتمكن أوبيسبو من سرد حكاية ماسح المدخنة الذى تقدم بطلب للتأمين على الحياة بعد قيامه بشهر العسل. أما فيرجينيا فظلت تضحك بحرية كما يحلو لها، لكن من بعيد جدا في الأعماق، في حالة شبه غيبوبة وحالة من الإرهاق - هذه الحالة التى ظلت ترعاها عن عمد حتى لا تضطر للتفكير كثيرا والشعور بالضيق تجاه كل ما يحدث. ولكن جزءا منها ظل لا يريد الضحك على الإطلاق لأنها لم تكن ترغب أن يظن سيج أنها تشجعه بأية طريقة، وجزء آخر منها كان يريد أن يضحك، بل ولم تستطع أن تقاوم الضحك لأن القصة كانت بالفعل مضحكة. ثم إلى جانب ذلك كانت سعيدة جدا أنها ليست مضطرة لتلك التمثيلية مع بيت من أجل العم جو. لقد كانت اليوم دون خيانة، واستطاعت أن تكون نفسها ولو مرة واحدة. لكن الذبابة الوحيدة في المرهم تلك النفس التى أصبحت عليها، فقد كانت نوعية بائسة، إذ كانت ذاتا مليئة بالعظام التى تتحول إلى مطاط كلما اختار هذا السيج البشع أن يقترب منها. إنها ذات بلا قوة تجعلها تحافظ على وعودها للسيدة العذراء. فجأة توقفت ضحكها.

كان بيت فقط هو البائس المنتظم - طبعا بسبب ماسح المدخنة، وضحكات فيرجينيا المججلة، ولكن أيضا لأن برشلونة قد سقطت، ومعها سقطت كل آماله في انتصار سريع على الفاشية، وكل الإمكانات المستقبلية لرؤية زملائه ثانية. ولم يكن هذا كل شيء. إن الضحك على قصة ماسح المدخنة كان مجرد حادث واحد مؤلم وسط الكثير. لقد مررت فيرجينيا الطبقين الأولين من الطعام دون أن تعيره اهتماما ولو مرة واحدة. ولكن لماذا؟ لماذا؟ تفاقم ضيقه بالبحيرة المرة. لماذا؟ كان شيئا غير

مفهوم، فى ضوء ما حدث خلال الثلاثة أسابيع الماضية. منذ مساء ذلك اليوم الذى عادت فيه فيرجينيا من الكهف المقدس، كانت تعامله بشكل رائع - تخرج عن طريقها خصيصا لتحدث معه، وتدعوه ليقول لها أشياء عن إسبانيا، وحتى عن البيولوجيا. بل إنها طلبت منه أن تنظر إلى شيء ما فى الميكروسكوب. وقد ارتجف حينئذ من فرط السعادة حتى استطاع بالكاد أن يضبط الشريحة، لقد أدار الآلة على شريحة بها جزء من الفطريات المأخوذة من معدة الشبوط. جلست آنذاك فى مكانه، وانحنيت على العين وسقط شعرها البنى على جانبي الميكروسكوب، وانكشف ظهر عنقها من فوق حافة السويتزر الوردى، فكاد يكون ملموساً وبدأ كأنه يدعوه، فبذل مجهودا خرافيا ليمنع نفسه من تقبيلها وكاد يغشى عليه.

مرت أوقات فى الأيام التالية تملأ فيها لو كان قد قام بذلك المجهود. ولكن ذاته الأفضل كانت تعيد تأكيد قوانينها وتجعله سعيدا مرة ثانية أنه سيطر على نفسه. لأنه بالطبع لن يكون هذا صوابا، بالرغم من أنه تنازل منذ زمن بعيد عن إيمان العائلة بدم الخروف، كان لا يزال يذكر ما قالته أمه المؤمنة المحافظة، حول فكرة تقبيل أى أحد لم يكن مخطوبا له. لم يزل فى قلبه الشاب الشغوف الذى فجّره الكاهن شليتز أيام أن كان مراهقا مرتبكا، مصرا أن يكون زاهدا، عن فناعة بالحب المقدس وحماس لشيء جميل اسمه الزواج المسيحى. ولكنه مع الأسف فى ذلك الوقت لم يكن يكسب ما يكفى لإيجاد مبرر لطلب من فيرجينيا أن تقبل حبه المقدس وتدخل فى زواج مسيحى معه. وكان هناك أيضا تعقيد آخر مضاعف وهو أن الزواج المسيحى بالنسبة له لن يكون مسيحيا إلا لو كان كذلك فى جوهره، بينما كانت فيرجينيا مرتبطة بالمؤسسة التى كان أحيانا يسميها الأب شليتز بعامرة بابليون، والتى يراها الماركسيون تستحق الاحتقار الشديد. إن تلك المؤسسة أيضا

تراه بذات الطريقة التي يراها هو بها - بالرغم من أنه قد بدأ إحساسه الكريه تجاهها يخف بما أن هتلر قد بدأ يضطهداها في ألمانيا، ومنذ أن اعتنقت به راهبات الرحمة في إسبانيا. وحتى لو اختلفت تلك الاختلافات الدينية والمادية بمعجزة تبقى حقيقة بشعة وهي المستر ستويت. إنه يعلم بشكل قطعى أن مستر ستويت ليس سوى أب أو عم، على الأكثر، لفيرجينيا- ولكنه كان يعلم ذلك بنفس اليقين الزائد عن الحد المولود من الرغبة، ويعلمه بنفس الطريقة التي كان يعلم بها دون كيخوته أن الجزء المغطى للوجه من خوذته المصنوعة من الكارتون كان قوياً كالصلب. كانت معرفة من الأفضل ألا يتحقق منها كثيراً، وبالطبع فإذا طلب من فيرجينيا أن تتزوجه فإن هذه المعلومات أو تلك التي من المتوقع أن تكشفها مثل هذه التحقيقات سوف يضطر أن يكشفها.

وعنصر آخر إشكالى في هذا الموضوع هو مستر برويتر، فإن كان مستر برويتر مصيباً، وقد بدأ يتيقن أكثر فأكثر أنه كذلك، فليس من الحكمة طبعاً أن يفعل شيئاً يصعب المرور من المستوى البشرى إلى مستوى الأبدية. وبالرغم من أنه يحب فيرجينيا إلا أنه وجد من الصعوبة بمكان أن يصدق أن الزواج بها لن يكون عقبة على طريق استنارة كل المعنيين بالموضوع.

أو بالأحرى، هذا ما كان يعتقد، ولكن خلال الأسبوع أو الاثنين الأخيرين تغير رأيه، أو بشكل أكثر دقة، لم يعد له رأى. كان فقط غير متيقن ومربك، لأن شخصية فيرجينيا تغيرت تقريباً فجأة من كونها طفولية وعالية الصوت ومنفتحة على العالم، إلى براءة هادئة وغامضة. كانت في الماضى تتعامل معه بصداقة ورفق وحب للدعابة وعلى سجيته، ولكنها تغيرت مؤخراً تغيراً غريباً، إذ توقفت النكات وحل محلها نوع من الحرص. لقد كانت رائعة معه - ولكن ليس كالفتيات

الرائعات اللاتي يردن الوقوع فى غرام رجل ما . لا . لقد كانت فيرجينيا مثل أخت رحيمة . وليست أى أخت رحيمة ، بل مثل هذه الأخت الراهبة الرحيمة التي راعته عندما كان فى المستشفى فى جيرونا - الأخت الشابة ذات العينين الواسعتين والوجه الببضارى الشاحب ، مثل وجه العذراء مريم فى الصورة . كانت تبدو سعيدة بشكل سرى ، لا بسبب أى شىء يجرى حولها ، ولكن بسبب شىء ما فى داخلها ، شىء ما غير عادى وجميل خلف عينيها حتى تستطيع أن تنظر إليه . وعندما تفعل ذلك ، لا يوجد سبب بعد للشعور بالخوف من غارة جوية مثلا ، أو ضيق من بتر ما . لا شك أنها كانت ترى الأشياء من هذا الذى يسميه مستر برونر المستوى الأبدى . لم تؤثر فيها هذه الأشياء بنفس الطريقة التى قد تؤثر فىمن يعيشون على المستوى البشرى ، إذ على المستوى البشرى ، كان خائفا و غاضبا ، أو لو كان هادئا فذلك بمجهود إرادى . لقد كان معجبا بها آنذاك دون فهم ، ولكن الآن ، وشكرا للمستر برونر ، يمكنه أن يفهم ويعجب أيضا .

على أية حال هذا هو الوجه الذى أخذ يذكره به وجه فيرجينيا فى الأسابيع الماضية . كان فى حياتها تغيير ما ، من الحياة المفتحة إلى الحياة الداخلية ، ومن الاستجابة إلى السرية ، وشروذ الذهن الغامض . وكان السبب فى هذا التحول غير مفهوم ، ولكن الواقع بات واضحا وكان يحترمه ، بدليل أنه لم يقبل عنقها عندما انحلت على الميكروسكوب ، وذلك بعدم لمس ذراعها أو إمساك يدها ، وعدم قوله كلمة واحدة عن شعوره نحوها . فى ظروف تحولها الغريب وغير المفهوم كان يشعر أن مثل تلك الأمور غير مناسبة لدرجة أنه قد يعتبرها انتهاكا للحرمان . لقد اختارت أن تكون رائعة نحوه كأخت له ، ومن ثمة كانت استجابته لها كأخ . والآن لسبب غير معلوم بدت فجأة وكأنها غير مدركة حتى لوجوده . لقد نسيت الأخت

أخاها، ونسيت الأخت الرحيمة نفسها - بل نسيت نفسها لدرجة أنها استمعت إلى نوادر الدكتور أوبيسبو الحقيرة عن ماسح المدخنة، كما ضحكت عليها كذلك. ولكنه لاحظ في حيرة أنها توقفت عن الضحك فجأة، وعاد إلى وجهها هذا التعبير الداخلى والسرية والابتعاد. لقد تذكرت الأخت الرحيمة نفسها بنفس سرعة نسيانها لها. كانت غير مفهومة. ببساطة، لم يستطع أن يفهمها.

عند وصول القهوة، أعلن الدكتور أوبيسبو اقتراحه بأخذ إجازة فى المساء بما أنه لا يوجد شيء ليفعله الآن فى المعمل. وقد نصح بيت أن يفعل نفس الشيء. شكره بيت، وادعى أنه مستعجل - لأنه لا يريد أن يشعر بالإهانة والتجاهل عندما تتحدث فيرجينيا عن خططها لهذا المساء - بلع قهوته، وتمتم ببعض الاعتذارات، ثم غادر الغرفة. بعد قليل كان فى الخارج تحت الشمس، يسير نحو السهول.

أثناء سيره، أخذ يفكر فى بعض ما قاله مستر برويتر خلال زيارته الأخيرة، وعما قاله عن أسخف جزء فى الكتاب المقدس والجزء الأكثر معنى. «أبغضونى بلا سبب، وهنجلنى ما نزرع». وعما قاله من أن لا أحد يحصل على شيء مقابل لا شيء - لأن الرجل يدفع الكثير من أجل المال الكثير مثلاً، أو السلطة الكثيرة، أو الجنس الكثير، من خلال انغلاقه داخل ذاته أكثر لدرجة أن الدولة التى تترك بسرعة ويعنف تسقط تحت طغيان مثل طغيان نابليون أو ستالين أو هتلر، والشعوب المزدهرة والتى بها سلام داخلى سوف تدفع الثمن بأن تصبح مزهوة بنفسها، وراضية عن نفسها، ومحافظة مثل الإنجليز.

كانت الببوانات تثرثر عندما مر بجانبها. تذكر بيت بعض تعليقات مستر برويتر حول الأدب، وحول التعب الممل للعقل الناصح، الموجود فى كل المسرحيات والروايات التى يتوقع النقاد أن تعجب بها. كل النوادر الطويلة المملة والتى لا

تحصى، والروايات الرومانسية ودراسات الشخصيات، ولكن بدون نظرة عامة عن النواذر، ولا افتراضية تشرح الرومانسية أو الشخصية. مجرد تجميع كبير للحقائق حول الشهوة والجشع، الخوف والطموح، الواجب والمحبة. مجرد حقائق، وحقائق خيالية أيضاً، بدون فلسفة تتسق معها وتكون متفوقة على الفطنة والنظام المحلى للثقاليذ، لا مبدأ من الترتيب أكثر عقلانية من الخريعة البسيطة الجمالية. ثم هذا الهرء المذهل الذى يقوله الذين يشرحون ويوضحون هذا الخليط من الحقائق والخيال النمطى بشكل جميل! كل هذا الهرء الرصين مثلاً عن أدب المنطقة - وكأنه توجد مِيزة خاصة وبارزة فى تسجيل الحقائق غير المتناسقة عن الشهوة والجشع والواجبات لمن يعيشون فى هذه الدولة ويتحدثون بلغتها! أو أن الحقائق كانت عن فقرء المدينة، وهناك مجهود لتنسيقها حسب نظريات ما بعد الماركسية والتي قد تكون حقيقية، ولكنها دائماً غير كافية. أو أن أحداً قد كتب كتاباً آخر معلناً أن الحياة مقدسة، والتي يعنى دائماً بها أن أى شىء يفعله الناس مثل المضاجعة أو السكر أو فقدان الأعصاب أو الشعور باللبؤس المبالغ فيه، هو شىء جيد جداً بالنسبة لله، ومن ثمة لا بد أن يكون كل ذلك مسموحاً به بل وحتى يُعتبر شيئاً فاضلاً. وفى مثل تلك الحالة على النقاد إذن أن يتحدثوا عن إنسانية الكاتب الناضجة، وحكمته الحقيقية الحنونة، وتشابهه مع جوته والقزاماته بويليام بليك^(١).

ابنسم بيت وهو يتذكر كل هذا، ولكن ما بين الأسف والقله، إذ كان هو أيضاً يأخذ تلك المسائل الجدية التي بدا له أن الكلام يتطلبها. كانت جدية فى غير موقعها - وهى منبع معظم أخطائنا القاتلة. لقد قال مستر برويتر إننا يجب أن نكون

١- ويليام بليك: (١٧٥٧-١٨٢٧) شاعر وفنان وصوفى إنجليزى اشتهر بأشعاره للرمزية خاصة فى المرحلة المتقدمة من كتاباته.

جادين فقط فيما يستحق الجدية. وعلى المستوى البشرى المحض، لا يوجد شيء يستحق أن يؤخذ بجدية سوى المعاناة التي يتسببها الناس لأنفسهم من خلال جرائمهم وحماقاتهم. ولكن في التحليل الأخير، فإن سبب معظم هذه الجرائم والحماقات هو أخذ المسائل بجدية لا تستحقها. وهذا، كما قال مستر بروبتر يعتبر من الأخطاء الفادحة لما يسمى بالأدب الجيد. كان يقبل ميزان القيم التقليدي، وكان يحترم القوة والسلطة، ويعجب بالنجاح، وكان يتعامل مع الانشغال الجنوني للحكام والمحبين ورجال الأعمال والمتسلقين في المجتمع والأهالي، وكأنهم عاقلون. باختصار، لقد تعامل بجدية مع مسببات المعاناة كما تعامل مع المعاناة ذاتها. لقد ساعد على ارتكاب البؤس من خلال الموافقة الضمنية والصريحة على أفكار ومشاعر وممارسات لا يمكن ألا تنتج عن بؤس. وهذه الموافقة أعطيت من خلال لغة عظيمة ومقنعة، حتى عندما تنتهي مأساة بشكل سيء، يكون القارئ منوما تنويما مغناطيسيا بسبب بلاغة القطعة، حتى أنه يتصور أنها بشكل ما نبيلة ومستحقة، وهي بالطبع ليست كذلك. لأنك لو نظرت إليها بحياد، لا يوجد شيء أتفه ولا أحقر من الموضوع الذي تدور حوله كل من «فيدرا» أو «عطيل» أو «مرتفعات وذرنج» أو «أجاممنون». ولكن معالجة تلك الموضوعات كانت على درجة كبيرة من السمو والإثارة بحيث أن القارئ أو المتفرج أصبح على يقين من أنه بالرغم من الكارثة، فكل شيء كان جيدا في هذا العالم، في العالم البشرى جدا، الذي أنتجته. لا. إن كتابة ساخرة واحدة جيدة لها بلا شك أكثر عمقا وحقيقة من أية كتابة أخرى. وبالطبع أيضا أكثر فائدة من تراجيديا جيدة. المشكلة هي في وجود كتابات ساخرة جيدة قليلة، لأن قليلين هم الكتاب الساخرون المستعدون لأن

ينقدوا القيم الإنسانية إلى أبعد مداها. «كانديد»^(٧) مثلاً تستحق الإعجاب إلى الحد الذى وصلت إليه، ولكنها لم تذهب أبعد من فضح ادعاءات التصرفات البشرية الأساسية باسم قيمة عدم الأذى. لاشك فعلاً أن قيمة عدم الأذى هى أسبى القيم التى يمكن للإنسان التطلع إليها، لأنه بالرغم من أن القلة القليلة لديها القوة لفعل الخير الأكيد، لا يوجد أحد وإن أراد، يستطيع أن يمتنع عن الشر. وبالرغم من ذلك، عدم الأذى المحض مهما كان جيداً، لا يمثل بالتأكيد أعلى القيم الممكنة. جملة «لا بد أن نزرع حديقته» ليست الكلمات الأخيرة فى الحكمة الإنسانية، وفى أفضل أحوالها هى الأفضل إلا واحدة.

كانت الشمس فى مكان ما بحيث استطاع بيت وهو نازل الجبل، أن يرى قوسين قرح صغيرين خارجين من صدر حورية الجيامبولونيا. فكر فوراً فى نوح بالإضافة إلى أفكاره عن فيرجينيا وهى ترتدى المايوه الأبيض الساتان. حاول كتمان هذه الأخيرة لأنها غير متوافقة مع فكره الجديد عنها كأخت رحيمة. وبم أن نوح ليس موضوعاً يستحق التفكير فيه، بدأ يركز فى حديثه الجنى ذلك مع مستر بروبتر. لقد بدأ بسؤال مرتبك حول أية أنشطة جنسية يمكن اعتبارها طبيعية - ليس بالطبع بشكل عددي، ولكن طبيعية بالمعنى المطلق الذى يمكن أن نطلقه على بصر الإنسان الطبيعى مثلاً أو على هضمه الطبيعى. ما نوع النشاط الجنسي الذى يمكن أن نسميه طبيعياً بكل معنى الكلمة؟ وقد أجاب مستر بروبتر بأنه لا يوجد. ولكنه اعترض على ذلك، إذ لا بد أن يوجد نوع ما يعتبر طبيعياً وعادياً مثلاً يوجد نوع من النشاط الهضمى العادى والطبيعى. وقد أجاب مستر بروبتر أن النشاط الجنسي للبشر ليس على نفس مستوى النشاط الهضمى. عندما يمارس الفأر

٧ - كانديد: قصة فلسفية ساخرة كتبها الكاتب الفرنسى فولتير، يسخر فيها من تقاليد زميله روسو وليبنيز.

الجنس - نعم هذا بالفعل على ذات المستوى من النشاط الهضمي، لأن المسألة كلها فطرية. أى بمعنى آخر يتحكم فيها الذكاء الفيسيولوجى للجسم - نفس الذكاء الفيسيولوجى الذى ينظم الحركة بين القلب والرئة والكلى، ويضبط الحرارة، ويغذى العضلات، ويجعلها تقوم بالعمل المطلوب منها عن طريق الجهاز العصبى المركزى. إن نشاط الإنسان الجسدى محكوم بنفس هذا الذكاء الفيسيولوجى، لذلك فعلى المستوى الحيوانى هو ذاته الخير الظاهر. لكن النشاط الجنىسى لدى الإنسان يقع تقريبا خارج دائرة اختصاص الذكاء الفيسيولوجى. إن هذا الأخير يتحكم فقط فى النشاط المتعلق بالخلايا، والذى يجعل النشاط الجنىسى ممكنا. أما الباقى كله فهو غير فطرى، ويأخذ مكانه على مستوى الوعى الذاتى البشرى المحض. حتى عندما يعتقد الإنسان أنه يتصرف بحيوانية بحتة فى شهوانيته، فهو لم يزل على المستوى البشرى، مما يعنى أنه لا يزال يملك الوعى الذاتى، ولا تزال الكلمات تسيطر عليه - وأينما وجدت الكلمات، وجدت بالضرورة الذكريات والآمال والأحلام والخيالات. بل وبالضرورة يوجد الماضى والمستقبل، الفعلى والخيالى، الندم والترقب، الخير والشر، الحميد وغير الحميد، الجميل والقبيح. وحتى النشاط الجنىسى بين الرجال والنساء الذى قد يبدو أكثر حيوانية من غيره، متصلا ببعض أو كل هذه العناصر غير الحيوانية - العناصر التى تم حقنها فى كل وضع إنسانى من خلال اللغة. هذا يعنى أنه لا يوجد نوع واحد من الجنسية البشرية يمكن أن نسميها أنواعا طبيعية كما نطلق على طبيعة الرؤية والهضم. وبهذا المعنى فكل أنواع الجنسية البشرية غير طبيعية. لا يمكن أن نحكم على أنواع الأنشطة الجنسية المختلفة للإنسان من خلال إرجاعها إلى شىء نموذجى محض. يمكن فقط الحكم عليها من خلال إرجاعها إلى الأهداف العليا لكل فرد على حدة، والتدقيق فى نتائج

كل حالة على حدة. فإذا كان شخص ما يريد أن يعتبره الناس خيرا في مجتمع ما، يمكنه أولا أن يعتبر النشاط الجنسي الذي يمارسه البعض والمقبول حاليا من الدين المحلى ومقبول من «أفضل الناس»، على أنه هو الطبيعي. ولكن هناك بعض من لا يهمهم الحكم عليهم من قبل إله غاضب أو حتى أفضل الناس. إن رغبتهم الأساسية تكمن في إثارة أحاسيسهم ومشاعرهم بشكل مكثف ومتكرر. بالنسبة لهؤلاء فمن الطبيعي أن الأنشطة الجنسية تختلف عن الأكثر اتجاها ناحية المجتمع. حينئذ يصبح هناك أنواع من الجنسية «الطبيعية» المختلفة لمن يريد أن يأخذ الأفضل من العالمين - عالم الحس والمشاعر الشخصي، والعالم المجتمعي المكون من الأخلاق والتقاليد الدينية. إن «طبيعية» طارطوف⁽³⁾ وبيكسيف⁽⁴⁾ هي مثل هؤلاء القساوسة الذين لا يستطيعون أن يبعدوا أيديهم عن طالبات المدارس، أو الوزراء ذوي الجنون السرى نحو الشباب الجميل. وأخيرا يوجد غير المعنيين بمسابقة المجتمع، ولا مهادنة الإله المحلى، ولا الاستمتاع بالإثارات المتكررة للمشاعر والحس، ولكن أهم انشغالاتهم هي التلويز والحرية، ومشكلة تخطى الذات، والمروء من المستوى البشرى إلى المستوى الأبدى. بل إن مفهوم هؤلاء عن الطبيعية فيما يخص الأنشطة الجنسية ليس مثل الرجال والنساء من أية فئة أخرى.

من ملعب التنس الإسمنتي كان أطفال الطباخ الصينى يطربون طائراتهم الورقية المصنوعة على شكل العصافير، مُركَّب فيها صفارات تصدر صوتا يشبه النواح. سمع بيت صوت الكانتونيين⁽⁵⁾ المبتهج. عبر المحيط الأطلسي يوجد ملايين

٣- طارطوف: شخصية في كوميديا كتبها موليير الكاتب الفرنسى وهي بذات الاسم، وهو شخصية مخافقة وكاذبة، وتدور الرواية على أنه يقدم نفسه لعائلة ما على أنه رجل دين ويحاول إغراء الزوجة.

٤- بيكسيف: شخصية من شخصيات رواية لتشارلز ديكنز واسمها مارتن شازلويت.

٥- الكانتونيين: أى الصينيين.

الملايين من هؤلاء الأطفال ماتوا أو يموتون الآن.

أسفلهم فى الكهف المقدس وقف التمثال الجبرى للسيدة العذراء. أخذ بيت يفكر فى فيرجينيا وهى راكعة بالشورت الأبيض المصنوع من الساتان وكاب البحارة، وفكر أيضا فى بلاغة القس شليتز السبابة، وفى نكات الدكتور أوبيسبو، وفى أليكسيس كاريل^(٦) حول موضوع لورد^(٧)، وفى «تاريخ محاكم التفتيش» للى^(٨)، وفى تونى حول العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية، وفى نيمولر^(٩) وجون نوكس^(١٠) وتوركيمادا^(١١)، وهذه الأخت الرحيمة ثم ثانية فى فيرجينيا، وأخيرا فى مستر برويتر باعتباره الشخص الوحيد الذى يعرفه، بل ويمكن أن يستخرج معنى ما من كل تلك الغسيفساء الغربية والجنونية والشيطانية لكل شيء.

٦- أليكسيس كاريل: (١٨٧٣-١٩٤٤) وهو عالم بيولوجى فرنسى حصل على جائزة نوبل للطب عام ١٩١٢ بسبب عملياته الرائدة على الأوردة الدموية، وله العديد من المؤلفات الطبية.

٧- لورد: مدينة بفرنسا وهى تعد مركزا للحجاج الكاثوليكين بسبب كيف شهير بها يقال إن العذراء ظهرت فيه عام ١٨٥٨.

٨- لى: يعلى فى الغالب ناغانيل لى (١٦٥٣-١٦٩٢) كاتب إنجليزى.

٩- نيمولر: نسبة إلى مارتن نيمولر (١٨٩٢-٢٠) قس ألمانى شهير كان معاديا للظلم النازى وبقى معتقلا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

١٠- جون نوكس: (١٥١٣-١٥٧٢) مصلح دينى إسكتلندى.

١١- توركيمادا: نسبة إلى توماس دى توركيمادا (١٤٢٠-١٤٩٨) قس إسبانى من أهم المسؤولين عن محاكم التفتيش ويعتبر أحد أهم مؤسسيها فى إسبانيا.

الفصل السادس

أصيب جيريمي بنوع من الإحباط لأن الدكتور أوييسبو لم يصبه الذهول عندما علم بوجود من تكهن بأفكاره في القرن الثامن عشر.

قال وهما ينزلقان مع لوحة فيرمير نحو القيو:

- تقول إنه عاش حتى التسعين؟

أجاب جيريمي:

- بل أكثر من تسعين. ست أو سبع وتسعين. لقد نسيت أيهما. بل وقد مات

وسط فضيحة ما.

- أى نوع من الفضائح؟

تدحج جيريمي وربت على أعلى رأسه وقال:

- النوع المعتاد.

قال الدكتور أوييسبو بتشكك وذهول:

- أتعنى أن الرجل العجوز كان لا يزال يفعل ذلك؟

قال جيريمي:

- نعم يفعل. توجد فقرة عن هذا الموضوع في أوراق غير منشورة في

جريفيل. لقد مات في الوقت المناسب، إذ كانوا في الواقع على وشك القبض عليه.

- لماذا؟

- لمعت عينا جيريمي ثانية وحمم ثم أجاب ببطء وكأنه كرانفورد^(١):

يبدو أنه كان لا يستمد متعته إلا بشكل قاتل.

- أتعنى أنه قتل أحدهم؟

١- كرانفورد: نسبة إلى رواية كتبها مسز جاسكيل الروائية الإنجليزية، نشرت عام ١٨٨١، وتحدثت بلغة منزلية بسيطة ومملة، وتحكى عن الحياة الهادئة لقرية بإنجلترا في بدايات القرن التاسع عشر.

أجاب چيريمى:

- لم يقتل فعليا، ولكنه حطم فقط.

أصيب الدكتور أوبيسبو بخيبة أمل، ولكنه ما لبث أن عزى نفسه بأن فى السادسة والتسعين حتى التحطيم يعتبر شيئا حميدا. قال:

- أود أن أنظر فى هذا الموضوع.

قال چيريمى بأدب:

- إن النوتة تحت أمرك.

شكره الدكتور أوبيسبو. سارا معا نحو غرفة مكتب چيريمى. قال هذا الأخير وهما يهمان بالدخول:

- قد يكون الخط صعبا نوعا ما. أعتقد أنه ربما من الأسهل لو قرأت لك بصوت عال.

اعترض الدكتور أوبيسبو وقال إنه لا يريد أن يضيع وقت چيريمى ولكن لأن الآخر كان يريد أن يجد ذريعة ليؤجل مهمة ترتيب الأوراق المملة الطويلة التى لم تجذب اهتمامه، فقد اعترض على الاعتراض وانتصر. أصر چيريمى على أن يكون غير أنانى. شكره الدكتور أوبيسبو وجلس ليستمع. أخرج چيريمى عينيه من بينتهما الطبيعية أثناء تلميع نظارته، ثم بدأ يقرأ مرة ثانية ولكن بصوت عال، نفس الفقرة التى كان يقرأها هذا الصباح عندما دق الجرس معلنا موعد الغداء:

قال مختتما القراءة:

- «يمكن أن تجده فى الطين، وهو فقط فى انتظار الصياد الماهر».

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال:

- يمكنك تقريبا أن تستخدم هذه الجملة كتعريف للعلم. ما العلم؟ العلم هو

الصيد فى الطين - الصيد بحثا عن الخلود وعن أى شىء آخر يمكن أن تجده .

ضحك ثانية وأضاف أنه أصبح يحب العجوز ابن الزانية .

استمر جيريى فى القراءة :

- «أغسطس ١٧٩٦ . اليوم عاتبتنى كارولين ابنة أخى التى جاءتنى مزمجرة عما أسمته التناقض وعدم الثبات فى تصرفاتى . رجل إنسانى مثلى لديه جياذ فى أسطبلاته، وغزلان فى حديقته، وشبوط فى برك أسماك، لابد أن يظهر بعض الثبات وذلك بأن يكون اجتماعيا أكثر منى، متسامحا أكثر فى صحبة الحمقى، وعطوفا أكثر نحو الفقراء والمساكين . وقد أجبته بالتعليق على كلمة «رجل» وهو الاسم العام الذى ينطبق على تعاقب التصرفات المتناقضة، لأن أصله يكمن داخل الجسد ذى الرجلين الاثنتين ويدون ريش . أما كلمات مثل كارولين وجون وأمثالهما، فهى أسماء تنطبق على تعاقب عدم الثبات فى التصرفات الخاصة داخل أجساد خاصة . الشئ الوحيد الثابت الذى يظهره الجنس البشرى هو ثبات عدم الثبات . وبمعنى آخر، إن طبيعة أى تعاقب للتصرفات غير الثابتة يعتمد على تاريخ الفرد وأجداده . كل تعاقب لعدم الثبات يحدده ويضع له قوانين فرضت عليه من قبل ظروفه التى سبقتها . إن شخصية ما، يمكن اعتبارها ثابتة، بمعنى أن عدم ثباتها قدر كتب عليها ولا يمكن أن تتخطى الحدود التى سبق وأن كتبت لها . أما الثبات الذى يريده الحمقى أمثال كارولين فهو نوع آخر . إن هؤلاء يعاتبوننا لأن تصرفاتنا المتعاقبة غير متوافقة مع مجموعة من الانحيازات المختارة بشكل تعسفى، أو مجموعة من القوانين التى تبعث على الضحك، مثل العبرية، أو الجنتلمانية أو الإيروكوا^(٧) أو المسيحية . ولا يمكن الوصول لهذا الثبات ، بل ومحاولة

٧- إيروكوا: وهى كنفدرالية أمريكا شمالية هندية معروفة بالإنجليزية باسم الخمس أمم، وقد ساندت الإنجليز ضد الفرنسيين ثم فيما بعد ضد الاستعمار الأمريكى .

الوصول إليه ينتج عنه فقط البله والنفاق. لقد قلت لكارولين انظرى إلى تصرفاتك أنت. أين الثبات ما بين حديثك مع كاهن الخلاص وبين العقاب بالجلد المخيف الذى تمارسينه على الخادومات الصغيرات؟ بين إحساناتك اللافتة للنظر، وبين وضعك للشراك فوق أملاكك؟ ظهورك فى البهو وبين مقعدك المثقوب؟ أو بين الخدمات الإلهية صباح يوم الأحد وبين المتع التى تستمتعين بها كل ليلة سبت أنت وزوجك، وأيضا يومى الجمعة والخميس، كما يشك العالم كله، مع بارون ما، لن أنكر اسمه؟ ولكن قبل أن أنهى سؤالى الأخير، غادرت كارولين الغرفة.

ضحك الدكتور أوبيسبو وقال:

- مسكينة كارولين. ومع ذلك فقد نالت ما استحققت.

قرأ جيريمى المدخل التالى:

- «ديسمبر ١٧٩٦. بعد إصابتي الثانية بالنزلة الشعبية، جاءت فترة النقاهة هذه المرة ببطء وبفعالية أقل. إننى معلق هنا، متدلٍ فوق الهوة السحيقة، وكأنى متدلٍ بخيط رفيع، وهذا الخيط قد صنعه البؤس». نفص الدكتور أوبيسبو رماد سيجارته على الأرض بإصبع أنيق مثنى، وقال معلقاً:

- إنها إحدى تلك المآسى الطبية. كان يمكننى أن أسعده غاية السعادة بـ«كورس» من ثيامين كلوريد وبعض التستوستيرون. هل لاحظت أبداً أن أفضل أدب رومانسى هو نتيجة للتطبيب السيء؟
«يمكننى أن أرقد مثل طفل مرهق وأبكى هذه الحياة المهمومة، جميلة! ولكن لو عرفوا كيف يعالجون السل المزمن الذى أصيب به شيلى، ما

كان كتب هذا أبدا . راقد كطفل مرهق وبأكيا على الحياة ، كلها بالتحديد الأعراض المميزة للسل المزمن . ومعظم الأولاد الوليتشميرز^(٣) الآخرين كانوا إما مرضى أو مدمنى خمور، أو مخدرات، كان يمكننى أن أمنع كل واحد منهم من الكتابة كما فعلوا.

نظر الدكتور أوبيسبو بطفولية مبتهجا بانتصاره الساخر، وأضاف:

- إذن فلنسمع كيف تغلب الولد العجوز على مشاكله .

قرأ جيريمى بصوت عال:

- «ديسمبر ١٧٩٦ . لقد أصبحت عسيسة الصباغ المرافقين لى غير محتملة بالأمس لدرجة أننى قررت أن أنهى كل هذا عندما طلبت منهم تركى لحالى فى المستقبل . اعترض كل من كارولين وجون مدّعين أن محبتهم لى أكثر من المحبة البتوية . فى النهاية اضطررت أن أقول لهم إن لم يذهبوا فى مساء هذا اليوم، سرف أمر خادمى أن يأتى برجال كثيرين ليطردوهم من بيتى . هذا الصباح، من نافذتى، رأيتهما يرحلان .

كان المدخل التالى بتاريخ ١١ يناير ١٧٩٧ :

- «أثار عيد ميلادى هذا العام أفكاراً أكثر وجوماً من ذى قبل . إننى مرهق جدا ولن أسجلها . بما أن اليوم جميل ودافئ بالنسبة للفصل الحالى، جعلتهم يحملوننى على كرسى وذهبوا بى إلى بركة الأسماك . دق الجرس وجاء الشبوط مسرعا ليأكل . إن مجرد رؤية هذه المخلوقات الشرسة تكاد تكون السعادة الوحيدة المتبقية لى . إن غياب هذه الوحوش واضح، وخبثها يعتمد على شهيتها، ومن ثم فهو خبث متقطع

٣- ويلتشميرز: كلمة ألمانية أطلقت على الشعراء المصابين بالاكتئاب نتيجة للمقارنة بين الحياة التى يحبوها من ناحية، والحياة المثالية من ناحية أخرى .

فقط، الإنسان قاسٍ بشكل منهجى ودائم، بينما حماقته مبررة باسم الدين والسياسة، وجهله مغطى تحت ثياب الفلاسفة المتخترسين،.

وبينما كنت أنظر إلى الأسماك تتدافع وتتزاحم من أجل طعامها، مثل حشد من الآلهة تبحث عن ترقية ما، عادت ذاكرتى إلى السؤال المحير الذى ما برحت أفكر فيه فى الماضى. لماذا يموت الإنسان بعد عشرين سنة ثلاث مرات زائد عشرة، بينما يمكن لسمكة أن تبقى شابة قرنين أو ثلاثة؟ لقد تجادلت مع نفسى حول عدد من الإجابات المحتملة. لقد مر على وقت مثلا اعتقدت فيه أن طول حياة الشبوط والكراكي ربما يكون بسبب تفوق عنصر بيئتهما المائية على هوائنا. ولكن حياة بعض المخلوقات المائية قصيرة، بينما يزيد طول حياة بعض العصافير عن الإنسان. ومرة أخرى سألت نفسى لو أن حياة الأسماك الطويلة سببها الطريقة الخاصة فى الحمل والولادة. ولكن مرة ثانية قابلتني اعتراضات. إن ذكور الببغاوات والغربان لا تقذف الملى خارجا عند الجماع ولكنها تقوم بالجماع الكامل، وأنثى الأفيال لا تبيض ولكنها تلد، لو صدقنا المسيودى بافون، فى مدة ليست أقل من أربعة وعشرين شهرا. ولكن الببغاوات والغربان والأفيال مخلوقات تعيش طويلا، ومن ثمة يمكن الاستنتاج أن قصر حياة البشر له مسببات أخرى غير الطريقة التى يلد بها الإنسان وتتوالد بها الإناث.

الافتراض الوحيد الذى لم أجد له اعتراضات هو هذا: إن طعام سمكة مثل الشبوط والكراكي يحتوى على بعض المواد التى تحفظ الجسد من التلف، والذى يصيب العدد الأكبر من المخلوقات حتى وهم أحياء. وبالتالي فإن هذه المواد التى تمنع التلف موجودة داخل جسد الأسماك، وبخاصة، كما هو افتراض منطقى، أنها فى معدة وكبد وأمعاء هذه الأسماك، وكذلك فى باقى أعضاء الجسم الاستيعابية

والهضمية. أما فى الحيوانات التى تعيش أزمنة قصيرة، فإن المواد التى تمتع التليف يفترض أنها ناقصة. والسؤال الآن هو فى إمكانية إدخال هذه المواد المأخوذة من الأسماك داخل الجسم البشرى. إن التاريخ لا يسجل أية فترات إطالة للحياة بين أكلى الأسماك، ولم ألحظ أبدا أن ساكنى الموانئ البحرية والأماكن الأخرى التى يوجد بها وفرة سمكية، تعيش أكثر بشكل خاص. ولكن ليس من الضرورى استنتاج أن المادة المانعة للتليف يستحيل نقلها من الأسماك إلى الإنسان، لأن الإنسان يطبخ طعامه قبل أن يأكله، ونحن نعلم من آلاف الحالات السابقة أن استخدام الحرارة يغير تغييرا جذريا كثيراً من المواد، بالإضافة إلى أن الإنسان يرمى بالتحديد تلك الأعضاء فى الأسماك التى يعتقد أنها غير صالحة للأكل، والتى من المنطقى افتراض أنها تحتوى على المواد التى تمتع التليف.

لم يستطع الدكتور أوبيسبو التحكم فى نفسه أكثر من ذلك وصاح:

— يا للمسيح! لا تقل إن الصقر العجوز سوف يأكل أمعاء السمك نيئا!

خلف النظارة نزلت عينا جيريمى اللامعة إلى أسفل الصفحة وارتفعت إلى أعلى الصفحة التالية، وصاح بفرحة:

— هذا تماما ما فعله. استمع إلى هذا: «لقد تسببت أول ثلاث محاولات فى قىء لا إرادى. أما الرابعة فقد ابتدعت وسيلة لابتلاع ما وضعت فى فمى، ولكن بعد دقيقة أو اثنتين انقطع انتصارى إذ تقيأت تقيؤا شديدا وتمكنت فقط بعد المرة التاسعة أو العاشرة أن أبتلع وأبقى على بعض ملء الملاعق من اللحم المفروم المثير للغثيان».

قال الدكتور أوبيسبو:

— وللتحدث عن الجراءة! أفضل أن أكون فى غارة جوية على أن أفعل هذا.

أما جيريمى فلم يرفع عينه عن الكتاب، وقال:
- «لقد مر شهر الآن منذ أن بدأت أجرب حقيقة افتراضى، وإننى الآن أقوم
بهمضم ما لا يقل عن ستة أونسات من الأمعاء اللينة المهروسة من الشبوط الطازج
والمفتوح نواء».

قال الدكتور أوبيسبو وهو يهز رأسه:
- والسماك به مجموعة متنوعة من الديدان الطفيلية أكثر من أى حيوان آخر.
إن مجرد سماعى لهذا يجعل الدم يتجمد فى عروقى.

قال جيريمى الذى استمر يقرأ:
- لا داعى للقلق. إن سيادته لم يفعل شيئا سوى أنه تحسن شيئا فشيئا. ها هنا:
«اكتساب فريد للقوة والنشاط فى شهر مارس، هذا بدون ذكر إحياء للشهية وتحسن
فى الذاكرة وقوة الاستنتاج المنطقية».

أضاف بتقدير:
- «إننى أحب الاستنتاج المنطقى، هذا. إنها كلمات جميلة فعلا؟ ألا تعتقد؟ كلمة
مثل تشيبنديل^(١)».

استمر يقرأ لنفسه، ثم بعد فترة صمت قصيرة أعلن بانتصار:
- ها هو فى أبريل يركب ثائية لمدة ساعة كل مساء على حصان الخليج
المخصى. وقد رفع جرعة ما يسميه الطعام المفروم المصنوع من الأحشاء والروث
إلى عشرة أونسات فى اليوم الواحد.

قفز الدكتور أوبيسبو من كرسيه وبدأ يمشى فى الغرفة ذهابا وإيابا بانفعال
وصاح:

٤- تشيبنديل: نسبة إلى توماس تشيبنديل (١٧٧٩) والذى اشتهر بمقروشاته وزخارفه وأناقته الإنجليزية.

- اللعنة على كل هذا . إنها أكثر من نكتة . هذا جاد جدا . أحشاء السمك اللينة ،
الفطريات الأمعائية ، منع التسمم ، تجديد عنفوان الشباب ! تجديد عنفوان الشباب !
قال جيري مي :

- لقد كان الإبرل أكثر حرصا منك . استمع لهذا : «سواء كان سبب شفائي هو
الشبوط أو يرجع ذلك إلى عودة فصل الربيع ، أو إلى دواء الحياة الطبيعي ، فإنني لا
أستطيع أن أجزم بعد» .
هز الدكتور أوبيسبو رأسه موافقا وقال :

- هذه هي الروح الصحيحة .

استمر جيري مي يقرأ :

- «الوقت سوف يرينا ذلك ، هذا بالطبع إذا استطعت أن أجبره على أن يرينا ،
لأن الذي أنوى أن أفعله هو الاستمرار في نظامي التغذية والتمارين الحاليين .
لأنني أعتقد أن افتراضى سوف يتأكد إذا استمر ذلك زمنا أطول ، بل أيضا إنني
أشعر بنسبة كبيرة من النشاط لم أستمع بها منذ زوال الشباب» .
صاح الدكتور أوبيسبو :

- عظيم جدا له هذا ! كم كنت أتمنى لو رأى العم جو الأمور بشكل علمي .

ثم تذكر فجأة أقراص النمبوتال وإيمان مستر ستويت الطفولي في قدراته الطبية
فأضاف :

- أو ربما لا أتمنى ذلك . ربما فيها بعض المضايقات .

ضحك في نفسه على نكته الخاصة ثم أضاف :

- إذن أكمل حالتنا هذه .

قال جيري مي :

- استطاع في سبتمبر أن يركب حصانه لمدة ثلاث ساعات مرة واحدة دون كلال، وهو الآن يجدد معرفته بالأدب اليوناني، وألاحظ أيضا أنه ليس معجبا بأفلاطون، وبعد ذلك لا يوجد مدخل حتى عام ١٧٩٩.

قال الدكتور أرييسبر في سخط:

- ماذا؟ لا مدخل حتى ١٧٩٩! العجوز ابن الزنا! يذهب هكذا وحالته قد بدأت بالفعل تصبح مثيرة، ويتركنا في الظلام.

نظر جيريمي من نرته مبتسما وقال:

- ليس تماما. سوف أقرأ لك أولا المدخل الأول بعد أكثر من عامين من الصمت، ويمكنك حينئذ أن تستلج بنفسك حالة فطريات أمعائه.

تدحرج وبدأ يقرأ بطريقة المسز جاسكيل^(٥) وقال:

- مايو ١٧٩٩. الإناث الأكثر استهتارا، خاصة بين النساء من سراة القوم، هن اللواتي حرمتن الطبيعة غير الطيبة من المنطق العادي والذريعة لإقامة علاقات غرامية. لقد قطعن عن الاستمتاع بالمتعة من خلال برود جنسى بنيوى، وهن هكذا فى تمرد أبدى ضد قدرهن. إن القوة التى تدفعهن ليضاعفن غرامياتهن ليست الشهوانية ولكن الأمل. ليس الرغبة فى إعادة تجربة البهجة المألوفة، ولكن التطلع نحو الغبطة العادية والمتفاخرة التى هن أنفسهن لم يعرفنها أبدا لسوء حظهن. بالنسبة لشهوانية المرأة المتساهلة أخلاقيا، فهى ليست أقل بغضا، إلا أن ذلك لأسباب أخرى، تبدو كذلك بالنسبة للأخلاقى الحاد. ليحفظنى الله فى المستقبل من أية انتصارات مثل تلك التى حصلت عليها هذا الربيع فى باث.

أنزل جيريمي الكتاب وقال:

- هل لازلت تشعر أنك تركت فى الظلام؟

٥- مسز جاسكيل: نسبة إلى الكاتبة الروائية إليزابيث جاسكيل (١٨١٠-١٨٦٥).

الفصل السابع

دارت آلة التنعيم الكهربائية بصوت عال يصم الآذان، تلف ورق السفرة على السطح الخشن للخشب. لم يسمع مستر برويتر صوت بيت عندما دخل وأقرب منه، لأنه كان منحنيا على كرسي النجارة. وقف الشاب في صمت نصف دقيقة طويلة ينظر إليه وهو يحرك آلة التنعيم للأمام وللخلف فوق اللوح الذي أمامه. لاحظ بيت النشارة على حاجبيه كثيفي الشعر ورأى بقعة سوداء على الجبين الذي حرقته الشمس حيث لمستها أصابعه المملوءة بالزيت.

شعر بيت بتأنيب الضمير المفاجيء. لم يكن من اللائق أن يتجسس هكذا على رجل لا يعلم بوجوده. كان شيئا وضيعا، إذ ربما يرى ما لا يريده أن يراه. نادى على اسم مستر برويتر. رفع الرجل رأسه وابتمس له، وأوقف محرك الآلة الصغيرة، وقال:

- بيت! أنت الرجل الذي أريده. هذا إن كنت ستقوم ببعض الأعمال من أجلي.
هل تفعل ذلك؟

ثم أضاف مقاطعا رد بيت بالإيجاب:
- ولكنني نسيت موضوع قلبك هذا، وهذه الحمى الروماتيزمية. هل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل هذا؟

علت الحمة وجه بيت قليلا لأنه لا يزال يشعر بالخجل حيال عجزه وقال:
- هل ستجعلني أجرى ربع ميل، أم ماذا؟
تجاهل مستر برويتر المداعبة وقال بإصرار وهو ينظر بمحبة جادة إلى وجه الشاب:

- أمتأكد أنه لا شيء في هذا؟

أشار بيت بيده ناحية كرسى النجارة وقال:

- متأكد طبعا لو أن هذه هى نوعية العمل .

- حقا؟

- تأثر بيت وشعر بالدفء لعنايته الشديدة وقال مؤكداً:

- حقا .

قال مستر برويتر وقد اطمأن بعض الشيء:

- حسن إذن . لقد عينتك . أو بالأحرى ليس تعييناً لأنك ستكون محظوظاً لو

حصلت حتى على كوكا-كولا مقابل عملك . لنقل جندتك .

أخذ يشرح كيف أن كل الناس الآخرين فى المكان كانوا مشغولين، وقد تركوه يشغل كل مصنع الأثاث بمفرده . والمشكلة أنه يعمل تحت ضغط كبير، إذ هناك ثلاث من العائلات المهاجرة فى الكيائن تعيش بلا أية كراسى أو موائد . ثم أضاف مشيراً إلى ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة ومعلقة بمسمار على الحائط، أن تلك هى المقاسات، وهى هو الخشب، والآن سوف يشرح له ما يريد أن يفعل أولاً .
رفع لوحاً خشبياً ووضع على الكرسى .

استمر الاثنان فى العمل فترة دون محاولة للكلام بسبب الضوضاء الصادرة عن الأدوات الكهربائية . ثم جاءت فترة أقل ضوضاء فتحدث عن كتب البروفيسيرة بيرل^(١) الجديدة عن السكان . أربعون ساكناً فى كل ميل مربع على الرقعة الأرضية كلها . ستون فداناً لكل رأس . اخضم ريعها بسبب الأرض غير المنتجة ويتبقى لك ثمانية . ووسائل الزراعة المستخدمة حالياً يمكن للفرد أن يعيش على إنتاج فدانين ونصف الفدان . ويخمس ونصف أخرى متبقية فارغة لكل إنسان، فلماذا يجوز ثلثا

١- بيرل: نسبة إلى الكاتبة الأمريكية بيرل باك (١٩٧٣-١٨٩٢) وقد حصلت على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٣٨

العالم؟

قال مستر برويتر:

- لقد اعتقدت أنك وجدت الإجابة فى إسبانيا، إنهم جائعون لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده.

- وما دخل هذا بالموضوع؟

- كل شيء، الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده لأنه يريد أن يشعر أن لحياته معنى. لهذا يتبنى الناس المثالية.. ولكن من خلال التجربة والتأمل يمكنك معرفة أن المثالية تؤدي إلى الحرب والاضطهاد والجنون الجماعى. الإنسان لا يمكن أن يحيا بالخبز وحده ولكن لو اختار أن يغذى عقله بالطعام الروحى الخاطيء، لن يحصل حتى على الخبز. وهولن يحصل على الخبز لأنه سوف يكون مشغولا بالقتل أو الاستعداد لقتل جيرانه باسم الله أو الوطن أو العدل الاجتماعى، ولن يستطيع حثرت حقله. لا يوجد ما هو أبسط وأوضح من هذا، ولكن فى ذات الوقت لا يوجد شيء مؤكد أكثر من أن معظم الناس، مع الأسف، سوف يستمرون فى اختيار الطعام الروحى الخاطيء ومن ثم ويشكل غير مباشر سيختارون دمارهم أيضا.

أدار المحرك مرة أخرى وتصاعدت الضوضاء العالية. سادت فترة صمت أخرى. فى الراحة التالية قال مستر برويتر:

- فى جو مثل هذا، وبالمياه التى ستكون متوفرة عندما يبدأ تشغيل القناة الاصطناعية لنهر الكولورادو فى العام القادم، يمكنك أن تفعل ما يحلو لك.

نزع القابس الكهربائى وذهب ليبحث عن المخزنة، ثم قال:

- خذ مدينة بها ألف ساكن، وأعطها ثلاثة أو أربعة آلاف فدان من الأراضى،

ونظاماً إنتاجياً جيداً، جمعيات استهلاكية تعاونية: سوف تتمكن من إطعام ذاتها تماماً. يمكنها أن تنتج ثلثي احتياجاتها الأخرى على المكان ذاته، بل ويمكنها أن تنتج فائضاً تتبادل به مقابل أشياء لا تستطيع إنتاجه بنفسها. نستطيع أن نغطي الولاية كلها بمثل هذه المدن.

ابتسم بحزن وأضاف:

- هذا بالطبع لو استطعنا الحصول على موافقات من البنوك ومنح الناس الذكاء الكافي والفضيلة الكافية ليديرنا ديمقراطية حقيقية.

قال بيت:

- بالتأكيد لن توافق البنوك.

أجاب مستر برويتر:

- وفي الغالب لن تجد سوى القلة القليلة الذين يصلحون لذلك. وبالطبع لا توجد كارثة أكثر من بداية تجربة اجتماعية باستخدام أناس لا يصلحون لها. انظر إلى كل المحاولات لبداية مجتمعات جديدة في الدولة، مثلاً روبرت أوين^(٢) والفورييون^(٣) والباقيون، كذا دسة من التجارب الاجتماعية وكلها فشلت. لماذا؟ لأن المسؤولين عنها لم يختاروا الأفراد بدقة، ولم يجروا اختبارات قبول ولا فترة إعداد، لقد قبلوا كل من جاء، وهذا ما يحدث عادة عندما نكون متفائلين بدون وجه حق تجاه البشر.

بدأ يثقب ثانية وأخذ بيت دوره على آلة التتبع.

٢- روبرت أوين: (١٧٧١-١٨٥٨) مصلح إجتماعي وكتائب إنجليزي اشتهر بفتح مدارس أو ما أسماها مؤسسات لتكوين الشخصية، وكان يعتبر حالما أكثر منه علمياً في نظريته.

٣- الفورييون: نسبة إلى فرانسوا ماري تشارلز فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧) وهو مصلح اجتماعي فرنسي اشتهر بإيمانه أن المجتمع للتناقض شري، فكتب ثلاثة كتب حول الدين وعلم النفس، وكانت أفكاره كلها تدور حول ضرورة إيجاد مجتمعات صغيرة لا يزيد عدد أفراد كل منها عن ١٨٠٠ لتتجمع كل التخصصات ويوضعون في تجمعات سكنية ذات اكتفاء ذاتي. وقد قام البعض في كل من أمريكا وفرنسا بتقليد هذا النموذج إلا أنها فشلت كلها.

سأل الشاب:

- هل تظن أنه ينبغي ألا نكون متفائلين؟

ابتسم مستر برويتر وأجاب:

- يا له من سؤال غريب. ماذا نقول عن رجل وضع شفاطاً بالتفريغ الهوائي

في بئر عمقه خمسون قدماً؟ هل تسميه متفائلاً؟

- بل أسميه أبله.

قال مستر برويتر:

- وأنا كذلك. وهذه هي إجابة سؤالك. الإنسان أحمق لو كان متفائلاً تجاه وضع

أثبتت التجربة من قبل أنه لا مبرر للتفاؤل تجاهه. عندما أخذ روبرت أوين حشداً

من المعوقين وغير الأكفاء والنصابين المعتادين على ذلك، ثم توقع أن ينظموا

أنفسهم في مجتمع جديد وأفضل، كان بالتأكيد غاية في حماقة.

سادت فترة صمت قصيرة بينما بيت يقوم بنشر الأخشاب، ثم قال عندما فرغ

منها:

- أعتقد أنني كنت متفائلاً جداً.

هز مستر برويتر رأسه بالإيجاب وقال:

- متفائلاً جداً في اتجاهات معينة، ولكن في نفس الوقت متشائماً في أخرى.

سأل بيت:

- مثلاً؟

قال مستر برويتر:

- بداية أنت متفائل فيما يخص الإصلاح الاجتماعي، متصوراً إمكانية تصنيع

الخير بسهل الإنتاج بالجملة. ولكن مع الأسف الخير ليس سلعة بهذه الطريقة. الخير

مسألة تتعلق بالحرفية الأخلاقية، ولا يمكن إنتاجه إلا من خلال الأفراد. وبالطبع الأفراد لا يعرفون ماهية الخير، أو بالأحرى لا يريدون العمل من أجله، ومن ثم لن يظهر مهما كانت الآلية المجتمعية كاملة.

ثم قال بديرة أخرى وهو ينفخ النشارة خارج الثقب الذى كان يفتقه:

- ها قد انتهت. والآن إلى أرجل الكراسى والعوارض الخشبية.

عبر العرقة وبدأ يضبط المخرطة.

سأله بيت:

- وفى أى شيء تعتقد أننى متشائم؟

أجاب مستر برويتر دون أن يرفع رأسه:

- حول الطبيعة البشرية.

قال بيت بدهشة:

- توقعت أن تقول إننى متفائل تجاه الطبيعة البشرية.

أجاب مستر برويتر موافقا:

- بالطبع هذا حقيقى فى بعض النواحي. مثل كل الناس هذه الأيام أنت متفائل

بجنون تجاه الناس كما هم. الناس الذين يعيشون تماما على المستوى البشرى. يبدو

أنك تتصور أن الناس يمكن أن يظلوا كما هم، وفى نفس الوقت يصيرون سكان عالم

أفضل بكثير من العالم الذى نعيش فيه. ولكن العالم الذى نعيش فيه هو نتاج لواقع

الإنسان، وإبراز لوضعهم الحالى. لو استمر الإنسان مثلما هو الآن، ومثلما كان فى

الماضى، فمن الطبيعى أن العالم الذى يعيش فيه لا يمكن أن يصبح أفضل. لو

تصورت ذلك فأنت متفائل جدا تجاه الطبيعة البشرية. ولكن من جهة أخرى أنت

متشائم جدا لو تصورت أن الرجال والنساء محكوم عليهم بطبيعتهم هذه أن يسيروا

طوال حياتهم على المستوى البشرى المحض. حمدا لله أن الوضع ليس كذلك. إنه فى متناول أيديهم أن يصعدوا خارجا ويرتفعوا إلى مستوى الأبدية. لا يمكن لأى مجتمع بشرى أن يصبح بشكل واضح أفضل مما هو عليه الآن إلا إذا احتوى على نسبة معقولة ممن يدركون أن البشرية ليست الكلمة الأخيرة، ويحاولون عن وعى تخطيها. لهذا السبب لابد أن نصبح متشائمين جدا تجاه الأشياء التى نرى الناس متفائلين تجاهها - مثل العلوم التطبيقية، والإصلاح الاجتماعى، والطبيعة البشرية كما هى فى الرجل والمرأة المتوسطين. وهذا سبب أيضا للتفاؤل الشديد تجاه الأشياء التى تجعلهم متشائمين بحيث لا يدركون حتى إنها موجودة - وأعنى هنا إمكانية تحويل وتخطى الطبيعة البشرية. ليس من خلال التطور والنشوء فى وقت ما فى المستقبل، ولكن فى أى وقت - هنا والآن إن أردت - باستخدام الذكاء والنوايا الحسنة فى اتجاه سليم.

شغل المخرطة مؤقتا ثم أوقفها ثانية لتعديلها وأضاف:

إنه نوع من التشاؤم ونوع من التفاؤل مثل الذى تجده فى كل الديانات العظمى. التشاؤم تجاه العالم بشكل عام، والطبيعة البشرية كما تعبر عن نفسها فى الغالبية العظمى من الرجال والنساء. والتفاؤل تجاه الأشياء التى يمكن أن يصل إليها أى شخص يريد أن يعرف، ويعرف كيف يصل إليها.

دارت المخرطة ثانية، وفى هذه المرة تركها تعمل، ثم قال من خلال ضوضاء الماكينة:

- أنت تعرف تشاؤم العهد الجديد. إنه التشاؤم حول جموع البشرية: الكثيرون يطلبون والقليلون يختارون. إنه التشاؤم حول الضعف والجهل، لذلك فالذين ليس معهم سوف يؤخذ منهم حتى القليل الذى معهم. التشاؤم حول الحياة كما تعاش على

المستوى البشرى العادى، لأن هذه الحياة لا بد أن نضيعها حتى نكسب الحياة الأبدية الأخرى. التشاؤم حتى تجاه أعلى أنواع الأخلاق الدنيوية، إذ لا يمكن لأى فرد الوصول لملكوت السموات لو أن برّه الذاتى فشل فى التفوق على الكتّبة والفريسيين. ولكن من هم الكتّبة والفريسيون؟ إنهم ببساطة أفضل المواطنين، أعمدة المجتمع، الذين يفكرون بشكل مستقيم، بالرغم من كل شيء، أو بالأحرى بسبب هذا أسماهم المسيح جيلا من الثعابين. مسكين مالدج العزيز. كم سيتألم لو ساقه سوء حظه ليرى مخلصه!

ابتسم مستر برويتر لنفسه وهو منحني على عمله، ثم أكمل قائلا:
- ولكن هذا هو الجانب المتشائم فى تعاليم الكتاب. وبشكل أكثر نمطية وفلسفية، ستجد نفس الأشياء فى كتب بوذا والهندوس. العالم كما هو، والبشر على المستوى البشرى - ميئوس منهم. هذا هو الحكم الكونى. الأمل يبدأ فقط عندما يبدأ الناس ملاحظة أن ملكوت السموات، أو أيا كانت التسمية التى تريدونها له، موجودة فى داخلك، ويمكن أن يختبره أى شخص مستعد أن يخوض فى تلك التجربة. هذا هو الجانب المتفائل للمسيحية وللأديان الأخرى.
أوقف مستر برويتر المخرطة وأخرج رجل الكرسى الذى كان يديره ووضع آخر فى مكانه.

قال بيت وهو يفكر فى المرحلة الانتقالية بين القس شليتز والصد-فاشية العسكرية:

-إنه ليس من هذا النوع من التفاؤل الذى يعلمونه لك فى الكنائس الليبرالية.
أجاب برويتر مرافقا:
- إنه ليس مثله. لا دخل لما يعلمونه لك فى الكنائس الليبرالية بالمسيحية أو بأى

دين واقعى آخر. إنه هراء بالأساس.

- هراء!

أجاب مستر بروبتر:

- هراء. إنها إنسانية بدايات القرن العشرين مخلوطة مع إنجيلية القرن التاسع عشر. أى مزيج هذا الإنسانية تؤكد أنه يمكننا الحصول على الخبر على المستوى الذى هو غير موجود فيه أصلاً، وهى كذلك تذكر حقيقة الأبدية. بينما الإنجيلية تذكر العلاقة بين النتائج والمسببات من خلال تأكيدها على وجود إله شخصى يغفر الخطايا. إنهما مثل جاك سبرات^(٤) وزوجته: يلعبان الطبق فيما بينهما وينظفانه من كل منطق أيا ما كان.

ثم أضاف من خلال ضوضاء الآلة:

- لا. إننى مخطئ. ليس كل المنطق، فالإنسانيون لا يتحدثون عن تعدد الأجناس البشرية، والإنجيليون يعبدون إلهاً واحداً. لكنهم تركوا التلميع الأخير للطبق إلى الوطنيين، الوطنيين والطائفيين، مائة من الأصنام المقتصرة على ذواتهم فقط. «توجد آلهة كثيرة والحكام المحليون هم أنبياءهم». إن الحمافة المستحبة فى الكنائس الليبرالية جيدة بالنسبة للأزمة الهادئة، ولكن لاحظ أنه يصحبها دائماً جنون القومية العنيف لاستخدامها فى أوقات الكوارث. وهذه هى الفلسفات التى يتربى عليها الشباب. الفلسفات التى يتوقع منك أجدادك المتفائلون أن تغبر بها العالم.

صمت مستر بروبتر برهة ثم أضاف:

- «الله لا يشمخ عليه. فإن الذى يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً». الله لا

٤- جاك سبرات: شخصية فى أناشيد الأطفال الإنجليزية والذي كان يأكل كثيراً هو وزوجته ما عدا الدهون.

يُشمخ عليه. ولكن الناس يرفضون تصديق ذلك. إنهم يستمرون في تفكيرهم، إنهم يستطيعون أن يستهزئوا من طبيعة الأشياء وينجحوا في ذلك. لقد فكرت أحيانا أن أكتب رسالة بحثية مثل كتب وصفات الطبخ، وأسميه «مئة طريق للشموخ على الله»، وسوف آخذ مئة مثال من التاريخ والحياة المعاصرة وأوضح ماذا يحدث عندما يبدأ الناس في عمل أشياء دون النظر إلى الواقع، وسوف أقسم الكتاب إلى أقسام مثل «الشموخ على الله في السياسة»، و«الشموخ على الله في التعليم»، و«الشموخ على الله في الفلسفة»، و«الشموخ على الله في الاقتصاد». سوف يكون كتابا تعليميا، ومثيرا للاكتئاب أيضا.

الفصل الثامن

أعلن الكتاب بطريقة حقيقة أرستقراطية وعابرة أن الإيرل الخامس أنجب ثلاثة أبناء غير شرعيين في سن الواحد والثمانين. أعلنها بدون تفاخر أو تهنة للذات. مجرد تقرير مختصر للواقع، بين مدخل يتحدث عن حوار مع دوق ويلينجتون^(١) ونبذة عن موسيقى موزارت.

ولكن بعد مرور مائة وعشرين عاما على هذه الواقعة، وبما أن الدكتور أوبيسبو لم يكن جنثلمان إنجليزيا، فقد تهال بصوت عالٍ وكأنه هو الذى قام بهذا الإنجاز. صاح فى حماس بروليتارى:

- ثلاث منهم. ثلاث. ما رأيك فى هذا؟

ولأن جيريمى قد تبنى على نفس التقاليد التى تبنى عليها الإيرل الخامس، فقد علق بأنه لا بأس به واستمر فى القراءة.

فى عام ١٨٢٠ مَرَضَ الإيرل ثانية ولكن ليس بشدة. ثم أن كورساً مكثف من أمعاء الشبوط اللينة لمدة ثلاثة أشهر أعاد له صحته العادية. الصحة التى قال عنها فى أجلدته إنها تماثل صحة رجل فى عنفوان شبابه.

بعد مرور عام، ولأول مرة منذ ربع قرن، قام بزيارة ابنة وابن أخيه وأخته، وكان سعيدا عندما رأى أن كارولين قد أصبحت عجوزاً شمطاء وأن جون أصبح أصلع ومصابا بالربو، بينما ابنتهم الكبرى قد أصبحت بدنية جدا ولا أحد يريد الزواج منها.

عندما وصلت أنباء عن موت بونابارت، كتب بأسلوب فلسفى يقول إن الرجل فى الغالب أحمق كبير إذ لم يستطع إشباع رغبته فى المجد والقوة والإثارة إلا من

١- دوق ويلينجتون: (١٧٦٩-١٨٥٢) كان سياسيا وضابطا إنجليزيا، ويعتبر من أكبر القادة الحربيين فى إنجلترا إذ كسب الحرب ضد نابليون فى ووترلو عام ١٨١٥.

خلال مصاعب الحرب ورتابة الحكومة المدنية. وقد اختتم كلامه قائلاً: «إن لغة الحوار المهدبة تبين بوضوح كافٍ أن بطولات مثل تلك التي قام بها الإسكندر ويونابارت لها الشبيه السلمي المحلي. إننا نتحدث عن «المغامرات، العاطفية، وفنوحات» النساء اللاتي نرغب فيهن، و«امتلاك» شخصهن. لا شك أن مثل هذه الاستعارات بالنسبة للرجل العاقل فيها بلاغة حقيقية. بالنظر إلى دلالتها، إنه يرى أن الحرب والبحث عن الإمبراطورية شيء خاطيء، وهو خاطيء لأنه أحمق، وهو أحمق لأنه غير ضروري، وهو غير ضروري لأن الرضا المستمد من النصر والسيطرة يمكن أن يحصل عليهما بدرجة أقل بكثير من المشاكل والمال والألم، وذلك خلف الستائر الحريية في حجرة دوق ما، أو في المرتبة المصنوعة من القش لفتاة تبيع الألبان. لو حدث في أي وقت من الأوقات أن صارت مثل هذه السعادة بلا نكهة، وإذا وجد نفسه مثل ذلك البطل القديم يبكي رغبة في قهر عوالم جديدة، إذن فمن خلال فآرة تجارب بديلة، أو في أحوال كثيرة كما اكتشفت، بدون مقابل، وعن طريق استدعاء الرغبات الدفينة للإهانة وحتى الألم، يمكن للرجل أن يستمتع باستخدام الجلد، والقيود والأقفاص وأية رموز أخرى للقوة يمكن أن يتصورها خيال القاهر، أو التي يمكن أن يحملها صبر المقهورة المأجورة، أو أن يتقبلها ذوقها. إننى أذكر مقولة للدكتور جونسون^(٢) معناها أنه نادراً ما يتصرف الرجل ببراءة إلا عندما يجمع المال. ومطارحة الغرام أكثر براءة من جمع المال. لو كان لدى يونابارت الحكمة ليفرغ رغبته للسيطرة في الصالونات وغرف النوم في بلده كورسيكا، لمات بحرية وسط شعبه، وكان الآلاف من الرجال الذين ماتوا، أو أصابهم عجز، أو أصيبوا بالعمى، أحياء اليوم، يستمتعون بكل ملكاتهم. حقيقة بلا شك أنهم كانوا

٢- دجونسون: نسبة إلى صموئيل جونسون (١٧٠٩-١٧٨٤) كاتب وشاعر إنجليزي اشتهر بعمل أول قاموس في اللغة الإنجليزية عام ١٧٤٧.

سيستخدمون حياتهم بنفس الطريقة الحمقاء والخبيثة التي يستخدمها اليوم هؤلاء الذين لم يقتلهم بونابارت. ولكن لو أن كائنا متفوقاً مدح الإمبراطور السابق لإزالته عددًا كبيراً من الطفيليات من على وجه الأرض، فالطفيليات ذاتها لها رأى آخر. وبما أنني رجل عقل ولست كائنا متفوقاً، فإننى أساند الطفيليات فى رأيها.

قال الدكتور أوبيسبو وهو يفكر بتأمل:

– هل لاحظت أبدا كيف أن حتى أسوأ الناس يحاولون أن يظهروا كم هم خيرون؟ حتى هذا الصقر العجوز – ربما تعتقد أنه لا يهتم بكيفية نظر الناس إليه مادام يحصل على سعادته. ولكن لا. لقد قام بكتابة هذه الرسالة العملة الطويلة ليثبت أنه أفضل من نابليون، وهو بلا شك كذلك بأية مقاييس عاقلة. ولكن لم أتوقع منه أن يقوم بكل هذا المجهود ليقول ذلك.

قال جيريمى:

– بالطبع لن يجد أحداً آخر ليقول ذلك عنه.

أجاب الدكتور أوبيسبو:

– فكان لابد أن يفعل ذلك بنفسه. وهذا يثبت ما أقول. إياجو⁽³⁾ غير موجود. الناس ستفعل كل ما فعله إياجو ولكنهم أبداً لن يعترفوا أنهم أوغاد. سوف ينشئون عالماً جميلاً شفهياً حيث تبدو أعمالهم السيئة خيرة ومنطقية. كنت أتمنى أن يكون الرجل العجوز استثناء، ولكنه ليس كذلك. إنه مخيب للآمال.

ضحك جيريمى بنوع من الازدراء المتعطرس وقال:

– كنت تود لو قام بنوع من التصرفات الدون جوانية. البطل الهادئ الذى يثلى سيفه. إنك أكثر رومانسية مما ظننت.

٣- إياجو: شخصية إياجو فى مسرحية شكسبير عطيل والذى أوقع ما بين ديدمولا وعطيل.

عاد إلى الكتاب وأعلن بعد برهة أنه في عام ١٨٢٣ أمضى الإبريل الخامس بعض الوقت مع كوليريدج^(٤) ووجد الحوار عميقاً، ولكن «موجلاً» بشكل فريد - وأضاف: «إنها سمات مرغوبة في برك الأسماك ولكنها تستحق الازدراء في الخطاب العقلاني، والذي ينبغي أن يكون شفافاً وضحلاً دائماً كي يكفى الرجل الخوض فيه دون تعريض نفسه لخطر الغرق في هوة من الكلام الفارغ».

أضاء وجه جيريمي بسعادة غامرة. لم يكن كوليريدج مفضلاً لديه. قال:

- عندما أفكر في كل العفن الذي لا يزال يقوله البعض حول الكتابات الفارغة لمدمن المخدرات هذا...

قاطعه الدكتور أوبيسبو قائلاً:

- فلنسمع أكثر عن الإبريل.

عاد جيريمي إلى النوتة.

في عام ١٨٢٤ كان الجنثمان العجوز يرثى تمرير الميثاق الذي أدمج تجارة العبيد إلى القرصنة، ومن ثم جعل هذه التجارة جريمة تستحق الإعدام. من الآن فصاعداً سيصبح أفقر من ذي قبل بحوالي ثمانية أو تسعة آلاف في السنة. ولكنه عزى نفسه بالتفكير في هوراس^(٥) الذي يعيش في سكية فلسفية على مزرعته في سابين.

في عام ١٨٢٦ استمد سعادة بالغة من إعادة قراءة ثيوكريتس^(٦) بتأنٍ، وذلك في صحبة شابة صغيرة اسمها كيت أصبحت مديرة لمنزله. في ذات العام، بالرغم من انقطاع دخله إلا أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في شراء تمثال رائع لموريللو^(٧) اسمه «صعود العذراء».

٤- كوليريدج: نسبة إلى صموئيل تايلور كوليريدج (١٧٧٢-١٨٣٤) شاعر إنجليزي.

٥- هوراس: (٦٥ - ٨ ق.م.) شاعر روماني تعلم في أثينا وعاد إلى روما وصديق ميكينوس الذي منحه مزرعة في سابين.

٦- ثيوكريتس: شاعر إغريقي يقال إنه عاش في القرن الثالث قبل الميلاد.

٧- موريللو: نسبة إلى بارثولوميو أستيبيان (١٦١٧-١٦٦٢) رسام إسباني اشتهر برسوماته ذات الموضوعات الدينية وخاصة رسوماته للعذراء مريم.

عام ١٨٢٧ كان عام النكسات المادية، وهى نكسات مرتبطة فى الغالب بموت خادمة صغيرة عينتها مديرة المنزل وصيفة شخصية لها، وذلك من جراء عملية إجهاض. كان المدخل فى النوتة قصيرا وغامضا، ولكن يبدو أنه يعنى ضمنا أنهم قد قاموا بدفع مبلغ هائل من المال لأهل الفتاة.

بعد فترة تدهورت صحته ثانية، فكتب شرحا مطولا ودقيقا عن مراحل التليف المتتالية فى الجسم البشرى، مشيرا بشكل خاص إلى الأعين والشفاه. «كورس» قصير من الشبوط المفروم أعاد إليه هذا أكثر بهجة. وفى عام ١٨٢٨ قام برحلة إلى أثينا والقسطنطينية ومصر.

فى عام ١٨٣١ كان يتفاوض على شراء منزل بجوار قارنهام.

قال چيريمى مشيرا إلى السبع وعشرين كرتونة:

– لابد أنه من سيفلورد حيث جاءت هذه الأشياء من البيت هناك، الذى تعيش فيه السيدتان العجوزان.

استمر فى القراءة:

– «البيت قديم، ومظلم وغير مناسب، ولكنه كائن فوق أرض شاسعة بدرجة كافية، وكان فوق نتوء أعلى النهر. ارتفعت الضفة الجنوبية للنهر عند هذا اللتواء بشكل يكاد يكون عموديا على منحدر صخرى أصفر شاقق، يعلو إلى ارتفاع ما يقرب من مائة وعشرين قدما. كانت الصخور لينة وسهل العمل فيها، مما يفسر وجود سرداب كبير أسفل المنزل، تم حفره فيما يبدو منذ ما يقرب من قرن مضى، عندما كانت السرايب تستخدم كمخازن للكحوليات والبضاعة الأخرى المهرية فى طريقها من شواطئ هامبشير وساسكس إلى العاصمة. ومن أجل أن يزيل خوف زوجته التى خشيت من فقدان طفل من أطفالها فى تلك الالتواءات تحت الأرض،

فقد قام المزارع الذى يمتلك البيت الآن بوضع حوائط تسد الجزء الأكبر من هذه السرايب، ولكن حتى تلك الباقية للآن تبدو مثل سرايب المونى حقاً. فى مثل هذه السرايب يمكن الاطمئنان إلى الخصوصية المطلوبة لإرضاء حتى أغرب الأذواق.

نظر جيريمى من اللونة وقال:

- يبدو هذا نذيراً مشؤوماً. ألا تعتقد ذلك؟

هز الدكتور أوبيسبو أكتافه وقال مؤكداً:

- لا يمكن لأى فرد أن يحصل على خصوصية كافية. عندما أفكر فى كل العناء الذى تكبدته بحثاً عن سرايب جميلة مثل تلك التى تقرأ عنها...

ترك الجملة دون إنهاؤها، ومرت سحابة مظلمة على وجهه. كان يفكر أنه لن يستطيع الاستمرار فى إعطاء جو ستويت أقراص النمبوتال هذه إلى الأبد. اللعنة عليه!

قال جيريمى وهو يقرأ إلى نفسه:

- على أية حال فقد قام بشراء البيت القديم وقام بإصلاحه وإضافة أشياء عليه على الطراز الغوطى، ووضع شقة كاملة فوق السرايب، على عمق خمسة وأربعين قدماً تحت الأرض، وفى نهاية ممر طويل. ولفرط سعادته وجد بئراً أرضياً، ومصعد مناجم ينزل إلى عمق أكبر ويمكن استخدامه كدورة للمياه. وكان المكان جافاً جداً وبه ما يكفى من الهواء...

سأله الدكتور أوبيسبو وقد نفذ صبره:

- ولكن ماذا يفعل فى الأسفل هناك؟

أجاب جيريمى:

- وما أدرانى؟

نزل بعينه إلى أسفل الصفحة واستمر قائلاً:

- فى الوقت الحالى يقوم الولد العجوز بإلقاء خطبة فى البرلمان لصالح ميثاق الإصلاح.

قال الدكتور أوبيسبو فى دهشة:

- لصالحه؟

قرأ جيريمى بصوت عال:

- «فى أيام الثورة الفرنسية الأولى، أثرت حق كل الموالين لكل الأحزاب السياسية بقولى لقد سقط الباستيل، ليحيا الباستيل. وقد مر ثلاثة وأربعون عاما على ذاك العمل الفريد الذى بلا جدوى، وقد صَحَّت تنبؤاتى من خلال قيام طغاة صغار جدد وإقامة القدامى منهم. لذلك فإننى أقول بثقة تامة مات الامتياز. يحيا الامتياز. إن جموع البشرية لا تستطيع التحرر دون القدرة على توجيه مقدراتها. لا بد للحكومات أن تُحكم بطاغية أو بحكم الفرد الواحد. إن رأى فى النبلاء والأشراف وملاك الأراضي متدنٍ جدا، ولكن لا بد أن رأيهم فى ذواتهم متدنٍ أكثر منى. إنهم يؤمنون أن الانتخاب سوف يسرق منهم سلطاتهم وامتيازاتهم، بينما أنا متأكد أنهم من خلال استخدام بعض الفطنة والمكر مثل تلك التى وهبتهم إياها الطبيعة البخيلة، يمكنهم ببساطة الاستمرار فيما هم عليه من ترفع. وبما أن الحال كذلك، فليستمتع الرعايا بالانتخابات. إن الانتخابات ما هى إلا عرض بانث وجودى⁽⁸⁾ بسدون مقابل، يعطيه الحكام لئلا يلهوا المحكومين.

قال الدكتور أوبيسبو:

٨- بانث وجودى: شخصيتان لرجل وزوجته من الأراجوزات الإنجليزية الشهيرة بدأت فى الغالب نحو القرن السابع عشر.

- كم كان سيستمع بالشيوعية المعاصرة أو بالانتخابات الفاشية . بالمناسبة ، كم كان عمره حينما ألقى تلك الخطبة ؟
- توقف جيريلى لحظة ليقوم بعملية حسابية وقال :
- دعلى أرى . أربع وتسعون .
- قال الدكتور أوييسبو :
- أربع وتسعون ! إن لم تكن أمعاء الأسماك فلا أدري ماذا تكون !
- عاد جيريلى إلى نوبته وقال :
- فى بداية عام ١٨٣٣ رأى ابنة وابن أخيه مرة أخرى فى مناسبة عيد ميلاد كارولين الخامس والستين . كانت كارولين ترتدى باروكة حمراء ، وابنتها الكبرى مانت بالسرطان ، والصغرى غير سعيدة مع زوجها وقد أدمنت التقوى ، والابن أصبح كولونيل فى الجيش ، وله مديونيات من المقامرة يتوقع أن يدفعها له أهله .
- بشكل عام ، علق الإيرل قائلا : «أمسية ممتعة جدا» .
- قال الدكتور أوييسبو مشكيا :
- لا شيء عن تلك السرايب ؟
- لا ، ولكن مديرة منزله مرضت وبدأ يعطيها غذاء الشبوط .
- عاد الاهتمام مجددا للدكتور أوييسبو وقال :
- وماذا حدث ؟
- هز جيريلى رأسه وقال :
- المدخل التالى عن ميلتون .
- صاح الدكتور أوييسبو بقرع وقال :
- ميلتون ؟

- يقول إن كتابات ميلتون تثبت أن الدين يعتمد فى وجوده على استخدام اللغة المصورة غير المعتدلة .

قال الدكتور أوييسبو فى ضيق:

- قد يكون هذا صحيحا، ولكنى أريد أن أعرف ماذا حدث لمديرة المنزل تلك .

قال جيريى:

- واضح أنها حية ترزق، لأنه توجد هنا إشارة يشكى فيها من ملل الإخلاص الأنثوى الزائد .

قال الدكتور أوييسبو:

- الملل! هذه كلمة مخففة . لقد عرفت نساء كن مثل الشريط الورقى اللاصق لقتل الذباب .

- يبدو أنه لا يعترض على بعض فترات عدم الإخلاص . توجد إشارة إلى فتاة صغيرة مولدة من أب أبيض وأم زنجية .

توقف ثم ابتسم وقال:

- يا لها من كائن شهى: إنها تمزج بين طفولية المخطئين الشرسة والهمجية، وبين خبث وشراسة الأوروبيين، . وبعد ذلك يذهب الجنتللمان العجوز إلى العشاء فى قصر فرنهايم مع مطران وينشستر ويجد خمرة ضعيفا، ونبيذه مقبنا، وملكاته الثقافية أقل من حقيرة .

قال الدكتور أوييسبو بإصرار:

- لا شيء عن صحة كيت؟

- ولماذا يتحدث عنها؟ إنه يعتبر ذلك مسلما به .

قال الدكتور أوييسبو بنوع من النواح:

- كنت أأمل أن يكون رجل علم.

ضحك جيريمي وقال:

- يبدو أن لديك أفكاراً غريبة عن الإيرلات الخامسة والبارونات الحادية عشر.

لماذا بحق السماء يصبحون رجال علم؟

لم يستطع الدكتور أوبيسبو أن يجيب. مرت فترة صمت بينما بدأ جيريمي صفحة جديدة. صاح فجأة:

- اللعنة على! كان يقرأ «تحليل العقل الإنساني» لجيمس ميل^(٩) في سن الخامسة والتسعين! أعتقد أن ذلك أغرب حتى من إحياء مديرة منزله أو من فتاته المخلطة: «الأحمق العادى شخص غبى وجاهل فقط. أما لكى تصبح أحمق عظيماً فلا بد أن تكون مثقفاً كبيراً، وذات قدرات عالية. لا بد أن نعرف أبداً أن مستر بنتام وملازميه كانت حماقاتهم على نطاق أكبر دائماً. إن «تحليل» مستر ميل صرح من التفاهة الحقيقية». المدخل التالى حول الماركيز دى ساد.

ثم فجأة نظر جيريمي إلى الدكتور أوبيسبو وقال ما بين القوسين:

- على فكرة، متى تلوى إعادة كتيبى؟

هز الدكتور أوبيسبو كتفيه وقال:

- عندما تريدها. لقد انتهيت منها.

حاول جيريمي ألا يظهر سعادته الغامرة، فتنحى وعاد إلى الدوتة، وقرأ

بصوت عال:

- «كان الماركيز دى ساد رجل عبقرية فذة أصابها الجنون البائس. فى رأى إنه

يمكن للكتاب أن يصل إلى الكمال لو أنه مزج بين سمات الماركيز، وبين بيشوب

٩- جيمس ميل: (١٧٧٣-١٨٣٦) كاتب وفيلسوف إنجليزى كتب أساساً فى الفلسفة الاقتصادية، وقد كتب ((تحليل العقل الإنسانى)) عام ١٨٢٩ وكان يحاول إيجاد نظرية للمعرفة والحقيقة.

باتلر^(١٠) أو شتين^(١١)،.

توقف جيريمي برهة ثم قال ببطء:

- الماركيز وبشوب وشتين. حقا سيكون كتابا رائعا.

استمر في القراءة:

- «أكتوبر ١٨٣٣، إن الإنزال من شأن أنفسنا يُعد متعة بالنسبة والتناسب مع علو الشأن الدنيوى والثقافى الذى نزلنا منه، والذى سوف نعود إليه عندما ينتهى الفعل المهيّن».

قال جيريمي: «هذا جيد حقا»، إذ كان يفكر فى النساء الطروديات ومساء كل جمعة آخر فى مايدا فيل. ثم أكمل قائلا:

- نعم هذا جيد حقا. دعنى أرى. أين نحن؟ آه نعم: يتحدث المسيحيون كثيرا عن الألم، ولكن لا شيء مما يقولونه جدير بالاعتبار، لأن أبرز سمات الألم هى هذه: عدم تناسب حجم الألم الجسدى مع مسبباته الثقافية. كذلك فمن خلال إزالة الملكات وإنقاص الجسد إلى درجة لا حول له ولا قوة فيها، يهزم الهدف الذى يبدو أن الطبيعة قد أوجدته من أجلها: أى بمعنى آخر، تحذير المتألم من قرب الخطر، سواء من الداخل أو الخارج. أما بالنسبة للألم، فإن هذه الكلمة الفارغة الأبدية، ربما لها معنى. لكن الوضع ليس كذلك بالنسبة للمتعة، لأن المتعة فانية وأى محاولة لمد حدودها يتسبب فى تحولها إلى ألم. لهذا السبب، فبالنسبة للعقل الطموح، التسبب فى المتعة لا يمكن أن يكون ممتعا مثل التسبب فى الألم. إن إعطاء مقدار فانٍ من

١٠- ببشوب باتلر: (١٦٩٢-١٧٥٢) قس إنجليزى كان مطران بريستول وقريبا من القصر الملكى وقد كتب العديد من الكتب دفاعا عن المسيحية.

١١- شتين: نسبة إلى لورانس شتين (١٧١٣-١٧٦٨) ومن أشهر كتاباته تريستام شاندى فى ستة أجزاء وقد أدانه الكثيرون بسبب كفه التى اعتبروها لا أخلاقية.

المتعة هو مجرد تصرف بشرى. أما التسبب فى الألم الأبدى فهو حقا شئى سماوى
واللهى،.

قال الدكتور أوبيسبو شاكيًا:

- العجوز ابن الزنا هذا أصبح صوفيا فى سنه الكبير. إنه يذكرنى قليلا بالمستر

برويتر.

أشعل سيجارته. سادت فترة صمت.

صاح جيريمى فجأة فى حماس:

- استمع إلى هذا: ١١ مارس ١٨٣٤، من خلال إهمال كيت الإجرامى،

استطاعت بريسيلا الهروب من سجنها تحت الأرض، وبما أنها تحمل فى جسدها

أدلة كونها موضوعاً للتجريب والفحص، طوال الأسابيع السابقة، فإنها تحمل بين

يديها سمعتى، وربما حتى حريتى وحياتى،.

قال الدكتور أوبيسبو:

- أعتقد أن هذا ما كنت تعنيه من قبل عندما تحدثت عن فضيحة ما حين بدأنا

القراءة؟ الفضيحة الأخيرة. ماذا حدث بعد ذلك؟

أجاب جيريمى دون أن يرفع رأسه عن الصفحة التى أمامه:

- أعتقد أن الفتاة روت حكايتها، وإلا فيماذا تفسر وجود هؤلاء الغوغائيين الذين

بدأ يتحدث عنهم؟ إن إنسانية الرجال والنساء تتناسب بشكل عكسى مع أعدادهم.

إن حشداً من الناس ليس أكثر إنسانية من جُرف ثلجى يهوار أو من ريح دوامة. إن

مجموعة من الرجال والنساء الرعاع يقفون فى أقل درجات المقياس الأخلاقى

والثقافى حتى عن قطيع من الخنازير أو ابن آوى،.

رجع الدكتور أوبيسبو برأسه إلى الوراء وأطلق إحدى ضحكاته الرنانة المدهشة

وقال:

- هذا رائع! رائع! لا يمكن أن ترى مثلاً أفضل للسلوكيات البشرية النموذجية. فالإنسان يتصرف مثل التحت-إنساني ثم يصبح حكيمًا ليثبت أنه فوق إنساني. فرك يديه وأضاف:

- هذا رباني حقاً فلنسمع ما سيحدث الآن.

قال چيريمى:

- كما فهمت من هذا، فقد اضطروا إلى إرسال الحرس الوطنى من جيلدفورد لحماية المنزل من الرعاى، وقد أصدر القاضى أمراً بالقبض عليه، ولكنهم لا يفعلون شيئاً فى الوقت الحالى بسبب سنه ووضعه الاجتماعى وفضيحة المحاكمة العلنية. آه. والآن أرسلوا لجون وكارولين مما تسبب فى إغضاب الجنتلمان العجوز بجنون. ولكنه أصبح بلا حول ولا قوة، وها هم وصلوا إلى سيلفورد: «كارولين بباروكتها البرتقالية، وجون فى سن الثانية والسبعين، يبدو عشرين عاماً على الأقل أكبر منى، لقد كنت فى الرابعة والعشرين من عمري عندما تزوج أخى الذى لم يكن قد وصل بعد للسن القانونية، وتزوج دون ترو من ابنة محام، ومن سوء الحظ الكبير أنهما أنجبا هذا الحفيد للمحامى الذى كنت دائماً أعامله بالاحتقار الذى يستحقه أصله الدنىء وثقافته الهشة، والذى تسبب إهمال مومس فى إعطائه القوة ليفرض إرادته على».

قال الدكتور أوييسبو:

- إنها أحد تلك اللقاءات العائلية السعيدة. ولكن هل لى أن أقترض أنه لم يعطنا أية تفاصيل؟

هز چيريمى رأسه بالنفى:

- لا تفاصيل. مجرد موجز المفاوضات. يوم ١٧ مارس قالوا له إنه يستطيع تجنب المحاكمة لو أوقف أملاكه غير الموقوفة ومنحها كهبة ، وكذلك أعطاهم عوائد وقفه، وقبل دخول مصحة عقلية خاصة.

- شروط شديدة القسوة.

قال جيريمي:

- وقد رفضها في صباح الثامن عشر.

- أحسن عملاً

قرأ جيريمي بصوت عال:

- بيوت المجانين الخاصة ما هي إلا سجون خاصة، وما أنه لا يحكمها برلمان أو قانون، فإنها لا تخضع لأية رقابة من البوليس، وهي مغلقة في وجه زيارات المحسنين الإنسانية، بينما يقوم المُعذِّبون والسجانون المأجورون بتنفيذ المخططات الشريرة للانتقام العائلي أو الضغائن الشخصية.

صفق الدكتور أوبيسبو بسعادة بالغة وصاح:

- هذه لمسة إنسانية جميلة أخرى. زيارات المحسنين الإنسانية! المعذبين المأجورين! إن ذلك مثل خطب أحد الآباء المؤسسين. رائع! ثم التفت إلى سقن العبيد تلك والأنسة بريسيلا الصغيرة. إنه يبدو رائعاً تماماً مثل المارشال جورينج^(١٧) وهو يدين علناً معاملة الحيوانات غير الرحيمة.

ثم أعاد الجملة باستطعام وكأنها قطعة من المُسكرات الشهية تذوب ببطء في الفم:

- معذبون وسجانون. ما هي الخطوة التالية؟

١٧- جورينج: نسبة إلى ويلهالم جورينج (١٨٩٣-١٩٤٦) السياسي النازي ومؤسس الجستابو.

- قالوا له إنهم سيحاكمونه ويدينونه ويرحلونه . وقد أجابهم إنه يفضل الترحيل عن المصحة العقلية الخاصة . «وهنا بدا لي أن ابن أخى وابنة أختى أقهما . حلفا لي أن المعاملة في بيت المجانين سوف تكون إنسانية، وقد أجبته أنني لن أقبل وعودهما . تحدث جون عن شرفه وقلت له إنه شرف محام بلا شك، وتحدثت عن الطريقة التي يبيع بها المحامي قناعاته من أجل الأتعاب . ثم بدأ يرجوانني لقبول عروضهما من أجل اسم العائلة، وقد أجبتهما أن اسم العائلة لا يعنى لي شيئا، ولكني فقط لا أرغب في الخوض في إذلال المحاكمة العلنية وآلام وعناء الترحيل . قلت لهم إنني على استعداد لقبول أية بدائل معقولة للمحكمة والترحيل، ولكني لن أعتبر أي بديل معقولا إلا بالضمان الكافي بأنني سوف أعامل معاملة جيدة بين أيديهما . ولم أقبل كلمات شرفهما كضمان مثل هذا، ولن أقبل أن أوضع في مؤسسة حيث يتركونني لرعاية الأطباء والحراس الذين سيأخذون مرتباتهم من الذين يعينهم فنائي بكل عجالة . لذلك فقد رفضت الانصياع لأية ترتيبات تتركني تحت رحمتها بدون وضعهما أيضا، وإلى درجة ما، في وضع مشابه تحت رحمتي» .

قال الدكتور أوبيسبو:

- إنها مبادئ الديمقراطية في إيجاز شديد. لو أن تشمبرلين^(١٣) فهم ذلك قبل أن يذهب إلى ميونيخ بقليل! ليس هناك فرق على المدى الطويل، في النهاية لا يهم حقا ما يفعله السياسيون، لأن الوطنية ستنتج دائما على الأقل حرباً واحدة لكل جيل . لقد فعلت ذلك في الماضي، وأعتقد يمكننا الاعتماد دائما على أنها ستظل تفعل ذلك في المستقبل . ولكن ما هو اقتراح الرجل العجوز لتنفيذ مبادئه؟ إنه بلا

١٣- تشمبرلين: نسبة إلى نيفيل تشمبرلين (١٨٦٩-١٩٤٠) رئيس وزراء إنجلترا عام ١٩٣٧، وقد انضمت حكومته سياسة التهدئة مع هتلر مما نتج عنه إبرام اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٨، ولكن بعدما بدأ في الاستعداد للحرب، ولكنه كان يفتقد ملكات السياسي المحارب، ومن ثم استقال عام ١٩٤٠ وحل محله تشرشل .

شك تحت رحمتها، فكيف سيضعهما تحت رحمته؟

قال جيريمى من عمق الماضى المكتوب:

- لا أدري بعد. لقد بدأ مرة أخرى فى إحدى جولاته الفلسفية.

قال الدكتور أوبيسبو فى دهشة:

- الآن؟ بينما يوجد أمر بالقبض عليه؟

بدأ جيريمى يقرأ:

- «لقد مر على وقت كنت أعتقد فيه أن كل مجهودات البشرية متجهة إلى نقطة موجودة تقريباً فى منتصف الأثنى. اليوم أميل أكثر إلى الاعتقاد أن الغرور والجشع يلعبان دوراً أكبر من الشهوة، فى تحديد ملامح سلوك الرجال، وفى تحديد طبيعة أفكارهم. وهلم جرا. أين يعود بحق الجحيم إلى تلك النقطة ثانية؟ ربما لن يفعل أبداً. هذا مثله تماماً! لا. ها هوشىء آخر: ٢٠ مارس. اليوم عاد وسيطى التجارى روبرت بارسونز من لندن، وقد أحضر معه فى العربة ثلاثة صناديق مقواة تحتوى على عملات ذهبية وأوراق بنكية تساوى مائتى ألف وثمانية عشر جنيهًا، وهى أرباح مبيعات بعض أماناتى مثل المجوهرات، والأطباق، والأعمال الفنية، وهى كل النقود التى استطاع جمعها فى وقت قصير كهذا. لو كان لدى وقت أطول، كنت تمكنت من بيعها على الأقل بما يساوى ثلثمائة وخمسين ألفاً من الجنيهات. يمكننى قبول هذه الخسارة بشكل فلسفى، لأن المبلغ الذى حصلت عليه بين يدي يكتفى جداً لأغراضى».

سأل الدكتور أوبيسبو:

- أية أغراض؟

لم يجبه جيريمى برهة، ثم هز رأسه فى دهشة وقال:

- ماذا يحدث الآن بحق السماء؟ استمع إلى هذا: «سوف تقام جنازتى فى أبهة تليق بمقامى العالى ورفعة أخلاقى. كان جون وكارولين بخيلين وغير ملتزمين

لدرجة أنهم إعترضوا على التكلفة، ولكنى أصررت ألا تقل تكلفة مراسم دفنى
ببنى واحداً عن أربعة آلاف جنيه. إن ندمى الوحيد هو أننى لن أستطيع ترك
مخبأى تحت الأرض لرؤية موكب الألم ودراسة تعبيرات الحزن على الوجوه الذابلة
للإيرل والكونتيسة الجدد. سأنزل اليوم مع كيت إلى محل سكنى فى السرايب،
وغدا سوف يسمع العالم كله نبأ وفاتى. لقد أتوا بجسد شحاذ فقير سرا من هاسلمير
وسوف يحل محلى فى النعش. بعد الدفن، سوف يذهب الإيرل الجديد والكونتيسة
إلى جونستر حيث سيقيمان، تاركين هذا البيت دون مستأجرين سوى بارسونز
الذى سيقوم بدور الحارس وسيحضر لنا احتياجانا المادية. الذهب والنقود الذى
أحضرهما بارسونز من لندن تم تخبئتها فى مكان ما تحت الأرض لا يعرفه سوى،
وقد اتفقنا أننى فى كل أول يونيو، طالما حييت، سوف أعطى خمسة آلاف جنيه إلى
جون أو كارولين، أو فى حالة وفاتهما قبلى، إلى وريثهما أو أى ممثل مفوض من
العائلة. من خلال تلك الترتيبات، فإننى أهنىء نفسى بأننى ملأت فراغ الحب الذى
لا يشعرون به نجاهى.

رفع جيريمى رأسه وقال:

- هذا كل شىء. لا يوجد شىء آخر. مجرد صفحتين فارغتين بعد ذلك وهذه
هى نهاية الأجددة. ما من كلمة مكتوبة واحدة أخرى.
ساد صمت طويل. مرة أخرى قام الدكتور أوييسبو وبدأ يمشى ذهاباً وإياباً فى
الغرفة. أخيراً قال:

- هل يعرف أحد المدة التى عاشها الصقر العجوز؟

هز جيريمى رأسه بالنفى وقال:

- ليس من خارج العائلة. ربما هاتان السيدتان العجوزان...

توقف الدكتور أوييسبو أمامه وخطب المائدة بكفه وأعلن بطريقة دراماتيكية:

- سوف آخذ السفينة التالية إلى إنجلترا!

الفصل التاسع

حتى مستشفى الأطفال اليوم لم تعط مستر ستويت أى نوع من العزاء والمراساة . لقد رحبت به الممرضات بأفضل الابتسامات، وقابله الطبيب النائب فى الممر وكان مغالياً فى الاحترام والمجاملة . أما أطفال النقامة فقد صاحوا «العم جوا، بكل حماسهم المعتاد، وعندما توقف لحظات بجانب أسرّتهم أضاءت وجوههم المريضة بالسعادة لحظات، وقد استقبلوا هداياه ولعبه كالعادة ما بين السعادة ذات الصرضاء العالية، وبين سعادة أكثر تأثراً وصمّاً من جراء الفرحة وعدم التصديق. فى هذه الدورة حول الأقسام المختلفة وجد ، مثلما وجد فى أيام أخرى، الأجسام الصغيرة المتتالية المصابة بالسل والشلل، والوجه المستسلم للألم، والملائكة الصغيرة التى تموت، والشهداء ذوى البراءة والوجوه الشقية التى عذبت حتى السكون الرافض .

فى الأوقات العادية كان يشعر بسعادة بالغة من كل هذا - كان مثلاً يريد أن يبكى، ولكن فى ذات الوقت يريد أن يصرخ ويتفاخر. يتفاخر بأنه إنسان لأن هؤلاء الأطفال أيضاً بشر، وهو لن يرى أى شيء أكثر جرأة منهم، بل وكان يشعر بالفخر أيضاً لأنه فعل هذا الشيء لهم، وأعطاهم أفضل مستشفى فى الولاية، وأفضل الأشياء التى يمكن أن تشتريها النقود. ولكن اليوم لم تثر زيارته أياً من ردود الفعل المعتادة . لم يشعر بالرغبة فى البكاء أو الصياح . لم يشعر بالتفاخر ولا بلوعة الشفقة، ولا بالسعادة المفرطة الناجمة عن امتزاج الاثنين معاً . لم يشعر بشيء - لا شيء سوى البؤس القائم الذى ظل ينحدر طوال اليوم، فى البانثيون، مع كلانسى، فى مكتبه وسط البلد. خارجاً من المدينة، ظل ينتظر بلهفة زيارته للمستشفى مثل مريض الربو فى انتظار جرعة من الأدرينالين، أو مثل مدمن الأفيون فى انتظار شيشة مؤجلة منذ زمن طويل. ولكنه كان يبحث عن ارتياح لم يأت، لقد خذله

الأطفال.

آخذاً في الاعتبار ما كان يحدث في نهاية الزيارات السابقة، ابتسم البواب إلى مستر ستويت أثناء خروجه من المستشفى، وقال شيئاً معناه إن هؤلاء أفضل مجموعة أطفال عرفهم في حياته. نظر إليه مستر ستويت بنظرة فارغة، وهز رأسه دون أن ينطق، واستمر في طريقه.

نظر إليه البواب وهو يذهب وقال لنفسه: غريب مخيف! متذكراً التعبير على وجه مستر ستويت.

عاد مستر ستويت إلى القصر يملكه شعور بالنعاسة مثل ذلك الذي كان يشعر به عندما تركه في الصباح. صعد مع الفيرمير إلى الدور الرابع عشر. لم تكن فيرجينيا في غرفتها. نزل إلى العاشر، ولكنها لم تكن في حجرة البلياردو، سقط إلى الدور الثاني ولكنها لم تكن تتجمل بطلاء الأظافر ولا بتدليك جسدها. انتابته نوبة شك مفاجئة فنزل إلى البدروم أسفل السفلى وهرع إلى المعمل ليرى إن كانت مع بيت، ولكن كان المعمل فارغاً. وقف فأرصرخ في القفص، وخلف الزجاج سبحت واحدة من أسماك الشبوط داخل حوض الأسماك من الظلام إلى الضوء، ثم عادت مرة أخرى إلى الظلام الأخضر. عاد مستر ستويت مسرعاً إلى المصعد، وأغلق نفسه في الداخل مع حلم الهولندي للحياة اليومية، المتصاعد بغموض إلى درجة عالية من الكمال الحسابي، وضغط أعلى زر وهو الثالث والعشرين.

وصل مستر ستويت إلى مأربه، وفتح باب المصعد وناظراً من الباب الزجاجي عبر الباب الثاني.

كانت المياه في حمام السباحة ساكنة تماماً. من خلال الشرفة الدفاعية كانت الجبال قد اتخذت لونها الذهبي وخيالاتها البرتقالية. كانت السماء زرقاء شفافاً بلا

سحب. على الناحية الأخرى من حمام السباحة وقفت صينية عليها زجاجات وأكواب فوق المائدة الحديدية، وخلف المائدة كانت واحدة من تلك الأرائك المنخفضة التي اعتاد مستر ستويت استخدامها لأخذ حماماته الشمسية. كانت فيرجينيا مستلقية فوق الأريكة وكأنها مخدرة، شفتاها مفتوحتان، وعيناها مغلقتان، وقد سقط أحد ذراعيها بلا حراك بجانبها على الأرض، وكان كفها مرفوعا لأعلى، مثل زهرة قذفها أحدهم ونسيها. كان الدكتور أوبيسبو، كلود برنارد عمله، نصف مخفف خلف المائدة، ينظر إلى وجهها بفصول علمي مستمتع.

في تصاعد لم يستطع مستر ستويت كتمانها، خرج غضبه حتى كاد يهزم غرضه الإجرامى. بمجهود عظيم استطاع أن يسيطر على رغبته فى الصراخ، وخروجه مسرعا من المصعد، محركا يديه وفمه مملوء بالرغوة، مرتجفا تحت ضغط الغضب والكراهية الداخلية، أخذ يعبث داخل جيب سترته، كان فارغا إلا من بعض شخايل الأطفال وعلبتين من اللبان، وهم كل ما تبقى من توزيع الهدايا فى المستشفى. للمرة الأولى منذ شهور كان قد نسى مسدسه.

وقف مستر ستويت مترددا بصع لحظات، غير متأكد مما سيفعله. هل يدفع خارجا، كما كان يفعل فى البداية، ويقتل الرجل بيديه العاريتين؟ أم يذهب إلى أسفل باحثا عن مسدسه؟ فى النهاية قرر أن يأتي بمسدسه، ضغط الزر ونزل المصعد إلى بثره فى صمت. نظر مستر ستويت إلى الفيرميردون أن يراها. ومن عالمها الهندسى الكامل الجميل، نظرت الشابة الصغيرة التى ترتدى الساتان الأزرق، بعيدا عن الهارب المفتوح، وعبره، عبر الستارة المسدلة، وفوق الأرض الفسيفسائية باللون الأبيض والأسود - نظرت من نافذة البرواز، إلى ذلك العالم القبيح غير المنظم الذى يعيش فيه المستر ستويت هو والكائنات الأخرى مثله.

هرع مستر ستويت إلى غرفة نومه وفتح الدرج الذى يحتوى على مناديله، وعبث بغضب وسط الحرير والأنسجة القطنية الناعمة، ولم يجد شيئا، ثم تذكر، فهو لم يريد أية سترة بالأمس صباحا، وكان المسدس فى جيب بنطاله الخلفى. ثم جاء بيدرسون من أجل الثعيرينات السويدية. ولكن المسدس فى جيبه الخلفى لم يكن مريحا خاصة وهو يفعل أشياء فى ظهره على الأرض، لذلك أخرجه ووضعه فى درج غرفة المكتب.

هرع مستر ستويت إلى المصعد مرة أخرى، ونزل أربعة أدوار إلى غرفة المكتب. كان المسدس فى أعلى درج جهة الشمال فى مكتبه. يذكر مكانه جيدا. صاح وهو يجذب المقابض: اللعة على تلك الداعرة العجوز. كانت السيدة جروجام سكرتيرته، تغلق كل شيء قبل أن تعود إلى منزلها، لأنها كانت تفكر فى كل شيء، وتقوم بواجبها على أكمل وجه.

لقد كرهها هذه اللحظة بنفس المرارة التى كره بها هذا الوغد هناك على السطح، فظل يلعن السيدة جروجام حتى عاد إلى المصعد، كان الباب مغلقا، أثناء غيابه فى المكتب لابد أن أحدا ضغط الزر فى دور آخر. من خلال الباب المغلق استطاع أن يسمع صوت مهمة المصعد، كان أحدهم يستخدمه، الله أعلم كم من الوقت عليه أن ينتظر. أصدر مستر ستويت صوتا مثل جوار الثور غير المفهوم، وهرع عبر الردهة، واستدار إلى اليمين، وفتح الباب الأرجوحى، واستدار ثانية إلى اليمين، فوقف على باب مصعد الخدم. أمسك المقبض وجذبه، كان مغلقا. ضغط زر المصعد، لم يحدث شيء، كان باب مصعد الخدم أيضا مستخدما.

جرى مستر ستويت عائدا عبر الردهة، وإلى الباب الأرجوحى، ثم عبر باباً أرجوحياً آخر. كان السلم الحزوني صاعدا وهابطا إلى عمق ماأتى قدم فى عمق

الدهاليز. بدأ مستر ستويت فى الصعود، ولكن بعد دورين أخذ يلهث، فعاد جريا إلى المصاعد، كان مصعد الخدم لا يزال مستخدماً، ولكن الثانى استجاب إلى ضغطة الزر، ونزل من مكان ما من علوه وتوقف أمامه، انفتح الباب المغلق تلقائياً. جذبته مستر ستويت ودخل، كانت الشابة فى الملابس الساتانية، لا تزال فى حالة من السكينة فى عالمها الحسابى الدقيق الكامل. كانت المسافة بين عينها اليسرى والجهة اليسرى من الصورة مساوية للمسافة بين العين اليمنى والناحية اليمنى، وكانتا متساويتين تماماً مثل الرقم واحد جذر مربع لاثنتين ناقص واحد. وكانت المسافة بين نفس العين وأسفل الصورة مساوية للمسافة بينها وبين الجهة اليسرى. أما بالنسبة للشريط أعلى كتفها الأيمن - فقد كان موضعه تماماً فى جانب المربع الخيالى والذى تعتبر جوانبه مساوية للقسمين الذهبيين الأطول والذى ينقسم إليه الطرف الأسفل من الصورة. ثنية عميقة فى الجونلة الساتانية أشارت إلى الناحية اليمنى من المربع، بينما غطاء الهارب أشار إلى أعلاه. الشغل اليدوى فى الركن على الجهة اليمنى امتد تماماً إلى ثلث المسافة عبر الصورة، وكانت الجهة السفلى منه فى ارتفاع مساوٍ لأسفل الصورة. كان الساتان الأزرق ممتداً للأمام من خلال البنيات والألوان الصفراء والسوداء للخلفية، حيث تقابلها الكتل الرخامية البيضاء والسوداء للأرضية الممتدة إلى الوراء، لتعلق فى المنتصف تماماً كقطعة من الصلب بين مغناطيسين متنافرين. فى منتصف البرواز، لا يمكن أن يتغير شئ، لأن سكون هذا العالم لم يكن فقط مجرد عدم حراك اللوحات القديمة والصور، بل كان أيضاً السكينة الحية للكمال التام.

أخذ مستر ستويت يزار لنفسه: «الداعرة العجوز»، ثم يعود بذاكرته من سكرتيرته إلى الدكتور أوييسبو، ويقول «الوعداء».

توقف المصعد فاندفع مستر ستويت مسرعاً عبر الردهة إلى مكتب السيدة جروجام الفارغ. لقد ظن أنه يعلم أين تترك المفاتيح، ولكن يبدو أنه كان مخطئاً. لقد كانوا في مكان آخر. ولكن أين؟ أين؟ أين؟ زاد الإحباط من ثورته العارمة إلى رغبة من الحق الشديد. فتح الأدراج وأفرغ محتوياتها على الأرض، ويعثر الأوراق المرتبة حول الغرفة، وأوقع الديكتافون، بل وأفرغ حتى أرفف المكتبة، وأسقط وعاء الأسماك الصغير الياباني الذي كانت تضعه السيدة جروجام على حافة النافذة. لمع قشر السمك الأحمر وسط الزجاج المكسور والمراجع. ذيل سمك شفاف منها أصبح أسود من الحبر المسكوب. أمسك مستر ستويت بزجاجة صمغ وقذفها بكل قوته وسط الأسماك المحتضرة وصاح: الداعرة! الداعرة!

ثم فجأة رأى المفاتيح، معلقة بترتيب دقيق على خُطاف بجانب الرف فوق المدفأة، وتذكر فجأة أنه رآها هناك آلاف المرات من قبل.

صاح وقد تضاعفت ثورة غضبه وهو ينتشلها: الداعرة!. هرع نحو الباب، متوقفاً فقط ليدفع الآلة الكاتبة من فوق المكتب. سقطت بصوت ارتطام عالٍ وسط الأوراق الممزقة، والصمغ والأسماك. فكر مستر ستويت بسعادة جنونية وهو يجرى نحو المصعد، أن العجوز الداعرة ستحقق كل ذلك!

الفصل العاشر

برشلونة سقطت.

ولكن حتى لو لم تسقط، حتى لو لم نحاصر، فماذا بعد؟
كانت برشلونة مثل أى مجتمع آخر، جزء منها آلى وجزء منها كائن تحت
المستوى البشرى، وجزء آخر إبراز كابوسى هائل، وتجسيد لرغبات البشر وجنونهم
- وجشعهم وكبريائهم، وشبقهم للقوة، واستحواذهم على كلمات لا معنى لها،
وعبادتهم لمثل مجنونة.

تحت الأسر أو بدون أسر، فإن كل مدينة ودولة لها وجود على مستوى غياب
الله. ولأن لها وجودها على مستوى غياب الله، فبالتالى محكوم عليها بالفناء فى
السفاهة الشخصى الأزلى، والمحاولات المتكررة لتدمير الذات.

برشلونة سقطت. ولكن حتى رفاهية المجتمعات البشرية هى العملية الدائمة
للسقوط التدريجى علي نحو الكارثة. الذين يشيدون أسس الحضارة هم أنفسهم الذين
يقللون من قيمة تشييد الحضارة. إن البشر هم حشرات أنفسهم المدمرة، ولابد أن
يظلوا هكذا ما داموا قد ظلوا مجرد بشر.

ترتفع الأبراج والقصور والمعابد والبيوت وأماكن العمل، ولكن قلب كل لوح
خشبي يحترق فى مكانه، والمورينات الخشبية مثقوبة، والأرض تتآكل تحت الأقدام.
أية أشعار وأية تماثيل - ولكن على شفا الحرب البيلوبونيسية^(١) والآن تم طلاء
الفاتيكان - فى الوقت المناسب من أجل نهب روما. وتم تلحين الصلوات - ولكن
من أجل بطل يتضح فى النهاية أنه لص آخر. ونفس علماء الطبيعة الذين
يوضحون طبيعة الذرة هم أنفسهم الذين يتطوعون فى أوقات الحرب ليحسبوا من

١- الحرب البيلوبونيسية: الحرب التي قامت بين أثينا وسبارتا عام ٤٠٤-٤٣١ قبل الميلاد، وقد انتهت بهزيمة أثينا.

فنون القتل.

على مستوى غياب الله، لا يمكن أن يفعل البشر أى شيء غير تدمير ما قاموا ببنائه - تدميره حتى أثناء البناء - فهم يبنون بعناصر الدمار. إن الجنون هو عدم معرفة الحقائق، وفي جعل الأمانى أبا للأفكار، وفي رؤية الأشياء على غير ما هي عليه، وفي محاولة الوصول إلى الأهداف من خلال وسائل ثبت من خلال التجارب السابقة أنها غير مناسبة.

الجنون يتكون مثلا من التفكير في ذاتنا كروح، وككيان مفهوم وناقٍ. ولكن ما بين الحيوان في الأسفل والروح في الأعلى، لا يوجد شيء على المستوى البشرى سوى حشد من النزوات والأحاسيس والتصورات المتجمعة، حشد متجمع معا عن طريق مصادفة الوراثة واللغة، حشد غير متكافئ بل وعادة متناقض، من الأفكار والرغبات. إن الذاكرة والجسد المتغيرين ببطء يشكلان نوعاً من القفص المكاني-الموقت، والذي يبقى فيه هذا الحشد. أما أن نتحدث عنه باعتباره روحاً مفهومة وباقية فهو الجنون بعينه. على المستوى البشرى المحض، لا يوجد شيء اسمه الروح.

تجمعات الأفكار، وتنظيمات المشاعر، وأنماط الرغبات. كل واحدة من هذه تم بناؤها ومشتط وجودها من خلال طبيعة أصلها المبني على المصادفة. إن أرواحنا لا تمثلنا قط، حتى إننا لا يمكن تكوين أبعد تصور عن كيفية رد فعلنا تجاه العالم، لو كنا نجهل اللغة بشكل عام، أو حتى نجهل لغتنا نحن بشكل خاص. إن طبيعة أرواحنا والعالم الذي تسكنه سوف تكون مختلفة تماما عما هي عليه لو لم تكن قد تعلمنا الكلام قط، أو لو كنا تعلمنا لغة الإسكيمو بدلا من الإنجليزية. إن الجنون مكون من أشياء كثيرة من بينها تصور أن الروح موجودة خارج اللغة التي علمتنا

إياها ممرضاتنا بالصدفة.

كل نمط سيكولوجي محدد، وفي داخل قفص اللحم والذاكرة، الحشد الكلى لمثل تلك الأنماط ليس أكثر حرية من أى من أعضائها. إن الحديث عن الحرية فيما يتصل بتصرفات فى الحقيقة محددة، هو الجنون بعينه. على المستوى البشرى المحض، لا توجد تصرفات حرة. والرجال والنساء من خلال رفضهم الجنونى لمعرفة الحقائق كما هى، يدينون أنفسهم لتسفيه رغباتهم ولتشويه أو إطفاء حياتهم. إن الرجال والنساء ليسوا أقل من المدن والدول التى ينتمون إليها، يسقطون أبداً، ويدمرون أبداً، كل ما قاموا ببناؤه، أو كل ما يبنونه. ولكن بينما المدن والدول تطيع القوانين التى تأتى عندما يكون عدد كبير منها معنى، فالبشر ليسوا كذلك. أو بالأحرى ليسوا بحاجة لأن يكونوا كذلك، لأنه بالرغم من أن معظم الأفراد يسمحون لأنفسهم بالخضوع لتلك القوانين، فإنهم لا يقعون تحت ضغط ضرورة ملحة لذلك. لأنهم ليسوا تحت ضرورة أن يظلوا على المستوى البشرى من الوجود المطلق. فى إمكانهم أن يعبروا من مستوى غياب الله إلى مستوى وجود الله. كل فرد من الحشد السيكولوجى مسير، وكذلك تصرفات الحشد معا. ولكن بعد الحشد، وبالرغم من التحكم فيه وتفسيره، تقع الأبدية، جاهزة ومنتظرة أن تختبر نفسها. ولكن لو استخبر الأبدية نفسها داخل القفص الوقتى المكانى، لأى فرد بشرى، فإن الحشد الذى نسميه الروح لا بد أن يتنازل بشكل طوعى عن جنون تصرفاته، ويترك المساحة للوعى الثانى الأبدى، ولا بد أن يصمت ليسمح لصمت أكبر أن يحل محله. الله موجود بشكل كامل فقط فى الغياب الكامل لما نسميه بشريتنا. لا توجد ضرورة حديدية تدين الفرد إلى العذاب بلا فائدة لكونه مجرد إنسان. حتى الحشد الذى نسميه الروح له القوة بشكل وقتى أن يوقف التصرفات الجنونية، وأن يغيب نفسه،

ولو لبرهنة، لكي يكون الله موجودا. ولكن دع الأبدية تختبر ذاتها ودع الله يكون موجودا بشكل كافٍ في غياب الرغبات الإنسانية والمشاعر والمشاعر، وستكون النتيجة تحول الحياة التي تعاش، في الفترات القصيرة بينها، على المستوى البشري. حتى حشد رغباتنا وآرائها معرض لجمال الأبدية، وكوننا معرضين، نصبح غير راضين عن أنفسنا. الفوضى تعطي مكانا للنظام - ليس النظام العادي التعسفي البشري الذي يأتي من خلال إخضاع العشد لمثل مهووسة، بل نظام يعكس النظام الحقيقي للعالم. العبودية تعطي مكانها للحرية - لأن الخيارات لا تملئها بعض الأحداث المصادفة للتاريخ الماضي، ولكنها مصنوعة بشكل غائي وفي ضوء المعرفة المباشرة بطبيعة الأمور. العنف والقصور الذاتي يعطيان مكانا للسلام - لأن العنف هو الهوس، والقصور هو الاكتئاب، إنها مرحلة هذا الجنون الدوري الذي يتكون من النظر إلى الذات أو إسقاطاتها المجتمعية، وكأنها كيانات حقيقية. السلام هو النشاط الصافي الذي ينبعث من معرفة أن أرواحنا هلامية وأن خلقها جنون، وأن كل الكائنات متحدة بشكل كامن في الأبدية. إن التعاطف عنصر من عناصر السلام ونتيجة لنفس حركة المعرفة.

أخذ بيت بفكر سعادة هادئة في كل الأشياء التي قالها مستر برويتر وهو سائر وقت الغروب صاعداً الجبل في اتجاه القصر.

برشلونة سقطت. إسبانيا وإنجلترا، وفرنسا وألمانيا وأمريكا - كلها كانت تتساقط، وتتساقط حتى في الأوقات التي تبدو فيها أنها ترتفع، تدمر ما تبنيه عن طريق حركة البناء نفسها. ولكن أي فرد يملك القدرة على الامتناع عن السقوط، وإيقاف تدمير ذاته. التضامن مع الشر شيء اختياري، وليس إجبارياً.

أثناء خروجهما من محل التجارة، استطاع بيت أن يسأل مستر برويتر لو كان

يمكن أن يقول له ماذا يفعل .

نظر إليه مستر برويتر بإمعان وقال :

- لو كنت تريد ... أعنى لو كنت حقا تريد ...

هز بيت رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم .

غربت الشمس ، ويدا ضوء الغسق مثل تجسيد للسلام - سلام الله ، كما قال بيت لنفسه ، وهو ينظر عبر السهل إلى الجبال البعيدة ، السلام الذى يفوق كل فهم . إن الانفصال عن مثل هذا الجمال لا يحتمل . دخل القصر وذهب مباشرة إلى المصعد ، وأحضر القفص من مكان ما من أعلى ، وأغلق نفسه مع الفيرمير ، وضغط على أعلى زر فيه . هناك ، فى أعلى المكان ، سوف يكون فى قلب كل هذا السلام السماوى .

توقف المصعد . فتح أبوابه وخرج . عكس حمام السباحة ضوءا ساكنا . أدار عينيهِ من المياه إلى السماء ، ومن السماء إلى الجبال ، ثم سار حول حمام السباحة لكى ينظر من الشرفة الدفاعية إلى أسفل على الناحية الأخرى .

جاءه صوت مكتوم وقال فجأة :

- اذهب بعيدا .

ارتجف من عنف المفاجأة ، واستدار ليرى فيرجينيا راقدة فى الظلام عند قدميه

تقريبا .

كرر الصوت نفس الكلمات :

- اذهب بعيدا . إننى أكرهك .

تمتم :

- أنا آسف . لم أكن أعرف ...

فتحت عينيها:

- آه . هذا أنت .

فى الضوء الخافت استطاع أن يرى أنها كانت تبكى . أكملت:

- ظننتك سيج . لقد ذهب ليحضر لى مشطا لشعرى .

صمتت برهة ثم انفجرت فجأة:

- إننى تعسة يا بيت .

- تعسة ؟

الكلمة ونبرات صوتها حطمتا سلام الله تماما . فى لوعة الحب والقلق جلس بجانبها على الأريكة . تحت رداء الحمام ، لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة أنها لم تكن ترتدى شيئا .

- تعسة ؟

غطت فيرجينيا وجهها ببديها وأجهشت فى البكاء . قالت فى حزن غير مفهوم:

- ولا حتى السيدة العذراء . لا أستطيع أن أقول لها ذلك . إننى أشعر أننى سيئة .

قال فى صوت رجاء وكأنه يرجوها أن تكون سعيدة:

- حبيبتى !

بدأ يربت على شعرها وقال ثانية:

- حبيبتى !

فجأة سمع حركة عنيفة على الناحية الأخرى من حمام السباحة . وصوت ارتطام علد فتح أبواب المصعد ، ثم صوت أقدام تجرى وصراخ غاضب غير مفهوم . استدار بيت فى الوقت المناسب ليرى مستر ستويت يندفع نحوها ممسكا شيئا فى يده ، شيئا يبدو مثل مسدس أوتوماتيكى .

لم يكد يقوم نصف قيام حتى أطلق مستر ستويت الرصاص .
عائدا بالمشط لشعر فيرجينيا رأى الدكتور أوبيسبو الرجل العجوز على ركبتيه،
يحاول أن يوقف سيل الدماء الذى ظل يخرج من الإصابيتين، بمنديل جيبه، وكانت
إصابة الأولى نظيفة وصغيرة، والثانية عميقة كالكهف من جراء الرصاصة وهى
تمر عبر رأس بيت.

جائمة فى ظلال الشرفة كانت البيبى تصلى بسرعة: « السيدة العذراء المقدسة،
أم الإله، صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن وفى ساعة مماتنا آمين، ظلت ترددها
مرات تلو المرات بالسرعة التى أتاحها بكاؤها. بين الحين والآخر كانت تهتز
وترتجف من التقوى، فكانت الصلاة تنقطع لحظات ثم تعود لتبدأ ثانية من حيث
توقفت من قبل: «...نحن الخطاة الآن وفى ساعة الممات آمين السيدة العذراء
المقدسة أم الإله...».

فتح الدكتور أوبيسبو فمه ليقول شيئا ثم أغلقه ثانية وهمس: «ياللمسيح!»، وسار
سريعا وفى صمت حول حمام السباحة. قبل أن يعلن عن وجوده أخذ المسدس من
الأرض ووضع فى جيبه..، إذ لا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث، ثم نادى على اسم
مستر ستويت. انتفض مستر ستويت فزعا، وعلا وجهه تعبير من الرعب المريع،
لكن الشعور بالارتياح حل محل الرعب عندما استدار وتعرّف على المتحدث. قال:
- حمدا لله أنه أنت.

ثم تذكر فجأة أن هذا هو الرجل الذى كان ينوى قتله، ولكن كان ذلك منذ
مليون عام مضت، وعلى بعد مليون ميل. الواقع الآئى والقريب والعاجل لم يكن
البيبى، ولا الحب، ولا الغضب. كان الخوف، وهذا الشيء الراقد هنا على الأرض.
قال فى همس متحشرج:

- لا بد أن تنفذه . يمكننا أن نقول إنها حادثة . سوف أدفع له أى مبلغ يريد .
ثم أضاف برد فعل تلقائي قديم:
- أى مبلغ فى حدود المعقول .
بمجهود كبير أقام نفسه على قدميه وأشار للدكتور أوبيسبو أن يجلس فى المكان الذى تركه .
- الحركة الوحيدة التى أقدم عليها الدكتور أوبيسبو كانت التراجع . لقد كان الرجل العجوز غارقا فى الدماء ، ولم يكن يرغب فى إفساد بدلته ذات الخمسة وتسعين دولارا . قال مردداً:
- أنقذه ؟ إنك مجنون . انظر إلى كل هذا المخ المبعثر على الأرض .
من الظلال خلفه قاطعت فيرجينيا تمتعتها وصلواتها وصرخت بنواح:
- على الأرض . على الأرض .
استدار إليها الدكتور أوبيسبو وصاح:
- اخرسى ، أسمعين ؟
توقف الصراخ فجأة ، ولكن بعد بضع لحظات صدر صوت تقبيل ثم السيدة العذراء المقدسة أم الإله صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن وفى وقت مماتنا آمين السيدة العذراء المقدسة أم الإله صلى من أجلنا نحن الخطاة ...
أكمل الدكتور أوبيسبو وقال:
- لو كنا سنحاول إنقاذ أحد فالأفضل أن يكون أنت .
ثم أضاف بإصرار وهو يرمى بوزن جسده كله على قدمه اليسرى مشيراً بإصبع حذائه الأيمن نحو الجثة:

- وصدقني، إنك بحاجة لبعض الإنقاذ، إما من غرفة الإعدام بالغاز، أو سان كوينتين^(٢) مدى الحياة.

قال مستر ستويت معترضا وفي حماس أفقده التنفس:

- ولكنها حادثة. أعني كانت غلطة. لم أقصد قتله. كنت أنوى...

قطع حديثه ووقف صامتا، وظل فمه يتحرك وكأنه يحاول ابتلاع كلمات لم يتفوه بها.

قال الدكتور أوبيسبو مكملا له الجملة:

- كنت تنوى قتلى.

ابتسم مثل الذئب، بروح دعابة كانت مميزة عنده عندما تكون النكتة مهينة ومؤلمة. اطمأن أن الصقر العجوز كان خائفا جدا بحيث لن يغضب منه، ثم أن المدسد على أية حال كان في جيبه، فاستمر في إطالة النكتة وقال بتكلف من يقول موعظة أو حكمة:

- وهذه نتيجة التجسس.

كانت فيرجيليا تتمتع وسط الصمت الذي ساد:

- الآن وفي وقت مماثلا السيدة العذراء المقدسة...

كرر مستر ستويت ماقاله من قبل:

- لم أقصد ذلك. لقد جن جلوني. أعتقد أنني لم أفطن حقا لما كنت أفعل...

قال الدكتور أوبيسبو بسخرية:

- قل هذا للمحلفين.

اعترض مستر ستويت قائلا:

٢- سان كوينتين: سجن في كاليفورنيا.

- ولكنى أحلف بذلك . لم أكن أعرف .
انكسر صوته الأجش إلى صوت ضعيف ، وأصبح وجهه شاحبا من الخوف . هز
الدكتور أوبيسبو كتفيه وقال :
- ربما . ولكن لا فرق بين المعرفة من عدمها هنا .
وقف على قدم واحدة مرة أخرى وأشار بقدمه ذات الحذاء الأنيق تجاه الجثة .
صرخ مستر ستويت فى لوعة الرعب وقال :
- ولكن ماذا أفعل ؟
- لا تسألنى أنا .
حاول مستر ستويت أن يضع يده فوق ذراع الرجل الآخر ، ولكن الدكتور
أوبيسبو تراجع للخلف سريعا وقال :
- لا تلمسنى . انظر إلى يديك .
نظر إليهما مستر ستويت . كانت أصابعه السمينة والتي تشبه الجزرة ، حمراء ،
ونحت الأظافر بدأت الدماء تتجمد وتجف مثل الطين . همس :
- يا الله . آه يا الله !
- وفى وقت مماثنا آمين السيدة العذراء ...
انتفض الرجل العجوز فزعا عند كلمة مماثنا وكأن أحدهم قام بجلده فجأة . بدأ
ثانية فى ترقب وقد توقف تنفسه ، وقال راجيا :
- أوبيسبو . أوبيسبو . استمع إلىّ هنا - لابد أن تساعدنى للخروج من هذا ...
لابد أن تساعدنى .
- بعد أن فعلت أقصى ما فى وسعك لتفعل هذا بى ؟
خرجت القدم ذات الحذاء الأبيض والبني مرة أخرى .

قال مستر ستويت فى رعب بين:

- لن تجعلهم يأخذونى، أليس كذلك؟

- ولم لا؟

قال مستر ستويت صارخا:

- ولكنك لن تستطيع. لن تستطيع.

انحنى الدكتور أوبيسبو ليتأكد تحت الضوء الخافت من عدم وجود دماء على الأريكة، ثم رفع بنطلونه البنى بلون الغزال وقال فى نبرة حوارية لطيفة:

- الواحد منا يتعب من الوقوف.

استمر مستر ستويت فى رجائه وقال:

- سوف أعوض لك تعبك. يمكنك أن تأخذ أى شىء تريده. أى شىء.

كرر الكلمة الأخيرة ولكن دون الإشارة إلى حدود المعقول هذه المرة.

قال الدكتور أوبيسبو:

- آه. الآن تتكلم الجدد.

تمتمت الببى:

- ...أم الإله، صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن وفى ساعة مماتنا آمين السيدة

العذراء المقدسة أم الإله صلى من أجلنا نحن الخطاة الآن...

قال الدكتور أوبيسبو مرة أخرى:

- الآن تتكلم الجدد.

الجزء الثالث

الفصل الأول

دخل مستر برويتر بعد أن قرع باب حجرة مكتب جيريمى. لاحظ جيريمى أنه كان يرتدى نفس البدلة الرمادية الغامقة وربطة العنق السوداء التى ارتداها فى جنازة بيت. اللباس المدنى جعله يبدو أقل حجما، فبدأ أصغر مما يبدو فى ملابس عمله، وفى ذات الوقت بدا على غير طبيعته. هذا الوجه الذى لطمه الجو، محدد الملامح، هذا الوجه الذى يشبه التمثال المرتفع فوق الجهة الغربية لكاتدرائية ما، بدا غريبا فوق الياقة المنشأة.

قال بعدما حيا بعضهما البعض:

- هل نسيت؟

وكإجابة أشار جيريمى إلى سترته السوداء وبنطاله الواسع الإسفنجى. كانت الناس فى انتظارهم لافتتاح قاعة ستويت الجديدة فى طارزان.

نظر مستر برويتر إلى ساعته وقال:

- لدينا بضع دقائق أخرى قبل التفكير فى البدء.

جلس وقال:

- ما الأخبار؟

أجاب جيريمى:

- لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك.

هز مستر برويتر رأسه وقال:

- الآن وقد ذهب جو المسكين والآخرين، لابد أنه شيء ممتع هنا.

قال جيريمى:

- وحيدا وسط أشياء من هنا وهناك، تساوى أكثر من اثنى عشر مليون دولار،

لذلك فإننى سعيد جدا .

قال مستر برويتر متأملا:

- أية سعادة قليلة كنت ستعيشها لو تركت وسط الأشخاص الذين قاموا بصنع هذه الأشياء، أى مع إل جريكو وروبينز وتيرنر^(١) وفرا أنجيليكو.

قال جيريمى رافعا يديه لأعلى:

- فليحمدا الله!

قال مستر برويتر:

- هذا هو جمال الفن . إنه يمثل فقط الجانب المقبول من أفضل المواهب البشرية . لذلك لم أستطع أن أصدق أبدا أن فنون أى مرحلة تلقى ضوءا كثيرا على حياة تلك الفترة . خذ مثلا شخصا من المريح ودعه يرى مجموعة تمثل بونيتشيللى^(٢) وبيروجينو^(٣) ورافائيل . هل يمكن أن يستنتج منها الظروف التى شرحها ماكيا فيللى؟

قال جيريمى موافقا:

- لا ، لن يقدر . ولكن فى ذات الوقت ها هو سؤال آخر . الظروف التى شرحها ماكيا فيللى - هل كانت فعلا الظروف الحقيقية؟ ليس بالضرورة أن ماكيا فيللى لم يقل الحقيقة . الأشياء التى قام بشرحها حدثت بالفعل ، ولكن هل رآها معاصروه بنفس البشاعة التى تبدو لنا عندما نقرأ عنها الآن؟ إننا نعتقد أنهم كانوا فى الغالب بؤساء بسبب ما يحدث . ولكن هل كانوا كذلك؟

١- تيرنر: نسبة إلى جوزيف مالورد ويليام تيرنر (١٧٧٥-١٨٥١) رسام إنجليزى .
٢- بونيتشيللى: نسبة إلى أليساندرو دى مارينلو (١٤٤٥-١٥١٠) للرسام الفلورنطينى ، وتشتهر لوحاته بالطابع الغوطى والذي كان مناقضا تماما لمايكل أنجلو ورافائيل وهما من معاصريه .
٣- بيروجينو: نسبة إلى بييترو فانوتشى بيروجينو (١٤٤٥-١٥٢٣) رسام إيطالى عمل فى فرنسا ثم فى بيروجيا ويعتبر معلما لرافائيل ، وقد رسم جزءا من كنيسة السكينة بالفاتيكان .

ثم كرر مستر برويتر السؤال ثانية:

- هل كانوا؟ إننا نسأل علماء التاريخ وبالطبع لن يستطيعوا الإجابة - لأنه قطعاً لا توجد طريقة لعمل إحصاء حول مجموع السعادة، ولا توجد طريقة لمقارنة مشاعر الناس التي تعيش تحت مجموعة محددة من الظروف مع آخرين يعيشون تحت مجموعة أخرى ومختلفة من الظروف. إن الظروف الحقيقية فى أى وقت محدد هى الظروف الذاتية للأفراد الذين يعيشون فى ذلك الوقت. وعلماء التاريخ لا توجد لديهم أية طريقة لمعرفة ماهية تلك الظروف.

قال جيريى:

- ليس لديهم أية طريقة سوى النظر إلى الأعمال الفنية والأدبية. إننى أقول إنها تعكس بالفعل الضوء على الظروف الذاتية. خذ واحداً من أمثلك: إن بيرونيوز من معاصرى ماكافيللي، وهذا يعنى على الأقل أن فرداً واحداً قرر أن يكون مبتهجا خلال مرحلة غير مبهجة. ولو استطاع شخص واحد أن يفعل ذلك، فلماذا لا يفعله الكثيرون؟

ثم أفسح الطريق لمقولة من مقولاته بحممة، وقال:

- وإن وضع الدولة لم يمنع شخصا من تناول عشائه،

قال مستر برويتر:

- حكمة عظيمة! ولكن تذكر أن وضع إنجلترا التي كان يعيش فيها الدكتور جونسون كان عظيماً حتى فى أسوأ أحوالها. ماذا عن وضع دولة مثل الصين مثلاً، أو إسبانيا - حيث الإنسان لا يستطيع أن يمتنع عن تناول العشاء لأنه ببساطة لا يوجد عشاء؟ ومن أجل الحوار أيضاً، ماذا عن فقدان الشهية الذى يحدث فى الأوقات التي تسير فيها الأمور على ما يرام؟

توقف وابتسم بتساؤله إلى جيريمي، ثم هز رأسه بالنفي وأكمل قائلاً:
 - أحياناً توجد بهجة كثيرة بجانب البؤس الكثير. أحياناً يبدو وكأنه لا وجود
 لشيء سوى البؤس. هذا ما يمكن أن يقوله علماء التاريخ بما أنهم علماء تاريخ. أما
 لو كانوا لاهوتيين أو ميثافيزيقيين فيمكن أن يهدوا إلى ما لا نهاية، مثل ماركس أو
 سان أغسطين^(٤) أو شبنجلر^(٥).

علا وجهه اشمزاز وقال:
 - يا إلهي! أي هراء استطعنا أن نقوله على مدى آلاف السنين الماضية!
 قال جيريمي في إصرار:
 - ولكنه ساحر أيضاً. إنه هراء جيد حقاً...

قال مستر برويتر:
 - إنني همجي بحيث أفضل المنطق. لذلك لو كنت أريد فلسفة التاريخ لذهبت
 لعالم نفسياني.

سأل جيريمي بدهشة:
 - الطوطم أم التابو؟

قال مستر برويتر بنوع من نفاد الصبر:
 - لا لا، ليس هذا النوع من النفسانيين. أعني النفساني الديني، هذا الذي يعرف
 من خلال الاختبار المباشر أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى التحرر والتطوير. إنه
 فيلسوف التاريخ الوحيد الذي ثبتت بالفعل افتراضاته عن طريق التجربة، ولذلك
 فهو الوحيد القادر على التعميم وتغطية الحقائق كلها.

٤- سان أغسطين: نسبة إلى القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) ويعتبر من أشهر آباء الكنيسة الكاثوليكية ومن
 أشهر كتاباته الاعترافات.

٥- شبنجلر: (١٩٣٦-١٨٨٠) نسبة إلى أوزالد شبنجلر الفيلسوف الألماني الذي كتب «سقوط الغرب».

قال جيريمى:

– وما هى تعميماته؟ مجرد الشيء المعتاد؟

ضحك مستر برويتر وأجاب:

– مجرد الشيء المعتاد، والحقائق القديمة المملة التى لا نستطيع الفرار منها. على المستوى البشرى، يعيش الإنسان فى جهل واشتياق وخوف. بعض السعادة المؤقتة تنتج عن الجهل والاشتياق والخوف، ولكن أيضا البؤس الكثير الأبدى، ثم فى النهاية الإحباط. إن نوع العلاج واضح، أما الصعوبات فى طريق تحقيقها فيكاد يكون تذليلها مستحيلا. لابد أن نختار بين الصعوبات التى يستحيل تذليلها تقريبا من ناحية، وبين البؤس المؤكد تماما والإحباط من ناحية أخرى. بينما الافتراض العام يبقى هو المفتاح الثقافى للتاريخ. إنه فقط النفسانى الدينى الذى يمكن أن يفهم أى شيء من بيروجينوز وماكيافيللى مثلا، أو من كل هذا.

أشار إلى أوراق الهوبيرك.

لمعت عينا جيريمى خلف نظارته وربت على صلته وقال:

– إن عالمك لا يريد أن يعرف كل هذا.

قال مستر برويتر بلوع من الحزن:

– نعم. أكاد أنسى ذلك.

تلحن جيريمى وقال وهو يستشهد بمقولة «جنازة النحوى»:

«أعطونا عقيدة الدى التى تضاف فى آخر الكلمة،

قال مستر برويتر وهو يقوم من مقعده:

– أعطائها لنا من أجله هو. أعطائها لنا بالرغم من أن النحو الذى كان يذكره

كان غير علمى لدرجة ميئوس منها، ملئ بالميتافيزيقيا المتوارية، ساذجة جدا

وقديمة جدا. هذا ما لا بد أن نتوقعه فيما أعتقد.

أخذ ذراع جيريمي وسارا معا نحو المصعد، ثم قال وقد عاد ذهنه إلى النحوى:
- كم غريب هذا العجوز براوننج^(٦). إنه يتمتع بعقلية حادة الذكاء ولكن في ذات الوقت كم كان أحمق. كل هذه الوقاحة العجيبة عن الحب الرومانسى! يدخل فيها الله، ويضعها فى الجنة، ويتحدث وكأن الزواج هو أعلى أنواع الزنا متساويين مع الرؤيا المغتبطة. يا لتفاهته! ولكن مرة أخرى، هذا ما ينبغى أن نتوقعه.
تنهد وقال بعد برهة: -

- لا أدري لماذا، ولكنى أجد نفسى متذكرا هذا السجع الذى قاله - ولا أذكر حتى من أية قصيدة - الذى يقول فيه «ذات ليلة قبّل روحى هناك فى ضباب الصباح الملتهب». روحى فى ضباب الصباح حقا! إننى حقيقة أفضل تشوسير^(٧) فى هذا الموضوع. هل تذكر؟ هكذا استدارت زوجة النجار حول نفسها. إنها جملة موضوعية وجميلة، بلا تأكيد وخالية من الحشو. براوننج كان يحب أن يستطرد دائما عن الله، ولكنى أعتقد أنه كان أكثر بعدا عن الحقيقة من تشوسير، حتى بالرغم من عدم تفكير تشوسير قط فى الله، كلما استطاع ذلك. لم يكن بين تشوسير والأبدية شيء سوى شهيته. أما براوننج فكانت له شهيته بالإضافة إلى سيل من الهراء - والأسوأ من ذلك، كان هراء هادفا. مثلا، الصوفية الهرائية لم تكن مجرد هراء بدون مقابل، بل كانت ذات هدف. كانت موجودة لكى يتمكن براوننج من أن يفتح نفسه أن شهيته مماثلة لله.

ثم كرر الجملة وهما يصعدان مع الفيرمير إلى القاعة الكبيرة:

٦- براوننج: نسبة إلى روبرت براوننج (١٨١٢-١٨٨٩) الشاعر الإنجليزى.
٧- تشوسير: نسبة إلى جيفرى تشوسير (١٣٤٠-١٤٠٠) الشاعر الإنجليزى ومن أشهر كتاباته حكايات كانتربرى وللتى منها زوجة النجار.

- «هكذا دارت زوجة النجار حول نفسها». «روحي في الضباب الملتهب».
غريب حقا الطريقة التي يمكن أن تتغير بها نوعية وجودنا كله من خلال تغيير
الكلمات التي نفكر ونتكلم بها. إننا نطوف في اللغة مثل قمم الجبال الثلجية في
المحيط - أربعة أخماس تحت السطح، بينما فقط خمس واحد يبدو خارجا في الهواء
الطلق، وهي التجربة الآتية وغير اللغوية.

عبرا الردهة. كانت سيارة مستر برويتر واقفة خارج الباب الأمامي. سارا معا
بالسيارة، نازلين في الطريق المنحني، مارين على الببوانات، وحرورية جيامبولونيا،
عبر الكهف، وتحت الحاجز الحديدي في مدخل القلعة، ثم عبر الكوبري.

قال مستر برويتر:

- إنني أفكر كثيرا في هذا الولد المسكين الذي مات فجأة هكذا.

قال جيريمي:

- لم أكن أعلم أن قلبه هكذا مريض.

استمر مستر برويتر في كلامه:

- بمعنى ما، أشعر أنني السبب فيما حدث. لقد طلبت منه أن يساعدني في
ورشة النجارة، وجعلته يعمل كثيرا فيما أعتقد - بالرغم من أنه أصر أنه كان في
حالة جيدة. كان على أن أعرف أن لديه كرامة - وأنه شاب يخجل من الاعتراف
بعدم مقدرته على ذلك. إن الشخص منا يُعاقب لأنه غير حساس وغير مدرك،
وكذلك يعاقب الناس الذين لا نشعر تجاههم بمثل هذا الإحساس والإدراك.

مرا في صمت عبر المستشفى وعبر مزارع البرتقال. قال جيريمي أخيرا:

- هناك شيء بلا معنى في حالات الموت المفاجئ المبكر. هناك غياب الصلة

الشديد...

تساءل مستر برويتر:

- الشديد؟ لا، لا يمكن أن أقول هذا. إنها ليست ذات صلة مثل أى تصرف إنسانى آخر. لو كانت تبدو أنها غير متصلة، فهذا فقط لأن الموت المبكر، دون الأحداث الممكنة كلها، هو الأكثر وضوحا فى عدم توافقه مع ما نتوقعه من أنفسنا.

قال جيريمى:

- ماذا تقصد؟

ابتسم مستر برويتر وأجاب:

- أقصد ما أعتقد أنك تعنيه. لو بدا شيء ما غير ذى صلة، لابد من وجود شيء ما هو غير ذى صلة به. إننا نظن أننا أحرار، وأنها كائنات ذات معنى، ولكن بين الحين والآخر تحدث أشياء لنا غير متوافقة مع هذا التصور. إننا نتحدث عنها باعتبارها حوادث، ونسميها بلا معنى وغير ذات صلة. ولكن ما هو المعيار الذى نحكم به؟ المعيار هو الصورة التى نرسمها لأنفسنا فى مخيلتنا - تلك الصورة الجميلة عن الروح الحرة التى تقوم بالاختيارات الخلقة، وعن كوننا سادة أقدارنا. مع الأسف هذه الصورة لا تشبه الحقيقة البشرية العادية قط. إنها صورة ما نود أن نكون، بل وقطعا ما يمكن أن نصبح عليه لو تكبدنا عناء ذلك. أما بالنسبة للكائن الذى هو فى الواقع عبد لظروفه، فلا يوجد شيء غير ذى صلة حول الموت المبكر. إنه تلك النوعية من الأحداث التى يتسم بها الكون الذى نعيش فيه - إلا أنه بالطبع ليس الكون الذى يعتقد الفرد، لفرط حماقته، أنه يعيش فيه. إن الحادثة هى تصادم قطار الأحداث على المستوى المسير مع أحداث أخرى على مستوى الحرية. إننا نتصور أن حياتنا مليئة بالحوادث، لأننا نتصور أن وجودنا على المستوى البشرى معاش على مستوى الحرية. فى الواقع هو ليس كذلك، لأن معظمنا يعيش على

المستوى الآلى، حيث الأحداث تقع بالتوافق مع قوانين المجموع. الأشياء التى نسميها حوادث وغير ذات صلة، تنتمى للطبيعة الأصلية للعالم الذى اخترنا أن نعيش فيه.

صمت جيريمى لضيقه من أنه بكلمة غير مقصودة وضع نفسه فى موضع يُمكن مستر برويتز فيه أن يبين أن جيريمى مثالى دون الحاجة لذلك. سارا فترة دون كلام. قال جيريمى أخيرا:

— هذه الجنازة!

عاد ذهنه المدمن للنداء إلى حيث الموضوع الملموس والغريب فى المسألة التى يتحاورون حولها.

— مثل شيء ما من روفالد فيربانك^(٨). لقد قلت للمستر هاباكوك أنه ينبغي أن يضع بعض البخار فى التماثيل لأنها لا تبدو حية بالقدر الكافى عندما تلمسها،حرك يديه وكأنها فوق تماثيل رخامى خيالى.

ابتسم مستر برويتز الذى كان يفكر فى التحرر، وهز رأسه بأدب موافقا. استمر جيريمى فى الحديث:

— والدكتور مالدج الذى قرأ الموعظة! لقد تحدث عن المسح بالزيت المقدس! لا يمكن أن يكون أكثر زيتا حتى من كاتدرائية إنجليزية. مثل الفازلين برائحة النبيذ. والطريقة التى قال بها أنا هو القيامة والحياة وكأنه بالفعل يعيها، وكأنه هو، مالدج، شخصا، يستطيع أن يضمن ذلك كتابة، على أساس إرجاع اللقود للمشتري إذا لم يحدث ذلك؛ إن تكلفة الجنازة كلها يمكن أن يرجعها لو أن العالم الآخر فشل فى أن يعطيك الرضاء الكامل.

٨- روفالد فيربانك: ممثل أمريكى.

قال مستر بروتير متأملاً:

- بل وغالباً يعتقد ذلك بالفعل. بطريقة بيكويكية^(٩) بالطبع. أنت تعلم: إنه حقيقى ولكنك تتصرف دائماً وكأنه ليس كذلك. الواقع الأكثر أهمية فى الكون، ولكنك لا تفكر فيه إن استطعت تجنبه.

قال چيريمى:

- وكيف تراه أنت؟ بيكويكيا أم غير بيكويك؟

أجاب مستر بروتير بأنه لا يؤمن بمثل هذه القيامة والحياة، فاستمر چيريمى مثل الأب الذى أمسك ابنه وهو يقبل الخادمة:

- آهه. آهه. إذن توجد أيضاً قيامة بيكويكية؟

ضحك مستر بروتير وقال:

- أعتقد ذلك.

وفى هذه الحالة، ماذا حدث لبيت المسكين؟

قال مستر بروتير ببطء:

- بداية أعتقد أن بيت كبيت غير موجود على الإطلاق.

قال چيريمى:

- إذن هو سوبر بيكويك؟

استمر مستر بروتير:

- ولكن جهل بيت وخوف بيت ورغباته - أعتقد أنها لا تزال تسبب مشاكل

بشكل ما فى العالم. تسبب مشاكل لكل شيء وكل شخص، وخاصة لنفسها. نفسها

فى أى شكل هى عليه الآن.

٩- بيكويكية: نسبة لشخصية بيكويك من رواية تشارلز ديكنز «أوراق بيكويك»، والتعبير يعنى البساطة والكرم.

- ولو لم يكن بيت جاهلا وشهوانيا، فماذا بعد؟

قال مستر برويتر:

- إذن بالطبع لن يوجد شيء يسبب المشاكل بعد.

ثم بعد برهة قال تعريف تولر عن الله:

- «الله كائن منسحب عن كائناته، قوة حرة، وعمل صافٍ،

أدار السيارة عن الطريق الرئيسى إلى الطريق الجانبي المملوء بأشجار الغفل والملف حول حدائق حرم طارزان. ارتفعت أمامهما القاعة الجديدة بصرامتها الرومانية. ركن مستر برويتر سيارته وسط السيارات الشاهقة من الكاديلاك والكرائزلر والباكار المرصوفة أمام المدخل ودخلا. نظر إليهما المصورون الصحفيون ورأوا بنظرة واحدة أنهما ليسا من رؤساء البنوك، ولا ممثلى السينما، ولا محامي شركات، ولا رؤساء دينيين من أية كنيسة، ولا سيناتورات، فانصرفوا عنهما بتهكم.

كان الطلبة جالسين فى أماكنهم، وتحت نظراتهم اقتادهم المرشد إلى الصف المحجوز للضيوف المتميزين. وأى تميز! هناك، فى الصف الأول، كان يجلس سول ر. كاتزينبوم، رئيس شركات أفلام أبراهام لنكولن، وركن من أركان إعادة التسليح الأخلاقى، وهناك، بجانبه جلس مطران سانتا مونيكا، وهناك أيضا جلس مستر بيشيكانمولو، رئيس بنك الغرب الأقصى. وجلست دوقة يولالى الكبرى بجانب السيناتور باردولف، وفى الصف التالى كان يجلس أخوان من إخوان إنجلز وكذلك جلوريا بوسوم، والتى كانت تتحدث مع الأدميرال شوتوفيرك. أما الروب البرتقالى واللحية المموجة كانا للسوامى يوجالينجارا، مؤسس مدرسة الشخصية، وبجانبه جلس نائب شركة بترول كونسول والسيدة واجنر...

فجأة بدأ الأرغن يعزف موسيقى سلام طارزانا.

دخل الطابور الأكاديمي، اثنين اثنين، بالملابس الطويلة والطرطور، ولوحات المونة وفي طرفها شرابة، دكائرة في اللاهوت، والفلسفة، والعلوم، والقانون، والأدب، والموسيقى، وساروا الواحد تلو الآخر عبر الممر وصعدوا إلى المنصة، حيث المقاعد معدة لهم في شكل قوس واسع للوراء. وقف الدكتور مالدج وسط المسرح، وخلف مكتب للقراءة. ليس بالطبع لأنه كان يقرأ (لأن الدكتور مالدج كان يفخر دائما بأنه يستطيع أن يتحدث إلى ما لا نهاية، بدون أوراق) ولكن المكتب كان موجودا حتى يستند إليه ويمسكه، ويميل للوراء بعيدا عنه، ويخط عليه بكفه بتأكيد ومشاعر فيآضة، وليمشي بعيدا عنه بشكل دراماتيكي، ثم ليعود إليه.

صمت الأرغن وبدأ الدكتور مالدج خطابه - بدأه بالطبع بالإشارة إلى مستر ستويت، هذا المستر ستويت الذي من خلال كرمه ... تحقيق الحلم ... تجسيد للمثل في صورة أحجار... الرجل ذو الرؤيا. بدون الرؤيا يتلاشى الإنسان... ولكن هذا الرجل له رؤيا... رؤيا حول ما ينبغي أن تكون عليه طارزانا.. المركز والقبلة، وحاملة المشعل... كاليفورنيا... الثقافة الجديدة، والعلم الغني، والروحانية الأسمى... (وهنا تبدل صوت الدكتور مالدج من المزمار الجهير إلى البوق، ومن الفاسيلين المزود بنقطة من النبيذ، إلى الكحول الدسم غير المخفف) ولكن مع الأسف (وهنا نزل الصوت بأسف إلى الساكسفون واللانولين)، مع الأسف... لم يستطع أن يكون معنا اليوم... حادثة مفاجئة... رحل عنا وهو على عتبة الحياة... شاب صغير، مساعد في مجال العلوم، والتي قال عنها إنها قريبة إلى مستر ستويت مثل الخدمة الاجتماعية والثقافة... الصدمة... القلب الرقيق جدا تحت المظهر الخارجي الخشن... وقد طلب منه طبيبه تغيير المكان فورا... ولكن

بالرغم من الغياب بالجسد إلا أن روحه ... تشعر بها بيننا اليوم... ملهمة لكل،
 كبارا وصغارا ... شعلة الثقافة... المستقبل ... المثل ... روح الإنسان ... أشياء
 عظيمة تم إنجازها ... الله كان يسير بقوة وسط هذا الحرم ... يقويهم ويرشدهم ...
 إلى الأمام ... متقدمين ... إلى أعلى ... الإيمان والرجاء ... الديمقراطية ...
 الحرية ... الميراث الذي لا يزول لوأشطن ولكن كلن ... المجد الذي كان في
 اليونان ولد من جديد بجانب مياه الباسيفيكي ... العلم ... المهمة ... القدر المتجلى
 ... إرادة الله ... طارزانا.

انتهى أخيرا. بدأ الأرغن يعزف ثانية. عاد الطابور الأكاديمي عبر الممر، وقام
 الضيوف المميزون مهرولين خلفهم.

في ضوء الشمس في الخارج، أمسكت المسز بيشيكانيولو بتلابيب مستر برويتز
 وقالت بحماس:

– أعتقد أن هذا كان خطابا مهما ورائعا.

هز مستر برويتز رأسه بالإيجاب وقال:

– إنه خطاب أكثر إلهاما سمعته في حياتي. والله يعلم كم سمعت منها أثناء
 حياتي.

الفصل الثانى

حتى لندن بدت مخففة قليلا فى الشمس - تلك الشمس التى ظلت تضىء وتقوى أثناء سيرهم بالسيارة ، عبر دخان الضواحي الخارجية المتلاشى، إلى أن وصلوا إلى مكان ما بجانب إشير، وبدا ذلك الصباح من أبهج أوقات بدايات الربيع.

كان مستر ستريت راقدا تحت سجادة من الفرو، فى خط قُطرى على المقعد الخلفى للسيارة. كان قد عاد للمهدئات، ولكن هذه المرة من أجله هو وليس من أجل طبيبه، ووجد أنه من الصعوبة بمكان أن يظل مستيقظا قبل موعد الغداء. أخذ يتنفس بصوت شخير عال، إذ نام تقريبا منذ اللحظة التى قاموا فيها من الريتز^(١).

جلست فيرجينيا فى المقعد الأمامى بعينين شاحبتين حزينتين، تجترّ فى صمت تعاسة لم تستطع أيام ممطرة على الأطلطى وثلاثة مثلها فى وجوم لندن أن تزيلها. كان الدكتور أوييسبو، والذى فضل فى هذه الرحلة ألا يصطحب معه سائقا، يصفر لنفسه أثناء قيادته للسيارة، بل وكان يغلى بصوت عال - يغلى «إننى واقع فى الغرام»، ويغلى «هل تظن بعض الخمر يؤذينا؟»، ويغلى «أحلم أنى أعيش فى بهو من الرخام». كان الجو الجميل مستولا بعض الشيء عن هذه البهجة - وقت الربيع هو وقت البهجة الكبيرة، هذا بالإضافة إلى الزهور الصفراء، والغابات الصغيرة، وهل يمكن أن ينسى دهشته عندما بدأ الإنجليز يتحدثون عن الشرطة ولكن بالمفرد ويضعون هذه الكلمة فى حديث يبدو خارج موقعه مثل فلذهب للشرطة^(٢) لنجمع بعض الورود. شيء غريب مثل طقليات الأمعاء، بل وأفضل

١- الريتز: سلسلة فنادق شهيرة .

٢- الشرطة: الكلمة بالإنجليزية هي «كوبس»، وتعنى باللغة الأمريكية الشرطة، ولكنها باللغة البريطانية «كوبيس»، وتطلق كوبس باللغة الدارجة، وتعنى الغابات ذات الأشجار الصغيرة

من الشبوط. مما يأتى بنا لسبب سعادته الثانى بالحياة، إذ كانوا فى طريقهم لرؤية السيدتين العجوزين أصحاب الهوبيرك ، أى فى طريقهم غالبا لاكتشاف شىء مثير عن الإبرل الخامس، وشىء مثير عن العلاقة بين الشيوخوخة والطفليات وأمعاء الشبوط.

انفجر فى الغناء مرة أخرى مقلدا الغناء الأويرالى:

– وأحلم أننى أعيش فى بهو من الرخام، وبحانئى تابعون وعبيد، ومن بين كل المجتمعين، بين هذه الجدران، كنت أنا الأمل والفخر.

استدارت إليه فيرجينيا فجأة بعد أن كانت جالسة بجانبه فى صمت متحجر ويؤس، قالت وهى تكاد تصرخ محطمة الصمت الذى طال بعد خروجهم من كينجستون – على – تيمز:

– بحق السماء ألا تستطيع أن تسكت؟

تجاهل الدكتور أوبيسبو اعتراضاتها واستمر فى الغناء وهو يضحك فى داخله لأن كلامه أصبح حقيقة: «لدى ثروات يصعب إحصاؤها. ولكن لا. إن هذه مبالغه. ليس أنه لا يمكن إحصاؤها. ولكن مجرد ثروة صغيرة جميلة، ما يكفى لإعطائه الأمان والوسيلة لاستمرار أبحاثه بدون تضيق وقته مع مريضى كثيرين، المفترض أصلا أن يموتوا. مائتا ألف دولار نقدا، وأربعة آلاف وخمسمائة فدان من الأراضى فى وادى سان فيليبى – الأرض التى حلف العم چو بتأكيد أنها على وشك أن تصلها مياه النرى. (وإذا لم يحدث ذلك فيالله! كم سيلوى ذيل الصقر العجوز!) هبوط مفاجئ بسبب روماتيزم فى القلب. كان يمكن أن يطلب أكثر بكثير من مائتى ألف لشهادة الوفاة تلك. خاصة، أنها لم تكن الخدمة الوحيدة التى أداها. لا يا سيدى! كان عليه أيضا تنظيف الفوضى كلها. وقد فسدت البدلة ذات اللون الغزالى،

وذات الخمسة وتسعين دولارا، بعد كل هذا! وكان لابد من إبعاد الخدم، ووضع اللبى فى سريرها بحقنة كبيرة من المورفين، والحصول على الإذن بحرق الجثة من أقرب قريب للمتوفى، وكانت هذه القريبة هى أخت تعيش، والحمد لله، تحت ظروف صعبة فى بيناسكولا بفلوريدا وبالتالى لحسن الحظ لم تقدر على مصروفات المجرىء إلى كاليفورنيا لحضور الجنازة. ثم بعد ذلك أصعب كل هذه الأشياء، وهو البحث عن حانوتى غير أمين، واكتشاف نصاب مُحتمل، والمقابلة المليئة بالإشارات المتوارية، عن حدوث حادثة أليمة ينبغي التغطية عليها، ووجود نقود ليست قضية بالمرّة بشكل عملى، ثم بعد أن بدأ الشخص هذا فى خطابه المناقش الذى يظهر فيه بالقوى والصلاحيات، متحدثا عن واجبه لخدمة مواطن مهم ليتجنب دعاية سيئة، تغيرت طريقة الكلام فجأة، وبدأ الكلام العملى حول الحقائق التى لا يمكن تجنبها، والقصص التى لابد أن يحكوها، والمفاوضات حول الثمن. وفى النهاية وافق مستر بينجو على ألا يلاحظ الثقوب فى جمجمة بينت فى مقابل مبلغ ضئيل هو خمسة وعشرون ألف دولار.

- لدى ثروات كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وأستطيع أن أتفاخر باسم عريق. نعم. لقد فكر الدكتور أوبيسبو وهو يغنى أنه كان يستطيع أن يطلب مبلغا أكبر بكثير. ولكن لماذا؟ لقد كان رجلا منطقيا. بل وتستطيع أن تسميه فيلسوفا، متواضعا فى طموحه، غير عابئ بالنجاح فى هذا العالم، ذا ذوق بسيط جدا للدرجة أن أكثر الطموحات إغراء، خارج مجال البحث العلمى، يمكن إرضاؤها فى معظم الأحوال تقريبا بلا مقابل، بل وأحيانا بمكسب خالص، مثل ذلك الوقت الذى أعطته فيه السيدة بوخانس علبة السجائر الذهبية كنوع من المرفان بالجميل - ثم تلك الأزرار اللؤلؤية التى أعطتها له جوزفين، وأزرار القميص للخضراء مكتوب عليها

الأحرف الأولى من اسمه بالماس، والتي أعطته إياها ما اسمها...

- ولكنى أيضا حلمت بما أعطانى سعادة أكثر

رفع صوته فى الغناء إلى نبرة عالية:

- «إنك تحبيننى مثل أيام زمان، إنك تحبيننى مثل أيام زمان، إنك

تحببى.. ييبى... ننى...»

استدار لحظة من طريق بورتسموث لينظر إلى وجه فيرجينيا المبتعد عنه،
ورمقها بنظرة مستمتعة وتساؤل ساخر، وقال للمرة الرابعة بتأكيد شديد وإثارة
للشفقة:

- «أنك تحبيننى مثل أيام زمان،

نظر مرة أخرى إلى فيرجينيا، لكنها ظلت تنظر أمامها مباشرة، ممسكة بشفتها
السفلى بين أسنانها وكأنها تتألم ولكن متخذة قراراً بعدم الصراخ.

ابتسم مثل الذئب وقال:

- هل حلمى حقيقى؟

لم تجبه البيبى. أخذ مستر ستويت يشخر فى المقعد الخلفى مثل كلب بولدوج.
قال مغنياً فى إصرار وهو يدير السيارة إلى اليمين ويسرع ليعبر طابوراً من
لوريات الجيش:

- هل تحبيننى مثل الأول؟

تركت البيبى شفتها وقالت:

- أستطيع أن أقتلك.

وافقها الدكتور أوبيسو وقد اتسعت ابتسامته، وبرزت أسنانه أكثر مع كل كلمة:

- بالطبع تستطيعين. ولكنك لن تفعلين لأنك تحبيننى.. ييبى.. ننى كثيراً. أو

بالأحرى لا تحبيننى أنا، بل تحبين...

توقف لحظة، ثم أكمل قائلاً:

- دعينا نضعها بشكل أكثر شاعرية - لأنه لا يمكننا أن نأخذ الشعر كله، ألا نوافقين؟ إنك تحبين الحب، تحبيه لدرجة أنك عندما أردت تركى لم تستطعى، لأنه بالرغم من أية مشاعر تشعرين بها تجاهى، فإننى الولد الذى يعطى الحب. بدأ يغلى ثانية:

- «لقد حلمت أننى قتلت الفرخة التى تبيض ذهاباً،

أغلقت فيرجينيا أذنيها بيديها فى محاولة لغلق صوته - صوت الحقيقة البشع. طبعاً كان هذا حقيقياً. حتى بعد موت بيت، وحتى بعد أن وعدت السيدة العذراء أنها لن تجعل هذا يحدث ثانية أبداً أبداً، فقد حدث ثانية.

استمر الدكتور أوبيسبو فى ارتجاله الغنائى:

- «وهكذا أضعت التبرير لإظهار سيقانى،

ضغطت فيرجينيا أكثر على أذنيها.

لقد حدث ثانية حتى بالرغم من أنها قالت لا، وحتى عندما ثارت عليه وقاومته، وخدشته بأظافرها، ولكنه ضحك فقط واستمر، ثم فجأة تعبت من مقاومته. تعبت وأصبحت أكثر بؤساً. كان له ما أراد، والشئ الفظيع حقاً أنه بدا لها أيضاً أن هذا ما أرادته هى كذلك - أو بالأحرى، ما أراده بؤسها، لأن البؤس كان يذهب لفترة، وتستطيع آنذاك أن تنسى الدماء، وتستطيع أن تنام. ولكن فى الصباح التالى تكره وتحقر نفسها أكثر من ذى قبل.

استمر الدكتور أوبيسبو فى الغناء:

- «عندى كهوف وشموع وأشياء كثيرة،

ثم بدأ يتحدث:

- «هذا بالإضافة إلى الأصنام، والآثار، والصلوات الهندوسية وعجلات الصلاة، والهرام، وجبة الكهنة، ولكني أيضا حلمت - وهذا ما أسعدني كثيرا - أو بالأحرى قليلا حتى يكون السجع مع كثيرا.

فتح فمه وأعطى أعلى نبرات صوته وغناها قائلا:

- «إنك تحبيني مثل الأول، أنك تحبى ... بى.. بى... نلى...»

صاحت فيرجينيا بأعلى صوتها:

- توقف!

انفض العم جو قائلا:

- ماذا حدث؟

قال الدكتور أوبيسبو:

- إنها تعترض على غنائي. لا أعلم لماذا. لدى صوت ساحر، وهو مناسب جدا

بشكل خاص مع مسرح صغير مثل هذه السيارة.

ضحك ملء قلبه في سعادة. إن حركات البيبي المتأرجحة ما بين بيريابس^(٣)

والكهف المقدس تعطيه متعة حقيقية. هذا بالإضافة إلى الجو الجميل، والورد في المزارع، وكونه سيعرف شيئا حاسما حول الستيرول وكبر السن. كل هذا أعطاه فورة من السعادة.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف عندما وصلوا إلى مأربهم. لم

يجدوا بوابة في المكان فاضطر الدكتور أوبيسبو أن ينزل ويفتح البوابة بنفسه.

في الداخل، كان ممر السيارات مملوءا بالحشائش النامية، وقد سقطت الحديقة

٣- بيريابس: إله الخصوبة اليوناني ويقال إنه ابن أفروديت وديونيسوس.

فى قوصى الطبيعة غير المعدلة . بقيت الأشجار الميتة ملقاة حيث سقطت من جراء عواصف مضت، بينما جذع الأشجار الحية منها كانت مملوءة بالطفيليات الكبيرة التى تشبه الكعك إلشاحب، وقد تحول الزرع الزينة إلى غابات لا يمكن اختراقها بسبب العليق . شرفات المراقبة الإغريقية كانت معلقة فوق الطريق فى حطام . عبروا الدوران فظهر البيت، وكان يعقوبيا من ناحية، ومزينا غوطيا من القرن التاسع عشر من الناحية الأخرى . السياج المصنوع من شجيرات الطقوس ارتفع ليصبح حوائط عالية من الزرع الأشعث، وفى مكان أحواض الأزهار، ظهرت دوائر من اللون الأخضر الداكن من الحميض، ومستطيلات من بذور الأشواك والأنجرة، بينما فوق حشائش الحديقة الطويلة العشبية، غير المرعية، برزت قمم خطافات لعبة الكروكيه الصدئة .

أوقف الدكتور أوبيسبو السيارة أمام السلم الأمامى ونزل منها . اندفعت فجأة فتاة لا يزيد عمرها عن الثمانى أو التسع سنوات، خارجة من نفق الأشواك والأنجرة . عندما لمحت السيارة وركابها، توقفت، وبدأت تتراجع، ولكن بعد نظرة أخرى طمأننتها، تقدمت للأمام، ثم قالت بلغة إنجليزية جنوبية:

— انظر ما لدى .

مدت يدها وكانت ممسكة بقناع غاز مقلوب، مملوء بالورود .

ضحك الدكتور أوبيسبو بسعادة بالغة وقال:

— الشرطة ! لقد جمعتها من الشرطة !

ربت على شعر الفتاة الكتانى، وقال:

— ما اسمك ؟

أجابت الفتاة:

- ميللى .
- ثم ببيرة تفاخر فى صوتها أكملت قائلة:
- لم أذهب إلى مكان منذ خمسة أيام .
- خمسة أيام ؟
- هزت ميللى رأسها بالإيجاب وقالت:
- تقول جدتى إنها ستأخذنى للطبيب .
- هزت رأسها ثانية، ونظرت إليه كمن أعلن توا أنه سيذهب فى رحلة إلى بالى .
- قال الدكتور أوبيسبو:
- أعتقد أن جدتك على حق تماماً . هل تعيش جدتك هنا ؟
- هزت الطفلة رأسها بالإيجاب وقالت:
- إنها فى المطبخ .
- ثم أضافت دون داع:
- إنها صماء .
- قال الدكتور أوبيسبو :
- وماذا عن الليدى جين هوبيرك ؟ هل تعيش هنا ؟ والثانية - الليدى آن ، أليس هذا اسمها ؟
- هزت الطفلة رأسها بالإيجاب، ثم بتعبير شقاوة وخبث على وجهها قالت:
- هل تعرف ماذا تفعل الليدى آن ؟
- ماذا تفعل ؟
- أشارت ميللى له كى يقترب منها حتى تضع فمها بجانب أذنه، وقالت هامسة:
- إنها تصدر أصواتاً من بطنها .

- هل هذا معقول؟

قالت الطفلة بشاعرية:

- مثل غناء العصافير. تفعل ذلك بعد الغداء.

ربت الدكتور أوبيسبو ثانية على شعرها الكتانى وقال:

- نريد أن نرى الليدى آن والليدى چين.

قالت الفتاة بنبرة تكاد تكون فزعا وقالت:

- تراهما؟

- هل تستطيعين أن تدخلى ونطلبى من جدتك أن تدخلنا؟

هزت ميللى رأسها بالنفى وقالت:

- لن تفعل ذلك. جدتى لن تدخل أحدا. بعض الناس جاءوا لمثل هذه الأشياء.

(رفعت قناع الغاز) وغصبت الليدى چين حتى أننى خفت منها. ولكنها كسرت أحد

المصابيح بعصاها - أتعرف دون أن تقصد - طاخا وتفتت الزجاج إلى قطع

صغيرة على الأرض، وقد أضحكى هذا.

قال الدكتور أوبيسبو:

- هذا حسن جدا لك. لماذا لا نجعلك تضحكين ثانية؟

نظرت إليه الطفلة بتشكك وقالت:

- ماذا تقصد؟

تظاهر الدكتور أوبيسبو بتعبير تأمرى، وخفض صوته وقال هامسا:

- أعنى يمكنك أن تدخلينا عن طريق باب جانبى، ونسير نحن على أطراف

أصابعنا هكذا...

سار عبر الطريق على أطراف أصابعه ليربها كيف وقال:

- ثم نظهر فجأة فى الغرفة التى تجلسان فيها ونفاجئهما . وربما آنذاك تكسر
الليدى چين مصباحاً آخر، فنضحك ونضحك ونضحك . ما رأيك فى هذا ؟

قالت الطفلة فى تشكك:

- سوف تغضب جدتى كثيراً .

- لن نقول لها إنك فعلت ذلك .

- سوف تكتشف ذلك .

قال الدكتور أوييسو بثقة:

- لا لن تفعل .

ثم غير نبرة صوته وقال:

- هل تحبين الحلويات ؟

نظرت الطفلة إليه بلا تعبير .

قال محاولاً إغراءها:

- الحلويات الجميلة ؟

ثم تذكر فجأة أنه فى هذه البلد الملعون لا يسمون الحلويات بالحلويات . ماذا

يسمونها بحق الجحيم ؟ ثم تذكر:

- حلوى جميلة !

اندفع إلى السيارة وعاد حاملاً معه صندوق الشكولاته غالى الثمن الذى اشتروه

لكى تأكل منه فيرجينيا عندما تشعر بالجوع فى الطريق . فتح الغطاء وجعل الطفلة

تشمه مرة واحدة ، ثم أغلقه ثانية وقال:

- دعينا ندخل ويمكنك أخذها كلها .

بعد خمس دقائق كانوا يشقون طريقهم عبر النافذة الفرنسية الغوطية فى الناحية

التي تمثل القرن التاسع عشر من المنزل. في الداخل كان الشفق برائحة التراب والعفن الجاف وكرات العثة. استطاعوا بعد أن اعتادت عيونهم الظلام تدريجياً أن يروا مائدة بلياردو مكسوة بالقماش، ورف مدخنة عليها ساعة مطلية بماء الذهب، وأرفف مكتبة عليها روايات ويفرلى^(٤) بغطائها الجلدي باللون الأحمر الداكن، والطبعة الثامنة للموسوعة البريطانية، وصورة كبيرة تعبر عن حفل ترميم الملك إدوارد السابع، ورؤوس خمس أو ست من الإيل. وفوق الحائط بجانب الباب كانت خريطة كريمة عميقة، وعليها أعلام من الدبابيس الصغيرة تشير إلى أماكن سيفاستوبول وألمانيا.

قادت ميلى الطريق وهي لا تزال تحمل قناع الغاز المملوء بالورود في يد، بينما إصبع يدها الأخرى موضوع فوق شفيتها، وكانت تسير على أطراف أصابعها عبر الممر وعبر حجرة الاستقبال المظلمة، ثم عبر بهو وممر آخر. فجأة توقفت وانتظرت الدكتور أوبيسبو حتى وصل إليها وأشارت بيدها.

قالت هامسة:

- هذه هي الحجرة.

دون كلمة، أعطاهما الدكتور أوبيسبو علبة الشيكولاته، فاخترتتها الطفلة مثل الحيوان الذى اختطف شيئاً ما، وجرت أمام فيرجينيا ومستر ستريت، وعبر الممر المظلم لتستمع بجائزتها في أمان. نظر إليها الدكتور أوبيسبو حتى اختفت ثم استدأر إلى زملائه. تشاوروا في همس ثم فى النهاية اتفقوا على أن يدخل الدكتور أوبيسبو بمفرده.

٤- ويفرلى: الرواية الأولى من كتابات سير والتر سكوت الكاتب البريطانى ونشرت عام ١٨١٤.

تقدم للأمام وفتح الباب في هدوء ودخل، ثم أغلقه خلفه .
 في الخارج، في الممر، انتظرت البيبي والعم جو فترة بدت لهما وكأنها
 ساعات، ثم فجأة تصاعدت أصوات مرتبكة وضوضاء انتهت بأن خرج الدكتور
 أوبيسبو فجأة، وصفع الباب بشدة ووضع مفتاحاً فيه وأغلقه .
 بعد ثوان كان المقبض من الداخل يهتز بشدة وعنف وصرخ صوت عجوز وحاد:
 - كيف تجرؤ؟

ثم بدأ قرع على الباب بعضاً أبنوسية وصرخ الصوت:
 - أعطنى هذه المفاتيح. أعطها لى فوراً .
 وضع الدكتور أوبيسبو المفتاح في جيبه وعبر الممر بوجه يملؤه الرضا وقال:
 - إنهما أقبح عجوزين رأيتهما في حياتى. واحدة على كل جانب من المدفأة
 مثل الملكة فيكتوريا والملكة فيكتوريا .
 صوت آخر انضم للأول، وتضاعف القرع وجذب المقبض .
 صاح الدكتور أوبيسبو بنهم:
 - اخبطا كما شئتما .

ثم دفع مستر ستريت بيد، وأعطى البيبي خبطة معتادة على مؤخرتها باليد
 الأخرى وقال:

- هيا بنا . هيا .

قال مستر ستريت بصوت يبدو فيه الضيق والارتباك:

- هيا إلى أين؟

لم يستطع معرفة سبب مقنع لهذه الرحلة اللعينة عبر الأطنطى - إلا بالطبع
 أنها فرصة لابتعاده عن القصر. نعم، كان لابد أن يبتعدوا عن القصر. لا شك في

ذلك. بل فى الواقع إن السؤال الوحيد الآن هو هل سيتمكنوا من العودة ثانية إليه أم لا بعد ما حدث - أو إن كانوا سيفقدون على الاستحمام فى حمام السباحة ذاك أم لا مثلاً! يا للمسيح! عندما يفكر فى هذا...

ولكن لماذا الذهاب إلى إنجلترا؟ فى مثل هذا الفصل من العام؟ لماذا ليست فلوريدا أو هاواي؟ ولكن لا، لقد أصر الدكتور أوييسبو على إنجلترا، وكله بسبب عمله، فقد يجد شيئاً مهماً يكتشفه هناك. على أية حال، لا يستطيع أن يقول لا لأوييسبو - ليس الآن، وليس بعد. ثم أنه لا يستطيع أن يعيش بدون الرجل. أعصابه، وجهازه الهضمي - كلها أشلاء. ثم أنه لا يستطيع أن ينام بدون المخدر، ولا يمكن أن يمر بجانب شرطى فى الشارع دون أن يفقد قلبه دقة أو اثنتين. ويمكنك أن تقول إن الله محبة، ولا يوجد موت حتى يزرق وجهك، ولكن لا يوجد فرق. كان عجوزاً ومريضاً، وكان الموت يقترب أكثر فأكثر، ولو لم يفعل أوييسبو شيئاً سريعاً، لو لم يكتشف شيئاً قريباً...

فى العمر المظلم توقف مستر ستويت فجأة وقال بقلق بينما تفرع السيدتان باب سجدتهما بعصاهما الأبوسية:

- أوييسبو هل أنت متأكد تماماً أنه لا يوجد شيء اسمه جهنم؟ هل تستطيع إثباتها؟

ضحك الدكتور أوييسبو وقال:

- هل تستطيع إثبات أن الجانب الآخر من القمر لا يسكنه أفيال خضراء؟

قال مستر ستويت فى لوعة:

- لا ولكن حقا...

قال الدكتور أوييسبو بمرح:

- حقا، لا يمكن أن أثبت شيئا حول أى شيء لا يمكن إثباته .
لقد تناقش هو ومستتر ستويت فى هذا من قبل . كان هناك شيء كوميدى جدا
فى منطق الرجل العجوز وذعره غير المنطقى .
استمعت البيبى فى صمت . هى كانت تعرف عن الجحيم . تعرف ماذا يمكن أن
يحدث لو ارتكبت خطايا مميتة - خطايا مثل أن تجعل هذا يحدث ثانية حتى بعد
أن وعدت السيدة العذراء أنها لن تحدث . ولكن السيدة العذراء كانت طيبة ورائعة .
ثم فى النهاية كان كل شيء فى الواقع ذنب هذا المتوحش سيح . كانت نواياها نقية
جدا، ثم جاء سيح وجعلها لا تلتزم بوعودها . سوف تفهم ذلك السيدة العذراء . الشيء
القطيع أنه حدث ثانية، عندما أجبرها على ذلك . ولكن حتى آنذاك لم يكن حقيقة
ذنبها - لأنها بعد كل شيء، كانت قد مرت فى هذه التجربة البشعة، فلم تشعر أنها
بحالة جيدة، وكانت ...

بدأ مستر ستويت ثانية:

- ولكن هل تعتقد أن جهنم شيء ممكن؟

قال الدكتور أوبيسبو بمرح:

- كل شيء ممكن .

أدار أذنه ليسمع ما تقوله العجوزان الشمطاوان خلف الباب .

- هل تعتقد أن هناك نسبة واحد فى الألف أنه حقيقى؟ أو واحد فى المليون؟

ضحك الدكتور أوبيسبو وهز أكتافه وقال:

- أسأل باسكال .

سأل مستر ستويت وهو يمسك بياس فى أية قشة وكل قشة :

- من هو باسكال؟

قال الدكتور أوبيسيو صائحا بسعادة:

- إنه ميت. ميت مثل مسمار في الباب. والآن هيا بحق الإله!

جذب العم جوم من ذراعه وجزه عبر الردهة.

مرت أصداء الكلمة داخل مخيلة مستر ستويت وقال معترضا:

- ولكنى أريد أن أتأكد.

- نتأكد مما لا يمكن أن تعرف.

- لا بد أن هناك طريقة ما.

- لا توجد. لا طريق سوى الموت ورؤية ماذا يحدث آنذاك. أين تلك الطفلة

بحق الجحيم؟

ثم في صوت آخر نادى وقال:

- ميللى!

خرجت الطفلة من وراء حامل الشماسى بوجه ملطخ بالشيكولاته. سألت بغم

مملوء:

- هل رأيتهما؟

هز الدكتور أوبيسيو رأسه بالإيجاب وقال:

- ظلنا أننى من المحذرين ضد الغارات الجوية.

قالت الطفلة فى حماس:

- هذا هو. هذا ما جعلها تحطم المصباح.

قال الدكتور أوبيسيو بلهجة أمرة:

- تعالى هنا يا ميللى. أين باب القبو؟

مرت سحابة خوف على وجه ميللى وأجابت:

- إنه مغلق .
- هز الدكتور أوبيسبو رأسه وقال :
- أعلم ذلك . ولكن اللیدی چین أعطتلى المفاتيح .
- أخرج من جيبه حلقة معلق فيها ثلاثة مفاتيح كبيرة .
- قالت الطفلة هامسة :
- يوجد عفريت هناك فى الأسفل .
- نحن لا نقلق من العفاريت .
- قالت ميللى :
- جدتى تقول إنهم بشعون . تقول إنهم مزمنون .
- ثم بصوت حبيب قالت :
- جدتى تقول إننى إذا لم أذهب لمكان ما بشكل منتظم فسوف يأتى العفريت ررائى . ولكنى لا أستطيع أن أمنع ذلك .
- بدأت الدموع تنهمر :
- ليس ذنبى .
- قال الدكتور أوبيسبو وقد نفذ صبره :
- بالطبع ليس ذنبك . ولا ذنب أى أحد . حتى الإمساك . ولكن الآن أريدك أن ترينا باب القبر .
- هزت ميللى رأسها بالنفى وهى لا تزال تبكى وقالت :
- إننى خائفة .
- ولكنك لن تضطرى للنزول إلى البهو . فقط أرينا مكان الباب .
- لا أريد ذلك .

قال الدكتور أوبيسبو:

- ألن تكوني فتاة لطيفة وتأخذينا للباب؟

هزت ميللى رأسها بالنفى فى خوف عنيد.

اندفعت يد الدكتور أوبيسبو وجذبت صندوق الشيكولاته من يد الطفلة وقال:

- لن أعطيك الحلويات.

ثم أضاف بضيق:

- أقصد الحلوى.

صرخت ميللى فى لوعة وحاولت استرداد الصندوق، ولكنه أمسكه عاليا بعيدا عنها وقال:

- فقط عندما نريدنا باب القبر.

وحتى يُظهر لها أنه جاد، فتح الصندوق وأخذ مجموعة من الشيكولاته وأخذ يضعها الواحد تلو الآخر فى فمه، وقال وهو يمضغها:

- أليست لذيذة! كم هى رائعة! أتعلمين، إننى سعيد أنك لن نرينا الباب حتى أستطيع أن أكلها كلها.

أخذ قصصة أخرى وأظهر سعادة بالغة وقال:

- آه كم هى جميلة! جميلة!

تلمّظ بشفتيه وقال:

- مسكينة ميللى! لن تحصل على أى منها.

أخذ البعض منها ثانية، وفى كل مرة كانت ترى الشيكولاته البنية الجميلة تختفى بين فكى الدكتور أوبيسبو كانت الطفلة تصرخ راجية:

- لا، أرجوك لا.

ثم جاءت لحظة أصبح فيها الجشع أقوى من الخوف فصاحت مثل الضحية التى أذعننت للتعذيب فوعدت أن تعترف:

— سوف أريك أين هو.

كأن التأثير مثل السحر. وضع الدكتور أوبيسبو الثلاث قطع التى كان ممسكا بها فى مكانها، وأغلق الصندوق. مد يده للطفلة وقال:

— هيا بنا.

قالت:

— أعطينى الصندوق.

هز الدكتور أوبيسبو رأسه بعدم الموافقة لأنه كان يفهم مبادئ الدبلوماسية، وقال:

— ليس قبل أن تأخذينا للباب.

ترددت ميللى لحظة، ثم خضعت لضرورة أن تبقى على جانبها هى من الاتفاق، وأخذت يده.

سارا خارج البهو، يتبعهما العم جو وفيرجينيا، وعادا لغرفة الاستقبال، عبر الممر، ومروا بخريطة الكريما، ثم عبر حجرة البلياردو، ثم ردهة أخرى إلى مكتبة كبيرة. كانت الستائر الحمراء القطيفة مغلقة، ولكن تسرب منها بعض الضوء. حول الغرفة كلها، كانت هناك طبقات كثيرة من الكتب الكلاسيكية المغلفة باللون البنى والأزرق والأحمر الداكن، وكانت صاعدة إلى ارتفاع يصل إلى ثلاثة أقدام قبل السقف، وبين الحين والآخر، وبشكل منتظم، عبر الكرنيش الخشبي المصنوع من شجر المغنة كانت تقف تماثيل الموتى المبجلين النصفية. أشارت ميللى إلى دانتي وهمست بثقة كبيرة:

- هذه هي الليدى جين .

صاح متسر ستويت فجأة:

- بحق المسيح! ما الفكرة من كل هذا؟ ماذا نظنوننا فاعلين بحق الجحيم؟

تجاهله الدكتور أوبيسبو وسأل:

- أين الباب؟

أشارت الطفلة . بدأ يصيح فى غضب:

- ماذا تعنين؟

ثم رأى أن ما كان يظنه مجرد جزء آخر من الأرفف المملوءة بالكتب، كان فى الواقع مجرد وجهة أمامية زائفة من الأخشاب والجلود، تشبه الثلاثة والثلاثين مجلدا للمواعظ المجموعة لمطران ستيلنجفليت^(٥)، ثم - وهنا لاحظ لمسات الإبريل الخامس - وجد كذلك الأعمال الكاملة فى سبع وسبعين مجلدا، لدونايتين ألفونس فرانسوا، الماركيز دى ساد. وبتدقيق أكثر، رأى ثقب المفتاح.

قالت الطفلة:

- أعطنى الحلوى.

لكن الدكتور أوبيسبو لم يأخذ أية مخاطرات فقال:

- ليس قبل أن نتأكد أن المفتاح يدخل فى الثقب.

حاول مرة ولكنه نجح فقط فى المرة الثانية.

قال لميللى وهو يعطيها الشيكولاته وفى ذات الوقت يفتح الباب:

- ها هي.

صرخت الطفلة فى زعر واندفعت تجرى بعيدا.

٥- ستيلنجفليت: نسبة إلى إدوارد ستيلنجفليت (١٦٣٥-١٦٩٩) واعظ وكاتب بريطانى.

قال مستر ستويت بعدم ارتياح:

— ما الفكرة؟

أجاب الدكتور أوبيسبو:

— الفكرة هي أنك ربما لن تحتاج لمعرفة إن كان يوجد مكان مثل الجحيم أم لا، على الأقل لفترة، وربما لفترة طويلة.

نظر إلى أسفل السلالم التي هبطت بضع أقدام في الظلام الدامس ثم قال:

— آه، حمدا لله! سوف نرى بعض الضوء.

بجانب الباب من الداخل مباشرة وجد مصباحين قديمين. رفع الدكتور أوبيسبو واحداً منهما ورجه، ثم رفعه إلى أنفه. كان به بعض الزيت. أشعل الاثنين وأعطى واحداً لمستر ستويت، وأخذ الثاني، ثم تقدمهما ليقود الطريق بحذر، نازلين السلم. كان النزول طويلاً، وفي نهايته وصلوا إلى غرفة مستديرة منحوتة في الصخور الصفراء، بها أربعة أبواب، اختاروا منها واحداً وساروا عبر ممر ضيق إلى حجرة أخرى بها بابان آخران. وجدوا زقاقاً مغلقاً ثم سلالم أخرى مؤدية إلى كهف مملوء بالقمامة العتيقة. لم يجدوا شيئاً آخر، فعادوا من حيث بدأوا إلى الغرفة المستديرة، وجربوا الباب الثاني. مجموعة من السلالم الأخرى نازلة ثم مجموعة متعاقبة من الحجرات الصغيرة. واحدة منها كانت مغطاة بالجبس، وعليها خريشة من الكتابة الفاحشة بخط يشير إلى أنه من بدايات القرن الثامن عشر. نزلوا سريعاً عبر سلم آخر قصير إلى حجرة مربعة كبيرة، بها مصعد مناجم يؤدي إلى ضوء بعيد أبيض عبر الصخور. وكان هذا كل شيء. عادوا مرة أخرى. بدأ مستر ستويت يسب ويلعن، ولكن الدكتور كان مصراً على الاستمرار. جربوا الباب الثالث، فوجدوا ممراً وثلاث حجرات. بعد فتحيتين من الأخيرة كانت غرفة منها تحوى حائطاً حجرياً

عالياً، بينما الثانية مؤدية إلى ممر على مستوى أدنى. هبطوا ثلاثين أو أربعين قدماً فوجدوا فتحة على الناحية اليسرى. أدار الدكتور أوبيسبو مصباحه تجاهها، فأظهر الضوء تجويفاً بالحائط، وفي نهايته، على قاعدة تمثال مزخرفة، وقف تمثال مقلد من الرخام لفينوس ميديتشي^(٦).

قال مستر ستويت:

– اللعنة!

ثم أصيب بنوع من الذعر فجأة، وقال وهو يجرى ليلحق بالدكتور:

– أوبيسبو، كيف جاءت إلى هنا بحق الجحيم؟

لم يجبه الدكتور أوبيسبو وتقدم للأمام بنقاد صبر. قال مستر ستويت مهرولاً

وراء الدكتور:

– إنه جنون. محض جنون. أقول لك هذا لا يعجبني.

قطع الدكتور أوبيسبو صمته وقال بابتسامة ذئبية مرحة:

– ربما نرى إن كنا نأخذها لك من أجل بانثيون بيفرلى.

ثم أضاف:

– أهلاً! ما هذا؟

خرجوا من النفق ووصلوا إلى غرفة متوسطة الحجم. في منتصف الغرفة وجدوا

طبلية حجرية مستديرة، وعلى جانبيها عامودان حديديان، وشيء ما معلق فوقها

وعليه طنبور.

قال الدكتور أوبيسبو متذكراً:

– البئر!

٦- ميديتشي: عائلة حكمت فلورنسا من ١٤٣٤ وكانت مشهورة باهتمامها بالفنون والآداب.

جرى نحو النفق على الناحية الأخرى من الغرفة. على بعد عشرة أقدام من المدخل أعاق تقدمه باب من الأرو الثقيل مملوء بالمسامير. أخرج الدكتور أوبيسبو مفاتيحه واختار واحداً منها بشكل عشوائي، فانفتح الباب بعد المحاولة الأولى، فوجدوا أنفسهم على عتبة باب آخر على الحائط المقابل، فساروا مباشرة نحوه.

قال مستر ستويت في دهشة، وهو يمر بمصباحه على صفوف العلب والبرطمانات الموجودة على أرفف الدولاب الكبير الذى يشغل تقريباً كل جانب من الغرفة:

- معلبات من اللحم البقرى، والجمبرى، والأناناس المقطع، وفول بوسطن المطبوخ.

قرأ كل هذا ثم استدار إلى الدكتور أوبيسبو وقال:

- أقول لك يا أوبيسبو. أنا لا أحب هذا.

أخرجت البيبي منديلا غارقاً فى عطر الصدمة وأمسكته تحت أنفها، وقالت من خلال المنديل وهى ترتجف من القرف:

- الرائحة! الرائحة!

فى تلك الأثناء، كان الدكتور أوبيسبو يجرب مفاتيحه على قفل باب آخر. أخيراً انفتح. دخل فوراً تيار هواء دافئ، وامتألت الغرفة الصغيرة برائحة نفاذة غير محتملة. قال مستر ستويت:

- يا للمسيح!

وخلف منديلها صرخت البيبي فى زعر واشمئزاز.

لوى الدكتور أوبيسبو وجهه ثم دخل فى تيار الهواء ذى الرائحة الكريهة. فى نهاية ممر قصير وجد باباً ثالثاً، عليه سياج من حديد، مما جعل الدكتور أوبيسبو

يفكر أنه يشبه باب سجن غرفة المحكوم عليهم بالإعدام. أومض بمصباحه بين السياج نحو الظلام الجليلي في الداخل.

من الغرفة الصغيرة، سمع مستر ستويت والبيبي فجأة تعبير دهشة، ثم بعد لحظات صمت انفجار عفيف من ضحكات الدكتور أوييسبو الوحشية المتصلة. نوبات من الضحك وراء نوبات أخرى لم يستطع التحكم فيها، وعاد لهم الصوت مدويا في المكان الضيق. ارتج الهواء الساخن ذو الرائحة الكريهة من الضحك الجنوني الذي كاد يصمهم.

دخل مستر ستويت تتبعه فيرجينيا عبر الباب المفتوح إلى النفق الضيق. بدأ ضحك الدكتور أوييسبو يثير أعصابه فصاح بغضب:

- ماذا بحق الجحيم...؟

ثم قطع جملته وهمس:

- ما هذا؟

بدأ الدكتور أوييسبو يقول قرد جيني، ولكن انفجاراً ضاحكاً آخر قطعه، وجعله يلحن وكأنه أخذ لكمة في بطنه.

بدأت البيبي تتكلم من وراء منديلها:

- السيدة العذراء المقدسة!

خلف الأسبجة من وسط الظلام، أظهر ضوء المصباح عالماً ضيقاً من الأشكال والألوان. على حافة سرير منخفض، في منتصف هذا العالم، كان يجلس رجل، يحرق وكأنه مشدود إلى الضوء. أرجله مغطاة بشعر كثيف أحمر، وكانت بلا ملابس. قميصه، والذي هو ملبسه الوحيد، كان مقطوعاً ومتسخاً. وعليه شريط حريري عريض مربوط عبر صدره الضخم، ومما لا شك فيه أنه كان في يوم

من الأيام أزرق اللون. وكان حبل يتدلى من عنقه عليه صورة القديس مار جرجس مع التنين مصنوعاً من الذهب والمعدن. كان جالسا كالأحدب، برأسه للأمام وفي ذات الوقت غارقة وسط كتفيه. بيد كبيرة وغليلة بشكل غريب كان يחדش مكانا متقرحاً بدا لونه أحمر وسط شعر بطنى قدمه اليسرى.

أخيراً استطاع الدكتور أوبيسبو أن يتكلم فقال:

– قرد جنينى وكبر بعض الشيء. إنه رائع.

أخذ يضحك ثانية وأكمل:

– فقط انظر إلى وجهه!

أشار عبر السياج وهو يشهق. فوق الشعر الخشن الذى أخفى الفكين والوجنتين، حملت فيهم العينان الزرقاوان من تجويفهما الكهفى. كانا بلا حاجبين، ولكن تحت الجلد القذر المجعد برزت عظمة فى الجبهة إلى الأمام مثل رف كبير.

فجأة، من الظلام الدامس، خرج وجه قرد آخر فى ضوء المصباح – وجه ذو شعر أقل، حتى لا يمكن أن ترى فقط النتوء فوق الجبهة، بل والتشوه الغريب فى الفك السفلى، وتراكيمات من العظام أمام الأذن. انضم جسد إلى هذا الوجه فى الضوء، مرتدياً معطفاً قديماً من قماش المربعات، وبعض الخرز الزجاجى.

قالت فيرجينيا بنوع من الغثيان والاشمزاز المرعب الذى أصابها عندما رأت هذه الحلمات البندولية الذابلة:

– إنها امرأة.

انفجر الدكتور فى ضحكات أكثر مرحاً.

جذبه مستر ستويت من أكتافه وهزه بعنف وسأل:

– من هما؟

مسح الدكتور أوبيسبو عينيه وشد نفسا عميفا حتى هدأت عاصفة الضحك إلى تنفس هادىء. بينما هو يفتح فمه ليحجب على سؤال مستر ستويت ، انقض الكائن ذو القميص فوق ذات المعطف وضربها على رأسها. كف اليد الكبير لطم جانب وجهها. صرخت ذات المعطف فى ألم وثورة غضب، وانسحبت إلى الخلف فى الظلام. من وسط الظلال جاء صياح عالٍ وأرعن بدا وكأنه يرتجف على شفا تجديف صريح.

قال الدكتور أوبيسبو رافعا صوته فوق الجلبة:

- الذى يرتدى وشاح ربطة الساق، هو إيرل جونيستر الخامس. الثانية هى مديرة منزله.

- ماذا حدث لهما؟

قال الدكتور أوبيسبو بخفة:

- مجرد الوقت.

- الوقت؟

قال الدكتور أوبيسبو:

- لا أعلم عمر الأنثى. أما الإيرل، فدعنى أرى - كان مائتى عام وواحد فى يناير الماضى.

وسط الظلال استمر الصوت فى الصراخ واللعنات غير الواضحة. وظل الإيرل الخامس يחדش الجرح على قدمه ويخلق فى الضوء.

أكمل الدكتور أوبيسبو كلامه. إنه إبطاء لمعدلات الشيخوخة... إحدى آليات التطور والنشوء... كلما كبر القرد شبيه الإنسان فى السن، أصبح أكثر غباء... العجىز، تسمم الستيرول... طفيليات أمعاء الشبوط... الإيرل الخامس الذى توقع

اكتشافه... لا تسمح للسنيروول، ولا عجز... لا موت، ربما فقط عن طريق
حادثة... ولكن فى تلك الأثناء استطاع القرد الجنينى أن ينضج... إنها أفضل نكتة
عرفها.

بدون أن يتحرك من مكانه، تبول الإيرل الخامس على الأرض. صعد كلام
بصوت أعلى من الظلام. استدار ناحيته وصرخ ببعض الوقاحات المشوهة التى
كادت أن تمحى فى طيات النسيان.
كان الدكتور أوبيسبو يقول:

- لا داعى لأية تجارب أخرى. نعرف أنها تعمل. يمكنك أن تأخذ هذا الشيء
فوراً.

قالها بتهكم وسخرية. لم يجبه مستر ستويت.

من الناحية الأخرى من السياج، قام الإيرل الخامس واقفاً، تمدد، وثأب، ثم
استدار وأخذ يضع خطوات نحو الحدود بين الظلام والضوء. أصبح كلام مديرة
منزله أكثر سرعة وأكثر هياجاً. وكأنه لا يلاحظ ذلك، توقف الإيرل، ربت على
الوشاح العريض بكف يده، ولمس الجوهرة المعلقة فوق رقبتة، مصدراً صوتاً يشبه
الدندنة فى ذاكرة القرد لموسيقى دون جيوفانى. الكائن ذات المعطف نشجت
بترقب، بدا وكأن صوتها يتراجع أكثر فى الظلام. فجأة، وبصراخ وحشى، انقض
الإيرل الخامس للأمام، خارجاً من عالم ضوء المصباح الضيق إلى الظلام فى
الداخل. كان هناك وقع أقدام، وعواء متعاقب، ثم صرخة وصوت صفعات وصراخ
أكثر، ثم توقف الصراخ، وسمعوا فقط صوت زمجرة وشخير فى الظلام، وظل
يضعف.

قطع مستر ستويت الصمت وقال:

- فيما تعتقد كم من الوقت سيمر قبل أن يصبح الإنسان هكذا؟

ثم بتردد استمر وقال:

- أعنى، لن يحدث هذا فجأة... سوف يمر وقت طويل قبل أن... أنت تعلم...

أنت تعلم، حيث لن يتغير الإنسان قط. وبعد التغلب على الصدمة الأولى - أعنى

يبدو أنهم يستمتعون بوقتهم. أعنى، بطريقتهم الخاصة بالطبع. ألا تعتقد ذلك يا

أوبيسبو؟

ظل الدكتور أوبيسبو ينظر إليه فى صمت، ثم فجأة دفع رأسه للوراء وعاد

يضحك من جديد.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٩٩٨ / ٥٦١٩

الترقيم الدولي (4 - 011 - 305 - 977 - I. S. B. N)

After Many a Summer

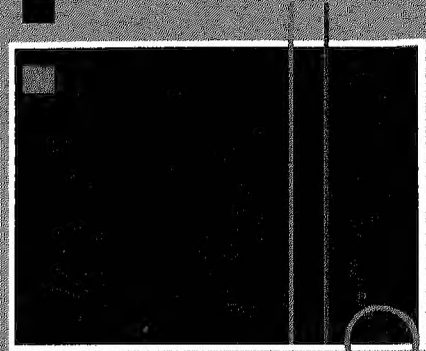
Aldous Huxley

A novel

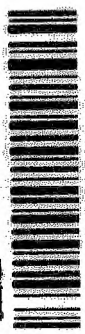


إن ما يميز ألدوس هكسلي في كتاباته هو أسلوبه الساخر ، والذي يعتبر أسلوباً جديداً ومختلفاً عن سبقه في الكتابة الساخرة . فهو يعتمد على التضاد والتوازي بشكل دائم ، وإن كانا ليسا فقط تضاد وتوازي الشخصيات ، بل أيضاً تضاد وتوازي في المشاهد والمواقف . من هنا نجد أن هكسلي بنى روايته على أساس فكرة إطالة الحياة وجدواها : إذ يسخر من هذه الفكرة ، فيرى أن الحياة - كما يحيها البشر اليوم - ما هي إلا مجرد إطالة للشر وإمكانية الشر . ولا يتوقف هكسلي عند عنوان الرواية ليعبر أنها ملهمة من القصص الخرافية ، بل يتخطى ذلك إلى الرواية الحجازية .

وبذلك كله يمكن القول إن قدم مرآة للمجتمع ، كما الساخرون في العادة ، مرآة مجتمعية ، بل كانت بالأساس ، كما أنه لـ «أنصاف الحقائق» ، بل الحقائق» المختلفة كما تم وهكذا يستطيع أن يصبر النظر ، وأن يسخر منها كما



Bibliotheca Alexandrina



0365368

